التصوير البياني

في

آيات الأمن والخوف

أصل هذا الكتاب أطروحة علمية بإشراف الدكتور/ عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر نالت بها الباحثة درجة الماجستير من كلية اللغة العربية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، والتوصية بالطباعة وذلك يوم الأربعاء ١٥/ ١١/ ١٤٢٥هـ

تأليف

زينب بنت عبد اللطيف بن كامل الكردي

غراس
للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

التصوير البياني

في

آيات الأمن والخوف

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

الطبعــة الأولى

١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م

ⓒ زينب عبد اللطيف الكردي، ١٤٢٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الكردي، زينب عبد اللطيف
التصوير البياني في آيات الأمن والخوف / زينب عبد اللطيف الكردي
- الرياض، ١٤٢٨هـ
٤٦٧ص، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٢-٤٤٩-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨
١- القرآن - بلاغة ٢- القرآن - إعجاز أ. العنوان
ديوي ٢٢٥ ٦٢٢٠/١٤٢٨
رقم الإيداع: ٦٢٢٠/١٤٢٨
ردمك: ٢-٤٤٩-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

الكويت - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية
هاتف: ٤٨١٩٠٣٧ فاكس ٤٨٣٨٤٩٥
الكويت - الخالدية: ص. ب: ١٧٠١٢ - الرمز البريدي: ٧٢٤٥١
Website: www. gheras. com
E-Mail: info@ gheras.com

المقدمة

الحمد للّه رب العالمين، منه العون وعليه التُّكلان، والصلاة والسلام على أكمل الناس منطقًا، وأفصحهم لسانًا، وأثبتهم جنانًا، نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أئمة القول وأساطين البيان.

أمّا بعد:

فإنَّ أنفع ما تفنى فيه الأعمار، وأولى ما تُصرَف إليه الهمم والأسمار، وتُعمَر به ساعات الليل والنهار، كتاب اللّه المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؛ فهو دستور الأمة، وينبوع الهدى والرشاد، وهو تاج العربية الأعلى ومثَل بيانها الأسمى. «بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كلِّ مقول، وتظافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتقارَن في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كلَّ البيان جوامعه وبدائعه. . . فسبحان من سلكه ينابيع في القلوب، وصرَّفه بأبدع معنًى وأغرب أسلوب! لا يستقصي معانيه فَهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق، فالسعيد من صرف همَّته إليه، ووقف فكره وعزمه عليه»[1].

وإنَّ من المقاصد التي عالجها القرآن وأفاض فيها الأمن والخوف. كم يشعر المرء بهزَّة عند الوقوف بين يدي آيات الخوف، فيحسّ بهيبة ألفاظها ومعانيها، وتتوق نفسه إلى الطُّمأنينة في الدنيا والأمن يوم الفزع الأكبر. كيف لا؛ وانتقاء ألفاظها وإبداع سبكها وروعة تصويرها لمعانيها بلغ غايات البلاغة والبيان! من هنا نشأت فكرة الموضوع (التصوير البيانيّ في آيات الأمن والخوف) رغبة في

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/ ٤ - ٥ .

الاقتراب أكثر من تلكم الآيات، وتلمُّس بلاغة التصوير فيها.

وقد دعاني إلى اختيار هذا الموضوع أمور منها:

- رغبتي في نيل شرف التدبُّر في آي الكتاب العزيز؛ علّي أسهم بجهد متواضع، في التنقيب عن مناجم عظمته وإعجازه بين حقيقته ومجازه، وفي دلالاته ونظمه وتصريف بيانه. قال الإمام البقاعيّ (ت٨٨٥هـ) - رحمه الله -: «فمن رضي بالاقتصار على حفظ حروفه كان كمن له لقحة درور لا يحلبها، ومُهرة نَتوج لا يستولدها»(١).

- قيمة علم البيان في البلاغة العربية وأثره في تنمية الذوق والإحساس بالجمال، وميلي إلى قراءة ما يتَّصل به من فنون التعبير.

- أنَّ التصوير سمة بارزة في البيان القرآنيِّ لم تأخذ حظَّها من العناية في الدراسات البلاغيَّة التطبيقيَّة.

- توجيه الأنظار إلى اتخاذ القرآن منهجًا في فهم ما تنطوي عليه الطبائع البشريَّة المختلفة في شتَّى جوانب الحياة، فإنَّ منزل القرآن هو خالق البشر، وهو أعلم بطبائعهم.

- الحاجة الماسَّة في زمن الغربة الإيمانيَّة والبعد عن المنهج الحقِّ إلى التأسِّي بنماذج إنسانيَّة فذَّة تتجدَّد فيها روح الإيمان ومشاعر الخشية من اللّه والخشوع أمام عظمته والإشفاق من عذابه، تستظلّ النفس بتيك المشاعر من هجير المعاصي وسَمومها، وتجلو بها صدأ الغفلة؛ لتأمن من الفزع الأكبر.

- الكشف عن بعض مناحي الإعجاز العلميِّ في سبر أغوار النفس الإنسانيَّة

---

(١) نظم الدرر: ٦/ ٣٨٢.

وتجلية مشاعرها وانفعالاتها، التي يحرص القرآن على ضبطها وتهذيبها في شتّى المواقف وفق المنهج الإسلاميِّ القويم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

- إبراز الأثر الكبير لأحوال الأمن والخوف على حياة الناس، ففي ظلِّ الأمن يرغد العيش وينبت الهناء، وهذا مطلب كلّ إنسان في الدنيا والآخرة، يمتاز فيه المؤمن عن غيره بالنظر البعيد نحو آفاقه الأخرويَّة الخالدة. والخوف ركيزة مهمَّة من ركائز العبوديَّة تنبني عليها علاقة المؤمن بربِّه. به مُدح المؤمنون في كثير من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦]، وذُمّ المنافقون والكفّار بغفلتهم التي جعلت أنواعًا من الرعب والخور تتسرَّب إلى نفوسهم المظلمة الخالية من نور الإيمان. وما أبدع ما قاله ابن القيِّم (ت٧٥١هـ) في منزلة الخوف من العبادة: «القلب في سيره إلى اللَّه عزّ وجلّ بمنزلة الطائر، فالمحبَّة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلِم الرأس والجناحان فالطائر جيِّد الطيران، ومتى قُطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقد الجناحان فهو عُرضة لكلِّ صائد وكاسر!»[(١)]. ولذلك كلِّه اخترتُ الأمن والخوف لأنهما معنيان متقابلان، وكما قيل: «وبضدِّها تتبيَّن الأشياء»[(٢)]. فبالمقابلة بينهما تبرُز بلاغة التصوير وطرق الأداء الفريدة في البيان القرآنيّ.

- جِدَّة موضوع الأمن والخوف وكونه لم يُفرد - على حدِّ علمي - بدراسة بلاغيَّة متخصِّصة.

---

(١) مدارج السالكين: ١/ ٤١٥.
(٢) عجز بيت للمتنبي من الكامل، صدره: ونَذِيمُهم وبهم عرفنا فضلَه. ديوان المتنبي: ١/ ١٤٩.

واقتضت طبيعة البحث أن ينتظم في تمهيد، تلته خمسة فصول وخاتمة.

* تكفَّل التمهيد بتجلية مفردات العنوان وفق مباحثَ ثلاثة:

- الأول: مفهوم التصوير البيانيّ.
- الثاني: مفهوم الأمن والخوف.
- الثالث: آيات الأمن والخوف (حصرها وتحديد مواقعها).

ثُمَّ توزَّعت الظواهر البلاغيَّة على خمسة الفصول:

* فتناول الفصل الأول التصوير بالحقيقة وحوى مبحثين:

- أولهما اللفظ المصوِّر.
- والآخر: الجملة المصوِّرة.

* وعن التصوير بالتشبيه كان الفصل الثاني، وقسم إلى مبحثين:

- الأول: التشبيه الحسّيّ.
- الثاني: التشبيه المعنويّ.

* أمّا التصوير بالمجاز فقد عني به الفصل الثالث، وجاء في مبحثين رئيسين:

- أولهما المجاز اللغويّ وضم الاستعارة والمجاز المرسَل.
- وكان المبحث الثاني عن المجاز العقليّ.

* وكشف الفصل الرابع عن التصوير بالكناية، مشتملاً على مباحث ثلاثة:

- أولها: الكناية عن الموصوف.
- الثاني: الكناية عن الصفة.

- الثالث: الكناية عن النسبة.

* أمَّا الفصل الخامس فهو ثمرة هذه الدراسة، وقد حفل بكنوز من الصور الفنية، وأبان عمَّا أفاض به الفتَّاح العليم من أسرار بلاغيّة لتصريف البيان في عرض صور الأمن والخوف بطرق الحقيقة والبيان، وناقش اتفاقها وتباينها وتغاير تعبيراتها، محتويًا على ثلاثة مباحث:

- أولها: تصريف الصور مع اتفاق المعنى.

- الثاني: تصريف الصور مع تقابل المعنى.

- الثالث: تصريف الصور بالتعبير بالماضي عن المستقبل وعكسه.

* وذُيِّلت الرسالة بعدئذ بخاتمة ضمَّت أبرز النتائج وأهمّ التوصيات.

* تلتها الفهارس الفنِّيَّة وثبت المصادر والمراجع. وكانت الفهارس على النحو التالي:

فهرس للآيات، وثانٍ للأحاديث، وثالث للشعر، وفهرسان للموضوعات أحدهما مفصَّل والآخر مجمل.

وكان منهجي في البحث ما يلي:

- جمع المادة من مرجعها الأوّل القرآن الكريم بحصر آيات الأمن والخوف حصرًا أوليًّا، ثُمَّ انتقاء أقربها دلالة على الموضوع.

- الرجوع إلى ما تيسَّر من كتب التفسير خاصَّة ذات النزعة البلاغيّة، وكتب الحديث النبويِّ الشريف وأسباب النزول وعلوم القرآن، والمعاجم بأنواعها من معاجم لغويَّة في المفردات والمعاني، إلى معاجم في موضوعات القرآن وتعبيراته وألفاظه وغريبه، وقليل من كتب النحو وإعراب القرآن لتحقيق المسائل التي

يحتاجها المعنى. وكتب المتشابه اللفظيّ، والإعجاز بأنواعه من لغويّ وبلاغيّ وعلميّ، بالإضافة إلى كتب البلاغة خاصّة علم البيان للوقوف على بعض التعريفات والمسائل البلاغيَّة والتحليلات، وتحرير ما قد يرد من أقوال حول الآيات موضع الدراسة، وهو قليل.

- استهللت كلّ فصل بتعريف بموضوعه وقيمته البلاغية، مع إبراز القضايا التي لا مناص من الوقوف عليها؛ لإضفاء الصِّبغة العلميَّة على التحليل، ضاربة صفحًا عن التقسيمات العديدة وتفريعاتها فهي موجودة في كتب المتأخِّرين، وتغني من أراد الرجوع إليها.

- حرصتُ على نقل كلام العلماء حسب تقدُّم أعصارهم، وتتبَّعت ما أمكن من آرائهم وعزوت الأقوال إلى قائليها، مع تدوين تواريخ الوفَيات عند ذكر العلم أوَّل مرة، وهذا - في نظري - أولى من كتابة ترجمة تنوء بحملها حواشي البحث، ولعلَّها إلى أعمال التحقيق أقرب، أمَّا كتابة تاريخ الوفاة فوسط بين ترجمة العلم وتركها إذ يسهل معه الرجوع إلى التراجم في مظانها.

- عزوتُ الآيات الواردة في البحث إلى مواضعها في القرآن في متن الرسالة تمييزًا لكلام اللَّه وتعظيمًا له، ثُمَّ تخففًا من كثرة الحواشي.

- عرضتُ الآيات في المباحث كما تتداعى إلى الذهن وفقًا للتشابه أو التناسب أو التضادّ مع الربط بينها؛ لتتجلّى بذلك أوجه التشابه وأسرار الاختلاف.

- سرتُ في تحليل الآيات على المنهج الوصفيِّ الاستنباطيّ: القائم على تحليل الآيات موضع الدراسة، مستحضِرة الغرض من سياقها - إن لزم الأمر-، ثُمَّ أتتبَّع الصور التعبيريَّة فيها بالنظر إلى مفرداتها وأسرار اصطفاء السياق القرآنيّ لها؛ تحقيقًا لتآزر اللفظ مع المعنى، مصغية إلى إيحاء اللفظ ومعناه، محلِّلة

الصور الواردة فيها تحليلًا بيانيًا نظميًا يكشف عن أغراضها البلاغيّة، ومعانيها العميقة وفق مارسمه عبد القاهر (ت٤٧١هـ). دون الاقتصار على عنصر واحد في إيراد الصورة تحت الباب، إنما تشمل النظرة النواحي التي تؤازرها في إبراز الجمال، وقد أطوف بقراءات أُخَر من السبعيَّة، إذا كان البيان النظميُّ يستدعيها.

- اعتمدتُ الفنَّ البيانيَّ البارز في إدراج الآية ضمن أحد فصول البحث حين تشتمل على أكثر من فنّ، مع تحليل ما اشتملت عليه من الفنون الأخرى؛ لتسلم الآية الكريمة من التجزئة والتقطيع، ويُحفظ بهاؤها ورواؤها. وفي بعض الأحيان أجدني مضطرّة إلى التوسُّع في الفنِّ البيانيّ البارز فيها مع إشارات سريعة إلى غيره من فنون البيان محيلة تفصيلها إلى الموضع الذي ذُكِرت فيه نظائرها؛ لإبراز جمال المتشابه وقيمة التصريف في النظم.

- وقفتُ عند الآيات المتشابهة في موضوع الأمن والخوف، وحرصتُ على تجلية أوجه التشابه والاختلاف بين مفرداتها وطريقة نظمها.

- عنيتُ ببيان الفروق الدقيقة بين المترادفات واستجلاء اللطائف البيانيَّة في إيثار إحداها على أخواتها في السياق القرآنيِّ مستعينة بمعطيات علم التجويد وفقه اللغة لتجلية صفات الحروف من حيث الشدَّة والجهر والإطباق والذلاقة والقلقلة وغير ذلك.

- اعتمدتُ الصِّبغة الفنِّيّة التذوُّقية في إبراز مافي الآيات من مكامن البحث والأشياء التي تدخل تحتها من الفصول، مِن رصْد للإيحاء اللفظيِّ والدلالة المعنويّة، وكشف للبُعد التشبيهيّ، وسبْر للحسِّ المجازيِّ، وتجلية للتعبير الكنائيِّ، واستنباط للطائف البلاغيَّة والنِّكات البيانيَّة الأخرى. وقد ألمس بالتحقيق ما يحتاج إلى ذلك.

- احتكمتُ عند اشتجار الخلاف بين المفسِّرين وتكاثُف الظلال حول جانب من الآية إلى النظر في الأدلة والسياق، مستعينة بكلام الأئمة الأثبات وبقواعد التفسير المعتمَدة.

- درستُ فاعلية الصور البيانيَّة من تشبيه واستعارة وكناية، ولم أُغفل الصور الحقيقيَّة؛ فكلاهما حاز أعلى مراتب البلاغة. وقد استبعدتُ من التصوير البيانيِّ كثيرًا من النصوص التي ذهب بعض أنصار التأويل إلى تلمُّس المجاز والكنايات فيها، بعد أن وقفتُ لديها أجيل الطرف وأطيل الفكر فيما قيل في شرحها وتحليلها. والرأي الذي ملتُ إليه هو أخذ النصوص على ظاهرها الذي فسَّرها به السلف دون تأويل - إلَّا بدليل من النصِّ نفسه أو من خارجه -؛ لأنَّ الأصل في كلام اللَّه الحقيقة؛ وهو ما تعبَّدنا اللَّه ﷻ به.

- حرصتُ على بيان الأسرار البلاغيَّة التي تتبع تصريف البيان، بإبراز ظاهرة التحوُّل الأسلوبيِّ في اتِّفاق المعاني أو تقابُلها أو التغاير الزمنيّ، واستكناه القيمة البلاغيَّة لها مع تجلية الفوارق بينها بتأمُّل أفانين النظم القرآنيِّ الفذّ، وأثرها في إيصال المعاني.

- عنيتُ بالشواهد سواء أكانت حديثًا نبويًّا أم شعرًا أم كلامًا منثورًا لأحد العلماء، وبحثتُ في أماكنها ومظانِّها، وعزوتها إلى مصادرها، وذكرتُ أصحابها وما يتَّصل بها، ولم أورد من الحديث إلَّا الصحيح.

هذا وكنت أتوقَّع أن أجد في رحلتي هذه عناء ومتعة على نحوٍ ما، لكنَّ ما وجدته فاق ما ظننتُه. فما أعظم ما أتاحته لي من معايشة النظم الفريد بتعبيراته الأخَّاذة! فكنتُ كلَّما ازددت تأمُّلًا في الآيات رأيت أنَّ ما كتبته غيض من فيض، وقطرة من بحر، فأعجب لجلال المعنى وإبداعه، فأسارع إلى الكتب أجتني منها كرائم الدرر، وأفزع إلى الفكر أستنطقه في ضوئها لطائف أخر. وإذ بي أجد اللذَّة

في خاتمة المطاف تسود الموقف وتمحو ما سواها.

وهاهي ذي الرسالة المتواضعة تستوي على سوقها بعد أن كانت حلمًا فعزمًا. وما هي إلَّا خطوة في مسيرة البلاغة القرآنيَّة، ولبنة في بناء صرح الصورة الفنيَّة على صعيد التذوُّق والتطبيق، أمضيتُ فيها حولين كاملين بين مشاعر مختلطة، فكم من ليل أحييته متأمِّلة في أسرار البيان القرآنيِّ، وكم من نهار احتجبتُ فيه بين خزائن الكتب، وخلف شاشة الحاسوب مستمتعة بما أجنيه من فوائد، وما يتكشَّف لي من هدايات القرآن، وكم من ساعة أحسست فيها بعناء الاستنباط ورهبة الموقف. وكلَّما أنعمتُ النظر في آيات القرآن ووقفتُ على ما قاله أهل العلم فيها؛ أجد آفاقه الفسيحة المترامية تتفتَّح، وينابيعه الثرَّة العذبة تتفجَّر فأردِّد: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠] وإنني إذ أردِّد هذا لأسأل اللَّه أن يمنحني صدق الفهم والإخلاص في العمل في رحلتي هذه بدئها وختامها، ليخفِّف ما انتابني من هيبة الإقدام؛ إذ أسمع صدى هذا الدعاء يتردَّد ثباتًا واطمئنانًا واستمدادًا من عون اللَّه، ولجوءًا إلى حماه، ويجتثُّ من نفسي أيَّ ضعف أو تخاذل.

ولا يخلو الموضوع من جملة من الصعوبات كان أشدّها على النفس الخوف من الزلل، والقصور عن فهم أسرار البيان المعجز، والتعبير عما في آياته العظام من معانٍ وأغراض بالمألوف من تعبير البشر، وأنَّى لي الإحاطة بنزر مما فيه؟ وكيف أعبِّر عن جليل معانيه وجميل لطائفه وعظيم مقاصده بجهد متواضع ليس سوى قطرة من ينبوع البلاغة الذي يفيض به البيان القرآنيّ؟ لكن حسبي في ذلك أن أتمثَّل قول الطاهر بن عاشور: «لم أر غرضًا تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت من صُبابة نزْرًا؛

مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن الكريم»[١].

ناهيك عن صعوبة حصر الآيات في هذا الموضوع؛ فمجال النفس رحب تتشابه فيه الانفعالات، فيرتبط الذلُّ والندم والحزن بالخوف وخاصَّة في بعض الآيات؛ مما يجعل الأمر يحتاج إلى صفاء ذهن وطول فكر وعُمق فحص فيما ورد عند المفسِّرين وأهل اللغة.

أضف إلى ذلك أنَّ كثيرًا من البلاغيِّين ومن المفسِّرين الذين ينحون المنحى البيانيّ قد توسَّعوا في حمل آيات القرآن على المجاز والكناية، وفي ذلك خطورة بالغة، وجنوح إلى التأويل دون دليل معتبر، ولاسيما في باب أسماء اللَّه وصفاته، فيحتاج الباحث إلى وعي وتبصُّر فيما يقرأ، وتدبُّر لمعنى الآيات على منهج السلف.

ومن الصعوبات أيضًا ما يحتاجه تأمُّل النصوص وتطبيق الفنون البلاغيَّة من إنعام نظر وإمعان فكر، وطول مراجعة لكلام أهل العلم، «والحاكم في ذلك سلامة الذوق، وتتبُّع التراكيب، فلا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنًى سمعته، أو مثالٍ وجدتَه من غير أن تتخطَّاه، بل عليك بالتصرُّف واستعمال الرويَّة، واللَّه الهادي»[٢].

فضلًا عن كثرة المراجع وتفرُّق مادة البحث في كتب البلاغة واللغة والتفسير وبعض الكتب العلميّة، ورغبتي في استيعاب أكبر قدر ممكن منها لأصل إلى أفضل تحليل لأعظم كتاب! لكنَّ المولى ﷻ أفاض بالهداية في سلك السبُل المتوسِّطة؛ فله جليل الحمد وجميل الثناء على تواتر نعمه وأفضاله!

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٩٩.
(٢) المطول: ٤٢٤.

وما كان لهذه الرسالة أن تؤتيَ أُكلها لولا فضل اللّه، ثُمَّ توجيهات المشرف الدكتور عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، فكم سخى بعلمه الثرّ ومكتبته العامرة ووقته الثمين حاثًّا خطاي مرتقيًا بهمَّتي أمدَّ الآفاق، حريصًا على خروج البحث في أحسن صورة صياغة ومضمونًا ومنهجًا. ففي النفس امتنان عجز عنه منطقي، وليس أمامي إلَّا أن أتوجَّه إلى اللّه أن يجزيَه خير ما يجزَى به العلماء المخلصون! وأن يبارك في علمه ووقته وأهله!

وبعد هذه المنَّة العظيمة من البرِّ الرحيم الذي أعانني على هذا العمل؛ أحمده سبحانه وأدعوه أن يتقبَّله بقبول حسن، ويعفوَ عما فيه من الزلل.

ثُمَّ أتقدّم بالشكر إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الصرح العلميّ الشامخ الذي ضمّني بين رحابه، وأتاح لي إكمال الدراسات العليا، والشكر موصول إلى مديره ووكلائه، وإلى كلية اللغة العربية وقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلاميّ بأساتذته، وأخصّ من أنار أمامي - بعد اللّه - طريق البحث في السنة المنهجيَّة، وتواصلت توجيهاته في رسم خطة البحث، أستاذي الفاضل الدكتور محمد بن علي الصامل، فقد تميّز بالعلم الواسع، ورحابة الصدر، والإخلاص في العطاء، فاللّهم اجزه عني خير الجزاء!

والشكر ممتدّ لمن تكرَّم بالموافقة على النظر في هذا الجهد تصويبًا وتوجيهًا. لا سيما الأستاذين المناقشين، فضيلة الدكتور صالح بن محمد الزهراني، وفضيلة الدكتور محمد بن علي الصامل. أثابهما اللّه ونفعني بعلمهما!

كما أزجي صادق الشكر مكلَّلًا بالدعاء إلى والدتي الحبيبة التي ما فتئت تدعو لي، وتستحثُّني على إكمال رحلتي العلميّة، وتعينني بتوجيهاتها السديدة. أسأل اللّه أن يجزيها خير ما جزى به والدًا عن ولده!

وأستمطر الرحمات على أوَّل من غرس في نفسي حبّ القرآن والإحساس ببلاغته، فكم استمعتُ إليه تارة يرتله في أرجاء منزلنا العامر بصوته العذب، وأخرى يوضِّح لنا معانيه العظيمة، والتناسب المعجِز بين سوره، وتارة يدعو الواحد الأحد أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا! إنَّه والدي الحبيب الدكتور عبد اللطيف بن كامل الكردي - رحمه اللَّه -! ما زال صوته يرنّ في أذنيّ مردّدًا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣] فأشعر بكلمة ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ تتردّد أصداؤها في جنبات تلك النفس الصغيرة بقوَّة أصواتها، وظلالها المؤثِّرة مع حداثة سنّي، فاللَّهم ارحمه رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنّاتك!

ولا أنسى في مقام التقدير والعرفان من صبر وضحَّى، واقفًا إلى جواري بالمؤازرة والحفز والدعاء زوجي الكريم الأستاذ محمد بن عبد اللَّه العجلان حفظه اللَّه!

وأختي الحبيبة رشأ التي أعطتني من وقتها الكثير، فلها عليَّ يد بيضاء تقف كلماتي عندها حيرى، لا تجد ما يطاولها إلَّا الدعاء!

وأختي الحبيبة هبة التي ذللت جُلَّ صعوبات الطباعة والتنسيق.

ولا يفوتني أن أقدم جزيل الشكر إلى الخال العزيز الدكتور عبد العزيز مصطفى كامل على ما بذله من جهد، وما أبداه من توجيه وتسديد.

والشكر بعد لإخوتي الأعزّاء ولأبنائي الأحبّاء.. ولكلِّ قلب نبض لهذا البحث إحساسًا وأملًا ودعاء.

فاللَّهم اجزهم جميعًا، وكلَّ من أهداني علمًا نافعًا خير الجزاء! اللَّهم ثقّل موازينهم وقولهم بفضلك! إنك وليّ ذلك والقادر عليه!

وفي الختام أسأل المولى ﷻ أن يتجاوز عن تقصيري، فما قصدت من موضوعي هذا إلَّا أن أنال رشفة من أعذب منهل، وحسبي أن أقف خاشعة أمام إعجازه الربّانيّ أمتّع البصر بكرائم درره، وأرهف السمع لعظيم بيانه - الذي تقاصر دونه كلُّ بيان - مردّدة قول أمير الشعراء:

جاء النبيُّون بالآيات، فانصرمتْ وجئتَنا بحكيمٍ غيرِ مُنصرِمِ
آياته كلَّما طال المدى جُدُد يَزِينهنَّ جَلال العِتق والقِدَمِ
يكاد في لفظةٍ منه مُشرَّفةٍ يوصيك بالحقِّ والتقوى وبالرَّحِمِ
يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة حديثُك الشَّهدُ عند الذائق الفَهِمِ
حلَّيت مِن عَطَل جِيدَ البيانِ به في كلِّ مُنتثِر في حُسن مُنتظِمِ(١)

وأخيرًا أحمد اللّه على ما منَّ به من فضل وكرم، وأتوب إليه مما ندَّ به الفَهم، أو زلَّ به القلم، وأصلي وأسلِّم على خير خلقه، وأشدِّهم خشية له وأعظمهم طمأنينة بربِّه، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين!

زينب بنت عبد اللطيف بن كامل الكردي

٢٥ / جمادى الأولى/ ١٤٢٥هـ

الرياض

---

(١) من البسيط. ديوان أحمد شوقي: ١/ ١٥٣.

التمهيد

المبحث الأول : مفهوم التصوير البياني

المبحث الثاني : مفهوم الأمن والخوف

المبحث الثالث: آيات الأمن والخوف

(حصرها وتحديد مواقعها)

المبحث الأول
مفهوم التصوير البياني

التصوير في أصل معناه يدلُّ على الشكل والهيئة والصفة(١)، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] وفُسِّر بأنَّ المصوِّر ﷻ خلق الناس وأنشأهم على أشكال وأحوال منتصبة القامة، بادية البشرة، متناسبة الأعضاء، مختلفة الصور، متهيِّئة لمزاولة الصنائع، واكتساب الخبرات(٢). فالتصوير من أعظم مظاهر قيُّوميَّة الخالق عزوجل الذي يتولَّى تركيب خلقه بأحكم طريقة وأبدع نظام وأحسن تقويم على ما يريد من الصور، كما قال ﷻ: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٨]؛ ليتميَّز كلُّ واحد منهم عن غيره، فتبارك اللّه أحسن الخالقين(٣)!

والتصوير في الكلام يُبرِز المعنى ويبين هيئته من خلال الأداء الصوتيّ وما يثيره في النفس من تجارب تطوف بالخيال والحسّ معًا؛ لتستجليَ منهما صورًا مؤثِّرة واضحة المعنى.

ومن أوائل الذين تحدَّثوا عن التصوير الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في تعريفه للشعر بأنَّه: «صناعة وضرب من التصوير»(٤)، كما ألمح إليه عبد القاهر الجرجانيّ حينما شبَّه المعاني في صياغتها وتصويرها بالحليّ المختلفة الأشكال والصياغة؛

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: صور: ٥٧٧، ولسان العرب: ٤/ ٨٦.
(٢) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٧/ ٣٤٣، ٣٤٤، ونظم الدرر: ٦/ ٥٣٢، ٥٣٣، والنهج الأسمى: ١/ ١٦٩.
(٣) ينظر: مطابقة أسماء اللّه الحسنى مقتضى المقام في القرآن الكريم: ٢١، ٢٣.
(٤) الحيوان: ٣/ ١٣٢.

المتفاوتة في دِقَّتها وإغرابها، وشبَّه البصير بصياغة المعاني وإحداث الصور بالحاذق في الإبداع والدِّقة، يخرِج المعنى في آنق صورة وأحسنها، فنراه قد تحوَّل جوهرة بعد أن كان خرزة، وصار أعجب شيء بعد أنْ لم يكن شيئًا[١]. وبتصوير الكلام تحصل صورة الشيء في العقل؛ وهذا ما يسمَّى بالتصوُّر[٢] الذي يكون به إدراكُ ماهية الأمور.

و«الصورة هي ذلك التعبير اللغويّ الذي يتَّخذ نسقًا معيَّنًا يستثير في النفس مُدرَكات حسِّيَّة، مستخدِمًا في ذلك كلّ وسائل التأثير في اللُّغة من عبارات حقيقيَّة وتشبيهات ومجازات وكلمات ذوات جرس خاصّ... وقد تبدو الإشارة إلى رسم الصورة بجرس الكلمة أمرًا غريبًا بعض الشيء، لكنَّا نجد هذا النمط من التصوير في القرآن وفي غيره من النصوص شعرًا أو نثرًا، وبلغ في القرآن الكريم مستوًى رفيعًا لا يبارَى، حتى إنَّ الصورة لترتسم بتشكيل العبارة الصوتيِّ، دون أن يكون لها في الأصل دلالة حسِّيَّة»[٣]. وقد تتجاوز ما يدرك بالبصر إلى ما يدرك بالبصيرة[٤].

وبرع سيد قطب -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في تحليل التصوير الفنِّيِّ في القرآن، فذكر أنَّ «التصوير هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن. فهو يعبِّر عن المعنى الذهنيِّ، والحالة النفسيَّة، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنسانيِّ والطبيعة البشريَّة، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجدِّدة. فإذا المعنى الذهنيّ هيئة أو حركة، وإذا الحالة

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٤٢٢، ٤٢٣.
(٢) ينظر: التعريفات: ٦١.
(٣) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية: ٣٢.
(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن: صور: ٢٩٢.

النفسيَّة لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنسانيّ شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشريَّة مجسَّمة مرئيَّة. فأمَّا الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيردّها شاخصة حاضرة؛ فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كلُّ عناصر التخييل»(١).

وهذه البراعة في تصوير المعاني والإبداع في صياغتها بطرق متنوِّعة تتنافس في البلاغة من أعظم مصادر الجمال الفنِّيِّ المعجز الذي بهر العرب وأعجزهم في الكتاب العزيز، فوصموه تارة بالشعر وأخرى بالسحر وثالثة بأنَّه أساطير الأوَّلين. . إلى غير ذلك من الافتراءات التي فضحت عجزهم وحَيرتهم أمام هذا النمط البلاغيِّ المعجِز.

ويأتي التصوير في القرآن بطرق عدَّة منها:

- **التصوير بالحقيقة:** هو توضيح المعنى ووصفه بالألفاظ والجمل دون الحاجة إلى تشبيه أومجاز أو كناية، فقد يستقلُّ لفظ من الألفاظ القرآنيَّة برسم صورة شاخصة، وهذه طريقة مبدِعة في تناسق التصوير «يزيد من قيمتها أنَّ لفظًا مفردًا هو الذي يرسم الصورة، تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن، وتارة بظلِّه الذي يلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والظلِّ جميعًا.

تسمع الأذن كلمة ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، فيتصوَّر الخيال ذلك الجسم المثَّاقل يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثِقَل. إنَّ في هذه الكلمة طنًّا على الأقل من الأثقال! ولو أنَّك قلت: تثاقلتم،

---

(١) التصوير الفني: ٣٦ .

لخفَّ الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولَتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها اللفظ، واستقلَّ برسمها»[١].

كما ينشأ هذا النوع من التصوير من التآزر بين الألفاظ، وتضافرها في جمل مصوِّرة للمعنى كما هو في العقل؛ مما يجعل المتلقِّي ينتقل عبرها إلى جوِّ الفكرة دون حاجة إلى تأويل.

- **التصوير البيانيّ**: فيه يظهر الارتباط الوثيق بين كلمتي (بيان) و(تصوير)، ف «علم البيان هو علم الصورة الكلاميَّة المؤثِّرة، ولا ريب أنَّ الصور تختلف في تأثيرها على النفس، سواء في ذلك الصور الكلاميَّة أم الصور الحسِّيَّة، فهناك الصورة التي تروقك وتعجبك، وهناك الصورة التي تُستكرَه وتُستبشَع، ولكنَّ ثالثة تصل إلى أعماق نفسك، بل تهزُّ هذه النفس هزَّة طرب وتقدير، فبقدر ما يبدع المصوِّر في تحسين صورته، يكون لها من التأثير في نفوس الآخرين »[٢].

وقد أخذ علم البيان تعريفه البلاغيّ ذا الصلة الوثيقة بالتصوير على يد السكَّاكيِّ (ت٦٢٦هـ) الذي قسَّم البلاغة إلى: معانٍ وبيان ومحسِّنات، فعُرِّف البيان بأنَّه «علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه»[٣]، وأضاف السعد (ت٧٩٢هـ) إلى هذا التعريف أمرًا مهمًّا ينبغي التفطُّن إليه، هو مطابقة الكلام المدلول عليه لمقتضى الحال[٤]. والمتأمِّل في هذا؛ يدرك العلاقة بين علم البيان وعلم المعاني، وبينهما وبين علم النحو؛ فهما يبدآن من حيث ينتهي النحو، ويشتركان في مطابقة مقتضى الحال؛ فعليها مدار البلاغة.

(١) التصوير الفني: ٩١، ٩٢.
(٢) البلاغة فنونها وأفنانها (البيان والبديع): ١٣.
(٣) الإيضاح: ٢٠١، وينظر: مفتاح العلوم: ٤٣٧.
(٤) ينظر: المختصر (ضمن شروح التلخيص): ٣/ ٢٥٨.

وتتنافس درر البيان في القرآن كاشفة عن حسن المعاني المناسبة للسياق مجلِّية صورتها المبدعة بما تنطوي عليه من طرافة وإثارة للخيال والحسِّ ولملكة التذوُّق في الإحساس بالجمال، فينتقل الذوق من تشبيه إلى مجاز إلى كناية. وكلّ درَّة في هذا العقد لها سمات تميِّزها مع معانيها، فتكسوها حسنًا وبهاء. وحتى يتمَّ لهذه الفنون بهاؤها ينبغي للمتذوِّق لها ألَّا يُغفِل جانب النظم، وأثره في الجمال البيانيِّ، مترسِّمًا في ذلك خُطا عبد القاهر الجرجانيِّ في نظريَّته المشهورة، وطريقته المميَّزة في تحليل النصوص؛ فالصورة البيانيَّة في القرآن لا تأتي حلية للأسلوب فحسب، بل جزء لا يتجزَّأ من الأسلوب المعجِز ذاته.

ويزداد إعجاب القارئ بطريقة القرآن في وصف المشاهد البيانيَّة إذا أدرك أنَّ أدوات التصوير فيها الأصوات والألفاظ، تظهر من خلالهما معاني الحياة والقيامة، ومواقفهما المختلفة؛ فتبرز لوحة البيان مزدهية بأبهى صورها، متناسقة في كلِّ أجزائها، معجِزة في تماسُك أسلوبها، وقوَّة معانيها، وبلاغة أدائها بأفضل الطرق، وأكثرها ملاءمة للمعنى مِن تشبيه إلى مجاز إلى كناية؛ مما يجعل متأمِّل الصورة يشعر بمزيج من أحاسيس الخشية والخوف والرَّهبة إلى الأمن والاطمئنان والسكينة.. ومشاعر أخرى تموج في النفس السويَّة. وقد مثَّل هذا النوع من التصوير جوهر البحث.

- **التصوير بطرق البديع**: البديع - كما عرَّفه القزوينيُّ (ت٧٣٨هـ) - «عِلْم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة»[(١)]. والذي يظهر من قوله هذا؛ أنَّه يرى البديع مجرَّد حلية للكلام تأتي في مرتبة متأخِّرة عن المعاني والبيان، ولم يرتضِ السبكيُّ (ت٧٧٣هـ) منه هذا

(١) الإيضاح: ٣١٧.

الموقف، فعلَّق عليه قائلًا: «والحقّ الذي لا ينازع فيه منصِف؛ أنَّ البديع لا يشترَط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة، وأنَّ كلَّ واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الإيراد بطرق مختلفة من وجوه التحسين؛ قد يوجد دون الآخرين. وأدلّ برهان على ذلك أنَّك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرَّضون إلى بيان اشتمال شيء منها على التطبيق، ولا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرَّضون لاشتماله على التطبيق والإيراد، بل تجد كثيرًا منها خاليًا عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان. هذا هو الإنصاف، وإنْ كان مخالفًا لكلام الأكثرين»(١).

فالفيصل إذًا في أهمِّيَّة البديع في الكلام أن يضع المتكلِّم تصوير المعنى وإصابته نُصب عينيه، فتأتيه الألفاظ معبِّرة عنه أتمَّ تعبير، وهذا هو ما أراده إمام البلاغيِّين عبد القاهر الذي كان من أوائل المنتصرين للمعنى في نظريته المشهورة، فقال مؤكِّدًا قيمتَه: «ولن تجد أيمن طائرًا، وأحسن أولًا وآخرًا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان مِن أنْ ترسل المعاني على سجيَّتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ؛ فإنها إذا تُركت وما تريد لم تكتسِ إلَّا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلَّا ما يَزِينها، فأمَّا أن تضع في نفسك أنَّه لابدَّ أنْ تجنِّس أو تسجَع بلفظين مخصوصين، فهو الذي أنت منه بعَرَض الاستكراه، وعلى خطَر من الخطأ والوقوع في الذمّ»(٢). فالبديع على هذا يمكن أن يكون وسيلة مهمَّة للتصوير تُسهم بشكل كبير في إظهار المعنى وتمكُّنه في ذهن المتلقِّي شرط أن يستدعيَه المقام.

❃ ❃ ❃

(١) عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص): ٤/ ٢٨٤.
(٢) أسرار البلاغة: ١٤.

المبحث الثاني
مفهوم الأمن والخوف

الأمن:

تدور مادة (أمن) حول أصلين متقاربين، أحدهما التصديق وهو أصل الإيمان. والآخر الأمانة وهي سكون القلب وضدّها الخيانة، والأمان ضدّ الإخافة، يقال: أَمِن يأمَن أمْنًا وأَمَنًا وأمانًا فهو أَمِنٌ وأمين، وآمنته ضدّ أخفته، والأَمَنَة من الأمن، والأمان إعطاء الأَمَنة(١). وذُكر في المؤمِن من أسماء اللَّه تعالى معانٍ عدَّة تعود إلى الأصلين اللُّغويين منها: المصدِّق لنفسه ولأنبيائه ورسله - عليهم السلام - فيما جاءوا به، وواهب عباده الأمن مِن الفزع الأكبر، أو مؤمِّنهم منه ببث الطُّمأنينة في نفوسهم، وإخبارهم أنْ لا خوف عليهم(٢).

والأمن - كما عرَّفه بعض العلماء - «طُمأنينة النفس وزوال الخوف»(٣)، أو «عدم توقُّع مكروه في الزمان الآتي»(٤). وقد ذكره اللَّه ممتنًّا به على عباده فقال ﷻ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: ٣- ٤]. ويوفِّر الدِّين الإسلاميُّ كلَّ مقوِّمات الأمن مِن أمن حسِّيٍّ يتحقَّق بالحفاظ على حُرمة الدماء والأموال والأعراض إلى روحيٍّ يتحقَّق بتلاوة القرآن وتدبُّره، وبالصلاة تستغرق العقل والوجدان، وبذكر اللَّه يتَّجه المخلوق الضعيف بقلبه وجوارحه إلى مولاه. هنا ينتفي الخواء الروحيّ والخوف الناشئ

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: أمن: ٧٢، ولسان العرب: ١/ ١١٣، والقاموس المحيط: ١١٧٦.
(٢) ينظر: روح المعاني: ٩/ ٢٥٦، وتيسير الكريم الرحمن: ٨٥٤، والنهج الأسمى: ١/ ١٢٤.
(٣) المفردات في غريب القرآن: ٣٥.
(٤) التعريفات: ٣٨.

عن الإحساس بالوحدة والضياع، ويتحقَّق الانتماء للكبير المتعال نِعم المولى ونعم النصير. يُفضي إليه الإنسان بهموم نفسه، ويلجأ إليه في كلٍّ أموره، ويسأله أن يتولَّاه برحمته، فيحصل له بذلك الأمن أعظم مطلب للبشر في الدنيا والآخرة.

الخوف:

تدور مادة (**خوف**) حول أصل واحد يدلُّ على الذُّعر والفزع. يُقال: خاف الشيء يخافه خَوفًا ومخافة وخِيفة[(١)]، والخوف هو توقُّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، وضدُّه الأمن، ويستعمل في الأمور الدنيويَّة والأخرويَّة. والخِيفة الحالة التي عليها الإنسان من الخوف[(٢)]، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه:٦٧]. وهناك مَن عرَّف الخوف بأنَّه: انفعال في النفس يحدث لتوقُّع ما يرِد من المكروه أو يفوت من المحبوب[(٣)]. وعند علماء النفس: هو انفعال نفسيٌّ عنيف يعرِض عند تصوُّر شيء قريب الوقوع، يستجيب له الجسم بتغيُّرات واسعة المدى، قد تدفعه إلى الهرب والفرار، أو الكتمان والإخفاء، أو جمود الحركة[(٤)]. فالخوف يفيد الإنسان السويَّ في اتِّقاء الأخطار التي تهدِّد حياته، ويدفعه إلى تجنُّب المعاصي، والحرص على الطاعات.

إنَّ الحياة مع البُعد عن الدين الحقِّ مخيفة موحشة يفترس القويُّ فيها الضعيف، مظلمة كبحر لجيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب. لكنَّها مع الإيمان جنَّات وارفة الظلال يتبوَّأ الإنسان فيها حياة طيِّبة مبارَكة يثمر وينتج، ويعيش آمنًا

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: خوف: ٣١٧، ولسان العرب: ٢/ ٣٣١، والقاموس المحيط: خاف: ٨٠٩.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: خوف: ١٦٦.

(٣) ينظر: المعجم الوسيط: خاف: ٢٦٢، والتعريفات: ١٠٧، والكليات: ٤٢٨.

(٤) ينظر: المعجم الفلسفي: ١/ ٥٤٥ .

في كنف الإسلام؛ فهو دين الأمن والأمان والعزَّة والكرامة، يزوِّد الإنسان بزاد التقوى والخشية من اللَّه، ويحرِّره من الخوف مما سواه؛ ليأخذ بيده نحو الحياة الطيِّبة في الدنيا والآخرة، ويحميَه من أعاصير الخوف والجبن التي تعصف بأمنه واطمئنانه، وتجعله يتخبَّط في فزع ورعب دائمين؛ بسبب داء الغفلة الذي يستشري في نفسه؛ ليغتال كلَّ صالحة وخير. ولا أدلّ على هذا النوع من قلوب المنافقين والمنحرفين التي تنفر من كلِّ خير تُدعَى إليه[١]؛ لأنها خاوية مزعزَعة الإحساس، متوجِّسة من المستقبل ومن مجهول الحياة، «وكم يجمح بهم الخيال؛ فيملأ حياتهم بأشباح الموت والدمار، ويوهمهم أنهم بين الحين والحين معرَّضون لهجوم من هنا، وغدر من هناك!!»[٢]وشتَّان بين هذه الصورة المظلمة القاتمة، والصورة المشرقة التي تقابلها. . صورة الخوف من اللَّه؛ فمن خاف اللَّه آمنه من كلِّ شيء، ومن لم يخَفِ اللَّه أخافه من كلِّ شيء، والخوف منه ﷻ لا يراد منه ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد، بل اختيار الطاعات والكفّ عن المعاصي؛ لذا قيل لا يُعدُّ خائفًا مَن لم يكن للذنوب تاركًا[٣].

إنَّ الخوف من اللَّه ﷻ نابع من حُسن المعرفة به. فليس وجَلًا مبهَمًا لا يدرَك مأتاه أو نتائجه، بل شعور واضح بعظمة الخلَّاق سبحانه، وما يليق به من مهابة وإجلال[٤]. فالخوف منه ﷿ يختلف عن أيِّ خوف بأنَّه يوجِب هربًا إليه ﷻ، لا هربًا منه، كما أنَّه مخافة مقرونة بحلاوة وطُمأنينة وسكينة ومحبَّة. .[٥] هذا

(١) ينظر: الإنسان في القرآن: ٤٣- ٤٥.
(٢) جدد حياتك: ٧٦ .
(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن: خوف: ١٦٦.
(٤) ينظر: الجانب العاطفي من الإسلام: ٢١٩.
(٥) ينظر: تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات: ١٦٦.

الخوف المحمود، وهذه المشاعر لا يستغني عنها حيٌّ في حُكم نفسه وضبط سلوكه.

إنَّ «قُوى الأرض كلها لا تخيف- أو لا ينبغي أنْ تخيف- لأنها قوًى مسخَّرة لا تُستمَدّ من نفسها، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، والقوَّة التي ينبغي أن تُخاف حقًّا هي القوَّة التي بيدها كلّ شيء»(١)، و«عندما تأخذ كلمة لا إله إلا اللّه مداها في القلب، فإنها تحرق كلَّ الأمراض، وتوجد في القلب أخلاقًا لها ثمراتها في السلوك»(٢)، إنها تسعى إلى تحرير النفس من الخوف الأرضيِّ، والتعلُّق بالحطام الزائل، إلى العمل في سبيل اللّه ابتغاء مرضاته، وفرارًا من عذابه، كما تصل في تهذيب الضمير البشريّ وإرهافه إلى الدرجة التي ينتفض فيها صاحيًا لأقل لمسة وأدنى توجيه(٣).

❋ ❋ ❋

---

(١) منهج التربية الإسلامية: ١٧٠.
(٢) تربيتنا الروحية: ١٣٢.
(٣) ينظر: منهج التربية الإسلامية: ١٧٠.

المبحث الثالث
آيات الأمن والخوف
(حصرها وتحديد مواقعها)

تأمَّل كتاب اللَّه الكريم تجد الأمن والخوف على اختلاف معانيهما وتصريفاتهما ومرادفاتهما كلًّا في موضعه الدقيق، حيث لا يخدم المعنى لفظ سِواه، محمودًا كان أو مذمومًا. فيأتي الأمن في الدنيا مِنَّة من الرحمن على رسله كقوله ﷻ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ [القصص: ٣٢]، ووسيلة لتأييد المؤمنين كما في قول اللطيف ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]، أو ابتلاء يميز به الجاحد من الشاكر، نحو قوله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢]، أو أمن من مكر اللَّه وهو كبيرة من الكبائر التي يتَّصف بها الكفَّار، ومنه قوله ﷻ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، أمَّا الأمن في الآخرة فهو أعظم جزاء من الرحمن لعباده المؤمنين جزاء خشيتهم وتقواهم، وفي هذا يقول - تبارك وتعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

ويربط الإسلام بين الأمن النفسيِّ وبين التقوى والالتزام بالعقيدة الإسلاميَّة، والتمسُّك بأركانها مِن إيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدَر خيره وشرِّه، وبهذا يكون الإنسان قد استمسك بعروة وثقى تمنحه ثباتًا واطمئنانًا من شتَّى المخاوف، وتعالج ما قد يطرأ على نفسه من هموم واضطرابات، فإذ بعقدة الخوف من المستقبل تتحوَّل تسليمًا مطلقًا ورضًى بما يقدِّره اللَّه عز وجل، والخوف من الفقر ينتفي مع قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]،

وتستحيل المحن مِنَحًا بالصبر والاحتساب حين يتمثَّل المؤمن قول العليم الحكيم ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤]، فيجد راحته في اللجوء إلى اللّٰه وصدق التوكُّل عليه في الرخاء والشِّدَّة مقتديًا بنبيِّه الكريم ﷺ مستحضِرًا قول ربِّه العظيم: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩]، وتتحرَّر النفس المؤمِنة من الخوف من الموت مع قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤] ووعدِه بالجنَّات لأوليائه المتَّقين، فتستعذب لقاء بارئها والاستشهاد في سبيله، وتعتصم من أهوال القيامة بالإيمان الخالص والتقوى؛ لتكون من الفرقة الناجية التي قال تعالى عنها: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

قيل للحسن البصريِّ: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نجالس أقوامًا يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير! فقال: واللّٰه إنَّك إنْ تخالط أقوامًا يخوفونك حتى يدركَك أمن؛ خير لك مِن أنْ تصحب أقوامًا يؤمِّنونك حتى يدركَك الخوف(١).

وللخوف أنواع مختلفة: منها ما هو محمود كالخوف من اللّٰه حينما يحول بين الإنسان وبين المعاصي ويدفعه إلى الاجتهاد في العبادة، فيحقِّق له السكن والاطمئنان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥]، أمَّا حين يؤدِّي إلى اليأس والقنوط والتمادي في المعصية فيكون مذمومًا. قال ابن رجب الحنبليّ

(١) إحياء علوم الدين: ٥/ ١٢.

(ت٧٩٥هـ): «القدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد عن ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسُّط في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا أو همًّا لازمًا، بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة للَّه ﷻ؛ لم يكن محمودًا»(١). وقد «ذكر رسول اللَّه ﷺ أسباب الرجاء وأكثر منها؛ ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط»(٢).

وهناك خوف طبعيٌّ أو فطريّ لا يُلام عليه العبد إلَّا إذا كان سببًا لترك واجب، أو فعل محرَّم(٣)، كالخوف من الموت أو القتال: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، أو من الفقر، قال - عزَّ من قائل -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، أو من الظواهر الطَّبيعيَّة كما قال ﷻ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]، أو من خطر متجسِّد في هامة أو سبع، كما في قصَّة موسى ﵇: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١].

ومن الخوف ما هو مَرَضيّ سببه الضلال وخواء القلب يأتي في صورة رُعب غامض كما في قول اللَّه تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]. أو جُبن شديد يمنع صاحبه من مواجهة الناس ويجعله يتخبَّط. قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ

(١) التخويف من النار والتعريف بدار البوار: ٢٦، ٢٧.
(٢) إحياء علوم الدين: ٥/ ٦.
(٣) ينظر: شرح ثلاثة الأصول للشيخ ابن عثيمين: ٥٧.

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ [الحشر:١٣-١٤]، وقد خصَّ القرآن المنافقين بهاته المخاوف ووصفهم بمرض القلب في غير آية، نحو قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة:١٠].

ومن أنواع الخوف رعب يقذفه اللَّه في قلوب أعدائه لنصرة أوليائه، كما حدث يوم الأحزاب: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب:٢٦].

وهناك الأهوال الشديدة يوم الفزع الأكبر حيث تنقلب الموازين، وتتعدَّى الأهوال البشر إلى مظاهر الطبيعة الصامتة المتحوِّلة هولًا وفزعًا، وقد وصفها القهَّار ﷻ في آيات كثيرة، منها قوله ﷿: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

لقد ورد الأمن والخوف في كتاب اللَّه في مواضع كثيرة بطرق متنوِّعة تتنافس في البلاغة، وتستدعي إلى الذهن ما ذكره صاحب المثل السائر (ت٦٣٧هـ) في تشبيه صياغة المعاني بصياغة الحلي؛ فاللآلئ فيها تُتخيَّر وتُنتقى، ثم تُنظم في أشكال مختلفة، فتارة تكون إكليلًا على الرأس، وتارة تُجعل قلادة في العنق، وأخرى تكون شَنْفًا في الأذن، ولكلٍّ موضع منها هيئة من الحسن تخصُّه(١).

وبتأمُّل ما ورد في الكتاب العزيز من معاني الأمن والخوف تبرز طرق أدائهما المتنوِّعة، فتارة يأتيان بلفظيهما صراحة، كقول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقوله ﷿: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش:٤].

وتارة يكون التعبير بأحد مرادفاتهما لينهض بالمعنى بدقَّة متناهية في الدلالة

(١) ينظر: المثل السائر: ١/١٤٩.

الصوتيّة والمعنويّة، لا ينافسه فيها لفظ من الألفاظ التي تقارب معناه، كقوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١٣].

وثالثة يبرز المعنى بصورة بيانيّة فريدة، تحمل في طيّاتها مؤثرات صوتيّة ومعنويّة تتضافر مبرزة الإبداع البيانيّ، ومنها قول اللَّه عز وجل: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال: ٦].

الترادف في اللغة والقرآن:

يعدّ الترادف مظهر ثراء تمتاز به لغة القرآن عمّا سواها من اللغات، فهي «بحر زاخر لا يسبر غوره، ولا تحصى درره. ومن مزايا المترادفات أنها تعين على إفراغ المعنى في قوالب متعدِّدة، ونظمها في سلك من البلاغة. ولا تنكر مزاياها في النظم والنثر، فبتعدُّدها يسهل تخيُّر ما طابق المعنى؛ فيأتي الكلام جزلًا بليغًا»(١).

وقد استرعى هذا التنوُّع في المترادفات انتباه العلماء - قديمًا وحديثًا - بخاصة اللغويين منهم؛ فأدلوا دلاءهم في هذا المجال في كتب اللغة ومعاجم المعاني وبعض معاجم الألفاظ.

وكان من أبرز أعلام هذه القضية أبو هلال العسكريّ (ت٣٩٥هـ) الذي لفت الأنظار إلى الفروق الدقيقة بين ما يسمَّى بالمترادفات؛ وصولًا إلى تعبير دقيق ينمُّ عن فكر سليم. في المقابل كان هناك من عكر صفو ذلك الجوّ على أبي هلال ومؤيِّديه؛ فأنكر وجود المعاني الفارقة بين المترادفات مؤكِّدًا وجود الترادف التامّ مطلقًا. وكيف تُنكر تيك الفروق والقرآن الكريم يدعو إلى استعمال الكلمة في

---

(١) الفروق اللغوية: ١٧ (عن محقق الكتاب: محمد إبراهيم سليم).

مكانها المناسب، مراعاة للموقف الذي يقتضيها[١]؟! إنَّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [البقرة:١٠٤] يوضح أهمِّيَّة الدقَّة في اختيار اللفظ. والذي يظهر لي بعد تتبُّع المترادفات - والله أعلم- أنَّ الحقَّ هنا وسط بين طرفين، فهناك فروق دقيقة بين بعض المترادفات، ويظهر الترادف التامّ في بعضها الآخر، وهو الذي يعبِّر عنه بعض المفسِّرين بالتفنُّن[٢].

وإذا تأملت في ألفاظ الكتاب العزيز وجدتها مختارة من لدن العليم الخبير بحيث تؤدِّي معانيها أتمَّ أداء؛ فيُصطفى للمعنى أقرب مرادفاته دلالة عليه. من هذا المنطلق حرصتُ على استعراض الألفاظ التي تعبِّر عن الأمن والخوف، وإبراز ما استطعت اكتشافه من فروق بينها استنادًا إلى آراء العلماء، واستقراءً لاستعمالاتها في القرآن الكريم.

وردت مادة (**أمن**) في القرآن الكريم في مجال المعاملات الماليّة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]، وفي المكان نحو قوله: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر:٨٢]، وخُصَّ البلد الحرام بأعظم أنواع الأمن - مذ دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم:٣٥] - في عصر انتشرت فيه شتَّى المخاوف، وفي ذلك يقول الله جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ٦٧﴾ [العنكبوت:٦٧].

كما ورد الأمن على الأرواح نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٦]، وقوله جل جلاله على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ

---

(١) ينظر: جماليات المفردة القرآنية: ٥٨، ٥٩.
(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٣٤١، والتحرير والتنوير: ١/ ١١٤.

إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُۖ﴾ [يوسف:٦٤]. وثَمَّ أمن امتن اللَّه به على أنبيائه ورسله - عليهم السلام - كما في قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ [القصص:٣١]، وآخر في تبكيت الكفار والتعجب والتعجيب من أمنهم مكر اللَّه وعذابه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النحل:٤٥]. وأعظم الأمن ما وُصف به المتَّقون يوم الفزع الأكبر نَعِمين به في أهول المواقف، آمنين شتَّى المخاوف، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩]، وفي وصف الأمن والنعيم في الجنان، قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧].

وإذا تأملت في الكتاب العزيز لا تجد لكلمة الأمن مرادفات عدا:

السكينة: يدلُّ أصلها على خلاف الاضطراب والحركة، وهو الطُّمأنينة وزوال الرُّعب، يقال: سَكَن الشيء يَسْكُن سُكُونًا إذا ثبت بعد تحرُّك(١)، ومن المجاز: سكنتْ نفسي بعد الاضطراب، وسكنتُ إلى فلان: استأنست به(٢). وقد وردت السكينة في القرآن ست مرّات، وارتبط ذكرها باللَّه ﷻ مما يعظِّم شأنها، فهي نفحة غالية ينزلها اللَّه على قلوب عباده المؤمنين، وقد ذكرها في كتابه العزيز ممتنًّا بها على المتقين من أمة محمد ﷺ نحو قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [الفتح:٤]، أو من معجزات كليمه عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:٢٤٨].

الطُّمأنينة: و(طمن) أُصيل بزيادة همزة. يقال: اطمأنَّت الأرض وتطأمنتْ:

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: سكن: ٤٦٤، والمفردات في غريب القرآن: ٢٤٢، ٢٤٣، ولسان العرب: ٣/ ٣١١.

(٢) ينظر: أساس البلاغة: ٢١٦.

انخفضت، اطمأنَّ الرجل يَطمَئنُّ اطمِئنانًا وطُمأنينة، واطمأنَّ قلبه أي: سكن، وطامنتُ منه وطأمنته: سكَّنتُه، والنفس المطمئنَّة هي التي اطمأنّت بالإيمان، وأخبتت إلى ربِّها[١]، فالطُّمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج. وردت في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، منها قول اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨]، وفيه تنبيه إلى أنَّ معرفة الخالق والإكثار من عبادته يُكسب النفس راحة واطمئنانًا[٢].

أمَّا مادة (**خوف**) فقد وردت مرتبطة تارات بالخوف الدنيويِّ على اختلاف مصادره؛ خوف من بشر كخوف موسى عليه السلام من آل فرعون بعد أنْ وكز أحدهم فقضى عليه، وذلك في قول اللَّه جل جلاله حكاية عنه: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشعراء:٢١]، أو خوف الضلال، قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٣]، أو خوف من الأعداء، إمَّا بنهي مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، أو بحكاية كقوله عز وجل: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ [يونس:٨٣]. وكذا قوله - جلَّ شأنه -: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزمر:٣٦]، أو خوف عام لم يحدَّد مصدره، وعليه قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ [البقرة:١٥٥].

وقد ارتبط الخوف تارات بالحزن، كما في قوله عز وجل: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]، وقوله: ﴿لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ [العنكبوت:٣٣].

وأخرى بالرجاء، في قوله: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء:٥٧]، وقوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف:٥٦].

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: طمن: ٥٩٩، ولسان العرب: ٤/١٩٧.
(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ٣١٠.

وثالثة بالأمن كقوله - جلَّ شأنه -: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ [النساء:٨٣]، وقوله: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش:٤]، وكذا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

كما ورد الخوف بمعنى العلم بما يُحذَر منه، قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء:١٢٨]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٨٢].

وهنا أستعرض مرادفات الخوف بترتيبها الهجائيّ مبيِّنة الفروق التي تميِّز كلًّا منها في معناه ووروده في الاستعمال القرآنيّ:

التقوى: يدلُّ أصلها على دفع شيء عن شيء بغيره. يقال: وَقَاه يَقِيه وقْيًا ووِقاية إذا صانه وستره عن الأذى[١]، ومعنى التقوى لغة: «جَعْل النفس في وقاية مما يُخاف... ويسمَّى الخوف تارة تقوى، والتقوى خوفًا حسب تسمية الشيء بمقتضيه، والمقتضي بمقتضاه، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس مما يؤثم، وذلك بترك المحظور»[٢]. وفيها من الخشية ولكنَّها تنفرد بمعنى الاحتراس مما يُخاف. وهنا نكتة لطيفة مفادها أنَّ منازل التقوى ثلاثة: تقوى عن الشرك، وتقوى عن المعاصي، وتقوى عن البدعة؛ وردت في آية واحدة على الترتيب[٣] هي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣].

وامتازت مادة (وقى) بجمعها معنيي الأمن والخوف معًا؛ فحين تقرأ قول الله

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: وقي: ١٠٦١، ولسان العرب: ٦/ ٤٧٩.
(٢) المفردات في غريب القرآن: وقى: ٥٤٥.
(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٥/ ٢٥٨.

تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾[غافر:٩] تعطيك ﴿وَقِهِمُ﴾ و﴿تَقِ﴾ معنى الحماية والحفظ[١]؛ ففيها من معنى الأمن، ووردت من مرادفاته سبع عشرة مرة. ثم تقرأ قوله ﷻ: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧] فتعطيك الكلمة معنى الخوف.

وباستقراء الآيات التي وردت فيها بأيٍّ من تصريفاتها العديدة وجدتُ أكثر ارتباطها بالخوف أو بالأمن فيما يتعلَّق باللَّه أو بعذابه في الآخرة، ويندر جدًّا ورودها في الأمور الدنيويَّة، وهي من أكثر مرادفات الخوف ورودًا في القرآن، فقد قارب ذكرها مئتين وخمسين مرة.

الخَشية: يدلُّ أصلها على خوف وذُعر، يقال: خَشِي الرجل يخشَى خَشية[٢]، والخشية خوف يشوبه تعظيم ويقين صادق بعظمة من نخشاه وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه[٣].

وقد وردت الخشية في القرآن اثنتين وخمسين مرة. وارتبطت كثيرًا بأسماء الخالق: اللَّه والرب والرحمن؛ كأنَّ هذه الدرجة الشفَّافة أليق أن ترتبط باللَّه؛ لذا خُصَّ بها العلماء في قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]. مِن هنا نلمس الارتباط بين الخشية والعقيدة؛ إذ الخشية نوع من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها إلا للَّه. لذا أنكر ﷿ على العباد الخشية من غيره في أكثرَ من موضع نحو قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣].

والفرق بينها وبين الخوف، أنها أخصّ منه وأعلى مرتبة؛ فالخوف حركة

---

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٥/ ٢٥٦.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: خشي: ٢٩٩، ولسان العرب: ٢/ ٢٦١.
(٣) ينظر: المفردات: ١٥٥، وبصائر ذوي التمييز: ٢/ ٥٤٤ .

والخشية انجماع وانقباض وسكون[١]. وثمة فرق آخر ذكره صاحب الكلّيات (ت١٠٩٤هـ) وهو «أنَّ الخشية تكون من عظم المخشيّ وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا»[٢]. لذا وردت على لسان هارون عليه السلام: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾[طه: ٩٤]، معتذرًا لأخيه موسى عليه السلام حين توهَّم أنَّه قصَّر في كفِّ بني إسرائيل عن عبادة العجل، فاستحقَّ التأديب وقد كان موسى عليه السلام حديدًا في دين اللَّه[٣].

كما جاءت الخشية في وصف الحجارة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وفيه بثٌّ للحياة في الجامد الأصمّ، وتفضيله على الكفار[٤].

الرُّعب: يرجع معناه إلى ثلاثة أصول: أحدها الخوف، والثاني الملء، والآخر القطع[٥]. وقد جمع الراغب (ت٥٠٢هـ) هذه الأصول الثلاثة في معنًى واحد، فذكر أنَّ الرُّعب انقطاع من امتلاء الخوف[٦]، ويكون في الجبان والشجاع عند الفزع والذُّعر[٧]. يقال: رَعَبَه يَرْعَبُه رُعْبًا ورُعُبًا، ولا يقال: أَرعَبه ورَعَّبه[٨]. ومما يميز ذكر الرُّعب في آي القرآن ارتباطه في الغالب بالقلب، وأنَّ اللَّه هو من يوقعه، وليس كالرهبة تأتي من داخل الإنسان، قال اللَّه تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢/ ٥٤٥، ومدارج السالكين: ١/ ٤١١.
(٢) الكليات: ٤٢٨.
(٣) ينظر: البحر المحيط: ٦/ ٢٧٠، وحاشية القونوي: ١٢/ ٤١٥ .
(٤) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن: ٢٢٦، ٢٢٧.
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة: رعب: ٣٨٩.
(٦) ينظر: المفردات: ٢٠٣.
(٧) الألفاظ: ١٢٨.
(٨) ينظر: لسان العرب: رعب: ٣/ ٨٤.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]. وقد ورد لفظ الرعب خمس مرَّات في الكتاب العزيز؛ قيِّد في أربع منها بالقلوب وأُطلق في الخامسة.

الرَّهْبة: يدلُّ أصلها على مخافة مع تحرُّز واضطراب، وقيل: هي خوف معه تحيُّر، يقال: رَهِب يَرْهَبُ رَهْبة ورُهْبًا ورَهْبًا ورَهَبًا؛ أي: خاف. والرهبانية غلوٌّ في تحمُّل التعبُّد من فرط الرهبة[١].

وقد وردت الرهبة في ثمانية مواضع من القرآن الكريم. والفرق بينها وبين الخوف أنَّ الخوف فيه شكٌّ بوقوع الضرر، أمَّا الرهبة فأشدّ منه؛ فيها استمرار للخوف مع العلم بما يقع من ضرر[٢]. والمرهوب لا يكون إلَّا عظيمًا؛ أو ما يُظنُّ أنه عظيم، فمن الأول قول اللَّه ﷻ: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فالمرهوب هنا هو اللَّه. وجعل ﷻ الدين مرهوبًا، فقد جاء لمحق الكفر وقصم الجبابرة كما ورد في قوله ﷿: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ولنصرة الدين قوَّى نفوس أتباعه من المجاهدين ليُقْدموا على محاربة أعداءَ جَهلةٍ لا يضعون الأمور في نصابها، مما يجعل الرهبة من المسلمين تستبدُّ بهم وتفوق رهبتهم من اللَّه، وعلى ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١٣].

ومن الثاني وهو الذي يُظَنُّ أنَّه عظيم قول اللَّه ﷿: ﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٦]، فالسحر تعظِّمه النفوس بادي الرأي لكنَّه في حقيقته ضرب من الخيالات والأباطيل.

---

(١) ينظر: المفردات: رهب: ٢٠٩، ٢١٠، ولسان العرب: ٣/ ١٣١، والكليات: ٤٢٩.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية: ٢٤١، ٢٤٢، والقلب ووظائفه في الكتاب والسنة: ٧٤.

الرَّوْع: يدلُّ أصله على فَزَع أو مستقرّ فَزَع، يُقال: راعني الأمر يرُوْعني رَوْعًا فهو رائع، والرُّوع موضع الرَّوع وهو القلب. وفي الرَّوع يمتزج الفزع بالتعجُّب[١]، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٧٤]، ولم يرد في غير هذه الآية.

الفَرَق: يدلُّ أصله على تمييز وتفريق بين شيئين، يقال: فَرِق يَفْرَقُ فَرَقًا، والفَرَق تفرُّق القلب من الخوف[٢]، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦]، وهذه هي المرة الوحيدة التي ذكرت في القرآن من مرادفات الخوف.

الفَزَع: يدلُّ أصله على الذُّعر والفَرَق من الشيء، يقال: فَزِع منه وفَزَعَ فَزَعًا وفَزْعًا وفِزْعًا فهو فَزِع، وأفزعه وفَزَّعَه إذا أخافه وروَّعه[٣]، والفزَع «انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزَع. ولا يُقال: فزعت من اللَّه، كما يقال: خِفتُ منه»[٤]. والفرق بين الخوف والفزع أنَّ «الفزع مفاجأة الخوف عند هجوم غارة أو صوت هدَّة، وما أشبه ذلك. وهو انزعاج القلب بتوقُّع مكروه عاجل»[٥].

ارتبط ذكر الفزع في القرآن الكريم بالعالم الغيبيِّ في مواقف القيامة تارة: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧] وبالملائكة تارة أخرى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ [ص: ٢٢].

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: روع: ٤١٠، ولسان العرب: ٣/ ١٤٧.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: فرق: ٨١٤، والمفردات: ٣٨، ولسان العرب: ٥/ ١٢٢.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: فزع: ٨١٦، ولسان العرب: ٥/ ١٢٧.
(٤) المفردات: ٣٨١.
(٥) الفروق اللغوية: ٢٤٢، والهدَّة: صوت شديد تسمعه من سقوط ركن أو حائط أو ناحية جبل أو غيره.

وقد ورد لفظه خمس مرات، وسادسة ورد فيها بالتضعيف بمعنى الأمن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ:٢٣] فزِّع عنهم، أي: كُشف عنهم الفزع(١).

الهلَع: يدلُّ أصله على سُرعة وحِدَّة، يُقال: هَلِعَ يَهْلَعُ هَلَعًا وهُلُوعًا فهو هَلِعٌ وهَلُوعٌ، والهَلُوع الذي يفزع ويجزع من الشرّ، والهلَع: الجبن عند اللقاء(٢). ولم يرد الهلع في القرآن سوى مرة واحدة. ذكر أبو هلال في الفرق بين الخوف والهلع والفزع أنَّ الهلع أسوأ الجزع، ولا يسمَّى الإنسان هَلُوعًا حتى تجتمع فيه هذه الخصال(٣). ولم يعرض لها ابن السِّكِّيت (ت٢٤٤هـ) في معاني الرعب والجبن، أمَّا كتب التفسير والإعجاز فمنها ماذكر أنَّ الهلَع سُرعة الضجر، وسُرعة الحزن في الشِّدَّة، والمنع في وقت الرخاء(٤)، ومنها ما فسَّر الموضع الوحيد الذي وردت فيه وهو قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ [المعارج:١٩-٢٠] بأنَّه «إذا مسَّه الضرّ فزع وجزع، وانخلع قلبه من شِدَّة الرُّعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير»(٥).

وقد هداني ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) إلى تفريق لطيف في هذا، حيث قال: «والذي أستخلصه من تتبع استعمالات كلمة الهلَع، أنَّ الهلَع قِلَّة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرُّها أو عند توقُّع ذلك والإشفاق منه. وأمَّا الجزَع فمن آثار الهلَع»(٦). وهذا الرأي يجمع بين الأصل اللغويّ وهو الحدَّة والسرعة،

---

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٤/ ١٩١.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: هلع: ١٠٣٥، ولسان العرب: ٦/ ٣٤٦.
(٣) ينظر: الفروق اللغوية: ٢٤٢.
(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/ ١٨٥، والكشاف: ٤/ ١٣٩، ومعترك الأقران: ٣/ ٢٥٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٣٧٩.
(٦) التحرير والتنوير: ٢٩/ ١٥٥.

وبين بعض المعاني التي ذُكرت. واللّه أعلم!

الوَجْس: يدلُّ أصله على إحساس بشيء وتسمُّع له. أوجس القلب فزعًا: أحسَّ به، والوَجْس والتوجُّس: الفزع يقع في القلب أو في السمع[١]، وهي حالة تحصل في النفس بعد الهاجس؛ لأنَّ الهاجس مبتدأ التفكير، ثُمَّ يكون الواجس الخاطر[٢]. وقد ورد ثلاث مرَّات في الكتاب العزيز مرتبطًا بالخيفة، قال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه:٦٧] «أي: أحس وأضمر في نفسه خوفًا»[٣].

الوجْف: أصل الوجْف والوجيف سُرعة السير، يقال: وَجَفَ القلب يَجِفُ وَجْفًا ووَجيفًا؛ أي: خفق واشتدَّ اضطرابه[٤]، قال تعالى: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ [النازعات:٨]، ولم يرد من مرادفات الخوف إلَّا في هذا الموضع.

الوجَل: ذكر ابن منظور (ت٧١١هـ) أنَّ الوجَل فزع وخوف، يقال: وَجِلَ يَوْجَلُ ويَاجَلُ ويَيْجَلُ ويِيْجَلُ وَجَلًا، إذا قلق ولم يطمئنّ[٥]. وفرّق أبو هلال بين الوجل وبين الخوف فذكر أنَّ الخوف خلاف الطُّمأنينة، ويُقال: أنا من هذا على وَجَل، ولا يقال: على خوف، وفي القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال:٢]، أي: اضطربوا وقلقوا. ثُمَّ قال معقِّبًا: فليس الوجل من الخوف في شيء[٦]. ولي تعليق على قوله؛ فقد ذكر أنهما متَّفقان في ضدِّ

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: وجس: ١٠٤٤، ولسان العرب: ٦/ ٤٠٣.
(٢) ينظر: المفردات: ٥٨٢.
(٣) بصائر ذوي التمييز: ٥/ ١٦٥.
(٤) المفردات: وجف: ٥٢٩، ولسان العرب: ٦/ ٤٠٣، وبصائر ذوي التمييز: ٥/ ١٦٨.
(٥) ينظر: لسان العرب: وجل: ٦/ ٤٠٤.
(٦) ينظر: الفروق اللغوية: ٢٤٣.

المعنى، ثُمَّ ناقضه بقوله: إنَّ الوجل ليس من الخوف في شيء. وقد يكون مقصده أنْ لا يمكن وضع أحدهما مكان الآخر، فالوَجَل رَجَفان القلب وانصداعه لرؤية من يخاف سطوته وعقوبته أو لمجرَّد ذكره(١)، وهو يتخلل صميم العظام، ويجول في الروح والجسم معًا؛ استعظامًا وتهيُّبًا لشأن الموجول منه(٢). وعلى هذا فالفرق بينه وبين الوجْس؛ أنَّ الوجْس يختصُّ بالسمع أو بالقلب، ويحمل معنى الخفاء، أمَّا الوجَل فيقع في القلب، ثُمَّ يعم سائر الجسم. وقد ورد ذكره في القرآن خمس مرَّات، ثلاثًا أُسند فيها إلى القلوب، ومرتين ذُكر مطلَقًا.

وهناك مفردات ذات صلة وثيقة بالخوف تجدر الإشارة إليها، هي:

الإشفاق: يدلُّ أصله على رقَّة في الشيء، تقول: أشفقتُ وشَفِقتُ من الأمر إشفاقًا وشَفَقًا، إذا رققتَ وحاذرتَ، وقيل: الإشفاق عناية مختلطة بخوف(٣)، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء: ٤٩].

والفرق بينه وبين الخشية أنَّ الأوَّل ضرب من الرِّقَّة وضعف القلب ينال الإنسان، ومن ثَمَّ يقال للأمِّ: إنها تشفق على ولدها؛ أي: ترِقُّ له(٤).

ورد الإشفاق في القرآن الكريم عشر مرَّات، فوُصف به المؤمنون في الدنيا مرتبطاً بخشية اللَّه، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ [المؤمنون: ٥٧]، أو خوف عذابه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾ [المعارج: ٢٧-٢٨]، ويجدُّ على غيرهم من العذاب في

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٥/ ١٦٥.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٣/ ١٨٤، وروح المعاني: ٤/ ١٥٥، والتحرير والتنوير: ٩/ ١٥.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: شفق: ٥٠٨، والمفردات: ٢٦٧، ولسان العرب: ٣/ ٤٥٣.
(٤) ينظر: الفروق اللغوية: ٢٤١.

القيامة. تأمَّل جلال قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ [الكهف: ٤٩].

كما ورد الإشفاق مسندًا إلى ما لا يعقل تقديرًا لعظم الأمانة التي فرضها اللَّه على الخلائق، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

الإهطاع: يدلُّ أصله على إقبال وانقياد، يقال: هَطَع يَهْطَعُ هُطُوعًا وأهطَعَ: أقبل مُسرِعًا خائفًا أو نظر بخضوع، فالإهطاع لا يكون إلَّا مع خوف، والمهطِع الذي ينظر في ذلٍّ وخشوع[١]. وقد ذكر الثعالبيّ (ت٤٢٩هـ) أنَّ الإهطاع مِشية المسرِع الخائف[٢]. وقد ورد في ثلاثة مواضع من القرآن، منها قول الحقِّ ﷻ: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٨]، وقوله ﷻ: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٣].

الحذَر: يدلُّ أصله على التحرُّز والتيقُّظ، حَذِرَ يَحْذَرُ حَذَرًا، فهو حاذِر وحَذِر؛ أي: متيقِّظ من الخوف، والحِذْرُ والحَذَر: الخِيفة، والتحذير: التخويف[٣]، ذكر صاحب الكلِّيات أنَّ الحَذَرَ شِدَّة الخوف، ويأتي بمعنى اجتناب الشيء خوفًا منه[٤]. وقد ورد في الكتاب العزيز إحدى وعشرين مرَّة، منها: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: ٥٦] أي: متأهِّبون شاكُّون في السلاح[٥]، قرأها بالألف

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: هطع: ١٠٣٣، ولسان العرب: ٦/ ٣٤٠.
(٢) ينظر: فقه اللغة: ٢١٨ .
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: حذر: ٢٣٥، ولسان العرب: ٢/ ٤٥.
(٤) ينظر: الكليات: ٤٠٩، ٤٢٩.
(٥) الشِّكَّة ما يُلبس من السلاح، والشاكُّ في السلاح هو لابس السلاح التامّ (لسان العرب: شكك: ٣/ ٤٦٢).

عاصم وحمزة والكسائيّ، أمّا باقي السبعة فقرأوها ﴿حذرون﴾ بغير ألف[١]، ومعناها خائفون شرَّهم[٢].

الخشوع: يدلُّ أصله على التطامُن. خَشَعَ يَخشَعُ خُشوعًا إذا رمى ببصره نحو الأرض وغَضَّه، وخفض صوته، يقال: خَشَع بصره؛ أي: انكسر[٣]. فرَّق أبو هلال بين الخشوع وبين الخضوع: أنَّ الأوَّل لا يكون إلَّا مع خوف؛ فيمكن أن يضاف إلى القلب، وتوصَف به الجوارح، أمَّا الآخر فلا يقتضي أن يكون معه خوف؛ لذا لا يجوز إضافته إلى القلب[٤].

وباستقراء الخشوع في آي القرآن وجدت في استعماله نكتة دقيقة هي أنَّه وصف خاصٌّ بالمؤمنين في الدنيا؛ إذ يرتبط بالخشية، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١-٢]. وقد توصف به الجمادات -كما في الخشية، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] - بثًّا للحياة فيها وتفضيلًا على من تُقفر منه قلوبهم في الدنيا لتتَّسم به أبصارهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٣]، وقد ألمحت د. عائشة عبد الرحمن إلى السرِّ البيانيِّ في ذلك فقالت: «خشوع الكفار لا يكون إلَّا بعد أن يأتي اليوم الذي يوعدون؛ فيخشعوا خوفًا ورهبة وذِلّة، على حين يخشع المؤمنون في الدنيا، عن صدق وإيمان وتقوى وخشية للّه»[٥].

والفرق بينه وبين الخوف أنَّ الخشوع لا يأتي إلَّا عن انفعال صادق وإحساس

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر: ٢/ ٣٣٥.
(٢) ينظر: معالم التنزيل: ٩٣٩.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: خشع: ٢٩٨، ولسان العرب: ٢/ ٢٥٨.
(٤) ينظر: الفروق اللغوية: ٣٤٨، ٢٤٩.
(٥) الإعجاز البياني للقرآن: ٢٢٨، ٢٢٩.

عظيم بجلال من يُخشع له، أمَّا الخوف فيمكن أن يحدث عن قهر وإرهاب[١]. وقد ورد الخشوع سبع عشرة مرة في القرآن.

ومن الفروق الدقيقة بين المترادفات تتجلَّى خصوصيَّة اللفظ القرآنيِّ ودِقَّة اختياره، وما يحقِّقه انتظامه في سياقه من قيمة بيانيَّة عظيمة. فلو نُزعت كلمة من كتاب اللَّه، ثُمَّ أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها أو أدلّ على المعنى؛ لم يوجد[٢].

* * *

(١) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن: ٢٢٦.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ١/ ٥٢.

الفصل الأول
التصوير بالحقيقة

المبحث الأول: اللفظ المصوِّر

المبحث الثاني: الجملة المصوِّرة

توطئة

يتنافس كلٌّ من الحقيقة والمجاز في التعبير عن الأفكار وتصويرها. وكلّما كان اللفظ أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان الكلام أنفع وأنجع؛ إذ يتمُّ به الإفهام والتأثير، وذاكم هو البيان(١).

والحقيقة في الكلام مُقدَّمة على المجاز، لأنها الأصل، والمجاز فرع عنها(٢). وقد وقف بعض أهل العلم منهما على طرفي نقيض، فذهب بعضهم إلى جعل معظم اللغة مجازًا كابن جنِّيّ (ت٣٩٢هـ)(٣)، وآخر أنكره وذهب إلى أنها حقيقة كلّها كشيخ الإسلام ابن تيميَّة (ت٧٢٨هـ) ليوصد الباب أمام بعض المذاهب التي جعلت منه قنطرة إلى تأويل صفات اللَّه ﷻ(٤). وبين الطرفين فريق أثبت المجاز في اللغة دون القرآن، منهم ابن القاصّ (ت٣٣٥هـ) وابن خويز منداذ (ت في حدود ٤٠٠هـ). ورأى الجمهور أنَّ الحقيقة في اللُّغة والقرآن تقف جنبًا إلى جنب مع المجاز في الإبانة عن المعاني وتوضيحها، فلو سقط المجاز من القرآن سقط شطر الحسن - كما قال الزركشيّ -(٥). وينساق القلم مؤيِّدًا هذا الرأي؛ فالحقيقة والمجاز في اللُّغة والقرآن وسيلتا تعبير لا تفاوت بينهما في البلاغة، والفيصل في تفوُّق أحد الأسلوبين على الآخر مطابقة مقتضى الحال، فَتِلكم دِعامة التأثير في المتلقِّي.

---

(١) ينظر: البيان والتبيين: ١/ ٧٥.
(٢) ينظر: المثل السائر: ١/٧٨، ٧٩، والطراز: ١/٤٣، والمزهر في علوم اللغة: ١/ ٢٩٠، والدلالة اللغوية عند العرب: ١٥٠.
(٣) ينظر: الخصائص: ١/ ٢١٢ .
(٤) ينظر: البحث البلاغي عند ابن تيمية: ٢٣٨.
(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٢٥٥، الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ١٠٩.

ويدلُّ أصل الحقيقة على إحكام الشيء وصحته، يُقال: ثوب مُحَقَّق إذا كان مُحكَم النسْج. وحَقَّ الأمر يَحِقُّ ويَحُقُّ حَقًّا وحُقوقًا إذا ثبت ووجَب، والحقُّ نقيض الباطل، وحقَّقتُ الأمر وأحققتهُ إحقاقًا: أثبتُّه فصار عندي حَقًّا لا يُشَكُّ فيه[١].

وعرَّفها ابن جنِّي بأنها: «ما أُقِرَّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللُّغة»[٢]، وعند ابن فارس (ت٣٩٥هـ) هي «الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل، ولا تقديم فيه ولا تأخير»[٣]. وقد يرجع إدخاله التقديم والتأخير في المجاز إلى ما فيهما من تجوُّز بنقل الألفاظ عن أماكنها التي تقتضيها رُتبها في الجملة، لكنَّ ذلك لا يُخرِج الكلام عن حقيقته، مادامت ألفاظه باقية على أصل وضعها في الاستعمال اللغويِّ، وإن تغيَّر بعض معناه تبعًا لاختلاف النظم، كما فصَّل القول في ذلك عبد القاهر في نظريته الشهيرة. وبيَّن كذلك حدَّ الحقيقة في المفرد بأنها كلُّ كلمة أُريدَ بها ما وُضعتْ له في الأصل بحيث لا تستند إلى غيره، أمَّا الجملة فحدُّها أن تخلو من التأوُّل؛ ليكون الحُكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل[٤].

وعند هذا الحدّ وقف معظم البلاغيِّين من بعده فبيَّنوا أنَّ الحقيقة هي الكلام الموضوع موضعه من غير تأويل، ولا مجاز ولا استعارة ولا تمثيل[٥]. فالمرجَّح أنَّ التقديم والتأخير لا يمنعان من كون الكلام حقيقة، ومن شواهده قول اللَّه عَزَّوَجَلَّ في حال عباده المتَّقين يوم القيامة: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، فالمعنى مع تقديم المتعلِّق ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ على ﴿ءَامِنُونَ﴾ حقيقة وليس مجازًا، وهو

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: حقّ: ٢٢٧، ولسان العرب: حقق: ٢/ ١٢٢.
(٢) الخصائص: ٢/ ٢٠٨.
(٣) الصاحبيّ: ٣٢١.
(٤) ينظر: أسرار البلاغة: ٣٤٨، ٣٥٠، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٢٧٢، ٢٧٣.
(٥) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٦٧، ٤٦٨، والطراز: ١/ ٢٧، والإيضاح: ٢٥٠، والتعريفات: ٩٤.

أمْنهم إذا فزع الناس أكبر فزع[١].

وقد اتَّسمت الحقائق في كتاب اللَّه عَزَّوَجَلَّ بتنوُّع المجالات وتفرُّد العرض وجِدَّته؛ إذ تكتسب في كلِّ تركيب إيحاءات جديدة؛ فتؤدِّي جانبًا مهمًّا من الإقناع والتأثير يقدح زِناد الفكر ما بقي التدبُّر لكتاب اللَّه[٢]. وبلاغتُها تضاهي صور البيان من تشبيه ومجاز وكناية، فكِلا الأسلوبين يخدم معانيَ مقصودة، وقد قال جَلَّ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن أسرار الإعجاز في النظم القرآنيِّ الفريد أنَّ ألفاظه منتقاة من «أشرف الموادِّ، وأمسّها رَحِمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج. . . بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلَّا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين، لا يومًا أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلًا، ولا الساكن يبغي عن منزله حِولًا. . . وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان»[٣].

وتتجلَّى بلاغة القرآن وجماله أكثر بتأمُّل المعنى متكاملًا في نسيج لغويٍّ مُحكَم مُنسجِم تتسابق ألفاظه في التعبير عن معانيه، وتصويرها بأطياف ترُوع القارئ، وتستولي على لُبِّ المتفهِّم[٤]. وقد يأتي التصوير بالحقيقة باللفظ المصوِّر أو الجملة المصوِّرة.

---

(١) ينظر: جامع البيان: ١٨/ ١٣٩، وتيسير الكريم الرحمن: ٥٣١.
(٢) ينظر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني: ٦٥، ١٤١، ١٤٢.
(٣) النبأ العظيم: ٨٥.
(٤) ينظر: في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم للدكتور وليد قصاب: ٥١، والمعجزة الكبرى القرآن: ١١٩.

اللفظ المصوِّر:

للفظ مهمَّة تعبيريَّة فنِّيَّة، يؤدِّيها بما له من دلالة معجميَّة وصرفيَّة وصوتيَّة. يحقِّق المعجميَّة منها الرَّصيد اللغويُّ لمادَّة اللفظ في معاجم اللُّغة، وتأتي الصرفيَّة من صيغة الكلمة (اسمية أو فعلية، ماضيَة أو مستقبليَّة، مزيدة أو مجرَّدة، نكرة أو معرفة، مفردة أو جمعًا، قلَّة أو كثرة...)، ويبرز الجمال الفنيُّ في الصِّيَغ باستثمار ما بينها من فروق، وانتقاء أنسبها للسياق وأكثرها مطابقة لمقتضى مقامه[1]، وتنشأ الدلالة الصوتيَّة من مخارج الحروف وصفاتها. وهذه الدلالات الثلاثة تمنح اللفظ فضل طاقة في التصوير، بمعناه أو بجرسه أو بهما معًا.

١- بمعناه:

تتقارب المعاني حتى لَتكاد تتَّحد إلَّا على الحاذق في اللُّغة، دقيق الفَهم لمرادفاتها؛ الخبير بأفضل مواضع استعمالاتها الذي يصطفي منها ما يناسب معانيه[2].

ويوجِّه الخطَّابيُّ (ت٣٨٨هـ) إلى قيمة «وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه: إمَّا تبدُّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمَّا ذَهاب الرَّونق الذي يكون معه سقوط البلاغة... لأنَّ لكلٍّ لفظة منها خاصِّية تتميَّز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها»[3].

وكم يراعي القرآن الكريم الفروق الدقيقة في الدلالات والإيحاءات! فقد دعا

(١) ينظر: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: ١٠، ١١.
(٢) ينظر: المثل السائر: ١/ ١٥٠.
(٣) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٢٩.

إلى الدقة في انتقاء اللفظ الملائم ليدلَّ على الحقيقة من غير لَبس ولا تمويه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤](١). وهذا ما يميِّز بيانه المعجِز الذي ينتقي من الألفاظ «أمسّها رحِمًا بالمعنى، وأفصحها في الدلالة عليه، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناءً، وأكثرها غَناءً، وأصفاها رونقًا وماءً»(٢). وهو سرٌّ بديع من أسرار إعجازه يجلّي البُعد الشاسع بينه وبين ما سواه من الكلام، فـ «قد يستخفُّ الناس ألفاظًا ويستعملونها، وغيرها أحقُّ بذلك منها. ألا ترى أنَّ اللّٰه - تبارك وتعالى - لم يذكر في القرآن الجوع إلَّا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقِع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغَب ويذكرون الجوع في حال القُدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر؛ لأنَّك لا تجد القرآن يلفظ به إلَّا في موضع الانتقام(٣). والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث»(٤).

٢- بجرسه وإيحائه:

تدلُّ مادة (جرس) في معاجم اللُّغة على الصوت. يقال: أجْرس الرَّجل، إذا علا صوته، وسمعتُ جَرْس الطير، أي: صوت مناقيرها على ما تأكله. فالجَرْس: الصوت، وقيل: الحركة والصوت(٥)، وجرْس اللَّفظ صوت ناشئ من

---

(١) ينظر: من بلاغة القرآن: ٥٧، ٥٨.
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٢٢٦.
(٣) تمثيل الجاحظ بهذا فيه نظر؛ إذ يردُّه قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]؛ فالمراد بالمطر هنا الغيث (ينظر: فتح الباري: ٨/ ١٥٩).
(٤) البيان والتبيين: ١/ ٢٠.
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة: جرس: ١٩٢، ولسان العرب: ١/ ٤٠٧، ٤٠٨.

تأليف حروف معيَّنة ذات أصوات خاصَّة[١].

ويبرز التميُّز في جرس الألفاظ من اختلاف مخارج أصواتها، وتنوُّع الصِّفات الخاصَّة بكلٍّ منها، مابين مدٍّ ولِين إلى صفير وتفخيم وجهر أو خفاء وهمس. . مع اختلاف طُرق أدائها بحركاتها المختلفة وسكناتها. فالمخرج والصِّفَة والحركة مؤثِّرات صوتيَّة مهمَّة في جرس اللفظ تعينه في وظيفته الدّلاليَّة والإيحاء بمعناه.

ويدلُّ أصل الإيحاء على إعلام في خفاء. يقال وَحى إليه الكلام وأَوْحَاه يَحِيْهِ ويُوْحِيْه وَحْيًا. فالإشارة والكتابة والرسالة والكلام الخفيُّ والإلهام، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتى علِمه فهو وَحْي[٢]. والإيحاء في كتاب اللَّه صفة ملازمة لألفاظه، تلِج بمتدبِّره إلى خفايا الصور المعروضة، مبحرًا في عظيم معانيها ليصلَ إلى عميق أغوارها وبعيد شأوها[٣].

ويظلُّ يوجّه اللغويُّون والبلاغيُّون إلى العناية بتلاؤم الألفاظ مع معانيها، فلننظر سبب ذلك في قول ابن جنِّيّ: «لَمَّا كانت الألفاظ للمعاني أزِمَّة، وعليها أدِلَّة، وإليها مُوصِّلة، وعلى المُراد منها محصِّلة، عُنيتِ العرب بها فأَوْلَتْها صدرًا صالحًا من تثقيفها وإصلاحها»[٤]. وكذا يُعلي ابن رشيق (ت٤٦٣هـ) من شأن اللفظ؛ فبشرفه يشرُف المعنى فـ«البلاغة إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»[٥]. وفي موضع آخر يشبِّه المعاني بالصور والألفاظ بالكسوة، ثمَّ يؤكِّد على قيمة تخيُّر ما يليق بالصورة من اللباس لئلَّا تُبخَس حقَّها، وتتضاءل في عين

(١) ينظر: في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم للدكتور وليد قصاب: ١٥٦.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: وحي: ١٠٤٦، ولسان العرب: ٦/ ٤١٢.
(٣) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن: ٩٨، ٩٩.
(٤) الخصائص: ١/ ٣١٧.
(٥) العمدة في صناعة الشعر ونقده: ١/ ٣٩٢.

مُبصرِها[١]. فـ«الكلام يبين فضله، ورجحان فصاحته، بأن تُذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تُقذف ما بين شعر، فتأخذه الأسماع، وتتشوَّف إليه النفوس، ويُرى وجه رونقه باديًا غامرًا سائر ما يُقرن به، كالدُّرة التي تُرى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العِقد. وأنت ترى الكلمة في القرآن يُتمثَّل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غُرَّة جميعه، وواسطة عِقده، والمنادي بتميُّزه، وتخصُّصه برونقه وجماله»[٢].

وهكذا تظلُّ اللفظة القرآنيَّة شخصيَّة مميَّزة ذات حضور باهر ودِقَّة متناهية. فهي «لبُّ كلام العرب وزُبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء، في أحكامهم وحِكمهم، وإليها مفزَع حُذَّاق الشعر والبلغاء في نظمهم ونثرهم. وما عداها وعدا الألفاظ المتفرِّعات عنها والمشتقَّات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثَّمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لُبوب الحنطة»[٣]. وليس أعظم من الألفاظ القرآنيَّة عمقًا وإبداعًا في تصوير المقصِد الإلهيِّ الجليل. فهي تضطلع بمهمَّة كبيرة في النظم، فلا يمكن أن يحُلَّ غيرها محلَّها؛ إذ لها سمات خاصَّة تمنحها تميُّزًا في الدّلالة على معناها.

الجملة المصوِّرة:

الحديث عن الجملة متَّصل بالحديث عن اللفظ؛ فما الجملة إلَّا «مجموعة ألفاظ منسَّقة على نحو معيَّن لأداء معنًى ذهنيٍّ أو معنًى شعوريّ»[٤]؛ لذا يحتاج صاحب البلاغة إلى تحسين اللفظ، ومراعاة أحوال نظمه؛ فإصابة المعنى وتجلِّي

---

(١) ينظر: العمدة في صناعة الشعر ونقده: ١/ ٢٠٤.
(٢) إعجاز القرآن للباقلاني: ٩٤.
(٣) المفردات في غريب القرآن: ١٠.
(٤) النقد الأدبي أصوله ومناهجه: ٤٢.

صورته تتوقَّف على البراعة في انتقاء الألفاظ. و«حقُّ البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحُسن النظْم، حتى تكون الكلمة مُقارِبةَ أختِها ومُعاضدةَ شكلها، وأن يُقرَّب بها البعيد، ويُحذَف منها الفضول»[1]؛ لذا وجَّه العلماء إلى العناية بنسق الألفاظ في الجملة لتوائم معانيَها؛ إذ الألفاظ كالأجساد والمعاني أرواحها، لو قُدِّم مؤخَّر منها، أو أُخِّر مُقدَّم دون ما يتطلَّبه المعنى؛ فسدت الصورة، وتغيَّر المعنى، كما تتحوَّل الخِلقة وتتشوَّه الصورة لو حُوِّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رِجل[2].

وكما أجمع البلاغيُّون واللغويُّون والمفسِّرون قديمًا على تألُّق ألفاظ الكتاب الكريم ونظمه ومقاصده العظيمة، هاهو ذا خلَفهم في العصر الحاضر يستروحون نَسَمات من باهر أسرار بيانه الفذِّ المتجدِّد في كلِّ زمان ومكان، ويستشرفون آفاقًا من إعجازه الذي لا تفنى عجائبه، ولا يخلَق من كثرة الردّ!

قال الرافعيُّ: «وإنك لَتحار إذا تأملتَ تركيب القرآن ونظْم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرَّف فيها، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولتَ أن تمضيَ في وصفه، حتى لا ترى في اللغة كلِّها أدلَّ على غرضك، وأجمعَ لما في نفسك وأبينَ لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز... فترى اللفظ قارًّا في موضعه لأنَّه الأليق في النظم، ثم لأنَّه مع ذلك الأوسع في المعنى، ومع ذلك الأقوى في الدّلالة، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدَّمه أو يترادَف عليه»[3]. أضف إلى ذلك تآخيه مع قُرنائه في بناء مُعجز مُتماسك، تتلوه مُتدبِّرًا مُستشعِرًا جلاله وهيبته، وعظمة قائله ﷻ؛ فتسري

(١) البلاغة للمبرد: ٨١.
(٢) ينظر: كتاب الصناعتين: ١٦٧.
(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٢٤٧.

في نفسك هِزّة انفعال وتأثُّر؛ عزاها صاحب كتاب النبأ العظيم إلى الجانبين الصوتيِّ والمعنويِّ في إعجاز القرآن قائلًا: «إنَّ أوّل شيء أحسَّته تلك الأذن العربيَّة في نظم القرآن، هو ذلك النِّظام الصوتيُّ البديع الذي قُسِّمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوَّعًا يجدِّد نشاط السامع لسماعه، ووُزِّعت في تضاعيفه حروف المدِّ والغُنَّة توزيعًا بالقسط يُساعد على ترجيع الصوت به، وتهادِي النفَس فيه آنًا بعد آن إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى؛ فيجد عندها راحته العظمى»[(١)].

هذا الإحساس يفهمه من يتلو القرآن بتجويده حقَّ التلاوة، فيحيا معه في جوٍّ من الروحانيَّة والإحساس بالجمال. وقد صوَّر المؤلِّف هذا الإحساس أصدق تصوير قائلًا: «فإذا ما اقتربت بأذنك قليلًا قليلًا، فطرقتْ سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة، فاجأتك منه لذَّة أخرى في نظْم تلك الحروف، ورَصْفها وترتيب أوضاعها فيما بينها، هذا يَنقُر، وذاك يَصْفِر، ثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفَس، وآخر يحتبس عنده النفَس، وهلمَّ جرًّا. فترى الجمال اللغويّ ماثلًا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة... »[(٢)].

ولننتقل معه في حديثه عن الجانب المعنويِّ في الجملة حيث يقول: «وإذا أنت لم يُلهِكَ جمال الغِطاء عمَّا تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبْكَ بهجة الأستار عمَّا وراءها من السرِّ المصون، بل فليتَ القشرة عن لُبِّها، وكشفتَ الصدفة عن دُرِّها، فنفذْتَ من هذا النِّظام اللفظيِّ إلى ذلك النظام المعنويّ تجلَّى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيتَ ما هو أروع وأبدع... بيد أنَّ هذه الألفاظ يُنظر فيها تارة من حيث هي أبنية صوتيَّة مادَّتها الحروف وصورتها الحركات والسكَنات من غير نظر إلى دلالتها... وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني، ونقلها من نفس

(١) النبأ العظيم: ٩٧.
(٢) السابق: ٩٧، ٩٨.

المتكلِّم إلى نفس المخاطَب بها»[١].

مفهوم التصوير بالحقيقة:

في ضوء ما قيل يمكن استنتاج مفهوم التصوير بالحقيقة، وهو توضيح المعنى ووصفه، بألفاظ مصوِّرة بأصواتها، وخصوصيَّةِ صيغتها ودلالتها، تنفرد بإثارة روحيَّة رفيعة؛ تتفيَّأ النفس ظلالها، وتستجيب لإيحاءاتها.

ويتجلَّى الإعجاز في تصوير المعاني باللفظ والجملة، فقد ينهض لفظ بتصوير المعنى بما يحمله من مادة وصيغة تمنح جرسه إيحاء خاصًّا في الدّلالة، كما يمكن أن ينشأ التصوير من نظْم الألفاظ في نسق متناغم يصور معناه أبدع تصوير.

وغنيٌّ عن البيان قُوَّة التلاحُم بين جانبي اللفظ المصوِّر؛ «إذ الكلام كائن حيٌّ، روحه المعنى وجسمه اللفظ، فإذا فصلتَ بينهما أصبح الروح نفَسًا لا يتمثَّل، والجسم جمادًا لا يحسّ»[٢]. وهذا ما دفعني إلى ضمِّهما في مبحث واحد، أستشرف فيه معاني الآيات موضع الدِّراسة، وما تنفرد به ألفاظها جرسًا وإيحاء، يليه آخر عن الجملة المصوِّرة، مستعينة بالقدير ﷻ في إبراز شيء من جمال تصويرهما؛ واستجلاء أبعادهما في رسم الأمن الخوف.

* * *

(١) النبأ العظيم: ١٠٠ .
(٢) دفاع عن البلاغة: ١٧.

المبحث الأول
اللّفظ المصوّر

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩-٢٢].

صورة لخاوي القلب الذي يظنُّ اللحظة الراهنة سرمدًا مضروبًا عليه، لا يجد لبلاء حلَّ به دَفعًا، ولا يتوقَّع من ورائه فَرَجًا؛ فيمزِّقه الهلَع والفزَع، ويفتِّته الحزن والأسَف، لا يُستثنى منها إلَّا من يصِله إيمانه بواهب الأمن؛ يعلِّق به رجاءه وأمله، ويوقن بقضائه وقدَرِه، يؤمِن بابتلائه، ويتطلَّع إلى فَرَجه[١].

ما أبدع ما صوَّرته الألفاظ في وصف تلك الحال العجيبة!

فهاهو ذا لفظ ﴿هَلُوعًا﴾ الذي يدلُّ أصله على سُرعة وحِدَّة. يُقال: ناقة هِلواع سريعةٌ نَفُور فيها نزَق وخِفَّة. والهلع أسوأ الجزع وأفحشه، والهَلِع والهَلُوع كثير الجزَع الذي يفزَع ويجزَع من الشرّ[٢]، قال ابن عطيَّة (ت٥٤٦هـ) «الهَلَع جزَع واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع»[٣]، فهو صفة مركَّبة من صفتين ذميمتين فسَّرها اللَّه، وليس أبين من تفسيره هما شدَّة الجزَع في الشرِّ، والبُخل في أحوال الخير[٤].

يليه لفظ ﴿جَزُوعًا﴾ وهو من الجزَع نقيض الصبر، ويُطلق على الحزن

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٨/ ٢٨١.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: هلع: ١٠٣٥، ولسان العرب: ٦/ ٣٤٧، سبق تفصيل معناه ص٣٢.
(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ٣٦٨.
(٤) ينظر: الكشاف: ٤/ ١٣٩، وحاشية شيخ زاده: ٨/ ٣٣٦.

والخوف، يقال: جَزِع يجزَع جَزَعًا، فهو جَزوع وجُزَاع إذا كثُر منه ذلك[١].

أوثر مجيء الصفتين بصيغة المبالغة (فَعُول) لتأكيد المعنى وتقويته[٢]، كما أنَّ في تنكيرهما دلالة على تحقير استُثني منه المصلُّون.

ويسهم انتهاء فواصل الآيات بحرف العين المجهور الذي يخرج من وسط الحلق، تليه ألف التنوين التي تنفتح معها آفاق النظر في طبيعة النفس البشريَّة وجِبِلَّتها، وكأنَّ ترقيق حرفي الفاصلة يفضح ضعف الهَلوع وانخلاع قلبه.

أُسندت تَين الصفتين إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على التغليب. وعبِّر عنه بهذا اللفظ لما تُوحي به مادته من الأُنس بالنفس ورؤية محاسنها ونسيان ربِّه وذنبه[٣]، بخلاف لفظ المرء[٤]، وفي إفراده وتعريفه بـ(أل) استغراق للجنس[٥].

ويدلُّ لفظ ﴿خُلِقَ﴾ على أنَّ هذه الصفات من مقتضى تركيب الطبيعة البشريَّة، فقد جُبل الإنسان عليها وكلِّف بتثقيفها، ورياضة جامح نفسه، آخذًا بطريق الخير مجاهدة وصبرًا مع الرِّضى بالقضاء والقدر[٦].

وثَمَّ حالات سامية للخوف خُصَّ بها المؤمنون، منها ما وضَّحته الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٢].

---

(١) ينظر: لسان العرب: جزع: ١/٤١٩، ٤٢٠.
(٢) ينظر: التطبيق الصرفي: ٦٨.
(٣) ينظر: نظم الدرر: ٨/ ١٥٠، ولسان العرب: أنس: ١/١١٨.
(٤) سيأتي التفريق بينهما ص٥٤.
(٥) ينظر: دروس في علم الصرف: ٢/٩.
(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٣٧٩، وتيسير الكريم الرحمن: ٨٨٧، والتحرير والتنوير: ٢٩/١٥٦.

أُخبر فيها عن المؤمنين «بموصول وُصل بثلاثة مقامات عظيمة: مقام الخوف ومقام زيادة الإيمان والتوكُّل»[١]، فالمؤمن الحقُّ هو من يتَّقي اللَّه، فينتفض قلبه وجلًا وخَشية كلَّما ذكره أو همَّ بمعصيته، وإذا تُليت آياته انشرح صدره؛ فازداد على إيمانه يقينًا يمنحه تسليمًا تامًّا وطواعية مُطلَقة لمن بيده الأمر كلُّه خيره وشره، نفعه وضرُّه، أمنه وخوفه.

ومعنى ﴿وَجِلَتْ﴾: «فزعت لذكره استعظامًا وتهيُّبًا من جلاله وعِزَّة سلطانه وبطشه بالعُصاة وعقابه»[٢]، ويرتبط الذِّكر هنا بالعظَمة وتذكُّر العقاب حين يعصي الإنسان أو يهُمُّ بمعصية؛ فيذكر ربه، فينزع عنها فَرَقًا[٣]. فهو خلاف الذِّكر في قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٢٣]؛ فمعناه ذكر رحمته ورأفته وثوابه[٤].

وإسناد الوجل إلى القلوب مع أنَّه من أعمالها؛ فيه تأكيد على نقاء معدنهم وكرم جوهرهم، فالخوف من اللَّه أصل من أصول العقيدة لا يراؤون به، بل يسكن قلوبهم التي تتوجَّه مخلصة إلى اللَّه؛ فتتلقَّى أوامره بوعي كامل؛ مما يجعلها ترتعش عند ذكر عقابه، فتأتمر بأوامره، وتكفّ عن زواجره[٥].

وما أعظم ما دلَّ عليه قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ فأسماعهم وقلوبهم حاضرة متدبِّرة لكلامه، مما يزيدهم خَشية من التعرُّض لوعيده، وثباتًا ويقينًا من تحقُّق وعده لأوليائه، وكلُّ هذا مما يزداد به الإيمان[٦].

(١) البحر المحيط: ٤/ ٤٥٧ .
(٢) الكشاف: ٢/ ١١٣.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١١/ ٢٩.
(٤) ينظر: الكشاف: ٢/ ١١٣، والبحر المحيط: ٤/ ٤٥٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٦٦.
(٦) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٣١٥.

وفي التعبير بالماضي ﴿وَجِلَتْ﴾ و﴿زَادَتْهُمْ﴾ دلالة على تحقُّق الوجل وزيادة الإيمان.

وأوثر في ﴿ذُكِرَ﴾ و﴿تُلِيَتْ﴾ البناء للمفعول للتعظيم، وتعميم الفاعل فسواء ذكروه أو ذكره غيرهم فالوجل واقع منهم؛ إذ يستحضرون معانيه قلبًا وقالبًا، موقنين بعِظَم القائل وشرَف المقُول، يستشعرون مراقبته لهم في كلِّ شاردة وواردة.

ولمَّا كانت مخافة اللَّه من أهمِّ سمات المؤمنين كانت ثمرتها ثباتًا واطمئنانًا في أحلك الأوقات، كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].

وردت الآية بعد مثَل ضربه اللَّه تعالى للكلمة الطيِّبة والكلمة الخبيثة، ففي ظلِّ الشجرة الطيبة الثابتة يجد المؤمن برد اليقين والاطمئنان والأمن في الدنيا والآخرة، وفي سَموم الشجرة الخبيثة يتكاثر الضلال والاضطراب والخوف.

ولننظر إلى آفاق الأمن والاطمئنان التي يفتِّحها لفظا ﴿يُثَبِّتُ. . . ٱلثَّابِتِ﴾ فأصلهما واحد يدلُّ على دوام(١)، وبهما تُعرض على الذِّهن صورة الحياة مليئة بأعاصير الفِتن والمخاوف تعصف بكلِّ نفس بعيدة عن المنهج الحقِّ ما بين أهواء وشهوات ومحن وشُبهات، فما الذي يجعل المؤمن يصمد أمام كلِّ ذلك؟ إنَّه يستمدُّ قوَّته من اللَّه، فيقف ثابتًا مطمئنًّا عصيًّا على القلق مستعدًّا لمواجهة ما يلاقيه من البلايا والرزايا محتفظًا أبدًا باتِّزانه، يستمسك بشهادة أنْ لا إله إلَّا اللَّه محمد رسول اللَّه، القول الحقّ الذي لا يتزعزع(٢). تنتظم بها أموره؛ فلا يهتزُّ

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ثبت: ١٧٥.
(٢) ينظر: جامع البيان: ١٣/ ٦٥٧.

لوساوس إبليس وقبيله.

يزيد قوله: ﴿وفي الآخرة﴾ من إشراق الصورة؛ فما أعظم ذلك الأمن والتثبيت بدءًا بالسؤال في القبر أوَّل منازل الآخرة إلى موقف الحساب والمرور على الصراط إلى غيره من أهوال وكروب. وفي التعبير بالمضارع المضعَّف ﴿يُثَبِّتُ﴾ دلالة على قوَّة التثبيت وتجدُّده بتجدُّد العوارض المختلفة التي تحاول زلزلة ثوابت العقيدة، وفي إسناد ذلك التثبيت إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ ﷻ من التفخيم وبثِّ الأمن في النفس المؤمنة ما فيه، فهو وحده مَن يلهمها القول الثابت، تأمن به؛ فلا تتزعزع ولا يخامرها شكٌّ[1]. ومما يتمِّم براعة الأداء ضمُّ التاء وتفخيم اسم الجلالة بعدها؛ يسري لهما في النفس إحساس بعظَمة اللَّه المهيمن القدير، تستشعر فيه اطمئنانًا لا نظير له.

وتقييد التثبيت ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ - وهو الصادق الذي لاشكَّ فيه - يضفي على المعنى مزيدًا من القوَّة والتأكيد، مع ما تدلُّ عليه صيغة اسم الفاعل ﴿ٱلثَّابِتِ﴾ من الثبات والاستمرار. وفي تعريف الموصوف (القول) وصفته ﴿ٱلثَّابِتِ﴾ بـ(أل) العهديَّة مزيد تعظيم.

وما أبدع ما أضافه تغاير الصيغتين ﴿يُثَبِّتُ﴾ و﴿ٱلثَّابِتِ﴾ من براعة في الأداء ودِقَّة في التعبير، فلم يكن المعنى القرآنيُّ العظيم ليبقى على إبداعه لو قيل: يثبت اللَّه الذين آمنوا بقول يثبُت في الحياة الدنيا. يؤيِّد هذا ما قاله صاحب الدلائل في تغاير الدّلالة بين الفعل والمشتقّ؛ حين فرَّق بين دلالتي الخبر الاسميِّ والفعليّ في: زيد منطلِق، وزيد ينطلق، ذاكرًا أنَّ الفرق بينهما «لطيف تمسُّ الحاجة في علم البلاغة إليه. وبيانه أنَّ موضوع الاسم على أنْ يَثبُت به المعنى للشيء من غير

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٥٢.

أن ينقضيَ شيئًا بعد شيء، وأمَّا الفعل فموضوعه على أنْ ينقضي تجدُّد المعنى المثبَت به شيئًا بعد شيء... وإن شئتَ أن تحسَّ الفرق بينهما حيث يلطف... فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ﴾ [الكهف: ١٨]، فإنَّ أحدًا لا يشكُّ في امتناع الفعل هاهنا، وأنَّ قولنا: كلبهم يبسط ذراعيه، لا يؤدِّي الغرض. وليس ذلك إلَّا لأنَّ الفعل يقتضي مزاولةً وتجدُّدَ الصِّفَة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولةٌ وتزجيةُ فِعل، ومعنًى يحدث شيئًا فشيئًا»[١]. وقال أبو حيَّان (ت٧٤٥هـ): «المضارع فيما ذكر البيانيُّون مشعر بالتجدُّد والحدوث بخلاف اسم الفاعل؛ لأنَّه عندهم مشعِر بالثبوت»[٢].

في مقابل ثبات المؤمنين يوحي لفظ ﴿يُضِلُّ﴾ باضطراب وحَيرة وعَماية، فأصله يدلُّ على ضياع وذَهاب[٣]، وفي صيغة المضارع المزيد ﴿يُضِلُّ﴾ وإسناد إضلالهم إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ ما يُشعِر بالرهبة وشِدَّة العقوبة وتجدُّدها.

(١) دلائل الإعجاز: ١٧٤، ١٧٥.
(٢) البحر المحيط: ١/ ٤١. أثبتت كثير من الدراسات انقسام اسم الفاعل من حيث الدلالة إلى شقين، أحدهما يدل على التجدد والحدوث والآخر على الثبوت، منها ما قام به د. محمد حسن عواد - بين يدي تحقيق نص لابن قاسم العبادي (ت٩٩٤هـ) حول اسم الفاعل ودلالته- جاءت بعد حصر مواضع استعماله في القرآن، قال في نتيجتها: «فألفيت الكثرة الكاثرة من هذه المواضع دالة على الثبوت لا الحدوث من مثل: عالم، الخاسرون، الكافرون، مسلمون» (رسالة في اسم الفاعل المراد به الاستمرار في جميع الأزمنة: ١٤). ومنها: (اسم الفاعل بين الاسمية والفعلية لفاضل الساقي: ٨٠، ٨١)، ودراسة أخرى تطبيقية للدكتور عبد الحميد هنداوي حول التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، ذكر فيها نماذج كثيرة من القرآن الكريم وظفت فيها صيغة اسم الفاعل للدلالة على الثبوت في أحداث اليوم الآخر خاصة؛ ليتم بها إثبات تغاير الصفات في الدنيا وتجدُّدها، وثباتها ودوامها يوم الخلود، فحمل الثابتة على النسب كقولهم: لابن وتامر، مع ما في هذه النسبة من ثبوت الصفة لصاحبها الموصوف بها (ينظر: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: ٢٤٠، ٢٤١).
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ضل: ٥٧٢.

وما أعدل ما جازاهم به لظلمهم أنفسهم بإصرارهم على الشرك! إنَّ الشرك لظلم عظيم.

ولعلَّ في جرس ﴿يُضِلُّ﴾ ما يُوحي بخفَّة تلك النفوس وتزعزُعها؛ إذ لم يسعَوا إلى تقويتها، فالياء والضاد حرفان رخوان، وفي تضعيف اللام المذلَقة[١] المنحرِفة[٢] المنفتِحة[٣] ما يوحي بسهولة تقبُّل تيك النفوس الضعيفة للانحراف.

ورد في الصحيحين عن البراء بن عازب عن النبيِّ ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ قال: «نزلت في عذاب القبر، يُقال له: من ربك؟ فيقول: ربي اللَّه، وديني دين محمد ﷺ، فذلك قوله: ﴿يثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»[٤].

قال ابن القيِّم (ت٧٥١هـ): «تحت هذه الآية كنز عظيم من وفق لمظنَّته، وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غَنِم، ومَن حُرمه فقد حُرم. وذلك أنَّ العبد لا يستغني عن تثبيت اللَّه له طرفة عين. فإن لم يثبِّته وإلَّا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما. وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤]، . . . فالخلق قسمان: موفَّق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت. . . وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبِّت اللَّه بها عبده في الدُّنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق

---

(١) الذَّلاقة في اللغة تعني الحدَّة والسرعة (ينظر: معجم مقاييس اللغة: ذلق: ٣٦٨).

(٢) الانحراف بمعناه اللغوي: الميل والعدول (ينظر: معجم مقاييس اللغة: حرف: ٢٣٧، ومنهاج التلاوة: ٦١).

(٣) الانفتاح لغة: الافتراق، وفي الاصطلاح: انفتاح ما بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بالحرف، فلا ينحصر الصوت بينهما (ينظر: منهاج التلاوة: ٥٩).

(٤) أخرجه البخاري: ١٠٧، رقم: ٣٩١، ومسلم: ١١٧٥، رقم: ٧٢٢٠، وصحيح أسباب النزول: ٢٩٢.

من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوُّنًا، وأقلِّهم ثباتًا. . . فما مُنِح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم»[١].

فما أعظم ذلك التثبيت في أهوال تجِفُ لها القلوب صوَّرها اللَّه في كتابه أصدق تصوير! فقال - عزَّ مِن قائل-: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾ [النازعات: ٦-٩]

صورة لرعب مشوب بالذلِّ، ترتعش فيها قلوب الكفرة وتضطرب مذعورة، وتُرى أبصارهم ذليلة منكسِرة، وذلك حين ترجُهم أهوال الساعة بنفختيها، قال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-: «الراجفة النفخة الأولى، والرادفة النفخة الآخرة»[٢].

ويلقي لفظا ﴿تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ بظلال الهول على الموقف؛ فأصلهما يدلُّ على اضطراب. يُقال: رَجَف الشيء يرجُف رَجْفًا ورُجُوفًا ورَجَفَانًا ورَجِيفًا وأرجَفَ، أي: خَفَق واضطرب اضطرابًا شديدًا[٣]، ففي نفخة الفناء ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ، تتزلزل العوالم ويفنى كلُّ ما فيها.

ويصحب نفخة البعث ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ بعثرة القبور وجمع الخلائق ونصب الصراط ونشر الصحف.

ما أبلغ ما أسهم به الأداء الصوتيُّ في ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ في تصوير حال الفزع والاضطراب يومئذ! فالآيات قصيرة الفواصل شديدة الوقع، وفي تكرير الرَّاء وتغليظها مع تفخيم حرف المدِّ بعدها، ثُمَّ الجهر والشِدَّة والقلقلة في الجيم

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ١/ ١٦٠.
(٢) جامع البيان: ٢٤/ ٦٥.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: رجف: ٤٢٣، ولسان العرب: ٣/ ٤٢.

والدَّال ما يُشعِر بجوٍّ من الاضطراب والهول، وتوحي صفة الذَّلاقة في الفاء والرَّاء بخِفَّة تتحقَّق معها سُرعة الحدَث، وفي الوقوف على الفاصلة بالهاء ما يُعطي فرصة للمتلقِّي أن يُخرج أنفاسه التي تحتبس شعورًا بالموقف!

هذا الرجيف الكونيُّ ينطوي على وجيف بشريٍّ، يصوِّره لفظ ﴿وَاجِفَةٌ﴾ واصفًا سرعة حركة القلوب وانخلاعها من أماكنها ليتناسب مع قوَّة الحدَث وشِدَّة الاضطراب وسُرعة الانقلاب(١).

وما أبدع ما أحدثه الجناس وتوافق الفواصل ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ و﴿وَاجِفَةٌ﴾ مِن تناسُب في الصوت والمعنى!

ويرسم لفظ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ صورة حيَّة للأبصار؛ مرآة أحوال الإنسان وكوامن نفسه، حيث يشعر الكفَرَة بهول الموقف الرهيب، ويستيقنون فداحة الذَّنب وبشاعة المصير؛ فتُرى أبصارهم متطامنة منكسرة(٢).

يظهر إبداع توظيف صيغة اسم الفاعل في تصوير هذا الموقف جليًّا فقد دلَّ لفظا ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ على معنى النسبة مع ما فيه من ثبوت للموصوف بها، ففي نسبة تلك الأوصاف لليوم الآخر دلالة على ثباتها المؤكَّد، وفي وصف الإنسان بها ﴿وَاجِفَةٌ﴾ و﴿خَٰشِعَةٌ﴾ نكتة لطيفة؛ تشير إلى مُفارقة عجيبة بين المتغيِّر والثابت، ومقابلة بين أحوال إنسانيَّة متقلِّبة متغيِّرة في الحياة الدُّنيا، أصبحت ثابتة قاطعة يوم الخلود(٣).

ومن الآيات التي صوَّرت أهوال القيامة قـول اللَّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ

(١) سبق بيان معنى الوجف في مرادفات الخوف ص٤٥.
(٢) التفسير البياني: ١/ ١١٨.
(٣) ينظر: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: ٢٤٠، ٢٤١.

﴿٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٣٧﴾[عبس: ٣٣-٣٧].

هول مروِّع تسوده السرعة والفرار، تنقطع معه الوشائج، فتطير النفْس شَعاعًا فارَّة من أقرب الأحباب، وتنحبس في همِّها لا تتعدَّاه، بعدما أذهلتها أفزاع الموقف وكروبه.

يفجأ الأسماع فيه صوت ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ وأصل معناها الصرخة المفرطة التي تكاد تصمُّ الآذان لشدَّتها وعظيم وقعها، والداهية العظيمة التي يصمُّ نبؤها الآذان لصعوبته[(١)]، يُقال: صخَّ الصوت الأذن يصُخُّها صَخًّا، أي: يطعنها فيصمُّها لشدَّته[(٢)]، وهي اسم فاعل من أسماء القيامة[(٣)]، ولم يرد في غير هذه الآية، أوثر التعبير به هنا ليُسهم بمعناه وجرسه القويِّ في تصوير الهول الذي يُهيمن على الموقف.

وفي إسناد فعل المجيء الماضي ﴿جَآءَتِ﴾ إلى ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ ، «تقرير لأنَّه حادث فعلًا. وقد صدِّر بـ (إذا)، فصرفته إلى المستقبل دون أن يفقد التعبير أثره الذي يوحي به استعمال الماضي، بدلًا من المستقبل الصريح. على أنَّ المباغتة في (إذا) لها أثرها البيانيُّ في هذا الموقف، وهذه... ظاهرة أسلوبيَّة، تسيطر على الحديث عن اليوم الآخر الذي يأتي بغتة، إمعانًا في الترهيب»[(٤)].

وفي قوله: ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «حذرًا من مطالبتهم إيَّاه بما بينه

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٢٤/ ١٢٤، والمحرر الوجيز: ٥/ ٤٤٠، ونظم الدرر: ٨/ ٣٣٢، ٣٣٣.
(٢) ينظر: لسان العرب: صخخ: ٤/ ١٩.
(٣) ينظر: جامع البيان: ٢٤/ ١٢٥.
(٤) التفسير البياني: ١/ ٨٧.

وبينهم من التبِعات والمظالم»[١]؛ وذلك من شِدَّة الهول[٢].

وفي إيثار الفِرار دون الهرب نُكتة بلاغيَّة، فمع أنَّ معاجم اللغة تفسِّر أحدهما بالآخر[٣] إلَّا أنَّ بينهما في الاستعمال القرآنيِّ فرقًا دقيقًا. فلم يَرِد الهرب إلَّا في موضع واحد هو قوله تعالى حكاية عن الجنِّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾﴾ [الجن:١٢]، فكأنَّ الهارب يرتِّب ويفكِّر في طريقة خفيَّة للجرْي، بخلاف مَن لا يهمّه إلا الفرار بجلده، فيُرى راكضًا لا يلوي على شيء[٤].

وأوثر التعبير بـ ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ دون الإنسان؛ لما فيه من معنى المروءة التي يدلُّ نسيانها في هذا الموقف على عِظَم الهول[٥].

ويصوِّرقوله ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ مشهد المرء يفرُّ من ألصق الناس به، وينسلخ ممن كانوا ملاذه وعونه وأمنه ملتمِسًا النجاة لنفسه من الهول. قُدِّم أدناهم رُتبة في الحبِّ والذَّبِّ والتَّبِعة على سبيل الترقِّي[٦]. وما أبلغ الإطناب بتَعداد الأقارب في هذا السِّياق لإحضار صورة الهول في نفس السامع، يرى فيها نفسه يفرُّ من أقرب أحبابه وأكثرهم مُلازمة له، بخلاف ما لو قيل: يوم يفرُّ المرء من أقرب قرابته مثلًا.

لقد اجتمع في هذه الآيات على قِصَرها أبلغ ما يفيد الهول الذي لا يترك للمرء

---

(١) جامع البيان: ٢٤/ ١٢٥.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٤٤٠.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: هرب: ١٠٣٠، ولسان العرب: ٦/ ٣٢٤.
(٤) ينظر: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن: ٢٨٢، ٢٨٣.
(٥) ينظر: نظم الدرر: ٨/ ٣٣٣.
(٦) ينظر: الكشاف: ٤/ ١٨٧، ونظم الدرر: ٨/ ٣٣٣.

بقيَّة رُشد، فمن المتعارَف عليه أنَّ الفرار مسبَّة لدلالته على الذُّعر والجبن. وكون المرء يترك أعزَّ الأعزَّة فهذه مسبَّة عُظمى لا يقع فيها إلَّا من طار صوابه من شِدَّة الفزَع، ومنه ينتقل الذِّهن إلى انتفاء الانشغال بأيِّ شيء بلْه الاشتغال عمَّا دون ذلك(١) بدلالة الأولى، لينحصر الذِّهن في حدود النفس فقط ويفصلها عن محيطها.

ولتكتمل دِقَّة المعنى أوثر التعبير بـ ﴿وَصَـٰحِبَتِهِۦ﴾ دون امرأته أو زوجه؛ إيماء إلى القرب والملازمة؛ لأنَّ المرأة قد تكون سيِّئة فلا يكون فرار المرء منها دلالة على الهول(٢)، فالملحوظ في الاستعمال القرآنيِّ أن يرد لفظ (امرأته) إذا اختلَّت عُرى الحياة الزوجيَّة أيًّا كان نوع الاختلال. و(الزوج) في اللُّغة يطلق على كلّ ما يقترن بآخر مماثلًا له أو مضادًّا، فأصله يدلُّ على المقارنة فقط(٣)، أمَّا لفظ ﴿وَصَـٰحِبَتِهِۦ﴾ فيجمع مع المقارنة مُقارَبة، والصاحب الملازم والمعاشر، والمصاحَبة تكون بالبدن وهو الأكثر أو بالعناية والهمَّة، ولا يُقال في العُرف إلَّا لمن كثرت ملازمته، فالمصاحَبة تقتضي طول لُبثه(٤). فكلمة ﴿وَصَـٰحِبَتِهِۦ﴾ هنا تشفُّ عن معنى قرآنيٍّ دقيق للغاية؛ لأنها واسطة بين كلمتين بديلتين: زوجة وحبيبة، فهي تنبئ عن علاقة صافية تخلو مما يكدِّر(٥). وتضفي صيغة اسم الفاعل على الكلمة معنى الثبوت والملازمة، مما يعمِّق درجة الهول مع الفرار.

ويعلِّق صاحب الظلال على قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ «فلكلٍّ نفسه وشأنه، ولديه الكفاية من الهمِّ الخاصِّ به، الذي لا يدَع له فضلة من

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ١٢٠.
(٢) ينظر: السابق: ٣٠/ ١٢٠.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: زوج: ٤٤٣، والمفردات: ٢٢٠.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: صحب: ٥٦٣، والمفردات: ٢٧٨، ولسان العرب: ٤/ ١٥.
(٥) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ١٦٢- ١٦٦.

وعي أو جهد... والظلال الكامنة وراء هذه العبارة وفي طيَّاتها ظلال عميقة سحيقة، فما يوجد أخصر ولا أشمل من هذا التعبير لتصوير الهمِّ الذي يشغل الحسَّ والضمير»(١).

ويضيف صاحب التفسير القرآنيّ أنَّ «هذه هي حركة النفس الإنسانيَّة ومعطيات شعورها في حال الفرار من الخطر والتماس سبيل النجاة، فإذا كان الإنسان واقعًا وليد الخطر فعلًا، وقد أحاط به من كلِّ جانب، وعَلِقت به النار من رأسه إلى أخمص قدمه، فما الحركة الشعوريَّة للنفس في دفع هذا الخطر، وإطفاء النار المشتعلة فيه؟ نجد الجواب على هذا في سورة المعارج إذ يقول سبحانه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١١-١٤] إنَّ الحركة الشعوريَّة هنا تأخذ اتجاهًا عكس الأوَّل... ففي موقف الفرار، هناك شيء من السَّعة، يتيح للإنسان أن يتحرَّك فيه نحو الجهة التي يتوهَّم أنَّ له سبيلًا إليها، وإن لم يكن ثمَّة سبيل. أمَّا موقفه وقد أحاط به البلاء واشتملت عليه النار، فإنَّه ليس ثمَّة إلَّا أن يمدَّ يده إلى أقرب شيء يمكن أن يصل إليه، ليقيم منه ستارًا على جسده الذي تأكله النار، وقد يكون هذا الشيء بعض أعضاء جسده هو كَيَدِهِ التي يدفع بها النَّار عن وجهه مثلًا!! وأقرب شيء إلى الإنسان بعد أعضائه هم بنوه، ثُمَّ صاحبته... كلّ هؤلاء يتَّخذ منهم دروعًا واقية له، يرمي بهم في وجه البلاء واحدًا بعد واحد، ولكن هيهات أن يجد من أيٍّ وقاية من هذا البلاء. إنَّه مجرَّد أمل يراوده لو أمكنته الفرصة من تحقيقه، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل!»(٢).

وللدكتور محمد الصامل لطيفة حول ترتيب المفردات في هذا السياق، هي «أنَّ

---

(١) في ظلال القرآن: ٨/ ٤٧٢، ٤٧٣.
(٢) التفسير القرآني: ٣٠/١٤٦٣، ١٤٦٤.

الترتيب كان كذلك على أسلوب الترقّي، ولكن من زاوية مختلفة هي قدرته على التحكُّم بهم، فبدأ بمن يملك أمرهم، وهم بنوه، ثُمَّ بعدهم صاحبته التي في عصمته، ثُمَّ أخوه الذي تربطه به علاقة الأخوَّة، لكنَّه منفصل عنه، ثم قرابته الأدنين... يلي ذلك ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهم الذين لا سلطان له عليهم»(١).

وإذ أجد الكفاية فيما ذكره الأفاضل، أعود على ما بقي من ألفاظ تصوِّر المشهد في سورة عبس، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس:٣٨-٤١].

بعد تصوير حال مفاجأة الفزع عموم الخلائق في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ يميز التصوير بين حال فريق السعداء الآمنين وفريق الأشقياء الخائفين حين العرض، فهذه وجوه مشرقة ناجية من الهول المريع، مطمئنَّة إلى رحمة ربها وعظيم فضله، فهي كما صوَّرتها الألفاظ بأوصاف بديعة متتابعة ﴿مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ تنساب في النفس بما تحمله من معاني الأمن والسعادة والنعيم المقيم، تقابلها أخرى يعلوها الغبار والفزع والذلَّة(٢).

ويكتسب تنكير لفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ في وصف حال كلٍّ من الفريقين دلالة مضادَّة لقرينه حسب السياق، ففي انضمامه إلى سياق أهل الجنَّة تفخيم وتعظيم، أمَّا في وصف أهل النَّار فدلالته التحقير.

تأمَّل وفاء الألفاظ بمعانيها وإسهامها في وصف تباين الموقفين، فالوجوه المشرقة تحكي جمال الصبح وضياءه وتسفر عن انطلاق وسعادة وأمل، وتعكس

---

(١) قضية الفصل والوصل بين المفردات عند البلاغيين: ٣٠٤.
(٢) ينظر: جامع البيان: ١٢٧/٢٤.

الوجوه المعتمة المغبرَّة انقباضًا وحزنًا وذلًا؛ فكأننا بالوجوه شاخصة أمامنا من قُوَّة التعبير القرآنيِّ ودِقَّة تصويره[١].

وتُقرأ في ملامح الوجوه حكاية أمن ونعيم، أسعد اللَّه به عباده المؤمنين، يقابله خوف وهلع شقِي به من حاد عن المنهج الحقِّ، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥].

مشهدان متباينان تظهر آثارهما جليَّة في ملامح الوجوه، أولهما سعادة غامرة ونعيم مقيم يعجز الإدراك عن تصوُّر حقيقته، سعادة تتضاءل أمامها كلُّ سعادة! ها قد تحقَّق الوعد الذي وُعدوا به في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦][٢]؛ فإذا وجوههم أجمل ما تكون إشراقًا وصفاءً وحُسنًا[٣]، يرسمها لفظ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ مصوِّرًا آثار الأمن والسعادة، فأصله يدلُّ على جمال وخلوص، يقال: نَضَر الوجه واللون ونضُرَ ونضِرَ يَنضُر نَضْرًا ونَضْرة ونَضَارة ونُضُورًا فهو ناضر ونَضِر إذا حسُن[٤]. ولا عجب أن تُرى بهذه الحال العظيمة وهي آمنة من الأهوال متمتِّعة بأعظم لذَّة وجزاء، «وحُقَّ لها أن تنضُر وهي تنظُر إلى الخالق»[٥].

صورة حسِّيَّة رائعة تستحوذ على اللبِّ وتنتهي بسامعها إلى الإيمان العميق إن أدرك عِظَم الجزاء فسعى لنيله!

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدريِّ وأبي هريرة - رضي الله عنهما - أنَّ أناسًا

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٨/ ٤٧٣.
(٢) ثبت عن النبي ﷺ أن الزيادة هي النظر إلى وجه اللَّه. ﷻ أخرجه مسلم: ٧٠٩، رقم: ٤٥٠.
(٣) ينظر: جامع البيان: ٢٣/ ٥١٠، وحاشية شيخ زاده: ٨/ ٤٢٢.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: نضر: ٩٩٥، ولسان العرب: ٦/ ٢٠٥.
(٥) جامع البيان: ٢٣/ ٥٠٧، والمحرر الوجيز: ٥/ ٤٠٥.

قالوا: يا رسول اللَّه هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوًا؟ قلنا: لا، قال: فإنكم لا تضارُّون في رؤية ربِّكم يومئذ إلَّا كما تضارُّون في رؤيتهما»[(١)].

وما أجمل الجناس بين ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ و﴿نَاظِرَةٌ﴾ وما أحدثه من تلاؤم بين الفاصلتين!

يقابل هذا المشهد الآمن مشهد تعاسة وخوف، فيه وجوه مظلمة متقبِّضة حُجِبت عن النظر، وحُرِمت من كلِّ خير؛ فتراكمت عليها المخاوف والهموم، يصوِّره لفظ ﴿بَاسِرَةٌ﴾ ويجلو ما يعانيه صاحبه من الشدَّة والرعب - نسأل اللَّه السلامة -، وقد ذكر ابن فارس أنَّ أصله وقوف الشيء وقلَّة حركته[(٢)]. يقال: بَسَرَ يبْسُر بَسْرًا وبُسُورًا، إذا نظر بكراهية شديدة، ووجهٌ باسِر وبَسْر؛ أي: عابس كالح[(٣)].

لقد بدت وجوه الكَفَرة مظلمة جامدة لا تتحرَّك من الهول «عابسة كالحة قد أظلمت ألوانها، وعُدمت آثار السرور والنعمة فيها... فأيست من رحمة اللَّه، وأيقنت أنَّ العذاب نازل بها»[(٤)]. وهكذا يصوِّر لفظ ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أمقت منظر لتلك الوجوه الشقيَّة.

ويمضي السياق بنا نحو لفظ آخر يصوِّر فظاعة الفزع الذي يعصف بنفوس أصحاب النار، فيوقنون بداهية عظيمة مؤلمة تحيق بهم فتقصم ظهورهم، وتكسر فقارهم، وتحطِّم جبروتهم[(٥)]. وفي تنكير ﴿فَاقِرَةٌ﴾ وإفراد الجنس دلالة على عِظَم الداهية[(٦)].

(١) أخرجه البخاري: ٦١٩، رقم: ٧٤٣٧، ٧٤٣٩، ومسلم: ٧١٠، رقم: ٤٥١ .
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: بسر: ١١٧.
(٣) ينظر: لسان العرب: بسر: ١/ ٢٠٦.
(٤) حاشية شيخ زاده: ٨/ ٤٢٢، ٤٢٣.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٣٠، والمشاهد في القرآن الكريم: ١٧٨ .
(٦) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٣١.

إنها لصورة رهيبة ترسم مشاعر نفسيَّة متباينة ببراعة تصويرها، وما يوحي به وقعها الصوتيُّ المنبعث من ألفاظها وفواصلها القصيرة. وتضفي صيغة اسم الفاعل على هذه الألفاظ ثبوتا ودوامًا(١)، كما يضفي تنكيرها دلالة على التعظيم في وصف وجوه المؤمنين، والتحقير في وصف من سواهم. وفي وقع اللفظ واختلاف إيحائه تبعًا لما في السياق - إذ إنه جزء لا يتجزَّأ من صورة المعنى - نجد الاختلاف بين إيحاء الفاصلة؛ ففي الحديث عن السُّعداء يشعر المتلقِّي بأمن ونعيم يسودان الموقف، وكأنما نسمع مع غُنَّة النون ترانيم السَّعادة على ألسنة أهل الجنّة، وتنهيدات الرَّاحة بعد عناء تنطلق مع صوت الهاء وقفًا في الفاصلة ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ و﴿نَاظِرَةٌ﴾ أمَّا في تصوير الأشقياء فيبرز حرف الباء الشديد المقلقل ملائمًا لحال عصيبة يكابدها أهل الجحيم تنطلق لها تأوُّهاتهم وزفراتهم مع همس الهاء.

وفي مشهد آخر من تلك المشاهد نتمثَّل العرض الأكبر تشهده جموع تحتشد في صعيد واحد على هيئة مهيبة يصوِّرها قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨].

يُرى فيه أهل الموقف جثيًّا على رُكَبهم أمام قاهر جبَّار منعِم متفضِّل، جحد أكثرهم نعَمَه السابغة، فويل يومئذ للمكذِّبين! ويبيِّن لفظ ﴿جَاثِيَةً﴾ شِدَّة الهول يومذاك، حيث تنحلُّ العزائم وتخور القُوى في ارتقاب الحساب المرهوب، خارت الأرجل عن حملهم، فإذ بهم جاثون على رُكَبهم.

وأصل ﴿جَاثِيَةً﴾ مِن جثا يجثو ويجثِي جُثُوًّا وجُثِيًّا، والجاثي الجالس على ركبتيه للخصومة، وهذه هيئة المذنِب، خاضع خائف ينتظر ما يكره(٢). لقد صوَّر

(١) ينظر: الإعجاز الصرفي: ٧٥.
(٢) ينظر: لسان العرب: جثا: ١/ ٣٧٦، والكشاف: ٣/ ٤٤٠، وعناية القاضي: ٨/ ٤٥٤.

اسم الفاعل هنا حال كلِّ أمَّة بين يدي مالك الملك باركة على الرُّكب مستوفزة[١] جِلسة المخاصم بين يدي الحاكم، ينتظر القضاء الحاتم[٢]. وفي جرسه ما يوحي بمعناه، فالشِّدَّة والجهر والقلقلة في الجيم توحي بعمق الاضطراب، الذي تخور له قواهم وتضعف عزائمهم مع رخاوة الثاء وهمسها.

وبعد هذا الحساب ينجِّي اللَّه المتقين، ويظلُّ الظالمون في جهنَّم يقاسون لهيبها كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢].

يصوِّر الفعل ﴿نُنَجِّى﴾ كيف يُستَلُّ الذين اتَّقَوا من النار، مما يبثُّ في النفس إحساسًا بالأمان من الهول العامّ الذي ذُكر قبله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وقد اختُلف في معنى الورود:

فقال ابن عبَّاس - رضي الله عنهما -: الورود الدخول. واستدلَّ على ذلك بأربعة مواضع من القرآن ورد فيها الورود بمعنى الدخول منها قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فيدخلها كلُّ برٍّ وفاجر، لكنَّ البررة يدخلونها وهي خامدة.

وقال قتادة: هو المرور عليها، فيردها الجميع حين يمرّون على الصراط المنصوب على متنها فناج مُسلَّم، ومكدَّس معذَّب[٣]، وهذا ما رجَّحه ابن جرير (ت٣١٠هـ). لقد كانت التقوى في الدُّنيا أداءً للفرائض، واجتنابًا للمعاصي سببًا لأمن أصحابها ونجاتهم من النار.

ولننظر إلى لفظ ﴿نُنَجِّى﴾ وما يشعُّ به من أمن وتشريف، فمجيئه مضارعًا

---

(١) استوفز في قِعدته إذا قعد منتصبًا غير مطمئن (لسان العرب: وفز: ٦/ ٤٦٨).
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ١٠٨، وروح المعاني: ١٣/ ١٥٣.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١٥/ ٥٩٥، ٦٠١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٨٤٢، وأضواء البيان: ٢/ ٥١٩.

مسنَدًا إلى الضمير المستتر العائد على نون العظَمة، فيه تفخيم وإشارة إلى لُطف اللَّه وكرمه، واحتفائه بأوليائه المتقين، وقد ورد له إلى جانب قراءة التضعيف ﴿نُنَجِّي﴾ أخرى بالتخفيف ﴿نُنْجِي﴾ قرأ بها الكسائيّ(١)، وفي كلتا القراءتين وفاء بالمعنى، ففي التضعيف مبالغة في الفعل وفي التخفيف سُرعة فيه(٢)، وكِلا المعنيين دالٌّ على كمال عناية تُشعِر بالأمان. وفي أصواته ما يعضد قُوَّة معناه نحو تكرار حرف النون المجهور المتوسِّط بين الشِّدَّة والرَّخاوة، ومجيء عين الفعل جيمًا تخرج من وسط اللسان، كأنما تحكي نجاة المتقين من وسط الأهوال، وفي صفات الجهر والشِّدَّة والقلقلة فيها ما يقابل قوَّة الفعل(٣).

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا۟﴾ في تعريفهم بالموصول وإيثار وصله بـ ﴿ٱتَّقَوۡا۟﴾ تنبيه صريح إلى أنَّ خوف اللَّه وتقواه في الدُّنيا سبب للنَّجاة في الآخرة، وأوثر التعبير بالماضي ﴿ٱتَّقَوۡا۟﴾ للدّلالة على تحقُّق التقوى منهم فيما مضى من دنياهم.

﴿وَّنَذَرُ﴾ أي: نترك، ففي مقابل تلك الألطاف الربَّانيَّة للذين اتَّقَوا، يُترَك الكَفَرة الفجَرة الذين أمنوا مكر اللَّه في الدنيا ﴿جِثِيّٗا﴾ أي: بروكًا على رُكَبهم لما يدهمهم من هول، خالدين في النار يقاسون لظاها(٤). والفعل ﴿وَّنَذَرُ﴾ مضارع أمات العرب ماضيه ومصدره، فلا يقال: وذِر ولا واذِر، بل تركه وهو تارك(٥).

تُرى ما سرُّ إيثار صيغة ﴿جِثِيّٗا﴾ عما سواها من جموع التكسير مثل: جُثًى وجُثِيّ(٦)، ولِمَ عُدل عن التصحيح جاثين إلى التكسير؟

---

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر: ٢/٢٥٩، ٣١٨.
(٢) ينظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية: ٤٤٦.
(٣) ينظر: الخصائص: ١/٥٠٧.
(٤) ينظر: جامع البيان: ١٥/٦٠٦، وغريب القرآن للسجستاني: ١٧٩.
(٥) ينظر: لسان العرب: وذر: ٦/٤٢٣.
(٦) تحتمل لامه أن تكون واوًا أو ياءً، فإن كانت ياء فأصله جُثُوْي اجتمعت فيه الواو والياء وسبقت =

ورد فيها قراءتان ﴿جِثِيًّا﴾ أولاهما بالكسر وقد قرأ بها حمزة والكسائي ووافقهما حفص، والأخرى بالضم ﴿جُثِيًّا﴾ قرأ بها باقي السبعة[١]. والقراءتان - كما لا يخفى- متساويتان في البلاغة، كلٌّ منهما تدلُّ على المعنى، ففي الكسر إيحاء بالذلَّة والمهانة، وفي انتقال اللسان من الضمِّ إلى الكسر مع ما فيه من مشقَّة؛ إيحاء بما يعروهم، وتقوَّى الياء بالتضعيف في كلتيهما لتوحي بشِدَّة تلك الحال، وهذا التناسب بين الجرس بإيحائه ومعناه مما يشهد بجلال النظم الحكيم، وفيهما دون صيغة التكسير الثالثة (جُثًى) رُوعي «التناسب بين الفواصل، وهو حين لا يعدو على التناسب بين المعاني، ولا يقسر اللفظ على غير موضعه فنٌّ رفيع من فنون البيان»[٢].

وثمّة لطيفة في العدول عن جمع التصحيح؛ إذ لا يجمع عليه إلَّا العاقل، بينما التكسير يجمع عليه غيره كذلك، فلأنهم ظلموا أنفسهم استحقُّوا الخروج عن زُمرة العقلاء.

أوَ كان المعنى دون هذا اللفظ المصوِّر بمعناه وجرسه باقيًا على إبداعه في إبراز المعنى لو وُضع مكانه جُثًى أو بروكًا أو مستوفزين؟!

والخوف من اللَّه ركيزة مهمَّة لتحقيق العبوديَّة، فطر اللَّه عليه كلَّ ما في الكون من مخلوقات؛ فلا ينفكُّ إلَّا عن الفَجَرة الذين غلبت عليهم شِقوتهم، وتمكَّنت منهم البِدَع والأهواء، فحادت بهم عن الفطرة السليمة والمنهج القويم، فأضاعوا

= إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء ثم أدغمت في الثانية، وكسرت ما قبل الياء للمناسبة، ويجوز أيضا كسر فائه للتناسب (ينظر: لسان العرب: جثا: ١/ ٣٧٦، وأوضح المسالك: ٤/ ٣١٨، ٣١٩) وإن كانت لامه واوًا فأصله (جُثُوْوٌ) قلبت الواو المتطرفة ياء لأنه جمع على فُعُول (جثوي) فاجتمعت الواو والياء - كما سبق- في الياء (ينظر: معجم مفردات الإعلال والإبدال: ٧٨، ٧٩).

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر: ٢/ ٣١٧.

(٢) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ١٨٩.

نعمة تكريمهم على سائر المخلوقات، وغدت الجمادات أفضل منهم؛ تؤدّي حقّ وجودها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

أتت هذه الآية تعقيبًا على المعجزات العظيمة التي جرت لبني إسرائيل، آخرها قِصّة إحياء الميت بقدرة اللّه، حين ضُرب ببعض البقرة ففضح قاتله! وكان من شأن تلك الخوارق أنْ تستثير المشاعر إلى الإحساس بقُدرة اللّه وعظمته واتِّباع هديه، إلّا أنَّ القلوب القاسية لم تلِن إلى ذكر اللّه، ولم تندَ بطاعته، فأيّ معنًى للحياة فيها! لقد قيست بالحجارة مع الفارق الجوهريِّ بين أحيا الأحياء، وأجمد الجمادات، وإذ بتلك القلوب الصمّاء تتخلّى عن حياتها، فتغدو صلبة غليظة تتفوّق على الحجارة في أخصّ صفاتها. قاسية لا تنبض بمثقال ذرّة من خشية اللّه، تفضُلها الحجارة خشية وامتثالًا للأوامر. قال مجاهد: «كلُّ حجر يتفجّر منه الماء، أو يتشقّق عن ماء، أو يتردّى من رأس جبل، فهو من خشية اللّه عزّ وجلّ، نزل بذلك القرآن»(١).

ما أبدع اختيار الحجارة رمز القَسوة والصَّلابة في هذا التشبيه! إذ هي خلاف الحديد الذي قد يلين، أو الخشب الذي قد ينكسر، ثمَّ إنَّ علاقة أولئك الجهلة بالحجارة وثيقة، فقد ارتبطت بها كثير من معجزات نبيِّهم الكريم عليه السلام كما حكى القرآن: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ [البقرة: ٦٠]

﴿يَتَفَجَّرُ﴾ «التفجُّر التفتُّح بالسَّعة والكثرة»(٢). أوثر المضارع لاستحضار

(١) جامع البيان: ٢/ ١٣٦.
(٢) الكشاف: ١/ ٧٧.

الصورة والدّلالة على التجدُّد، كما اختيرت صيغة المطاوعة إشعارًا بالانقياد للأوامر الإلهيَّة العظيمة، وفي التضعيف (يتفعَّل) دلالة على الشِّدَّة والكثرة. واستُغني عن ذكر الماء بذكر ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ إشارة إلى سُرعة الاستجابة، وهذا مما يثير في أذهان المخاطبين حالة حدثت أمامهم حينما أوحى اللَّه إلى موسى عليه السلام: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]. وفي أصواته ما يدعم معناه أجمل دعم، فالفاء حرف مذلَق منفتِح مستفِل كأنما يوحي بحالة الضَّعف التي تعتري المخلوق أمام عَظَمة خالقه، يليه الجيم الشديد المجهور المقلقَل، كأنما يصور تحرُّكه في هذا الحدَث العظيم، فتسري معه رِعدة وإحساس بالعظَمة يُسهم في إبرازها تفخيم الراء مع ضمِّها وتكريرها.

ويدلُّ أصل ﴿يَشَّقَّقُ﴾ على انصداع[1]، فتشقُّق الحجارة تصدُّعها، وأصله (يتشقَّق) ولكنَّ التاء أدغمت في الشين فصارت شِينًا مشدَّدة مما منحه فضل قوة في الجرس. وكأنما توحي أصواته بمعناه، فيوحي التفشِّي في الشين مع تضعيفها بسرعة انتشار الخشية في الحجارة مما يجعلها تضطرب مع القلقلة في القاف المضعَّفة، تليها المضمومة موحية بعِظَم تلك الحال.

﴿يَهْبِطُ﴾ «يتردَّى من أعلى الجبل»[2]. صوَّرت الألفاظ ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ و ﴿يَشَّقَّقُ﴾ و﴿يَهْبِطُ﴾ حالة الخشية التي تعتري الحجارة فعُذرت بها، ولم يُعذر شقيُّ ابن آدم الذي أعطاه اللَّه من صحَّة العقل، وسلامة النفس ما لم يُعطِ الحجر[3].

ومما يدعو إلى العجب في هذه الألفاظ اتِّفاقها في وجود حرف همس ينمُّ عن

(١) معجم مقاييس اللغة: شق: ٤٩٨.
(٢) الكشاف: ١/ ٧٧.
(٣) ينظر: جامع البيان: ٢/ ١٣٥.

الضَّعف أمام عظَمة الخالق، يليه حرفا قلقلة يشيران إلى الاضطراب والتحرُّك من خشية اللَّه!

ومن بديع التخلُّص تأخُّر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ في النظم؛ ليتمَّ به ظهور أفضليَّة الحجارة على قلوب بني إسرائيل؛ إذ نهايتها الامتثال للأمر التكليفيِّ مع تعاصي قلوبهم عنه[١]. وأقبح بالكائن الحيِّ حين يكون أقلَّ مما دونه مع أنَّ اللَّه قد كرَّمه بالعقل والفهم والتمييز!

قال ابن عاشور: «والخشية في الحقيقة الخوف الباعث على تقوى الخائف غيره. وهي حقيقة شرعيَّة في امتثال الأمر التكليفيِّ؛ لأنها الباعث على الامتثال»[٢]. وجَعَل بعض المفسِّرين الخشية في الحجارة مجازًا عن قَبول الأمر التكوينيِّ[٣]، «ومذهب أهل السُّنة والجماعة أنَّ اللَّه تعالى علَّم الجمادات وسائر الحيوانات سوى العُقلاء عِلمًا لا يقف عليه غيره، فلها صلاة وتسبيح وخشية»[٤]. كما ورد في نصوص الوحيين القاطِعة ومنها قول اللَّه ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وما ورد في الخبر الصادق في حديث أنس بن مالك عن رسول اللَّه ﷺ«أحد جبل يحبُّنا ونحبُّه»[٥].

وعلى هذا فالقول الفصل في المعنى هو حمله على الحقيقة لأنها الأصل، ولعدم ورود ما يناقض ذلك، بل هو الموافق لظاهر القرآن، وهو مسلك السلف.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٥٤٧.
(٢) السابق: ١/ ٥٤٨.
(٣) ينظر: الكشاف: ١/ ٧٧، وأنوار التنزيل: ١/ ٣٤٧، وإرشاد العقل السليم: ١/ ١٤٩، والتحرير والتنوير: ١/ ٥٤٨.
(٤) معالم التنزيل: ٤٣، وينظر: جامع البيان: ٢/ ١٣٨، وتفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (سورة البقرة): ١/ ٢٤٨ .
(٥) أخرجه البخاري: ١١٧، رقم: ١٤٨٢، ومسلم: ٩٠٨، رقم: ٣٣٧٢، ٣٣٧٣ .

وقد علَّل أبو حيان ترتيب الألفاظ على هذا النسَق بتعليل بديع قال فيه: «ترتيب تقسيم هذه الحجارة ترتيب حسن جدًّا وهو على حسب الترقِّي؛ فبدأ أولًا بالذي تتفجَّر منه الأنهار، أي: خُلِق ذا خروق متَّسعة، فلم يُنسَب إليه في نفسه تفعُّل ولا فِعل، أي: أنها خُلقت ذات خروق بحيث لا يُحتاج أن يُضاف إليها صدور فِعل منها، ثم ترقَّى من هذا الحجر إلى الحجر الذي ينفعل انفعالًا يسيرًا وهو أن يصدُر منه تشقُّقٌ بحيث ينبع منه الماء، ثم ترقَّى من هذا الحجر إلى الحجر الذي ينفعل انفعالًا عظيمًا بحيث يتحرَّك ويتدهده من عُلو إلى أسفل، ثم رُسِّخ هذا الانفعال التامُّ بأنَّ ذلك هو من خَشية اللَّه من طَواعيته وانقياده لما أراد اللَّه تعالى منه»[1]. وفي تعريف الخشية بإضافتها إلى اللَّه فضل تفخيم لها وإعلاء لشأنها.

وهنا تساؤل عن سرِّ التعبير بلفظ الخشية في هذا المقام؟

الخشية خوف مقرون بعلم، فمَن علم عظمة اللَّه فلا بدَّ أن يخشاه[2]، وفيه تعريض بمن لا يؤدِّي حقَّ اللَّه ويخشى عقابه، فقد عُرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فأشفقن منها لما يعلمنه من عظمة اللَّه وثِقَل الأمانة، فلا غرو أن تتَّصف بالخشية كذلك.

وقد تخاف مظاهر الطبيعة أيضًا، وحُقَّ لها! ومن ذلك قول القاهر فوق عباده: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩١]

إن لم يرجُف الكون ذعرًا لمثل هذه المقولة الشنيعة المنكرة، فَلِمه؟! وما يكاد ذلك المنكر الفادح يجري على ألسنة الفَجَرة حتى تجبهه عبارة التبشيع والتبكيت

---

(١) البحر المحيط: ١/ ٢٦٧.
(٢) سبق بيان معنى الخشية ص٤٠.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾!! والإدُّ والإدَّة: الدَّاهية والأمر الفظيع الشنيع المنكَر، وجمعه الإدَاد، يقال: أدَّه الأمر يئدُّه ويؤدُّه إذا دهاه[١]. وبتأمُّل ما أداه هذا اللفظ في سياقه من معاني العجَب والخروج عن المعقول، يتجلَّى واضحًا دِقَّة تصويره لفداحة تيك الفرية؛ فقد فرَّق العسكري بينه وبين العجَب، بـ «أنَّ الإدَّ: العجَب المنكَر. وأصله من قولك: ندّ؛ أي: شرد، فالإدّ: العجب الذي خرج عما في العادة من أمثاله، والعجب: استعظام الشيء لخفاء سببه»[٢].

وما أبلغ ما أدَّاه الالتفات من الغَيبة ﴿وَقَالُوا۟﴾ إلى المواجهة بالخطاب ﴿جِئْتُمْ﴾ من التبكيت! فذمُّ الشخص في حضوره أشدُّ من ذمِّه في غَيبته، وفيه تنبيه على عِظَم ما قالوا، وزيادةُ تسجيل جرأتهم على اللَّه وتعرُّضهم لسخطه[٣].

ويهدر الكون كلُّه غضبًا لبارئه وفزعًا من انتهاك حرماته. وهو يحسُّ بالكلمة تصدم ثوابته، وتجافي ما وقر في ضميره من دعائم الإخلاص[٤].

قال ابن عبَّاس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «إنَّ الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلَّا الثقلين»[٥].

ويُسهِم فعل المقارَبة ﴿تَكَادُ﴾ في تصوير جلال الخطْب، فكأنَّ المرء نجا بأعجوبة من تفطُّر كان وشيكًا! وفيه إشعار بأنَّ ما يحدث من تفطُّر السماوات، وانشقاق الأرض، هو تعبير صادق عن سخطها، واستفداحها تلك الفِرية[٦].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٣٣، ولسان العرب: أدد: ١/ ٥١.
(٢) الفروق اللغوية: ٢٥٨.
(٣) الكشاف: ٢/ ٤٢٤، والبحر المحيط: ٦/ ٢١٨.
(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٥/ ٤٥٣.
(٥) جامع البيان: ١٥/ ٦٣٧.
(٦) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن: ١٥٢.

﴿يَنفَطَّرنَ﴾ يتصدَّعن، مِن فَطَر الشيء يفطُره فطْرًا فانفطر وتفطَّر، إذا تشقَّق على غير رُتبة مقصودة[١]، والمعنى هنا يتصدَّعن فزَعًا من ذلك البُهتان العظيم! والفعل هنا مضارع من صيَغ المطاوعَة على وزن (يتفعَّل) الذي يدلُّ على الكثرة والمبالغة[٢]، وفيه إشارة إلى بشاعة تلك المقولة؛ إذ تكاد السموات على إحكامها وعِظَمها تتصدَّع هولًا وفرَقًا!

ولعلَّ في أصوات الفعل ما يدلُّ على قُوَّة معناه؛ فالطاء حرف مُستعلٍ مُطبَق مُفخَّم مُقلقَل، وفي تضعيفه ما يمنحه فضل قُوَّة ويُشعِر بما تكاد له السماء تنطبق على الأرض هولًا! وبعده راء مفخَّمة مكرَّرة يرتعد اللسان لدى النطق بها كالرِّعدة تسري في النفس استنكارًا وفرَقًا!

ويُسهِم جمع كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ في تصوير الخطب المفظِع الذي يترامى إلى السبع الطِّباق؛ فتكاد على ما فيها من إحكام وشِدَّة وعلوٍّ تتفطَّر له هولًا وإعظامًا!! ولعلَّ في جمعها تعميمًا لشمول ذلك الاضطراب كلّ سُكَّانها. وقد أُسندت نون الإناث إلى الفعل للتكثير ﴿يَنفَطَّرنَ﴾، بخلاف ما لو قيل: تكاد السماء تنفطر.

فما أبلغ تصوير الألفاظ لجلال الخطْب! فكأنما المظاهر الكونيَّة على شِدَّتها وإحكامها وجدت من فُسَّاق بني آدم ما يخرجها عن صمتها وسكونها. فالكلام جارٍ على المبالغة والتهويل من فداحة تلك الفِرية، فيكاد يتغيَّر كِيان تيك الكائنات العظيمة فَرَقًا وإجلالًا[٣].

وفي تنويع الصيغ بين الماضي ﴿قَالُوا۟﴾ و﴿جِئْتُمْ﴾، والمضارع ﴿تَكَادُ﴾ و﴿يَنفَطَّرنَ﴾ و﴿وَتَنشَقُّ﴾ و﴿وَتَخِرُّ﴾ براعة في العرض تزيد من فظاعة الخطب

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٣٤، ولسان العرب: فطر: ٥/ ١٤٠.
(٢) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٥/ ٥٩٠.
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٨٤٦، والتحرير والتنوير: ١٦/ ٨٥.

وهول الموقف ومباغتة العذاب، باستحضار آثاره المروِّعة.

هنا تساؤل عن مجيء ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ مجموعة، وإفراد ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مع أنها سبع أرضين كما السموات؟

جوابه أنَّ الملحوظ في الاستعمال القرآنيّ أنَّ الأرض لم تأتِ مجموعة مطلقًا، ولمَّا أُريد جمعها قيل: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، لثِقَل جموعها[١] ومنها أَرَضون وأَرْضون وأَرَضات[٢]. «وإيثارُ الأخفِّ من الألفاظ، الذي يسبِق بسلاسته وعذوبته إلى القلب، قبل أن يسبِق بحُسن جرسه السمع ضربٌ من الفصاحة، وهو في النَّظْم الكريم ضرْب من ضُروب الإعجاز»[٣]. بخلاف السماء فقد ذُكرت تارة بصيغة الإفراد، وتارة بالجمع لنُكَت تليق بمحلِّ كلٍّ منها، فالإفراد إذا أُريدت الجِهة على نحو قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢]، وإذا أُريد العدد والكثرة والعظَمة جُمِعت[٤]، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

وسؤال آخر عن سرِّ استعمال ﴿يَنفَطِرْنَ﴾ مع السموات و﴿وَتَنشَقُّ﴾ مع الأرض؟

أجاب عنه ابن عاشور بأنَّ «التفطُّر: الانشقاق، والجمع بينه وبين ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ تفنُّنٌ في استعمال المترادِف؛ لدفع ثِقَل تكرير اللفظ»[٥]. إلَّا أنَّ استقراء ورودهما في الاستعمال القرآنيِّ أثبت اختصاص الانفطار بالسموات، أمَّا الانشقاق فيوصَف به كلاهما. وثمَّة لطيفة في المعنى اللغويِّ تفسِّر اصطفاء أحدهما على

(١) ينظر: عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص): ١/ ٩٣.
(٢) ينظر: لسان العرب: أرض: ١/ ٦٣.
(٣) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ٨٤.
(٤) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٢٩٩، ٣٠٠، وصفاء الكلمة: ١٢٢، ١٢٣.
(٥) التحرير والتنوير: ١٦/ ٨٥.

قرينِه في سياق مُعيَّن، فقد جاء في اللِّسان أنَّ الشقَّ صدْع بائن، وقيل: الصدْع عامَّة، وقيل: صَدْع في عُود أو حائط أو زجاجة[١]. ولعلَّ هذا سرُّ ارتباطه بالأرض لشدَّتها. وورد مع السماء في أهوال القيامة فقط في أربعة مواضع حينما تبدو فيها شقوق بيِّنة، منها قول اللَّه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن:٣٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان:٢٥]، ففي الانفطار دلالة على الابتداء، فهو في الأغلب أسبق من الشقِّ وأقلُّ، ومنه يُقال: فطَر الناب إذا شقَّ اللحم وظهر[٢]. واللَّه أعلم!وهكذا أوثرت تقويته بجمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإسناده إلى النون ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ ليدلَّ على الكثرة.

ويدلُّ أصل ﴿وَتَخِرُّ﴾ على اضطراب وسقوط مع صوت. ومنه يُقال: خرَّ البناء يخِرُّ ويخُرُّ خَرًّا، إذا هوى من عُلْو إلى سفل[٣].

ويُصوِّر لفظ ﴿هدا﴾ قوَّة السقوط والانهدام وسرعته مما يزيد من الإحساس بالهول؛ فالهدُّ التفرُّق في سُرعة، يُقال: هدَّه يهُدُّه هَدًّا وهُدودًا، إذا كسَّره وضعضعه[٤]. وانتصب على الحاليَّة أو المفعوليَّة المطلَقة على المعنى؛ لبيان نوع الخُرور وهو تساقُط الشيء شظايا وقِطَعًا[٥]. ونلحظ الدِّقَة في تخصيص الجبال بالخرور والهدِّ، فهما يرتبطان بالشيء القائم كجبل وبناء وجدار.

بإنعام النظر وإمعان الفكر في هذه الآيات نلحظ تآزر الألفاظ والعبارات

(١) ينظر: لسان العرب: شقق: ٣/ ٤٥٧.
(٢) ينظر: السابق: فطر: ٥/ ١٤٠.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: خر: ٢٨٤، ولسان العرب: خرر: ٢/ ٢٣٨.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: هد: ١٠١٤، والمحرر الوجيز: ٤/ ٣٤، ولسان العرب: هدد: ٦/ ٣١٤.
(٥) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢٥٥، والتحرير والتنوير: ١٦/ ٨٥ .

والفاصلة في تفظيع الموقف والتنفير منه، فنشعر عند النطق بقوَّة الجرس لقوَّة الضغط على اللسان والنفَس، وأن انتهاء كلِّ عبارة بالدَّال مشدَّدة تارة ومخفَّفة أُخرى ﴿وَلَدًا﴾ و﴿إِدًّا﴾ و﴿هدا﴾ و﴿وَلَدًا﴾ وما في مفرداتها من قُوَّة الجرس والإيحاء بالمعنى ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ و﴿وَتَنشَقُّ﴾ و﴿وَتَخِرُّ﴾، كلُّ هذا يضفي على الآيات جوًّا من الهول الشديد، ويصوِّر فظاعة تلك المقولة وأثر مثلها على الخلائق[1]!

وتسجِّل الآيات ما يُشعِر بغباوة النصارى وسوء أدبهم واختلاط الأمور عليهم عن طريق تكرار اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ؛ إذ ليس من الملائم أن يكون للّه ولد - تعالى عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا -، والموجودات كلها تحتاجه بوصفه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ذي الرحمة الشاملة الذي تقرُّ المخلوقات بملكه وفيض رحمته على جميعها في الدنيا وعلى المؤمنين في الآخرة، فكيف يحتاج إلى ابن أو غيره[2]؟!

وممَّا ورد في توبيخ الكَفرة على قَسوة قلوبهم وخلوِّها من الخشوع والتدبُّر لزواجر القرآن وقوارعه قول اللّه تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١] واهًا للجبل يخشع ويتصدَّع على صلابته وثباته خشية للّه وتعظيمًا لكلامه! وويلٌ للكافر تُعرَض له العبر فيظلُّ سادرًا في غيِّه كأن لم يسمعْها كأنَّ في أذنيه وقرًا! لقد «ضُرِب التصدُّع مثلًا لشِدَّة الانفعال والتأثُّر؛ لأنَّ مُنتهَى تأثُّر الأجسام الصلبة أن تنشقَّ وتتصدَّعَ؛ إذ لا يحصل ذلك لها بسهولة. والخشوع: التطأطؤ والركوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض»[3].

---

(١) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن: ١٥١، ١٥٢.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/ ٨٧، والمقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير: ٢٩٨، والنهج الأسمى: ١/ ٧٨.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٠٤.

والخشوع والخشية هنا جاريان على حقيقتهما؛ إذ ليس بين الجبل وبينهما إلَّا أن تنزل عليه آيات القرآن. فالجواب ممتنِع لامتناع الشرط؛ لذا جعله اللَّه مثلًا، وليس بسبب ما ادَّعاه بعض المفسِّرين من المعتزلة والأشاعرة لخدمة مذهبه من تمجيد العقل وتقديمه على النقل في قولهم: «هو تمثيل وتخييل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾»[١]، أو مَن يحاول أن يؤولها بمسوِّغ آخرَ يتوافق مع مُعتقده قائلًا: «والمعنى أنَّ الجبال لو رُكِّب فيها العقول لخضعت وتهدَّمت من خَشية اللَّه»[٢].

وأوثر التعبير بالخشوع والخشية لارتباطهما بالعِلم والإحساس؛ ليتمَّ بهما التعريض بأولئك الجهَلَة الذين ما قدروا اللَّه حقَّ قدره.

وقد أبت السماوات والأرض حمل الأمانة خشية وإشفاقًا، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢]

خبر صادق مؤكَّد لا يحتمل التأويل يدلُّ على إثبات الخوف من اللَّه للجمادات، وهو للفرائض التي افترضها على عباده بشرط الثواب والعقاب[٣]، وتعظيم لشأنها فقد سمَّاها أمانة مما يوحي بصعوبتها وثِقَل تحمُّلها، ومما يزيد من تفخيمها أنَّ اللَّه قد عرضها على أعظم ما خلق من الأجرام وأشدِّه وأقواه؛ السموات السبع الطِّباق، والأرضين السبع الشِّداد، والجبال الشُّم الصِّلاب ﴿فَأَبَيْنَ﴾ و﴿وَأَشْفَقْنَ﴾. قال ابن عبَّاس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: «كرهوا وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيمًا لدين اللَّه ألَّا يقوموا بها، ثُمَّ عرضها على آدم فقبلها بما

(١) الكشاف: ٤/ ٨٤، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٢٣.
(٢) حاشية القونوي: ١٩/ ٣٤.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١٩/ ١٩٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٠٨٦.

فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ غِرًّا بأمر اللَّه»[١]. وهنا إشارة إلى تقدير تلك الكائنات الضخمة، التي تطيع بارئها وتجري وفق سننه الكونيَّة لا تحيد عنها. وانظر إباءها حمل الأمانة إشفاقًا من تبِعاته التي قد تعجز عن أدائها كما يجب! ثم انظر إلى جسارة الإنسان وإقدامه على الأمور دون رَوِيَّة مع ضعفه، وقد حمل ما أشفقت من حمله تلك العظائم غير مقدِّر لعواقبها[٢]؛ لذا أتى التعقيب بقول العليم الحكيم عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

والإشفاق عناية مختلطة بخوف[٣]، ففي استعماله مفارقات عجيبة بين كائنات عظيمة تبدو جامدة، تدرك جبروت خالقها؛ فتخشى ما يلحقها جرَّاء تفريطها، وبين مَن ميَّزهم اللَّه بالعقل، ومع ذلك كان منهم أشقياء جُهلاء لم يُحسنوا استعماله، وفيه كذلك إشارة إلى «أنَّ حمل الأمانة، وأداءها كاملة، مما لا يكاد يتحقَّق على وجهه كاملًا، إلَّا من صفوة مختارة من أنبياء اللَّه ورسله. وإذن فالمطلوب من الناس. . . أن يأتوا من الأمر ما استطاعوا، فإذا وقع منهم تقصير - وهو واقع حتمًا - فإنَّ رحمة اللَّه ومغفرته من وراء هذا التقصير، إذا هم تابوا ورجعوا إلى اللَّه واستغفروه»[٤].

وللرَّعد والصواعق من رهبة المهيمِن الجبَّار جَلَّ جَلَالُهُ نصيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣].

تسبيح الملائكة وخيفتها، وكذا الرعد حقٌّ ثابت بآي الذِّكر، وهنا دلالة أخرى

(١) جامع البيان: ١٩/ ١٩٨ .
(٢) ينظر: من أسرار التعبير القرآني: ٤٠٩.
(٣) سبق بيان معنى الإشفاق ص٤٦ .
(٤) التفسير القرآني: ٦/ ٧٧٠.

لا تقبل التأويل على بُطلان زعم المعتزلة[١]، يؤيِّدها قول اللَّه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فكلُّ ما في الكون مما يُرى أو يستتر خلف سُجف الغيب يستلهم أوامر اللَّه ويعظِّمه، قال ابن جرير: «ويعظِّم اللَّهَ الرعدُ ويمجِّده، فيثني عليه بصفاته، وينزِّهه مما أضاف إليه أهل الشرك به، ومما وصفوه به، من اتِّخاذ الصاحبة والولد، تعالى ربّنا وتقدَّس»[٢]. وأوثر التعبير بالخِيفة وهي مصدر خاف بوزن شِدَّة، والمراد به النوع وهو خوف الإجلال لا العقاب[٣].

«وبعرض هذه الظواهر، والإشارة إلى ما وراءها استكملت الصورة الفنِّيَّة... ترتيبها الرائع، يضاف إلى ذلك ما في هذه الظواهر من التمهيد للإلماح بالوعيد الذي يلوِّح اللَّه به للمصرِّين على الكُفر والمعاندين للرسول ﷺ، المكابرين رغم وضوح الأدلَّة وجَلاء البراهين، وهو ما في قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾»[٤].

***

---

(١) أوَّلها الزمخشري (ت٥٣٨هـ) بسامع الرعد (ينظر: الكشاف: ٢/ ٢٨٢)، ووافقه البيضاوي (ت٦٩٢هـ) على ذلك، وأضاف: «أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية اللَّه» (أنوار التنزيل: ٣/ ٣٢٢).

(٢) جامع البيان: ١٣/ ٤٧٨ .

(٣) ينظر: حاشية القونوي: ١٠/ ٤٧٢، ٤٧٣.

(٤) سورة الرعد دراسة أدبية ولغوية وفكرية للدكتور عبد الرحمن الميداني: ١١٧.

المبحث الثاني
الجُملَة المُصوِّرَة

قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧].

فئة مراوغة جبانة تقيم بين ظهرانَي المسلمين طمعًا ورهبة، تخاف القتل وما يُفعل بالمشركين فتتظاهر بالإسلام تَقِيَّة، وتؤيِّد مزاعمها بالأيمان الفاجرة[١]. فهُم أعداء كَفَرة لا يجدون إلا حِمى الإسلام يعتصمون به، ويعاشرون أهله مُكرَهين؛ ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم «فهذه السورة[أي: سورة التوبة؛ وتسمَّى الفاضحة][٢]تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم؛ فهي الفاضحة تكشف رداء المداراة، وتمزِّق ثوب النِّفاق»[٣].

جملة ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ خبرية ضربها إنكاريٌّ أُكِّد بالقسم و(إنَّ) واللام المزحلقة، إشارة إلى تأصُّل النِّفاق في قلوبهم حتى إنهم لَيلجأون إلى كلِّ أساليب التوكيد ليتَّقوا انكشاف طويَّاتهم، ويأمنوا على ذواتهم وممتلكاتهم[٤] بخداع إنِ انطلى على البشر بقواهم المحدودة، فلن يعزُبَ عن علَّام الغيوب. فاستمع إليه مبيِّنًا حالهم مكذِّبًا أباطيلهم بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾.

ويوضِّح الاستدراك: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ حقيقة حالهم، والأمرَ الذي

---

(١) ينظر: الكشاف: ٢/ ١٥٧.
(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٥٥.
(٣) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٩.
(٤) ينظر: السابق: ٤/ ٢٣٩.

حملهم على ادِّعاءاتهم الكاذبة، والفارق الكبير بينهم وبين المؤمنين. وفي الإخبار عنهم بأنهم ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ مزيد تحقير، فهم قد عرفوا بتيك الصفات حتى صارت من دعائم قوميَّتهم لا يخلو منها أحدهم[١]. «وأصل الفَرَق انزعاج النفس بتوقُّع الضَّرر، قيل: وهو من مفارقة الأمن إلى حال الخوف»[٢]، وفي انتقاء لفظ ﴿يَفْرَقُونَ﴾ دون أيٍّ من مرادفات الخوف دِقَّة وبراعة[٣]. وفي أصواته ما يوحي بالمعنى، فتفخيم الرَّاء وارتعاد اللسان عند النطق بها كأنما يصوِّر شِدَّة مخافتهم، وحرف القاف المجهور الشديد المستعلي يفضح الاضطراب الذي ينتابهم. وحُذف متعلَّق ﴿يَفْرَقُونَ﴾ لظهوره، أي: يخافون من تبرُّؤ المسلمين منهم وإخراجهم؛ فيتخطَّفهم الأعداء من كلِّ جانب[٤]. وأوثرت صيغة المضارع﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ و﴿يَفْرَقُونَ﴾ لتدلَّ على التجدُّد، وأنَّ ذلك دأبهم[٥].

وتأتي جملة الاستئناف ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا﴾ لتصوِّر حالة عجيبة من الخوف ولؤم الطباع، فتقرِّر بها مضمون ما سبق من أنهم ليسوا من المسلمين، لذا فُصل بينها وبين ما قبلها، فما ادعاؤهم إلا للتَّقِيَّة اضطرارًا. يتطلَّعون إلى مكان حصين يعتصمون به من المسلمين، ولكنَّ شِدَّة خوفهم صوَّرت لهم أنَّ الدُّنيا كلَّها تحت سيطرة المسلمين، فأينما ذهبوا فلن يأمنوا وصولهم إليهم؛ فليس لهم إلا التَّقِيَّة[٦].

ودلَّ حرف الشرط ﴿لَوْ﴾ على «أنهم لخوفهم من الخروج إلى الغزو لو وجدوا

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨/ ٩٣.
(٢) روح المعاني: ٥/ ٣٠٩.
(٣) سبق بيان معنى الفَرَق ص٣١.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠/ ١٢٣، وتيسير الكريم الرحمن: ٣٤٠.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠/ ١٢٣ .
(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٦١.

مكانًا مما يختفي فيه المختفي فلا يشعر به الناس؛ لقصدوه مسرعين خشية أن يعزم عليهم الخروج إلى الغزو»[١].

﴿مَلْجَـًٔا﴾ اللَّجأ والملجأ: المكان يُلتجَأ إليه ويُعتضَد به، يقال: لجَأ إليه ولَجِئ إذا استند إليه واعتصم به[٢].

﴿مَغَـٰرَٰتٍ﴾ مفردها مغارة وهي الموضع الذي يغور فيه، أي: يُستتَر[٣]، ويدلُّ أصلها على خفوض وانحطاط وتطامُن، والغَور منخفَض من الأرض، ومنه يُطلَق على الجُحر الذي يأوي إليه الوحشيّ مَغار ومَغارة[٤].

﴿مُدَّخَلًا﴾ أي: نفق في الأرض كنفق اليربوع، يندسُّون فيه مختفين عن الأعين[٥]، وأوثر بناء التأكيد والمبالغة في اسم المكان على وزن (مُفْتَعَل) من الفعل المزيد ادَّخل[٦] ليسهم في تصوير شِدَّة الجبن؛ إذ يحاولون إدخال أنفسهم أو يُدخلهم الخوف في ذاك المضيق. وفي وزنه وجرسه الذي تبرز فيه شِدَّة الدال وتضعيفها ما يدلُّ على اضطرابهم الذي يلجأون معه إلى التخفِّي وهذا ما يوحي به الهمس والرخاوة في الخاء.

ويعلِّل أبوحيان الترتيب البديع بين هذه المعطوفات بقوله: «بُدئ أولًا بالأعمِّ وهو الملجأ؛ إذ ينطبق على كلِّ ما يلجأ إليه الإنسان، ثم ثُنِّي بالمغارات وهي الغيران في الجبال، ثم أُتي ثالثًا بالمدَّخل وهو النفق في باطن الأرض»[٧]. وهذه

---

(١) التحرير والتنوير: ١٠/ ١٢٤.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: لجأ: ٩١٤، ولسان العرب: ٥/ ٤٧٧.
(٣) ينظر: معالم التنزيل: ٥٦٤.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: غور: ٧٧٨، ولسان العرب: ٥/ ٧٠.
(٥) ينظر: معالم التنزيل: ٥٦٤، والكشاف: ٢/ ١٥٧، وأنوار التنزيل: ٣/ ١٥٢.
(٦) ينظر: عناية القاضي: ٤/ ٥٨٣، والجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ٥/ ٣٦٦.
(٧) البحر المحيط: ٥/ ٥٥.

المخابئ هي كلُّ ما يمكن أن يُتصوَّر الفرار إليه، وإن كان مستنكرًا أو منفورًا عنه، وفي تصعيدها على صورة أمنيات متتابعة يدفع بعضها بعضًا إشارة إلى شدَّة جبنهم وخِسَّتهم، مما يدفعهم إلى التماس أيِّ مهرب منها يدفنون وجودهم فيه مظنَّة النجاة، ولا يأنفون أن يكونوا على أيَّة صورة من صور الأحياء من دوابَّ وحشراتٍ وهوامّ، فالمهمُّ عندهم هو العيش كيفما كانت صورته![١]

ولعلَّ في تقوية لفظ ﴿مَغَـٰرَٰتٍ﴾ بالجمع، و﴿مُدَّخَلًا﴾ بالتضعيف دون ﴿مَلْجَـًٔا﴾ ما يؤكِّد مناسبتهما لأولئك السِّفلة.

﴿لَّوَلَّوْاْ﴾ أي: لصرفوا وجوههم عنكم مرتدِّين ناكصين على أعقابهم[٢]. ويضفي تضعيف حرف اللام الرخو المذلَق المنحرف إيحاء بديعًا بسرعة فرارهم كجريان الصوت معه. ولم يقل: لهربوا[٣]؛ لأنَّ الهرب يكون عن تفكير وإرادة، أمَّا التولية فتكون على الفور دون تخطيط.

أوثرت صيغة الاستقبال في الشرط ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ «لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتًا فوقتًا، أي: إنَّ امتناع إقبال المنافقين نحو الملجأ أو غيره بسبب استمرار امتناع وجدانهم هذه الأمكنة»[٤]، ولإحضار الصورة إلى المخيّلة. وأتى الجواب على خلافه بالماضي ﴿لَّوَلَّوْاْ﴾ ليناسب السرعة وتحقُّق الوقوع بمجرِّد تحقُّق الشرط؛ فتُعرض بهما على الذِّهن حال قوم فزِعين يبحثون عن مكان يأمنون فيه، فما إنْ يجدوه مهما كانت حالته حتى يسارعوا بالاختفاء فيه.

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ جملة حاليَّة صوَّرت حالهم وهم يسرعون راكبين رؤوسهم لا

---

(١) ينظر: عناية القاضي: ٤/ ٥٨٣، والتفسير القرآني: ١٠/ ٨٠٠، ٨٠١.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٣/ ٣٣٥، وروح المعاني: ٥/ ٣٠٩.
(٣) ينظر الفرق بين الفرار والهرب ص٧٣.
(٤) حاشية القونوي: ٩/ ٢٥٤.

يردُّهم شيء، فالجُمُوح نُفُور بإسراع، مِن الفرس الجَمُوح الذي إذا حَمَل لم يثنِه لجام عن سرعته، ولم يردّه بئر يقع فيه ولا مَهلكة ولا شيء(١). ولعلّ في أصوات ﴿يَجْمَحُونَ﴾ ما يوحي بمعناه فالجيم المجهورة المقلقلة الشديدة توحي باضطراب حركتهم.

تأمّل كيف بُسطت معاني الجبن والدّناءة والذلّة في صورة حيّة معروضة للأنظار، تضافرت على صياغتها ألفاظ موحية معبّرة ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ نلمح فيها جماعة مضطربة تائهة تنقذف هنا وهناك تلتمس النجاة والأمان، ولو في أخسِّ الأماكن وأضيقها! فقد صوَّرت للذِّهن شكلًا معيَّنًا للملاذ الذي يبحث عنه خائف ساقط الهمَّة ملتاث الطبيعة، بدءًا بالمألوف في الملاجئ إلى ما لا يُكاد يُستقرُّ فيه إلَّا تضاؤلًا والتصاقًا، ولا يرتضيه إلا دنيء الهمَّة.

وانظر إلى ما توحيه جملة ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ من الارتباك والاضطراب وسرعة الفرار، وما تثيره في النفس من السخرية والنفور من كلٍّ ما تحمله تلك الفئات من خِسَّة وجُبن ولُؤم(٢).

وفي بسْط آخر لمعاني الجبن والدناءة ووصف سَورة تيك النفوس الجامحة السقيمة يقول تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٣-١٤].

---

(١) ينظر: الكشاف: ٢/ ١٥٧، ونظم الدرر: ٣/ ٣٣٥، وقطف الأزهار: ٢/ ١١٥٧، وحاشية زاده: ٤/ ٤٧٤.

(٢) ينظر: من روائع القرآن: ١٩٩، ٢٠٠، وفي الإعجاز البلاغي للدكتور وليد قصاب: ١٦٠.

الآية تطمْئِنُ المؤمنين وتهوِّن لهم شأن أعدائهم اليهود والمنافقين[(١)]، في سورة تفضح جبنهم ولؤم نحيزتهم، وتمزِّق ثوب الرِّياء الذي طالما استتروا به.

﴿لَأَنتُمْ﴾ اللام لام الابتداء، ﴿رَهْبَةً﴾ مصدر سماعي للفعل (رُهِب) المبني للمفعول وزنه (فَعْلة) كأنَّه قيل أشدُّ مرهوبيَّة؛ فالرَّهبة واقعة منهم، لا من المخاطبين المرهوبين[(٢)].

﴿رَهْبَةً﴾ تمييز محوَّل عن المبتدأ، أي: لَرهبتهم منكم في صدورهم أشدّ من رهبتهم من اللَّه، ففي نسْج الكلام على هذه الصورة المعجزة براعة في أداء المعنى وإيجاز بديع في حذف المضاف من المفضَّل عليه- عند أولئك الجَهَلة- وهو قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والتقدير: من رهبتهم من اللَّه؛ فقد كانوا يدَّعون رهبة شديدة من اللَّه نفاقًا[(٣)]. وتأتي الآية على هذا النَّظم البديع من تقديم الضمير وتوكيده باللَّام ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فيتحقَّق به تخصيص للرهبة بذوات المسلمين تقوية لنفوسهم ممَّا يزيد في إقدامهم على محاربة عدوِّهم الجبان، ولا يخفى ما ينطوي عليه من ذمٍّ لأولئك الجهلة الذين لا يضعون الأمور في نصابها. فهل كان هذا المعنى البليغ متحقِّقًا لو أُجري الكلام على أصله[(٤)]، فقيل: لَرهبتهم منكم أشدّ من رهبتهم من اللَّه؟

وتقييد الرَّهبة بكونها ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ - على أنَّه لا يخفى اختصاصها بها لو أُطلقت- دليل على نفاقهم، فهم يبالغون في إخفاء الرَّهبة ومحاولة التَّظاهر بالشجاعة، وليس ذلك بمستغرَب على من دأبه الرياء. وفيه إشارة إلى تمكُّنها من

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٢٢/ ٥٣٦.
(٢) ينظر: البحر المحيط: ٨/ ٢٤٩.
(٣) ينظر: حاشية القونوي: ١٩/ ٢٥، والتحرير والتنوير: ٢٨/ ٩١.
(٤) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٥٣٠، والتحرير والتنوير: ٢٨/ ٩٢.

صدورهم، فقد استبدَّت بها ففاقت ما يُظهرون من الرهبة من اللَّه، واتَّخذت من صدورهم مقرًّا لها[١]، وذلك منتهى شدَّتها، ومع ذلك يستميتون في إخفائها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ سبب تفوُّق رهبة البشر في نفوسهم على الرهبة من اللَّه ﷻ يرجع إلى أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾. ويدلُّ أصل ﴿يَفْقَهُونَ﴾ على إدراك وفهم، وارتبط بعلم الشريعة، يقال: فقِه وفقُه يفقه: إذا فطن إلى الشيء وفهمه[٢]؛ ومعلوم أنَّ الفِقْه وهو التوصُّل إلى علم غائب بعلم شاهد أخصُّ من العلم، ويوسمون بهذه السِّمة ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ في إشارة بديعة إلى أنهم بَهَمٌ لا يتجاوز فكرُهم المحسوسات، فكيف يرتقي إلى الإقرار بالغيب؟

ما أصدق ما وصمهم به القرآن، وما وصف به ملامح نفوسهم في هذا المشهد التصويريِّ البديع في شموله وتنضيد أجزائه! ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ فاليهود والمنافقون لا يهاجمون متساندين مجتمعين اجتماع الجيوش، بل يقبعون محتمين بقُرًى محصَّنة منيعة، أو أسوار قويَّة يجثمون خلفها متترِّسين[٣]. يترقَّبون الموت كامنًا في كلِّ أُفق. وتلكم غاية الجبن والذُّلّ!

وفي أصوات ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾ ما يوحي بالقوَّة فتبرز الصاد المستعلية المطبَقة المفخَّمة وفي تضعيفها دلالة على المبالغة في التَّحصين، وتشترك مع الحاء في الهمس فكأنما ترسمان معنى الخفاء.

ويعمِّق الاستئناف ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ اليقين بشذوذهم فيبعث على احتقارهم، وتفتتح جملته بـ ﴿بَأْسُهُم﴾ للاهتمام بالإخبار عنه وإثبات وجوده مما يدعو إلى الاستغراب والإحساس بتناقض تلك النفوس وخطَلِها، وإذا بكلمة

(١) ينظر: الكشاف: ٤/ ٨٣، والتحرير والتنوير: ٢٨/ ٩٢، ٩٣.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: فقه: ٧٩٤، ولسان العرب: ٥/ ١٥٠.
(٣) ينظر: الكشاف: ٤/ ٨٣، ومعالم التنزيل: ١٢٩٧.

﴿بَيْنَهُمْ﴾ تبشِّر المخاطبين أنَّ ذيَّاك البأس لا يخرج عن دائرتهم، ولا يتعدَّى قتالهم مع أقرانهم، ففيه تظهر شراستهم وقوَّة فتكهم، أمَّا عند لقاء المسلمين فيطيرون فزعًا لا لضعف في جسد أو عتاد، بل للرعب الذي يُقذَف في قلوبهم، فالشجاع يجبُن والعزيز يذَلُّ إذا حارب اللَّه ورسوله(١).

ما أعمق الهوَّة بين هذا القطيع اللَّئيم الذي لا تجمعه إلا المصالح الدنيويَّة المشترَكة، وبين نفوس شفَّافة توحِّدها عقيدة صافية تجعل منها نمطًا فريدًا في الإنسانيَّة، صوَّرها قول اللَّه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متَّفقين، وهو استئناف عن جملة ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٌۚ﴾ التي قد تثير سؤالًا هو: كيف ذلك؛ ونحن نراهم متَّفقين؟ فأُجيبَ بأنَّ ظاهر حالهم اجتماع واتِّحاد مما قد يغرُّ السامع، أمَّا دخائلهم فمختلفة لا يعلمها إلَّا اللَّه(٢).

﴿وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾متفرِّقة أشدَّ افتراق تمزِّقها الإحن والعداوات، متخاذلون لا يرمون عن قوس واحدة، وما أبلغ دلالة الطِّباق بين ﴿جَمِيعًا﴾ و﴿شَتَّىٰۚ﴾على ذلك التناقض النفسيِّ العجيب، وأوثر لفظ ﴿شَتَّىٰۚ﴾ على (متفرِّقة) لأنَّه أبلغ في وصف حالهم؛ فأصله يدلُّ على تفرُّق واختلاف، والشتُّ الافتراق والتفريق، يقال: شتَّ جمعهم يشِتُّ شتًّا وشَتاتًا، وتشتَّتَ أي: تفرَّق وانتشر، والشتيت المتفرِّق، وجمعه شتَّى، أمَّا أشتات فواحدُه شتّ(٣). وقد وردت هذه المادَّة في خمسة مواضع من القرآن، موضعان منها بصيغة (أشتاتًا) منصوبة على الحال، والأُخر بصيغة

(١) ينظر: أنوار التنزيل: ٥/ ٣٢٢.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨/ ٩٥.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: شت: ٥٠١، ولسان العرب: شتت: ٣/ ٣٩٤.

﴿شَتَّىٰ﴾، وفيها فضل معنى عن مادة (فرق) التي تدلُّ على التفرُّق فقط، وقد وردت كثيرًا في القرآن، وفي أصوات ﴿شَتَّىٰ﴾ ما يدعم معناه ويناسب سياقه الذي يسوده الخفاء مع الافتراق والتفرُّق، فالتفشِّي في الشين يدعم معنى الانتشار، وتشترك الشين مع التاء في الهمس، وهكذا تقوى دلالته على التفرُّق لتلائم مقصوده؛ فبين فئام يهود والمنافقين تباعد روحيّ وفكريّ وعَقَديّ، وما تعاطفهم مع بعضهم بعضًا إلَّا في الظاهر فقط. وهذا دأب أهل الباطل، مختلفة شهاداتهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة أعمالهم، متفرِّقة كذلك عقائدهم ومقاصدهم، فهم أسرى الأهوية(١).

ما أجلَّ المقاصد التي انطوى عليها وصف أعداء الإسلام بهذا الوصف! إنَّه يحمل تربية للمسلمين على الاتِّفاق ونبذ الإحن والعداوات والحذر من التخالف والتدابُر الذي ينهش وحدة الأمة، وثمة مقصد آخر هو تجسير قلوب المؤمنين على قتالهم.

ما أبدع هذه الصورة وهي تكشف الضعف والرعب لتلك الفئات في كلِّ زمان ومكان! وما تزال الأيام تكشف حقيقة الجبن واللُّؤم الواضح من قوات التحالُف من يهود ومنافقين التي تُبدي للناس التحالف وهي تقاتل في معسكر واحد، وقد شهدت الاشتباكات في الأرض المقدَّسة بين المجاهدين واليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة؛ فنراهم لا يُقدمون على اللِّقاء إلا مخالَسة «وقد تحصَّنوا في أجحارهم واختفوا وراء الجدران، شأنهم في ذلك شأن الحيَّات التي تتحصَّن في أجحارها ترصد أعداءها من داخلها، فإذا رأت فرصة سانحة في عدوٍّ لها أطلَّت برأسها، ثُمَّ نفثت فيه سمومها وعادت سريعًا تدفن نفسها في جحرها»(٢)!

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٥٣٢.
(٢) التفسير القرآني: ٢٨/ ٨٧١.

ما سرُّ التشابه في فاصلتي الآيتين إشارة وتوكيدًا وتنكيرًا ونفيًا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا﴾وتعقيب أولاهما بـ ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ والأخرى بـ ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾؟

- جيء باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ليميِّز المحكوم عليه أتمَّ تمييز لغرابته، وهو رهبتهم الشديدة ممَّن مثلهم في البشريَّة، ثُمَّ التحالف الخادع في الثانية.

- تعضد الباءُ السببيَّة المتَّصلة بالمصدر المؤول المُصَدَّر بأداة التوكيد معنى الغرابة، ونكِّر خبرها ﴿قَوْمٌ﴾ إمعانًا في تحقيرهم. فقد صارت تلك الصفات ملازمة لا تنفكُّ عنهم، ومن مقوِّمات قوميَّتهم(١).

- عُبِّر بصيغة المضارع المنفي ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ و﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لتدلَّ على تجدُّد تلك الأحوال والتصاقها بهم في شتَّى المواقف.

ذكر الغرناطيُّ (ت٧٠٨هـ) في سرِّ اختلاف التعقيب في الفاصلتين: «أنَّ اللَّه تعالى لمَّا أخبر عن يهود والمنافقين بسوء أحوالهم، وأنَّ الرُّعب قد سكن قلوبهم حتى كان خوفهم من أصحاب رسول اللَّه ﷺ أشدّ من خوفهم من اللَّه. قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ فناسب هذا نفي فهمهم، وانسلاخهم عن النَّظر والتدبُّر والتوفيق، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، ثُمَّ أتبع ذلك بالتعريف بشِدَّة بأسهم بينهم، وشتات أحوالهم فقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ فناسب هذا ما يفهم عدم الثبوت على شيء، والرجوع إلى قانون يقفون عنده ويرتبطون به. فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ والعقل علوم ضرورية يوقَف عند مقتضاه، ويحكَم بما أمضاه ولا يتعدَّى. ويحصل من ذلك الثبوت. واشتقاقه من قولهم: عقلتُ البعير، إذا ربطته بعقال، وهو الحبل وشبهه مما يقيَّد به. ولما نفى عنهم الارتباط، مع وصفهم

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨/ ٩٣.

بشتات القلوب وجودًا فقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، أخبر تعالى أنَّ سبب ذلك أنهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾. وتناسُب هذا أبين شيء، ولا يناسب الأولى قبلها إلَّا ما أعقبت به، واللَّه أعلم! »[١].

يقابل صور الفزع والجبن تلك، صورًا مشرقة لمن يتعلَّق باللَّه ويخشاه وحده؛ فيطمئنّ ويستبشر في أصعب المواقف، ولا عجب؛ فهو يستمدُّ قوته من الجبَّار القهَّار ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقال - عزَّ من قائل -: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: ١٠].

اتفقت الآيتان في وصف نعمة أمن يوم بدر؛ وتعود الهاء في ﴿جَعَلَهُ﴾ على المدد[٢]. وفي إسناد الإمداد والنصر إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ وتكرار اسمه ﷻ في معرض مخاطبة المؤمنين؛ ربط جميل للقلوب بمسبِّب الأسباب، واستحضار منَّته وإنعامه، ولمَّا كان هذا الأمر جوهر التوحيد أُكِّد بأقوى طرق القصر[٣]؛ لئلَّا يجد الشيطان سبيلًا ينفذ منه إليهم فيتعلَّقوا بالأسباب، ففي القصر تأكيد الوحدانيَّة؛ كيلا تحجب المنصورين كثرة المدد عن وحدة مُنزِله ﷿ مدبِّر النصر وصانعه، وفيه توثيق للمؤمنين ليتفاءلوا بالنصر وإن افتقدوا أسبابه وأماراته، فالذي ثبَّتهم وأمدَّهم بالملائكة، وألقى الرُّعب في قلوب أعدائهم، قادر على نصرهم كلَّما سعَوا إليه[٤]. وتقدَّمت البُشرى في تلميح لطيف إلى أنها مفتاح الطمأنينة

(١) ملاك التأويل: ٢/ ٨٩٧، ٨٩٨.
(٢) ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن: ١/ ١٩٣، والتبيان في إعراب القرآن: ٨٧.
(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٤٩، والمطول: ٣٩٤.
(٤) ينظر: روح المعاني: ٢/ ٢٦٩.

للقلب[١]، وقد اختلف مقام كلٍّ منهما، فآية الأنفال مسوقة مساق العتاب على كراهية الخروج إلى بدر في أوَّل الأمر، وإيثار غير ذات الشوكة[٢]، أمَّا آية آل عمران فسيقت طمأنة للقلوب المؤمنة في معرض الحديث عن غزوة أحد امتنانًا وتذكيرًا بنعمة النصر التي حازوها في بدر مع قلَّتهم وضعفهم[٣]. وعليه اختلف الأداء في وجهين:

أولهما: الذكر والحذف: حذف الجار والمجرور فأطلقت ﴿بُشْرَىٰ﴾ في الأنفال حيث تقدَّمها ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] فانصرف الذهن إلى المخاطبين، واستُغني عن إعادة القيد ﴿لَكُمْ﴾ فحذف[٤]، أمَّا آية آل عمران فقد جرت على الأصل في الذِّكر؛ إذ لم يتقدَّم ما يخصِّص معناها؛ فقيِّدت البشرى بالمخاطبين ﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ إذ «تقدَّم قبلها قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ١٢٥] والإخبار عن عدوِّهم؛ فاختلط ذكر الطائفتين وضمَّهما كلام واحد؛ فحُرِّرت البشارة لمن هي منهما، وأنها لأولياء اللَّه المؤمنين، فجيء بضمير خطابهم متَّصلًا بلام الجر المقتضية للاستحقاق فقيل: ﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾»[٥]، وفيه فضل مواساة ومسح على القلوب المؤمنة مناسب لمقام الطمأنة وتسكين القلوب[٦].

ثانيهما: التقديم والتأخير: اختلف مكان الجار والمجرور تقديمًا على الفاعل ففَصل بين الفعل وفاعله على خلاف الأصل في الأنفال ﴿بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾، وتأخَّر

---

(١) ينظر: النظم القرآني في آيات الجهاد: ١١١.
(٢) سيرد الحديث عن يوم بدر ص١٢٧ .
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٩/ ٣٤.
(٤) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: ١/ ٣٩٠.
(٥) ملاك التأويل: ١/ ١٧٠.
(٦) ينظر: التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي: ٧٢.

في آل عمران: ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾وفيها قال الغرناطيُّ: «وبُيِّن أنَّ قلوبهم هي المطمئنَّة بذلك فقيل: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾فقدِّمت القلوب على المجرور اعتناء وبشارة؛ ليمتاز أهلها مما ليس لهم فيها نصيب»(١).

ولطيفة أخرى تبرز في هذا التركيب، فقد اقترن الاطمئنان بالقلوب ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ في آل عمران حين كانت القلوب مضطربة من شدَّة البلاء يوم أحد؛ فلم يفصل بينها وبين الاطمئنان فاصل؛ إيماء إلى شدَّة حاجتها إليه، أمَّا في الأنفال فقد توسَّط ﴿بِهِۦ﴾ بين الاطمئنان والقلوب ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ﴾ في معرض التَّذكير بالمنَّة والشرف الذي خُصُّوا به، «فيكون المعنى ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة، وقناعتهم بغُنم العُروض التي كانت مع العير»(٢).

ولفتة مميَّزة من صاحب التفسير القرآنيّ؛ أظهر فيها اختلاف المقامين فـ «المسلمون الذين خوطبوا في سورة الأنفال كانوا في مواجهة المعركة في بدر وقلوبهم مضطربة واجفة تنظر إلى ما يطلع عليها من فضل اللَّه ورحمته؛ فقدِّم ما بُشِّروا به من أمداد السماء وهو المشار إليه بالضمير في ﴿بِهِۦ﴾على القلوب؛ لأنه هو المطلوب لها، أمَّا في آية آل عمران فهو تذكير بهذا الحدث؛ فجاء ذكره على الأسلوب الذي يقتضيه النظم المعتاد في لغة العرب الفعل فالفاعل فالمتعلّقات ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾»(٣).

ما أعظم الآفاق التي يفتِّحها القصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ رضًى بقضاء اللَّه بعد بذل أسباب النصر، وطمأنينة إلى ابتلائه وجليل

(١) ملاك التأويل: ١/ ١٧٠.
(٢) التحرير والتنوير: ٩/ ٣٤، ٣٥.
(٣) التفسير القرآني: ٤/ ٥٧٧، ٥٧٨ .

حكمته! فحقيق بالناس أن يفزعوا إلى البرِّ الرَّحيم ﷻ كلَّما حزبتهم شدَّة أو رابتهم أزمة، فليس ثمة مَن يسدُّ خَلَّتهم ويردُّ طُمأنينتهم إلَّا هو.

والنفوس القويَّة تتطلَّع إلى طمأنينة القلوب وزيادة الإيمان، ومن ذلك قول اللَّه تعالى في قصَّة خليله عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]. وتمثِّل الآية موقف مؤمن يبتغي لإيمانه مزيدًا من قوَّة اليقين ليرتقي إلى مقام العَيان من مقام الإيقان؛ إذ «ليس الخبر كالمعاينة»(١).

فسَّر الزمخشريُّ (ت٥٣٨هـ) سبب سؤال إبراهيم عليه السلام بأنَّه أراد العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك بخلاف علم الاستدلال الذي يجوز معه التشكيك(٢)، وقد ذبَّ ابن المنيِّر (ت٦٨٣هـ) عن الخليل عليه السلام بأنَّ سؤاله إنما كان عن كيفية الإحياء، ولا يقدح هذا في الإيمان؛ إذ ليس في السؤال تشكيك في الحكم، فالإحياء متقرِّر، وما السؤال إلا عن كيفيته؛ لذا ورد بـ ﴿كَيْفَ﴾. ولو كان سائلًا عن ثبوته لقال - وحاشاه ذلك -: أتحيي الموتى؟(٣) وقد يتلاعب الوهم ببعض الخواطر فتنسب إلى إبراهيم - وحاشاه- شكًّا من هذه الآية، يقطع دابره النبيُّ ﷺ بقوله - وما أروع تواضعه! -: «نحن أحق بالشكِّ من إبراهيم»(٤).

---

(١) ينظر: معالم التنزيل: ١٦٥، وذكر الشيخ ابن عثيمين أن «أقسام اليقين - علم وعين وحق - كلها موجودة في القرآن؛ مثال علم اليقين قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: ٥]، ومثال عين اليقين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: ٧]، ومثال حق اليقين قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة: ٩٥]. . . فإبراهيم عنده علم اليقين بأن اللَّه قادر ولكنه يريد عين اليقين» تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة): ٣/ ٣٠٣، ٣٠٤. والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس: ٣/ ٢٥٤، رقم: ١٨٤٢. وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح (المسند طبعة الشيخ أحمد شاكر).

(٢) ينظر: الكشاف: ١/ ١٥٩.

(٣) حاشية الانتصاف على الكشاف: ١/ ١٥٨.

(٤) أخرجه البخاري: ٢٧٤، رقم: ٣٣٧٢، ومسلم: ٧٠٣، رقم: ٣٨٢.

وقفة مع بلاغة الآية ودقَّة نظمها:

- يُؤثَر هذا الاسم بالذات (رَبِّ) لنداء الاستعطاف بين يدي الدعاء[١]؛ إذ إجابة السؤال من آثار التربية، وتحذَف أداة النداء وياء المتكلِّم في ﴿رب] دلالة على الإحساس بالقرب التامّ. وثَمَّ إشعار بالضعف والتذلل التامِّ من مخلوق وجد ألطاف ربِّه تحفُّ به فهفت نفسه إلى ما يشهد به جلاله وعظمته عيانًا لتحصل له مرتبة عين اليقين[٢]. فالمعاني العقليَّة وإن كانت ثابتة مقطوعًا بها متيقَّنة، فالمحسوسات فيها مزيد من الإيضاح، ولقد استجاب اللَّه لتطلُّع خليله عليه السلام فمنحه تجربة ذاتيَّة مباشرة تنساب معها أمداد دافقة من اليقين.

- اصطُفي اسم الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ في سؤال عن الحال[٣] جاء على حقيقته يتطلَّب إجابة، بينما خرج إلى التقرير[٤] في ردِّ العليم الخبير بثبات إيمان خليله عليه السلام ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ وأوثرت فيه الهمزة التي تفيد التصديق؛ ليستدرك الخليل مقرًّا بين يدي ربِّه جل جلاله بالإيمان: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فتتحقَّق بإجابته فائدة جليلة للسامعين، تدفع ما قد تثيره العبارة الأولى من احتمال لفظيٍّ بعيد عن المعنى المراد[٥]؛ «ليتحقَّق بذلك أنَّ طلبه كيفيَّة الإحياء ليس عن بقيَّة تثبُّت في الإيمان»[٦].

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١/ ٣٠٤، وحاشية القونوي: ٥/ ٤٢١.
(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ١١٢، والتفسير القرآني: ٣/ ٣٣١.
(٣) قال ابن الأنباري (ت٥٧٧هـ): «﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿تحي﴾ وهو سؤال عن الحال؛ وتقديره بأي حال تحيي؟ ولا يجوز أن يكون العامل فيه ﴿أَرِنِي﴾ لأن ﴿كَيْفَ﴾ للاستفهام، والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله» . البيان في غريب إعراب القرآن: ١٥٦.
(٤) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٢/ ٦٤٢، التحرير والتنوير: ٢/ ٥١١.
(٥) ينظر: الكشاف: ١/ ١٥٨، وحاشية الانتصاف: ١/ ١٥٨، وقطف الأزهار: ١/ ٥١٢ .
(٦) نظم الدرر: ١/ ٥٠٩.

ولا تخلو النفس البشريَّة من ضعف يجعل خوف ما تجهله سمة تلازمها. تأمَّل قول تعالى في قصَّة ضيف إبراهيم عليه السلام من الملائكة: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٧٠].

كان الناس إذا نزل بهم ضيف فلم يطعَم من طعامهم، ظنُّوا أنَّه لم يجئ بخير. فالآية تعرِض صورة نفسيَّة بانفعالاتها وحركاتها بالألفاظ:

- يدلُّ أصل ﴿نَكِرَهُمْ﴾ على «خلاف المعرفة التي يسكن إليها القلب، ونَكِر الشيء وأنكره: لم يقبله قلبه ولم يعترف به لسانه»(١). وصيغة الفعل المجرَّد (نكر) في هذا السياق أبلغ من (أنكر)، ففيه إنكار أشدُّ ويختصُّ بما يُرى بالبصر، أمَّا (أنكر) فأكثر وروده مع المعاني(٢). ولعلَّ في انتقال اللسان من الفتح إلى الكسر في ﴿نَكِرَهُمْ﴾ ما يوحي بالشِّدَّة، بخلاف (أَنْكَرَهم).

- ﴿وَأَوْجَسَ﴾ الوجْس أوَّل الفزع وهو إحساس مضمَر يعتري النفس عند الحذر(٣). ودلَّت صيغة الماضي على تحقُّق الوقوع. ولعلَّ في قوَّة الهمز وقلقلة الجيم واشتراكهما في الشِّدَّة ما يوحي بمفاجأة الفزع، وفي السين المهموسة ما يشير إلى خفائه.

- أوثر التعبير بكلمة ﴿خِيفَةً﴾ وهي مصدر بوزن شِدَّة وتعني خوف الإجلال لا العقاب(٤). وقد وردت في ستة مواضع من القرآن، ثلاثة منها ارتبطت بالوجس، موضعان في قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة، والثالث في مواجهة

---

(١) معجم مقاييس اللغة: نكر: ١٠٠٩.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٣/ ١٨٨، ونظم الدرر: ٣/ ٥٥٣.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز: ٣/ ١٨٨، وسبق بيان معناه ص٣٢.
(٤) ينظر: حاشية القونوي: ١٠/ ٤٧٢، ٤٧٣.

موسى عليه السلام مع السَّحَرة. وباستقراء دلالتيهما في الاستعمال القرآنيِّ رأيت في اجتماعهما دلالة على خوف مؤقَّت يضمر في النفس منشؤه الإحساس بتضاؤلها وضعفها أمام قوة خفيَّة. أمَّا إطلاق الخِيفة فدلَّ على حالة من الخوف تلازم صاحبها[(١)]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

- ما أبلغ ما أدَّاه تنوُّع الأساليب- بالانتقال من الخبر في حكاية القول إلى الإنشاء الطلبيِّ بأسلوب النهي ﴿لَا تَخَفْ﴾- في تصوير الموقف ومعايشة جوِّه؛ لينساب إحساس بالأمن إلى نفس المتلقِّي بكلمتين أوجزتا رعاية اللَّه لخليله، وتعاهد ملائكته له بالتهدئة وتسكين الروع بعدما لمسوا آثار الخوف بادية على محيَّاه، أو بعد أن باح لهم بخوفه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢].

ويمضي القرآن الكريم يصوِّر جانبًا آخر من القصَّة تُعرض فيه حال إبراهيم عليه السلام بعد ذهاب خوفه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: ٧٤].

ما أدقّ التعبير بـ ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ عما اعترى إبراهيم عليه السلام في قصَّته مع الملائكة! فـ ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ هو الخوف الواقع في القلب بلا إظهار، فهو في هذا قريب من الخِيفة[(٢)]، والرُّوع القلب[(٣)] وهو أمير البدن، ففي ذهاب الرَّوع عنه دلالة على الانتفاء التامِّ لكلِّ آثار الخوف، ويزيد ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ عن الخوف في امتزاجه بالتعجُّب، وهذه الأحاسيس هي التي انتابت إبراهيم عليه السلام فكان التعبير عن امِّحائها واطمئنان

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٢/ ٥٧٨.
(٢) ينظر: حاشية القونوي: ١٠/ ١٤٣، والتحرير والتنوير: ١١/ ٢٩٩.
(٣) ينظر: لسان العرب: روع: ٣/ ١٤٧، وسبق بيان معناه ص٤٣.

قلبه بذهاب الرَّوع أفضل التعبيرات وأجمعها لزوال الحالة التي اعترته إبَّان ذلك الموقف بأحداثه العصيبة. فهاهو ذا الرَّوع قد ذهب، واطمأنَّ قلب خليل الرحمن إلى ضيفه حين علم أنهم من الملائكة جاءوه مبشِّرين.

يزيد الموقف أمنًا بتلك اللمسة الهادئة في مجيء البُشرى لتغمر الموقف سعادة وحبورًا له ولأهل بيته، وما أبلغ التعبير بالفعل الماضي المجرَّد ﴿ذَهَبَ﴾ و﴿جَآءَتْهُ﴾ في تصوير موقف تسكين خليل الرحمن، وتصوير المشاعر المتقابلة في النفس! فكأنَّ الانفعالات النفسيَّة تسهم مع الملائكة في طمأنة نفس خليل الرحمن، فالرَّوع يبتعد عنه ممتثلًا لأوامر اللَّه، لتحلَّ محلَّه البُشرى؛ فتزيل بيدٍ حانية كلَّ ما بقي من آثاره.

وأصل ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ يدلُّ على ظهور مع حسن وجمال، يقال بشَره يبشُره وبشَّره وأبشره إذا أفرحه، فهو من البشَرة وهي ظاهر الجلد التي تنبسط عند السرور، والبُشرى والبشارة (بضم الباء وفتحها) في الأصل لا تكون إلا بالخير، والنذارة بالشرّ[1]. وتأتي البُشرى بالعذاب في القرآن على سبيل الاستعارة التهكُّميَّة، كقوله تعالى ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، وفي إطلاق البُشرى وتعريفها في الآية تفخيم لشأنها.

ولا ينسى أبو الأنبياء في غمرة هذه الأحاسيس غَيره، فهاهو ذا يحمل همَّ الناس ويرجو لهم الخير، فيجادل في قوم لوط عليه السلام. والمجادلة هنا دعاء ومناجاة سأل بها عليه السلام ربَّه العفوَ عن قوم لوط عليه السلام خشية إهلاك المؤمنين منهم. وقد أشير إليها في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: بشر: ١١٧، ولسان العرب: ١/ ٢١١.

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢][١]. وأوثرت صيغة المضارع ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ إشارة إلى تكرُّر المجادلة، واستحضار الحالة العجيبة[٢].

ترى أكان المعنى باقيًا على جماله لو قيل: فلمَّا أذهبوا عن إبراهيم الرَّوع وجاءوه ببُشرى جادلنا...؟

وما أجمل جِدَّة العرض وتنوُّعه من سياق إلى آخر، ومن ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر: ٥٢-٥٣].

ذكر بعض المفسِّرين في معنى ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أنَّ هذا التصريح يمكن أن يكون بعد إيجاس الخيفة بعد أن قرَّب إبراهيم عليه السلام القِرى إليهم فلم يأكلوا منه، ويحتمَل أن يكون القول بلسان الحال بعد أن رأوا مخايل الخوف بادية عليه، فصار كالمصرِّح به قولًا[٣]. والوَجَل خوف عظيم يسيطر على النفس والجسم معًا، فهو مرحلة أقوى من الوجْس؛ إذ تشتدُّ فيه وطْأة الخوف على القلب، فكأنَّه ينصدع ليعمَّ الفزع أجزاء الجسم[٤]، وفي إيثار التعبير بصيغة المبالغة (وَجِل) على وزن (فَعِل) دلالة على شدَّته.

علَّل البقاعيُّ (ت٨٨٥هـ) اختلاف عرض القصة في هذا المقام قائلًا: «إذ ظرف

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١١/ ٢٩٩، وأضواء البيان: ٢/ ٢٠.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٣/ ٥٥٥، والتحرير والتنوير: ١١/ ٢٩٩.
(٣) ينظر: الكشاف: ٢/ ٣١٥، وحاشية القونوي: ١١/ ١٧٣، وروح المعاني: ٧/ ٣٠٥.
(٤) سبق تفصيل معنى الوجل ص٤٥.

زمان بمعنى حين، والحِين قد يكون واسعًا، فيذكَر ما فيه تارة جميعه على ترتيبه، وأخرى على غير ذلك، وتارة بعضه مع إسقاط البعض مع صدق جميع وجوه الإخبار؛ لكونه كان مشتملًا على الجميع»[١].

في قوله: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ نهيٌ خرج إلى الطمأنة والتسكين، وعُبِّر بلفظ الوجل هنا ليناسب ما قبله ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ ولمَّا كان الوجل أقوى من الخوف، فقد احتيج إلى مزيد طمأنة؛ لذا تابَع السياق توجيه الخطاب لإبراهيم عليه السلام، مؤكِّدًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ وهو «استئناف لتعليل النهي عن الوجل، فإن المبشَّر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن، كيف لا؛ وهي بشارة ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زمانًا طويلًا!»[٢]. وأوثر فيه التعبير بالفعل بصيغة المضارع المضعَّف ليدلَّ على فضل عناية. وتسهم أصواته في نشر تلك البُشرى العظيمة، فالتفشِّي في الشين يدعم معنى الانتشار، وفي تضعيفها وتفخيم الراء المضمومة ما يوحي بعظم البُشرى.

ويحكي القرآن موقف خوف تعرَّض له موسى وهارون - عليهما السلام - حين أمرهما اللَّه أن يدعوا طاغية زمانه إلى عبادة اللَّه ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] ولمَّا كان همُّ تبليغ الرسالة يهيمن عليهما؛ فقد خافا أن يَعْجَل فرعون بعقوبتهما قبل إتمام البلاغ وإقامة الحجَّة، فلجآ إلى المؤمن جل جلاله يبثَّان شكواهما، قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٥-٤٦]

﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾ تأكيد على خوف طَبَعيٍّ يطرأ على نفوس البشر ممَّن له قوَّة وبطش. ولاغرو أن يعتريَهما ذاك الخوف حرصًا على تبليغ رسالة اللَّه كاملة،

(١) نظم الدرر: ٤/ ٢٢٦.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٤/ ٢٥، وروح المعاني: ٧/ ٣٠٥.

وهما يحملانها إلى أعتى طُغاة الأرض. وما أسماه من خوف حين لا يكون دافعه حبّ الحياة، بل حرص على الأمانة التي أخذا على عاتقيهما أداءها كاملة!

﴿يَفْرُطَ﴾ من الإفراط وهو الإعجال في الأمر قبل التثبُّت. يُقال: أفرط فلان في أمره، أي: عجِل فيه، وفَرَط عليه فلان إذا عجل بمكروه، ومنه فارِط القوم وفَرَطهم، أي: متقدِّم الواردة، وفرس فُرُط: سريعة تتفرَّط الخيل، أي: تتقدَّمها(١).

﴿يطغى﴾ أي: يجاوز الحدَّ بالتخطِّي، إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجرأته عليك وقسوة قلبه، وفي مجيء الفعل ﴿يطغى﴾ على لسانيهما مطلقًا، دون تقييد بمتعلّق كما في ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ حسنُ أدب وتحاشٍ عن التفوُّه بالقبيح(٢)وفيه أيضًا رعاية للفاصلة.

وثمَّة لطيفة في إظهار ﴿أن﴾ في ﴿أن يطغى﴾ مع قيام المعنى دونها، ففيه إظهار لكمال الاعتناء بالأمر وإشعار بتحقُّق الخوف من كِلا الأمرين(٣).

ولمَّا كان خوفهما بالغًا على الرسالة فقد أُكِّد خطابهما لربِّهما ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾ «بإظهار النون الثالثة إبلاغًا في إظهار الشكوى»(٤)؛ لذا كان الجواب من البرِّ الرَّحيم مناسبًا تمامًا لزيادة الطمأنة وإزالة كلِّ آثار الخوف:

- ﴿لَا تَخَافَآ﴾ «ليس المراد منه النَّهي عن الخوف؛ لأنَّه من حيث كونه أمرًا طبيعيًّا لا مدخل للاختيار فيه، لا يدخل تحت التكليف ثبوتًا وانتفاءً، بل المراد

---

(١) ينظر: لسان العرب: فرط: ٥/ ١١٥، ١١٦.
(٢) ينظر: الكشاف: ٢/ ٤٣٥، وأنوار التنزيل: ٤/ ٥٢.
(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٤/ ٢٨٣.
(٤) نظم الدرر: ٥/ ٢١.

التسلِّي بوعد الحفظ والنُّصرة»[١].

- ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ أُكِّدت الجملة إشارة إلى عِظَم الخبر وتنبيهًا إلى مضمون معيَّة اللَّه الخاصَّة لأوليائه بالنُّصرة والعون[٢]، وأيّ أمن أعظم مِن معيَّة مُوجد الأكوان القاهر فوق عباده؟ أُثبتت النون الثالثة لتناسب كمال العناية والاحتفاء بشخصيَّتين يعدُّهما اللَّه لحمل رسالته، تحفُّهما ألطافه الربانيَّة في مهَّمتهما العظيمة؛ فتزيل ما يعتري نفسيهما من هموم التبليغ وخوف الإخفاق.

- كان هذا الإجمال يكفي لطمأنة أيّ خائف، لكنَّ المؤمِن ﷺ يزيدهما طُمأنينة بقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فهو كالتأكيد والتفصيل لقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ لذا ترك العطف بينهما، واختير المضارع للتجدُّد كلَّما تجدَّد ما جرى بينهم تجدُّد تعلُّق السمع والرؤية، بخلاف المعيَّة فهي دائمة[٣].

- حُذِف مفعولاهما قصدًا للتعميم مع الاختصار، فقد ارتبطا بقرينة معنويَّة تقتضي تقديرًا عامًّا يشمل جميع ما يجري بينهما وبينه ليتمَّ الحفظ، ويزول الخوف بالكُليَّة[٤]. وفي ظلِّ هذا الوعد الكريم وهذا الأمن الربانيِّ أيبقى ثمَّ خوف في نفسيهما؟

ومِن عباد اللَّه مَن جعل الدعوة إلى اللَّه همَّه الأسمى، كمؤمن آل فرعون الذي قصَّ القرآن تخويفه القوم يوم التناد، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٢-٣٣].

---

(١) حاشية شيخ زاده: ٥/ ٦٢١ .
(٢) ينظر: النهر الماد: ٦/ ٢٤٤.
(٣) ينظر: حاشية القونوي: ١٢/ ٣٥٦.
(٤) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٥/ ٦٢٢.

لِمَ نادى بوصف القوميَّة ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾؟

القوم هم شيعة الرجل وعشيرته، وتعريفهم بالإضافة إلى ياء المتكلِّم المحذوفة تخفيفًا[(١)] تحبُّب وتودُّد[(٢)]، ينطوي على الاهتمام بأمرهم والإحساس بالمسؤولية تجاههم، وهذا ما يميِّز المؤمن عمَّن سواه، فهاهو ذا يدعوهم خائفًا عليهم ومحذِّرًا من مغبَّة بقائهم على الكفر، ومما يعمِّق هذا المعنى التوكيد ﴿إِنِّيٓ﴾، وتقييد خبره ﴿أَخَافُ﴾ بـ﴿ عَلَيۡكُمۡ﴾.

﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ هو يوم القيامة، وعرِّف هنا بإضافته إلى هذا المصدر ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ ليصبح علَمًا عليه[(٣)] ففيه تكثر النداءات والصرخات، ينادي الناس بعضهم بعضًا للاستغاثة أو يتصايحون بالويل والثبور، أو يتنادَى أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار، وهذه التسمية تلقي عليه ظلال التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصوِّر يوم زحام وخصام.

قال ابن عاشور: «ومن بديع البلاغة ذكر هذا الوصف لليوم في هذا المقام ليذكِّرهم أنَّه في موقفه بينهم يناديهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ناصحًا ومريدًا خلاصهم من كلِّ نداء مُفزِع يوم القيامة، وتأهيلهم لكلِّ نداء سارٍّ فيه»[(٤)].

﴿ٱلتَّنَادِ﴾ أصله التنادي، وهو مصدر من مزيد الثلاثي (تنادَى) على وزن (تفاعَل)، الذي يدلُّ على المشارَكة، وما أروع ما أدَّاه حذف يائه من إيحاءٍ بالسرعة التي تسود الموقف مع الفرار والتنادي؛ ومراعاةٍ لاتِّفاق فاصلة الآية مع تاليتها؛ لتسهِما معًا في تصوير الموقف والإحساس بالاضطراب الذي يلفُّه؛ إذ

---

(١) حذفت تخفيفًا في كلِّ نُظَراء هذا الأسلوب في القرآن (ينظر: المعجم المفهرس: قوم).
(٢) ينظر: تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) لابن عثيمين: ١/ ١٨٦.
(٣) ينظر: حاشية القونوي: ١٧/ ٥٦.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٩٠.

يشعر المتلقِّي بالنبْر الصوتيِّ الذي ينشأ من قلقلة الدَّال المجهورة الشديدة بعد حرف المدِّ، فتسري فيه رِعدة فزَع من الموقف.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ هاربين من النار إلى الموقف[١]. وفي تكرار ﴿يَوْمَ﴾ إشعار بالتعظيم والتهويل، «والتكرير الحاصل نتيجة للمثير، له وقعه؛ إذ يدقُّ اللفظ بعدد ما يتكرَّر أبواب القلب موحيًا بالاهتمام الخاصِّ بمدلوله، فيشعل شعور المخاطب إن كان خافتًا، ويوقظ عاطفته إن كانت غافية»[٢]. فكلُّ المتجبِّرين أصحاب المال والجاه والسلطان المستكبرين في الأرض تهاوَوا أمام عظَمة الجبَّار المتكبِّر - تبارك اسمه - وهاهم أولاء يفرُّون خائفين بحثًا عن ملجأ يهدِّئ روعهم[٣]، لكن هيهات فلا منجى من اللَّه إلا إليه!

وتنطوي عبارة ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ على نكت لطيفة منها:

- انقلاب الموازين واختلاف أحوال الناس، فمع أنَّ عادة المتنادين الإقبال؛ وُصف ذلك اليوم بعبارة: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾، فاعجب لمن يفرُّون مدبرين عند النداء[٤]!

- دِقَّة تصوير مسلك الفزِع بالجمع بين التولِّي والإدبار، فـ«التولِّي: الرجوع، والإدبار أن يرجع من الطريق التي وراءه، أي من حيث أتى هربًا من الجهة التي ورد إليها؛ لأنَّه وجد فيها ما يكره. أي: يوم تفرُّون من هول ما تجدونه»[٥]. ففيهما تعميق للإحساس بالفزع والذُّعر من كلِّ ما يحيط، مما يجعل الفارِّين

---

(١) ينظر: أيسر التفاسير: ١٣٦٠.
(٢) ينظر: التكرير بين المثير والتأثير: ١٩٨.
(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٧/ ١١٨.
(٤) ينظر: مشاهد القيامة: ١٦٤.
(٥) التحرير والتنوير: ٢٤/ ١٩٠.

يتوقَّعون أنْ لا طريقَ آمَنُ مِن الطريق الذي منه أتوا؛ فالأهوال تحيط بهم من كلِّ مكان.. فأين المفر؟ من الذي يعصمهم من اللّه؟ هو وحده العاصم، ولا منجى ولا ملجأ منه إلا إليه.

- إيحاء لفظ ﴿مُدْبِرِينَ﴾ يهوِّل الموقف فالدال والباء فيه حرفان شديدان مجهوران مقلقلان يضفيان معنى الاضطراب والرَّجفة مع الفرار.

وتأتي جملة الحال[1] لتبسط ظلال الهول على الموقف ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ﴾:

- يدلُّ أصل ﴿عَاصِمٍۗ﴾ على إمساك ومنع وملازَمة، ومعنى يعتصم يلتجئ ويتمسَّك بعاصم من فزع يعصف به[2]، ويرتبط هذا اللفظ بالخوف ارتباطًا وثيقًا لأنَّ الفزِع يحتاج إلى الأمان فيتلفَّت باحثًا عن عاصم. وما أفظع أن يجد نفسه وحيدًا في وسط تلك الأفزاع! فلا منجى من اللّه إلا إليه!

- ﴿مِّنْ﴾ في ﴿مِنْ عَاصِمٍۗ﴾ مزيدة لتأكيد نفي الجنس[3]، وفي هذا النفي ما يبعث على الاستمساك بحبل اللّه في الدُّنيا، فهو سبب النَّجاة من أهوال الآخرة.

والإيمان والاستقامة أصلا الكمال الإنسانيِّ، شعور في الضمير، وسلوك في الحياة، جهاد وصبر على التكاليف، مما يحقِّق الأمن في الدنيا والآخرة، ومن أين يتسرَّب الخوف إلى من أحاطه اللّه بالملائكة تؤمِّنه في أشدِّ مواطن الخوف؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٣٣٤.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: عصم: ٧٥١.
(٣) ينظر: رصف المباني: ٣٩٠.

وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾
[فصلت: ٣٠-٣١]

آفاق الأمن والاطمئنان التي تصوِّرها الجمل:

-﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: بالرحَمات والبركات من ربهم فيلقونهم عند كلِّ شِدَّة بما يغمر قلوبهم أمنًا وسكينة ورضًى(١). أوثر المضارع لتجدُّد الحال كلَّما عنَّ لهم ما يفزعهم، وفي إيثار تضعيف الفعل على المطاوعَة بدلًا من (تَنْزِل) فضل عناية؛ فالملائكة تتنزل عليهم من حين لآخر وَفْق ما يعرض لهم على سبيل التدريج المتَّصل(٢).

- ما أبرع أسلوب الالتفات من الغيبة ﴿عَلَيْهِمُ﴾ إلى الحضور ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾! ينقل الحدث العظيم من السماء مبشِّرًا من قام منهج حياتهم على الاستقامة. فهاهم أولاء يأنسون بالملائكة تتلقَّاهم عند الشدائد فتسلِّيهم، ويتردَّد صوتها في أعماق نفوسهم ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ أيّ أمن عامٍّ من كلِّ المخاوف مقبلَة كانت أو فائتة، ينطوي تحت هذا القول! ومما ذُكر في الفرق بين الخوف والحزن؛ أنَّ الخوف غمٌّ يلحَق لتوقُّع المكروه فيختصُّ بالمستقبل، والحزن غمٌّ يلحق مما وقع من مكروه من فوات نفع أو حصول ضرر فهو مرتبط بالماضي(٣).

ويعلِّل البقاعيُّ انتفاء الخوف والحزن عنهم بأنَّ أوقاتهم «الأخراويَّة فيها بل هي كلّها روح وراحة، فلا يفوتهم لذلك محبوب، ولا يلحقهم مكروه»(٤)، وفي إطلاق النَّهيِ عن الخوف والحزن دون تقييد؛ دلالة على العموم «والمعنى أن اللّه

---

(١) ينظر: التفسير القرآني: ٢٤/ ١٣١٣.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ٥٧١.
(٣) ينظر: الكشاف: ٣/ ٣٩١، وحاشية شيخ زاده: ٧/ ٣٨٤، وحاشية القونوي: ١٧/ ١٥٩.
(٤) نظم الدرر: ٦/ ٥٧١.

تعالى كتب لكم الأمن من كلِّ غمٍّ، فلن تذوقوه أبدًا»[١].

- ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ أي: «املأوا صدوركم سرورًا يظهر أثره على بشرتكم بتهلُّل الوجه ونعمة سائر الجسد»[٢]، وبيِّنٌ حدَّ السُّطوع ما تشيعه هذه الكلمة في النفس من معاني الطمأنينة والانشراح، بخلاف ما لو قيل: فستدخلون الجنة.

ويعلِّل أبو حيان الترتيب البديع بين الخوف والحزن والبشرى بقوله: «ولمَّا كان الخوف مما يُتوقَّع من المكروه أعظم من الحزن على الفائت قدمه، ثُمَّ لمَّا وقع الأمن لهم بُشِّروا بما يؤولون إليه من دخول الجنَّة؛ فحصل لهم الأمن التامُّ والسرور العظيم»[٣]. ولننظر إلى ما توحي به الحروف في هذا المعنى، الهمزة والباء حرفان شديدان مجهوران يلائمان عظم البشارة المفرحة التي يُراد لها أن تطبِّق الآفاق، ويدعم التفشِّي في الشين معنى الانتشار، كما يرفع تفخيم الرَّاء وضمُّها من شأن كافَّة أركان البشرى.

وتكون البُشرى في ثلاثة مواطن - كما يقرِّر أهل العلم -: عند الموت وسكراته، وفي القبر وظلماته، وعند البعث وعرَصاته[٤]، وليس أشدّ من هذه المخاوف الثلاث، فما أعظم تحقُّق الأمن فيها! ومما يضفي جوًّا من السعادة والطمأنينة على الموقف أن تصدر تلك البُشرى من محبٍّ يفرح لحبيبه بالخير ويسعى لسعادته؛ لذا جيء بالاعتراض ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾في طيّات الحديث عن الجنَّة[٥].

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٤٤٤.
(٢) نظم الدرر: ٦/ ٥٧١.
(٣) البحر المحيط: ٧/ ٤٩٦.
(٤) ينظر: معالم التنزيل: ١١٥١، وإرشاد العقل السليم: ٥/ ٤٤٤، وتيسير الكريم الرحمن: ٧٤٨.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٥/ ٥٢.

- يزيد قول الملائكة: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ﴾ من اطمئنان المؤمنين وأنسهم وانشراح صدورهم، فهم يكشفون لهم عن عَلاقة حميمة تجمع بعضهم ببعض، فهم يستغفرون لهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٧]، وهم جند من جنود اللَّه يقاتلون معهم في سبيله كيوم بدر: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: ١٢].

تأمّل قول ابن القيِّم في تفسير ولاية الملائكة للمؤمنين: «فالملَك يتولّى من يناسبه بالنُّصح والإرشاد والتثبيت والتعليم، وإلقاء الصواب على لسانه، ودفع عدوِّه عنه، والاستغفار له إذا زلَّ، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السَّكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصَّلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضّه على التَّصديق بالوعد، وتحذيره من الرُّكون إلى الدُّنيا وتقصير أمله، وترغيبه فيما عند اللَّه، فهو أنيسه في الوَحدة ووليُّه ومعلِّمه ومثبِّته ومسكِّن جأشه، ومرغِّبه في الخير، ومحذِّره من الشرِّ، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهرًا يذكر اللَّه بات معه في شعاره، فإن قصده عدوٌّ له بسوء وهو نائم دفعه عنه»(١). وبعد هذا أثَمَّ لفظ مصوِّر لكلِّ هذه المعاني العظيمة أوجز وأجمع من هذا!

شتَّان بين البرَرة وأوليائهم في هذه الصورة المشرقة، وبين الكفَرة وقرنائهم في الصورة التي سبقتها من هذه السورة: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [فصلت: ٢٥]، يزيِّنون لهم المنكر والقبائح في الدُّنيا، ويتبرَّأون منهم

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين: ٢٦٨، ٣٦٩.

ويعادونهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

وثَمَّ صورة من صور الاطمئنان والرِّضى تطمح إليها كلُّ نفس بشريَّة، وتسعى للوصول إليها إنْ بالعمل أو بالأماني، تلكم الواردة في قول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

نداء تكريم من البرِّ الرَّحيم يخصُّ به النفس المطمئنَّة في لُجَّة البلاء الخانق والشدَّة البالغة، أوان الانتقال إلى دار القرار، ثُمَّ يوم يقوم الأشهاد[1]. ولعلَّ قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] يؤيِّد ذلك - واللّه أعلم-، فليس أعظم من البُشرى بدخول الجنة. ومن بلاغة القرآن وإعجازه أن يصحَّ مجيء اللفظ الواحد لموقفين مختلفين؛ لعدم وجود ما يخصِّص الخطاب بإحدى الدارين، فيبقى اللفظ على عمومه.

نظم الآية وما يصوِّره من أمن:

- في نداء النفس بما يُنادَى به البعيد ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا﴾ مع تعريفها باللَّام ووصفها

---

(١) اختلف المفسرون في وقت هذه المقولة: فذهب بعضهم إلى أنها عند رد الأرواح إلى الأجساد يوم البعث واختار هذا ابن جرير، وعليه حمل معنى ﴿رَبِّكِ﴾ على (صاحبك) وهو بدنها الذي كانت تعمره في الدنيا (ينظر: جامع البيان: ٢٤/ ٣٩٦)، وذكر آخرون أنها عند الموت، ورجحه الشيخ زاده في حاشيته: ٨/ ٥٩٩، والشيخ ابن عثيمين في تفسير القرآن الكريم (جزء عم) ٢٠٩، وقال غيرهم: إن الكلمة الأولى: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ تقال لها عند الموت، والأخرى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ تقال لها يوم القيامة. ولعل الأرجح أن تحمل على الوقتين، وهذا ما أثبتُّه استنادًا إلى ما ذكره ابن القيم في مدارج السالكين: ٢/ ١٤٨، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: ١٤٣٤، وابن سعدي في تيسير الكريم الرحمن: ٩٢٤، والجزائري في نهر الخير (بهامش أيسر التفاسير): ١٧٦٠، وتأمُّلًا في سياق الآيات التي سبقتها، والآيات التي تؤيدها، كما ذكرت.

بالمطمئنَّة مبالغة في التفخيم، وهو أبلغ في هذا المقام من (يا أيها الذين آمنوا) مع أنَّه المقصود، فكأنَّ كلَّ نفس مطمئنَّة تنادَى به على حِدة مما يجعل لها فضل تكريم. ولا يخفى ما فيه من تعريض لضدِّها[١].

- مما قاله المفسِّرون في معنى ﴿ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾: «هي المنيبة المخبتة التي أيقنت أنَّ اللَّه ربها، وضربت لأمره جأشًا»[٢]، أو هي «الآمنة التي لا يستفزُّها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة أو المطمئنَّة إلى الحقِّ، التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شكّ»[٣]، وفي وصف النفس بالمطمئنَّة ثناء وتبشير[٤].

- في اصطفاء لفظ ﴿رَبِّكِ﴾ المضاف إلى ضمير المخاطبة دلالة على الاختصاص والولاء والتربية. مما يحيط الموقف بالرعاية والتكريم والأمان.

- في الجمع بين صفتي ﴿رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً﴾إشارة إلى رضًى ثابت، ليس مجرَّد خاطر يطوف بها، أو شعور يطرقها، بل هو حبل لا ينقطع بينها وبين خالقها؛ لا يلحقها معه كدر بوجه من الوجوه، فهي ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ من اللَّه بما حازت، ﴿مَّرۡضِيَّةً﴾ عنده بما عمِلت، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة: ١١٩].

أوَ كان المعنى باقيًا على دِقَّته لو حذف لفظ ﴿مَّرۡضِيَّةً﴾؟ حتمًا لا، ففيه زيادة ثناء؛ لأنَّ المرضيَّ عنه يزيده مولاه من الهبَات فوق ما رضي به.

- في العطف بالفاء الدالَّة على التعقيب ﴿فَٱدۡخُلِي﴾ دلالة على سُرعة التنعُّم

---

(١) ينظر: حاشية القونوي: ٢٠/ ٢٦٨.
(٢) جامع البيان: ٢٤/ ٣٩٤.
(٣) مدارك التنزيل: ١٣٤٨.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٠٣.

بالسعادة الروحانيَّة[١] بالدُّخول في زُمرة المتَّقين، وعُطف عليها بالواو دخول الجنَّة لتنضمَّ إليها السعادة الجسمانيَّة؛ فيكتمل بهما الاستقرار والرَّاحة الأبديَّة.

- أُضيف الاسمان ﴿عِبَادِى﴾ و﴿جنتي﴾ إضافة تشريف إلى ياء المتكلم العائدة على الذات العلِيَّة، أمَّا العُصاة فلم يحظَوا بذيَّاك الشَّرف!

- «تعدَّى ﴿فَٱدۡخُلِى﴾ أولًا بـ ﴿فِى﴾، وثانيًا بغيرها، وذلك أنَّه إذا كان المدخولُ فيه غيرَ ظرفٍ حقيقيٍّ تعدَّت إليه بـ ﴿فِى﴾. دخلتُ في الأمر، ودخلتُ في غِمار الناس، ومنه: ﴿فَٱدۡخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾، وإذا كان المدخولُ فيه ظرفًا حقيقيًا تعدَّت إليه في الغالب بغير وساطة ﴿فِى﴾»[٢].

وغنيٌّ عن البيان أنَّ فوزهم بالأمن والاطمئنان هو ثمرة تقوى اللّه والإشفاق من عذابه، بيَّنه القرآن في مواضع كثيرة، بل قد نقلته لنا الآية التالية حيًّا على لسان أهل الجنة، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِىٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٦- ٢٧].

وردت تان الآيتان على لسان أهل الجنة وهم «يتذاكرون ما كانوا فيه من التَّعب والخوف في الدُّنيا»[٣]، ويسأل بعضهم بعضًا عن أحواله، وما استوجب به رحمة اللَّه، ونيل ما عنده[٤].

ففي قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِىٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ إشارات خفيَّة تحمد الخوف الذي تحلَّوا به في الدنيا:

---

(١) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٨/ ٥٩٩.
(٢) البحر المحيط: ٨/ ٤٧٢.
(٣) معالم التنزيل: ١٢٣٩.
(٤) ينظر: الكشاف: ٤/ ٣٥.

- دلَّ التعبير عن إقامتهم في الدُّنيا بـ ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا﴾ مع ما يوحي به لفظ الأهل من الأنس والألفة[١]، بالإضافة إلى تقديم ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا﴾ على ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ على رفعة شأن تقواهم وإشفاقهم حيث لم يشغلهم الأمان الخادع والملهيات عن عبادتهم، وتذكُّر آخرتهم.

- أوثر ﴿فِي﴾ على (مع) ليدلَّ على التمكُّن فالمباهج الدنيويَّة أصبحت كلُجَّة ينغمس فيها الناس، فينشغل بعضهم بجمع أصدافها ولآلئها الزائفة غافلًا عن ثِقَلها الذي يعيق نفوذه إلى شواطئ الأمان، أمَّا الفَطِن منهم فيجعلها مَعبرًا ينفذ منه إلى مرافئ آمنة رحيبة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

ويوحي الإطناب في قوله: ﴿قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا﴾ بانتهاء ذلك الإشفاق الذي كان ملازمًا لهم ليحلَّ محلَّه أمن دائم، ففي الفعل ﴿كُنَّا﴾ الماضي دلالة على الدُّنيا، و﴿قَبۡلُ﴾ ظرف للماضي، ففي الجمع بينهما تأكيد على انتهاء زمن الخوف.

- يأتي خبر ﴿كُنَّا﴾ مبيِّنًا عِظَم هذه الصِّفة ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ أي: أرقَّاء القلوب عريقين في خشية اللَّه معتنين بطاعته، لا يلهينا عنه شيء مع لزومنا لما نقدر عليه[٢].

وثَمَّ نِكات بديعة في جملة ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا﴾ تنطوي على أمن منقطع النظير:

- في العطف بالفاء التي دلَّت على الترتيب والسبب[٣]، دلالة بيِّنة على أن

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: أهل: ٧٨.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ١٩٠، وأنوار التنزيل: ٥/٢٤٨، ونظم الدرر: ٧/ ٣٠١، وقد ورد بيان معنى الإشفاق ص٣٣.
(٣) فالفاء العاطفة يلازمها الربط والترتيب وقد يأتي معهما التسبيب في بعض المواضع، كما يقال: ضربت زيدًا فبكى؛ فالبكاء سببه الضرب (ينظر: رصف المباني: ٤٤٠).

إشفاقهم من اللّه هو ما أدّى إلى الأمن العظيم والنعيم المقيم، وإلماح إلى قصر زمن الدُّنيا وسرعة الجزاء الأخرويّ.

- أضاف الإطناب في قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ معنى الاعتراف التامّ بالفضل والمنّة. مع التعلُّق الخالص بمسبِّب الأسباب سبحانه، بخلاف ما لو قيل: فوقانا اللّه.

- وفي ﴿وَوَقَىٰنَا﴾ إشارة إلى أنَّ مجرَّد الوقاية والأمن من ذلك الهول الذي تشيب له الولدان فضل ونعمة، فكيف ومعه جنات ونعيم يلتذُّون فيها ويتفكهون؟

- لا يخفى ما في إطلاق لفظ ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ على نار جهنم من دلالة بيِّنة على شدَّة عذابها وهوله. فأصل ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ ريح حارَّة مُهلكة معروفة عند العرب تنفذ في المسامِّ نفوذ السُّمِّ، وأطلقت على جهنم لتقريبها إلى الذِّهن رغم البَون الشاسع في النوع[1]. وفي إضافة العذاب إليها مزيد تهويل؛ وفي نجاتهم من لفحها وعذابها ما يعمِّق معنى الأمان.

ومن خلال هذا الفصل تتجلّى قيمة الحقيقة في التصوير وأثرها البارز في الإقناع والتأثير، وما تقوم عليه من براعة في اختيار الألفاظ المعبرة بالنظر إلى دلالاتها المعجميَّة والصرفيَّة والصوتيَّة والإبداع في توظيفها لتؤدِّي معانيها أتمَّ أداء وأوفاه، وغنيٌّ عن البيان ما يتحقَّق من تآلف تيك الألفاظ المصوِّرة مع أخواتها في نظم معجِز حيٍّ غني يعبِّر عن خلَجات النفوس ونبَضات القلوب تنسجم معه أبعاد الجمال وآفاقه في البناء العامِّ للصورة مع ظهور أثرها العظيم في خدمة الغرض الأسمى إيضاحًا وتأثيرًا، لايقلُّ عمَّا يُحدِثه التصوير بطرق البيان. ولعلَّ هذا يزداد وضوحًا في الفصول التالية التي تقوم على التصوير البيانيِّ من تشبيه إلى مجاز إلى

---

(١) ينظر: الكشاف: ٤/ ٣٥، ونظم الدرر: ٧/ ٣٠١، والتحرير والتنوير: ٢٧/ ٦٩، ٧٠.

كناية، ليظهر تنافس تلكم الوسائل، والإبداع القرآنيُّ في انتقاء التعبير المناسب للمقام، بحيث يبرز الإعجاز في عرض الصور وتصريفها بما يخدم المعاني الجليلة والمقاصد العظيمة.

* * *

الفصل الثاني
التصوير بالتشبيه

المبحث الأول: التشبيه الحسي

المبحث الثاني: التشبيه المعنوي

توطئة

التشبيه عنصر أصيل من عناصر البيان، يعدُّ من أقدمها، وأكثرها ورودًا عند القدماء. وهو ميدان واسع يتبارى فيه البلغاء، يُكسِب الكلام بيانًا عجيبًا إذا اقترن بحسن التأليف؛ فيزداد به المعنى وضوحًا، ويكتسب تأكيدًا[١]. لا يستغني عنه بليغ لأداء معانيه، والتأثير في نفوس سامعيه؛ إذ يجمع فضائل مهمَّة للكلام من أهمها: المبالغة والبيان والإيجاز، فقولك: زيد أسد، أو كالأسد، أفضل من أن تقول: زيد من حاله كيت وكيت، وهو من الشجاعة والشِّدَّة على كذا وكذا، فشتَّان بينهما بيانًا وإيجازًا ومبالغة[٢].

«وقد عَرَفه الجاهليُّون وسيلة لإيضاح المعاني، وفنًّا من فنون المبالغة في التعبير، ولم يعرفوه مصطلحًا بلاغيًّا له حدوده، وقواعده، وأقسامه التي استقرّ الرأي عليها عند متأخري البلاغيين»[٣]. وله شرفه في أنواع البلاغة، ذلك أنَّه يرفع أقدار المعاني ويجلِّيها بعد خفاء، ويُضاعف قُواها في تحريك النفوس، فهو مع المديح أبهى وأسرع للإلْف، ومسُّه في الذمِّ أوجع، ووقعه أشدُّ، وشرفه في الفخر أجدُّ، وشأْوه أمدُّ، وهو في الاعتذار أقرب إلى القَبول، وأسلُّ للسخائم، وأبعث على حُسن الرجوع، وأدعى في الوعظ إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر[٤].

ولعلَّ الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ) أوَّل من تناوله[٥]، ثُمَّ عني به العلماء من

(١) ينظر: كتاب الصناعتين: ٢٤٩، وتحرير التحبير: ١٥٩.
(٢) ينظر: المثل السائر: ١/ ٣٧٨.
(٣) التشبيه دراسة في تطور المصطلح: ٣.
(٤) ينظر: أسرار البلاغة: ١١٥، ١١٦، ١٢١.
(٥) ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي: ٦٤، والبيان في ضوء الأساليب العربية: ٣٤.

بعد، وانصبَّت جهود كثير منهم على دراسة جملة من التشبيهات القرآنيَّة؛ ليستشرفوا منها الظواهر البلاغيّة من حيث كونُ القرآن هو المثَل الأعلى، والتشبيه وجه من وجوه بلاغته وإعجازه. وممن برز في هذا: ابن قُتيبة (ت٢٦٧ هـ)، والرّمّانيُّ (ت٣٨٦ هـ)، والخطّابيُّ (ت٣٨٨ هـ)، والباقلانيُّ (ت٤٠٣ هـ)، وعبد القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١، أو ٤٧٤ هـ)، بل هناك من أفرد كتابًا خاصًّا بالتشبيه كابن ناقيا البغداديّ (ت٤٨٥هـ) صاحب (الجمان في تشبيهات القرآن)، وهو أوَّل كتاب يجمع آيات قرآنيَّة وشَّحت هذا الفنَّ، بدراسة أصيلة وتذوُّق جميل[١].

وأصل التشبيه يدلُّ على المشاكَلة والمماثَلة لونًا ووصْفًا، فالشِّبْه والشَّبَه والشبيه: المِثْل، والجمع أشْباه، يُقال: أشبهتُ فلانًا وشابهته واشتبه عليّ، وتشابه الشيئان واشتبها، وشبّهتُه إياه، وشبّهتُه به؛ أي: جمعتُ بينهما بوصف جامع، والمشتبِهات من الأمور: المشْكلات التي يُشبه بعضها بعضًا. والمتشابهات: المتماثلات[٢]، ومنه قوله تعالى في قصة عيسى عليه السلام: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧] «أي: رأوا شِبْهه فظنُّوه إيَّاه»[٣].

وقد اختلفت أساليب البلاغيِّين في تعريف التشبيه. فعرَّفه ابن رشيق (ت٤٦٣هـ) بأنّه «صفة الشيء بما قارَبه، وشاكلَه من جهة واحدة، أو من جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنَّه لو ناسبه كُلِّيَّة لكان إيَّاه»[٤]، أمَّا القزوينيّ (ت٧٣٨هـ) فذكر أنّه «الدِّلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى»[٥]. وهذا التعريف يفضُل ذاك في أنَّ الدِّلالة التي صُدِّر بها هي صفة للمتكلِّم فـ «لا يسمَّى اللفظ

(١) ينظر: فنون بلاغية: ٢٨.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: شبه: ٥٢٦، ولسان العرب: ٣/ ٣٩٣، والطراز: ١/ ١٣٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣٧٤.
(٤) العمدة في صناعة الشعر ونقده: ١/ ٢٨٦ .
(٥) التلخيص بشرح البرقوقي: ٢٣٨.

بالمشبَّه على صيغة اسم الفاعل، وإنما يسمَّى به المتكلِّم»[١]، فضلًا عن أنَّ الدِّلالة أعمُّ من الصفة[٢]، فهي «مصدر قولهم: دللتُ فلانًا على كذا إذا هديتَه له»[٣]. وإنْ كان تعريف الأخير مُقتضَبًا وفضفاضًا؛ إذ لا يشمل التشبيه وحده، إنمَّا يَدخُلُ معه في معنى المشارَكةِ العطفُ، والمفاعَلة، وأفعل التفضيل. أمَّا المقارَبة والمشاكَلة اللتان ذكرهما ابن رشيق فتخصُّ التشبيه وحده، وكِلا التعريفين لم يذكر أداة التشبيه على أهميَّتها؛ إذ هي فرق جوهريٌّ بينه وبين الاستعارة[٤]. والأولى أن يُمزَج بين التعريفين، فيُقال: الدِّلالة على الشيء بما قارَبه وشاكَله من جهة واحدة أو أكثر، بأداة ظاهرة أو مُضمَرة.

ولا بدَّ من مراعاة الجانب النفسيِّ في التشبيه، باشتراك طرفيه في شكل الصورة أو معناها، مع اتِّفاق جوهر العواطف[٥] التي تثيرها، نبَّه إلى ذلك د. أحمد بدويّ في تعريفه التشبيه على أنَّه: «لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسيّ»[٦]، هذا هو جوهر التشبيه، وسرُّ جماله؛ لذا عيب على الخبَّاز البلديِّ[٧] قوله في وصف روض:

كَأنَّ شَقَائِقَ النُّعمَانِ فِيهِ ... ثِيَابٌ قَد رَوِينَ مِنَ الدِّمَاءِ[٨]

ويستدعي التشبيه أركانًا هي: الطرفان ليحصل، والوجه ليجمع، والأداة

(١) تجريد البناني: ٤/ ٤، وينظر: تقرير الإنبابي: ٤/ ٤.
(٢) ينظر: شرح التلخيص للبابرتي: ٤٦٩.
(٣) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: ٢/ ١٢٧.
(٤) ينظر: جوهر الكنز: ٦٠.
(٥) ينظر: البلاغة في ثوبها الجديد: ٢/ ١٦.
(٦) من بلاغة القرآن: ١٩٠، وينظر: البلاغة في ثوبها الجديد: ٢/ ١٦.
(٧) البيت من الوافر، منسوب للخباز في معاهد التنصيص: ٢/ ٥.
(٨) ينظر: العمدة في صناعة الشعر ونقده: ١/ ٤٩٢، وخزانة الأدب: ٢/ ٥٠٨ ولم يأت البيت منسوبًا في الكتابين، ونسب صاحباهما نقده إلى بعض البلاغيين المتأخرين، ولم يسمِّياهم كذلك.

لتوصِّل. كما ينبغي النظر في الغرض الذي سيق له، والطريقة التي أتى بها؛ لتتجلَّى بلاغته وحُسنه[١]. فطرفاه هما المشبَّه والمشبَّه به، بوجودهما يُسمَّى الأسلوب تشبيهًا[٢]، ويشتركان في الذات أو الصفات من وجه أو أكثر، وهذا ما يُسمَّى بالجامع، أو وجه الشبه[٣].

ومن أدواته ما هو حرف: كالكاف وكأنَّ، ومنها أسماء نحو: شِبْه ومِثْل، وأفعال: نحو ماثَل وشابَه[٤] وأفعال الظنِّ واليقين، وغيرها مما يدلُّ على معنى التشابه. وبوجود الأداة يُسمَّى مرسَلًا، وفي مقابلِهِ المؤكَّد أو البليغ[٥] الذي تُقدَّر فيه الأداة، فيقترب المشبَّه من المشبَّه به[٦]، والفرق بينه وبين الاستعارة أنها وإن كانت تقوم على معنى التشابه، إلَّا أنَّ تقدير الأداة يمتنع فيها، والتشبيه المضمَر الأداة على خلاف ذلك؛ فتقديرها ممكن.

وتختلف أنواع التشبيه لعدة أوجه: منها ما يأتي حسب الأداة أو الطرفين، أو وجه الشبه، وسيقتصر الحديث في هذا الفصل على الأخير منها؛ لإبراز جمال الصورة البيانيَّة، وعدم إزهاقها بتفريع وتقسيم.

ومن أشهر تقسيمات التشبيه - بالنظر إلى وجه الشبه -:

١- الحسِّيّ والمعنويّ: الحسِّيُّ ما يُدرَك بالحواسِّ من سمع أو بصَر أو شمٍّ أو

---

(١) التبيان للطيبي: ١٨٠.
(٢) وقد يحذف المشبه في اللفظ فقط ويكون منويًا أو مقدرًا، والمقدر في حكم المذكور، كما في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة:١٨]. .
(٣) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ١٨٨، ١٨٩، ومفتاح العلوم: ٤٣٩، ٤٤٠.
(٤) ينظر: التبيان للطيبي: ٢١٢.
(٥) اتفق البلاغيون على أنه من التشبيه (ينظر: سر الفصاحة: ١١١، ودلائل الإعجاز: ٦٨، والكشاف: ١/ ٣٩، والمفتاح: ٤٦٣، وروضة الفصاحة: ٧٨، والإيضاح: ٢٠٣).
(٦) ينظر: تحرير التحبير: ١٦١- ١٦٤.

ذوق أو لمس. والمعنويُّ[١] -وهناك من سمَّاه النفسيَّ[٢] أو العقليَّ[٣]- هو ما يكون في الغرائز والأخلاق[٤]. ولعلَّ تسميته المعنويّ أقرب إلى طبيعة البلاغة، إذ لا يعتمد فنٌّ تذوُّقيٌّ على العقل وحده في الربط بين طرفين، وإلّا كان بينهما بون شاسع لاختلاف جوهر كلٍّ منهما؛ فلا بدَّ من إدراك الوقع النفسيّ والإيحاء المعنويّ؛ ليكتمل بهما جمال الصورة.

ولم يحدد عبد القاهر معالم واضحة تُميِّز الوجه الحسِّيَّ عن المعنويِّ فقد «ألحق بالحسِّيَّات ما كان وجه الشبه فيه من قبيل الطباع والغرائز في الحيوان كالشجاعة والمكر، أو من قبيل الأخلاق والسجايا في الإنسان كالكرم واللؤم والجبن، كأنَّه يرى هذه الوجوه مما يُدرَك بالحسِّ الباطن - إن صحَّ هذا التعبير - أو يراها في شدَّة ظهورها ووضوحها، بحيث تلتحق بالحسِّيَّات وتُداخِلها»[٥]. وقد أدرجتُ التشبيهات القرآنيَّة الواردة في الأمن والخوف تحت هذا التقسيم (الحسِّيّ والمعنويّ)؛ إذ رأيته يُبرِز جمال الصورة ويعمِّق تأثيرها، تتبعه الأقسام الأخرى التي تخصُّ وجه الشبه، - وسأوردها - بإذن اللَّه- في الفِقَر التالية - لذا لم أُغفلْها في مَعرِض تأمُّل بلاغة الآيات، واستشراف معانيها ولطائفها البديعة.

٢- أن يكون وجه الشبه واحدًا أو غير واحد، والأخير إمَّا أن يكون في حُكم

---

(١) جعل ابن وهب (ت٣٣٥هـ) التشبيه في المعاني، مقابلًا لما كان في ظواهر الأشياء وألوانها وأقدارها، وهذا الأخير هو ما عرف عند البلاغيين بالحسي (ينظر: البرهان في وجوه البيان: ١٠٧، ١٠٨)، وسمى العلوي قسيم الحسي تارة العقلي وأخرى المعنوي (ينظر: الطراز: ١/ ١٣٨- ١٥٦).

(٢) منهم الرماني في النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل): ٨٠ .

(٣) ينظر: أسرار البلاغة: ١٠١، ونهاية الإيجاز: ١٩٩، ومفتاح العلوم: ٤٤١ .

(٤) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ١٩٦ - ١٩٨.

(٥) الجانب النفسي من التفكير البلاغي: ٣٢، وينظر: أسرار البلاغة: ٩٠، ٩١، والصورة البلاغية عند عبد القاهر: ٢/ ٥٤٣ .

الواحد؛ لكونه مركَّبًا من أوصاف مُلتئمة في هيئة واحدة(١) وهو التمثيل(٢)، وإمَّا أن يكون متعدِّدًا. وقد فرَّق عبد القاهر الجرجانيُّ بينه وبين التشبيه، فذكر أن التشبيه عامٌّ، والتمثيل أخصُّ منه، فكلُّ تمثيل تشبيه، وليس كلُّ تشبيه تمثيلًا، فسمَّى ما يجري فيه التأوُّل تمثيلًا، وفي المقابِل ما كان في المبصَرات، ولم يجرِ فيه التأوُّل سمّاه تشبيهًا(٣).

ولم يرتضِ ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) هذا التفريق، فذكر أنهما واحد في أصل الوضع، وتعجَّب ممن خفي عليه اتِّفاقهما مع أنَّه واضح ظاهر، فكما يُقال: شبَّهتُ هذا الشيء بهذا، يقال: مثَّلتُه به(٤). يظهر مِصداق ذلك بالرجوع إلى المعنى اللغويِّ للتمثيل، فقد ذكر ابن فارس أنَّ أصله يدلُّ على مناظرة الشيء للشيء، يقال: هذا مِثْل هذا؛ أي: نظيره، وربما قالوا: مَثِيل كشَبِيه، والمَثَل: المِثْل أيضًا، كشَبَه وشِبْه(٥).

ويمكن الجمع بين الرأيين مع الاستئناس بآراء البلاغيِّين المتأخرِين؛ إذ يدلُّ التشبيه والتمثيل على شيء واحد في العُرف اللغويِّ -كما ذكر ابن الأثير-، لكنَّ الاختلاف يكمن في الاصطلاح، فالتمثيل أخصُّ -كما ذكر عبد القاهر-، وخصوصيَّته نابعة من كون وجه الشبه فيه وصفًا مركَّبًا منتزَعًا من عِدَّة أمور، سواء أختصَّت بالعقليَّات أم تجاوزتها إلى المحسوسات(٦)، وهذا رأي صاحب الإيضاح(٧) (ت٧٣٨هـ) الذي سار

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٤١، والمصباح في المعاني والبيان والبديع: ١٠٥.
(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٥٥، والإيضاح: ٢٣٤.
(٣) ينظر: أسرار البلاغة: ٩٥ - ٩٧.
(٤) ينظر: المثل السائر: ١/ ٣٧٣.
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة: مثل: ٩٣٨.
(٦) ينظر: الإيضاح: ٢٣٤، ٢٣٥، والأطول: ٢/ ١٩٩.
(٧) وقد أطلق فيه قيدًا آخر وضعه السكاكي في التمثيل إضافة إلى كونه منتزعًا من عدة أمور، وهو كونه غير حقيقي (ينظر: مفتاح العلوم: ٤٥٥)، وقد بين بطلانه بأن شرح من أمثلة السكاكي ما يثبت جواز إتيانه حقيقيًّا (ينظر: الإيضاح: ٢٣٤، ٢٣٥).

على نهجه جمهور البلاغيِّين[١].

٣- المفصَّل والمجمَل[٢]: الأول منهما ما ذُكر فيه وجه الشبه، والآخر ما لم يُذكَر فيه الوجه، ومنه ظاهر الفَهم مُشتهِر يفهمه عامَّة الناس، ومنه خفيٌّ لا يُدركه إلا الخاصَّة الذوَّاقة[٣]؛ إذ يحتاج إلى فضل نظر ودِقَّة تأمُّل وخاصَّة المركَّب منه؛ فلكلِّ جزء قيمة في تأليف الصورة[٤].

٤- القريب، والغريب، أو البعيد[٥]. وقد يكون النظر في هذا التقسيم أقرب إلى الذاتيَّة منه إلى الموضوعيَّة والمنهجيَّة العلميَّة؛ إذ يختلف الحكم فيه من شخص إلى آخر تبعًا لذكاء المتلقِّي وشخصيته النقديَّة التي تصنعها ثقافته وتجرِبته، يرفِدها بيئته وعصره؛ من هنا اختلف البلاغيُّون فيه، فرأى بعضهم أنَّ جمال التشبيه يبرُز كلَّما اشتدَّ تباعد الطرفين، فموضع الاستحسان يتجلَّى في رؤية الشيئين مِثْلين مُتباينين، ومُؤتلفين مُختلفين، كما أنَّ الشيء بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه يكون أحلى منالًا، كالجوهر في الصَّدَف لا يبرز إلا إنْ شقَّ عنه حائِزُه، وما كلُّ أحد يُفلح في ذلك، ويكون من أهل المعرفة[٦]. بينما رأى آخرون أنَّ قُربه أفضل؛ لذا تركتُ الحديث في هذا الجانب أثناء تحليلي لنماذج التشبيه القرآنيِّ المعجِز؛ خَشية الوقوع في محذور، فليس البيان الإلهيُّ العظيم -الذي أنزله الخبير ﷻ عربيًّا غير ذي عوج- محلَّ أحكام ذاتيَّة بشريَّة تفتقر إلى

---

(١) منهم الطيبي في التبيان: ١٨١، ١٨٢، والعلوي في الطراز: ١/١٣٨، ١٣٩، والسعد في المطول: ٥٥٤.
(٢) ينظر: الإيضاح: ٢٣٤.
(٣) ينظر: الأطول: ٢/٢٠١، وفيض الفتاح على نور الأقاح: ٣/١٢٦، ١٢٧.
(٤) ينظر: فن التشبيه لعلي الجندي: ٢/١٩.
(٥) ينظر: أسرار البلاغة: ١٢٣، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٢٠٩، ومفتاح العلوم: ٤٦٠، والإيضاح: ٢٣٤.
(٦) ينظر: أسرار البلاغة: ١٣٠، ١٣٩، ١٤١، والطراز: ١/١٧٧.

قواعدَ ثابتة، فقد أتى بيانه الفذُّ بأفضل المعاني، في أحسن نُظُوم التأليف، وأبلغ الصور. وهذا جوهر الفرق بين الدراسات القائمة على استشراف مناحي البلاغة فيه، وبين دراسة ما عداه من نصوص، إذ من الطبَعيِّ اختلاف الحكم على النصوص الأدبيَّة حسْبما يرى المتلقِّي والكاتب.

ويحسُن للارتقاء بالتشبيه أن نعرف سماته في البيان القرآنيِّ أساس البلاغة الفذِّ، ومنها:

- العموم: فهو غير مقيَّد ببيئة، إنمَّا يستلهم عناصره من الطبيعة والكون بما فيهما من حيٍّ وجامد. وهي مُدْرَكات إنسانيَّة مشترَكة في كلِّ زمان ومكان، فأحاسيس البشر، وانفعالاتهم بها واضحة مُتقارِبة التأثير[(١)].

- أنَّه ليس عنصرًا إضافيًا في الجملة، لكنَّه جزء أساسيٌّ يتطلَّبه المعنى ليصبح واضحًا قويًّا[(٢)].

- أنَّه دقيق يصف المعنى ويقيِّده[(٣)]، مصطفِيًا ما يناسبه من ألفاظ مُوحِية مصوِّرة، مراعيًا الإيحاءات الصوتيَّة والمعنويَّة التي تُثيرها دِلالاتها، وأجراس حروفها، لتتضافر في رسم مشاهدَ واضحةٍ أخَّاذة، تتحرَّك صورها لتجسِّد معانيَ تتراءى للأنظار عالمًا حيًّا غنيًّا[(٤)].

- أنه «من حيث لغته، وصُوَره، ولونه، وطبعه، امتداد للأحوال الجارية في السُّورة[(٥)] لأنَّه جزء منها، يجري فيه ما يجري فيها، بل هو جزء من كلٍّ له طبع

(١) ينظر: البلاغة العربية (البيان والبديع) للدكتور وليد قصاب: ٦٧، والبلاغة فنونها وأفنانها (البيان والبديع): ٨٩.
(٢) ينظر: البلاغة العربية للدكتورين طالب الزوبعي وناصر الحلاني: ٥٧.
(٣) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٩٨، ١٩٩ .
(٤) ينظر: التصوير الفني: ٣٧.
(٥) وهذه الخاصة تتبع ما يسمى بعلم المناسبات.

واحد، وفيه ماء واحد. فلا بدَّ أن تكون العلاقات بمثابة الشرايين الجارية في الجسد، أو الدم الجاري في الشرايين، فكما لا يكون الدَّم الجاري في بعض أجزاء الجسد من فصيلة مخالفة للدَّم الجاري في البعض[١] الآخر، كذلك لا تكون الأنسجة اللُّغوية والصور النفسيِّة، والرموز المعنويَّة الجارية في التشبيه معزولة عن الحركة اللُّغوية العامَّة الجارية في السورة كلِّها»[٢].

- اجتماع الجمال الفنِّيِّ والمطلب الدينيِّ: فهو يقصد إلى ما يقصد إليه كلُّ فنٍّ بلاغيٍّ من تأثير في العاطفة، وإقناع فكريٍّ بالتحسين أو التنفير أو الترغيب أو الترهيب، ويتحقَّق هذا المطلب عن طريق «محاكاة الواقع بتصوير فنِّيٍّ يُبرِز الحركة والحياة والمشاعر، ويعبِّر عن مختلِف أبعاد الواقع، ولا يقتصر على التصوير الجامد للأشكال والرسوم»[٣]. بل يتعدَّاه إلى تصوير المشاعر المختلِفة من طمَع ورغبة وخوف وحذَر؛ من أجل ذلك كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيبٌ وافرٌ من التشبيه؛ ليُشهَّر بصفاتهم السيِّئة، ويحترَزَ من الوقوع في شنائعِهم. كما برز التشبيه كثيرًا في تصوير مشاهد القيامة وأهوالها؛ لتحريك العواطف، وشحذ الهمم[٤].

وهكذا ترى جميع تشبيهات القرآن ذات مقاصد عظيمة وأغراض بيِّنة، وهذا سرّ خلودها واستمرار تأثيرها وعطائها على مرِّ الزمان.

ولعلِّي أوضحت بهذا المدخل المنهج المختار في معالجة الشواهد القرآنيَّة موضع الدراسة، القائم على تصنيفها وَفْقًا للحسِّيِّ والمعنويِّ من غير إغفال الأوجه الأخرى التي تخصُّ وجه الشبه في معرِض تأمُّل بلاغة الآيات.

---

(١) الصواب ألا تتصل (أل) بكلمة بعض، فلم يرد في الاستعمال العربي الفصيح، إنما يقال: بعضه الآخر.

(٢) دراسة في البلاغة والشعر: ٣١، وينظر: التناسب البياني في القرآن: ٤٨، ٤٩.

(٣) البلاغة العربية للميداني: ١/ ٥٣.

(٤) ينظر: البلاغة العربية (البيان والبديع) للدكتور وليد قصاب: ٧٢، ٧٣.

المبحث الأول
التَّشبيه الحِسِّيّ

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ [المنافقون: ٤].

تصف الآية قومًا من المنافقين، كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ «وكانوا أشكالًا حسَنة، وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يُصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضَعف والخوَر والهلَع والجزَع والجُبن»[(١)].

وبتأمُّل البيان الفريد ترتسمُ في الذهن صورة مُعبِّرة عنهم. صورة «تُثير السُّخرية والهُزْء والزِّراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس، وتَسِمهم بالفراغ والخَواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والكُنُود، بل تنصبهم تمثالًا وهدفًا للسخرية في مَعرِض الوجود»[(٢)]، ففي تشبيههم بالخُشُب المسنَّدة إنزال لهم عن درجة الأنعام التي وُصِفوا بها في بعض آي الذكر.

والتشبيه تمثيليٌّ مركَّب، وبتأمُّل صفات المشبَّه، يتَّضح الجامع الحسيُّ بينه وبين المشبَّه به:

- ف «الصفة الأولى: أنهم ذوو أجسام مَهيبة تُعجب الناظرين...
- والصفة الثانية: أنهم ذوو ألسنة فصيحة، وكلام يُعجِب السامعين »[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٣٤٦ .
(٢) في ظلال القرآن: ٨/ ١٠٧ .
(٣) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع: ١٩٤، وينظر: الكشاف: ٤/ ١٠١، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣١٢.

- والصفة الثالثة: أنهم يحضرون مجلس الرسول ﷺ مُسندين ظهورهم إلى الجُدُر، متظاهرين بالوقار؛ وقلوبهم وعقولهم خالية من الإيمان[١].

قام التشبيه هنا على المحسوس، وحوى نِكاتٍ بلاغيَّةً كما يلي:

- في الصفة الأولى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ بيان للمرئيِّ، أوثرتْ فيه ﴿إِذَا﴾ الشرطيَّة؛ لأنَّ معناها القطع وتحقُّقُ الوقوع، وأتى بعدها الفعل ماضيًا[٢]﴿رَأَيْتَهُمْ﴾، ولمّا كانت الرؤية لا تُظهِر ما في النَّفس، وإنَّما تقتصر على الشكل، فقد أُدِّي شرطُها بـ﴿إِذَا﴾، وأُجيب عنه بالإعجاب الذي لا يتعدَّى الشكل الخارجيَّ ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

- تتعلَّق الصفة الثانية بحاسة السمع ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ﴾؛ لذا أوثرتْ ﴿إِنْ﴾ الشرطيَّة التي تشارك ﴿إِذَا﴾ في الاختصاص بالمستقبل[٣]. وهناك من ذكر بأنها «تقتضي الربط من غير إشعار بزمن ولا مكان ولا حال»[٤]، وتُستعمَل غالبًا للمُحتمَل المشكوك فيه[٥]، فلا يكون شرطها مقطوعًا بوقوعه[٦]. وفي هذا «إشارة إلى أنهم لا يكلمونه ﷺ إلا اضطرارًا؛ لأنهم لا يحبون مكالمته، ولا باعث لهم عليها؛ لما عندهم من أمراض القلوب»[٧]. والأصل في جواب ﴿إِنْ﴾

---

(١) ينظر: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع: ١٩٤، والكشاف: ٤/ ١٠١، والمحرر الوجيز: ٥/ ٣١٢.

(٢) ينظر: شرح المفصل: ٩/ ١٠، وهذا هو الغالب مع إذا. (ينظر: الإيضاح، والمختصر، ومواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص): ٢/ ٤٠.

(٣) ينظر: شرح المفصل: ٩/ ٤، والإيضاح، والمختصر: ٢/٣٨، وإيضاح الإيضاح: ١/ ٦٠٥، ٦٠٦.

(٤) المساعد على تسهيل الفوائد: ٣/ ١٣٣.

(٥) ينظر: شرح المفصل: ٩/ ٤، والبرهان في علوم القرآن: ٢/ ٣٦٠، والإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٥٠.

(٦) ينظر: إيضاح الإيضاح: ١/ ٦٠٥.

(٧) نظم الدرر: ٧/ ٦٠٩.

أن يكون بلفظ المضارع المحتمَل الوقوع، ليطابق اللفظ والمعنى[(١)]، فـ ﴿وَإِن يَقُولُواْ﴾ يُسمع لقولهم ابتداءً «لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم»[(٢)]؛ إذ يحرصون على تنميقه ليخدعوا السامع. إلَّا أنَّ الأمر لا يخفى على ذي بصيرة، فلا بدَّ أن ينكشف القناع، ويُسفِرَ عن ذلك الزيف والخداع.

- الخطاب في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ للنبيِّ ﷺ، أو لكلِّ من يخاطَب. فالمنافقون موجودون في كلِّ زمان ومكان وأشكالهم وأقوالهم تعجب من يقابلهم لمراوغتهم ومبالغتهم في تحسينها[(٣)].

- خُصِّصت الأجسام بالإعجاب ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ فلم يقل: (يُعجبونك)؛ إذ يُفترَض أن ينشأ الإعجاب عن الاستقامة وفضائل الأخلاق وحُسن القول وما إلى ذلك من أمور. فخُصَّت الأجسام بالإعجاب دفعًا لتوهُّم ذلك، وتأكيدًا لاقتصار الأمر على الشكل لا الجوهر.

- لِمَ اصطُفِي لفظ ﴿أَجْسَامُهُمْ﴾ ولم يُقَل (أجسادهم) مع اشتراكهما في أصل المعنى وهو تجمُّعُ الشيء[(٤)]؟ لنتأمل الإيحاء الذي يَبُثُّه لفظ ﴿أَجْسَامُهُمْ﴾ فهو يُبرِز المعنى ويجلوه، إذ يُقال: جَسُم الشيء إذا عَظُم، ورجُل جَسيم وفيه جَسَامة: أي عظيم الجِسْم[(٥)]. ولمَّا كانت هذه الصفة هي المرادة من سياق الآية؛ إذ الغالب أن

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٣٦٢.
(٢) إرشاد العقل السليم: ٦/ ٢٥٠، وروح المعاني: ١٤/ ٣٠٥ .
(٣) ينظر: الكشاف: ٤/ ١٠١، ونظم الدرر: ٧/ ٦٠٩، والبحر المحيط: ٨/ ٢٦٨، وانفرد ابن عاشور بجعل الخطاب لغير مُعيَّن ممن يُظَن أن تغره صورهم، ونفي دخول النبي ﷺ فيه لأن اللَّه قد أطلعه على أحوالهم، ووقفه على تعيينهم (ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨/ ٢١٤) ولعل الرأي الأول هو الأرجح؛ إذ يقوم على ظاهر النص، فالخطاب من بداية السورة موجه للنبي ﷺ، فليس ثمة داع للعدول عنه.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: جسم: ١٩٨، ١٩٩ .
(٥) ينظر: أساس البلاغة: ٦٠، ولسان العرب: ١/ ٤٢٤ .

ترتبط بالقوَّة، أمَّا أن تقترن بالخوف فهنا تبرز السخرية والاستهزاء بهم، كما قال حسَّان بنُ ثابت:

لا بَأسَ بالقومِ مِنْ طُولٍ ومِنْ عِظَمٍ جِسْمُ البِغَالِ وَأَحْلامُ العصَافيرِ(١)

وقد حمل الزركشيُّ (ت٧٩٤هـ) الأجسام في هذه الآية على المجاز من إطلاق الكلِّ على الجزء، والمعنى وجوههم لأنَّ النبيَّ ﷺ لم ير جُملتهم(٢). وهذا التأويل أبعد ما يكون عن روح الآية؛ إذ ليس ثمَّة داعٍ إليه مع وضوح المراد حقيقةً من تشبيه أجسامهم بالخشُب.

- في قوله: ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ اللام لتضمين(٣)﴿تَسْمَعْ﴾ معنى تصغِ لقولهم(٤) لحسن إبانتهم، فالإصغاء أعمق في الوعي(٥).

- عُلِّق القول بالسماع ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ وأُفرد القول؛ إشارة إلى انفصال قولهم عن بواطنهم، وتشابه قلوبهم، فكأنما يشتركون في قول واحد. ومن عجب أنَّ

---

(١) من البسيط، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري: ٢٦٧ .

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٢٦٣.

(٣) ذكر ابن القيم (ت٧٥١هـ) أن التضمين قاعدة شريفة، جليلة المقدار؛ تستدعي فطنة، ولطافة في الذهن؛ إذ يكون في الكلمة المضمَّنة دلالتان على معنيين - أحدهما بالتصريح، والآخر بالتضمن الذي يقتضيه- مع غاية الإيجاز فهو من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها. ينظر: بدائع الفوائد: ١٨٠. وقد وقفتُ على بحث قيِّم في التضمين بعنوان (التضمين في العربية، بحث في البلاغة والنحو) للدكتور: أحمد حسن حامد، ذيَّله بدراسة وتحليل لرسالة مخطوطة في التضمين لابن كمال باشا (ت٩٤٠هـ) وضَّح فيها موقف المصنف من التضمين البياني، وأنه كاد ينفرد بالرأي القائل أن التضمين ركن مستقل من أركان البيان، شأنه في ذلك شأن الكناية والمجاز المرسل (ينظر: التضمين في العربية: ٧٧) وقد خلص مؤلف الكتاب بعد ذلك إلى معنى دقيق للتضمين البياني هو: «إشراب كلمة معنى كلمة أخرى بحيث تؤدي وظيفتها في التركيب مع لمحة بيانية ظاهرة، وعلاقة مناسبة مابين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي» (التضمين في العربية: ٩٨).

(٤) فالفعل ﴿تَسْمَعْ﴾ فعل متعدٍّ أصلًا بلا حرف، لكنه عدِّي هنا بحرف الجر ففي تعديته باللام إشعار أنه بمعنى تصغِ.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨/ ٢١٤.

الأقوال التي يُستدَلُّ بها على أنَّهم أحياء؛ هي ذاتها المنفصلة عن أحاسيسهم؟! فأيّ حياة؟ وأيّ روحٍ في تلك الأجساد؟! حقًّا إنها لخشُب مسَنَّدة! فما اعتناء تلك النفوس المريضة بالظّاهر إلَّا وسيلة لإخفاء باطن خَرِبٍ خالٍ من نور الإيمان.

ويشوّق البيان الإلهيُّ متلقيه لمعرفة المزيد عن تيك الفئة الضالَّة، بعد أن أتى بصورة قد يُفهَم منها المدح لأوَّل وهلة، يعنُّ بعدها تساؤل عن سرِّ ذلك المدح! ويترقَّب المتلقِّي ما بعده؛ فيأتي الاستئناف البيانيُّ[١] من لدن عليم خبيرٍ، جوابًا يجلِّي سرَّ ذلك، مقرِّبًا صورتهم الخادعة إلى الذهن ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لتجسِّد نماذج عجيبة للخواء والجبن، تبدو متماسكة في هيئتها الخارجيَّة بلا مؤهّلات للتماسك فباطنها فارغ، تتهاوى لأتفه سبب!

- أوثر حرف التشبيه (كأنّ) تأكيدًا للتشبيه[٢]، وإثباتًا لغرابة المشَبَّه[٣]ومبالغة في تحقيره والسخرية منه، وهذا ما يميِّز (كأنَّ) عن الكاف؛ على قاعدة كلّ زيادة في المبنى تتبعها زيادة في المعنى.

- ﴿خُشُبٌ﴾ المفرد منها خَشَبَة: ومعناها ما غَلُظ من العِيدان، والجمع خَشَب وخُشُب وخُشْب وخُشْبان[٤]، وفي جمع الكثرة ما يدلُّ على كثرة تلك النماذج الفاسدة. ذكر بعض المفسِّرين[٥] أنَّ ﴿خُشُبٌ﴾ جمع خَشْباء، كحمراء وحُمُر،

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨/ ٢١٤.
(٢) اختلف النحاة في أصلها أهو الكاف وأنّ، ثم صارتا بالتركيب كلمة واحدة، أم أنها بسيطة غير مركبة؟ الأول هو رأي أكثرهم -كما ذكر ابن هشام- إلّا أنه مال مع الأقل، وأورد لها أربعة معان، أولها التشبيه، وهو الغالب عليها والمتفق عليه. (ينظر: مغني اللبيب: ١/ ٢١٥، ٢١٦).
(٣) ينظر: أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم: ٢١٣ .
(٤) ينظر: لسان العرب: خشب: ٢/ ٢٥٥ .
(٥) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن: ٢٦٧، والكشاف: ٤/ ١٠١، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٤٢، والبحر المحيط: ٨/ ٢٧٢، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ٢٥٢.

وهي الخشبة التي دَعِر جوفها[١]. وقد انتُقِيت الخشُب لتكثيف الجانب المبصَر فيها، وأوثرت دون غيرها مما لا يعقل كالحجارة مثلًا؛ للفارق في الشكل بين أجسام المنافقين وبين الحجارة[٢]؛ وليتحقَّق كذلك معنى الخواء الموجود في الخشُب دون الحجارة، واللّه أعلم!

- قُيِّدت ﴿خُشُبٌ﴾ بـ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾[٣] ليخرج منها المغروس؛ إذ لا يخفى ما له من فائدة، وجاء هذا القيد إمعانًا في تحقيرهم ذلك أنهم لخواء قلوبهم وضَعف نفوسهم لا يستطيعون أن يتحاملوا على أنفسهم ليستندوا، وإنما أعينوا على الاستناد بتكلُّف وعناء[٤]، وأضاف التضعيف في هذه الصيغة معنى الضعف والخواء، وانتفاء الثبات، وكونهم عالة على الآخرين، وتمام الصورتين يأتي من هذا التقييد؛ إذ هو صفة مهمة من صفات المشبَّه به، ووجودها يجعل الصلة بين الطرفين قويَّة، فلِلخُشُب التي شُبِّهوا بها صفاتٌ مثل صفاتهم:

الصفة الأولى: أنها ذات منظر، «وهياكل عظيمة رفيعة القامة»[٥].

الصفة الثانية: أنها تخلو من الروح.

الصفة الثالثة: أنها مُسنَّدة إلى الجدر، فاقدة للثبات.

والتشبيه هنا حسِّيٌّ تمثيليٌّ مُرسَل مُجمَل، وبتأمُّل معنى الآية يتجلَّى وجه الشبه المركَّب المنتزَع من عدَّة صفات، فهو الهيئة الحاصلة من اصطفاف أشياء طويلة ضخمة حسَنة الظاهر، سيِّئة الباطن، قليلة الجدوى[٦]، غير مستقرَّة، وهذه الصفة

(١) دَعِرَ العود فهو دَعِرٌ أي: نَخِر وفسد. لسان العرب: ٢/٣٨٧.
(٢) ينظر: نظرات لغوية في القرآن الكريم: ٢٠٠.
(٣) ينظر: من بلاغة القرآن: ٢٠٠ .
(٤) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية: ١٦١.
(٥) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع: ١٩٥ .
(٦) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/٣١٢، ونظم الدرر: ٧/٦٠٩، وروح المعاني: ١٤/٣٠٦ .

حسِّيَّة في الخُشُب، معنويَّة في المنافقين، يجسِّدها الرعب والخوف الذي يُطاردهم أينما كانوا. وبهذا التشبيه المعبِّر يتضح جليًّا الغرض البلاغي الذي سيق من أجله وهو السخرية والتهكُّم، وهنا لطائفُ أسهمتْ في تحقيقه:

أولها: أنَّ «المنافقين، وإنْ بدَوا في ظاهرهم على صورة واحدة فإنهم في حقيقتهم، أشتات مُتفرِّقون، لا تجمعهم مشاعر الودِّ، ولا تؤلِّف بينهم صلات هذا المعتقد الفاسد الذي يدينون به؛ تمامًا كالخُشُب المسنَّدة كلّ كتلة منها قائمة إلى جوار غيرها، لا تشعر بها، ولا تحسُّ بوجودها»[١].

ثانيها: «أنهم أجرام لا عقول لها، مُعتمِدة على غيرها، لا تثبُت بأنفسها»[٢] إنَّهم «أشبه بالزوائد التي يجب أن تُستَأصَل، والنفايات التي ينبغي أن تُلقَى»[٣]! فالخُشُب التي شُبِّهوا بها ليست قائمة في أشجارها- لما قد يكون لها من حياة في ذلك الوضع- وليست موضوعة في سقف، ولا مشدودًا بها جدار[٤]، وليست مُتَّخذًا منها أبوابٌ ونوافذ، لأنها حينئذ تؤدِّي عملًا، وتكون لها فائدة، لكنَّها ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ تُوحي بالغفلة والاستسلام والبلاهة[٥]؛ فتسنُّدها على الحوائط حمل وعبء على غيرها؛ فلا خير يُرجى منها إلَّا أن تكون وقودًا للنار التي تنتظرها، لا مصير لها إلَّا إليها[٦]. «ثُمَّ إنَّ تشبيههم في تلك الحالة إشارة إلى هيئة مقامهم في مجلس رسول اللَّه ﷺ مستندين إلى الجدر دون جلوس؛ لعدم حرصهم على الاطمئنان عند المصطفى عليه الصلاة والسلام»[٧].

---

(١) التفسير القرآني للقرآن: ١٤/ ٩٦٠ .
(٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٣١٢.
(٣) البيان في ضوء أساليب القرآن: ٧٧ .
(٤) ينظر: معترك الأقران: ٢/ ١٦٧.
(٥) ينظر: من بلاغة القرآن: ٢٠٠ .
(٦) ينظر: التشبيه البياني في نظم القرآن: ١٤٨.
(٧) نظرات لغوية في القرآن الكريم: ٢٠١.

ويرسم السياق صورة أخرى لفساد بواطنهم إمعانًا في تحقيرهم ووصفهم بالجبن، وقلّة الاستبصار، فبينما هم ﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ في الخلوّ من الروح والشعور بالإيمان، إذ بهم يطيرون شَعاعًا من الذُّعر، والهلَع «إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال»[(١)]! صوَّرت هذا المعنى الكناية الواصفة المعبِّرة في قول عالم الغيب والشهادة ﷻ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، ففيها «وصْفٌ كاشفٌ لما يموج به باطن المنافقين من وساوس وتصوُّرات، لا تُقِيمُهم أبدًا إلا على فزَع وتخوُّف؛ لأنهم دائمًا مُتلبِّسُون بجرائم من الكذب والبهتان؛ فهم لهذا مُطارَدونَ من أنفسهم، يريدون الإفلات من قبضة هذه المشاعر المستولية عليهم. . . وهكذا المجرم، لا يُفارقه أبدًا وجهُ جريمته في يقظة أو منام»[(٢)]. قال ابن القيِّم: «فلا تجد العاصي إلّا وقلبه كأنَّه بين جناحي طائر، إن حرَّكت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرًا بالعطَب، يحسب كلَّ صيحة عليه، وكلَّ مكروه قاصدًا إليه، فمن خاف اللَّه آمنه من كلِّ شيء، ومَن لم يخف اللَّه أخافه من كلِّ شيء»[(٣)].

﴿يَحْسَبُونَ﴾: الحِسْبان قريب من الظنِّ والشكِّ، لكن يُحكَم فيه لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بالبال، ويكون بعيدًا عن أن يعتريَه فيه شكٌّ، ويُقاربه الظنُّ في معنى من معانيه، لكن في الظنِّ يخطر النقيضان بالبال، فيغلب أحدهما على الآخر[(٤)]، وتستعمل (حَسِب) غالبًا في الظَّنِّ المُخْطِئ[(٥)]. ففي إيثار الحسبان هنا دلالة على شِدَّة الخوف؛ إذ لا يخطر ببال أولئك الجبناء عند سماع أيِّ صيحة إلَّا أنها عليهم.

---

(١) في ظلال القرآن: ٨/ ١٠٩ .
(٢) التفسير القرآني للقرآن: ٧/ ٩٦٠ .
(٣) طب القلوب: ١٣٤.
(٤) ينظر: المفردات: حسب: ١٢٥، ولسان العرب: ٢/ ٧٩.
(٥) ينظر: عروس الأفراح (شروح التلخيص): ٣/ ٣٩٠.

﴿كُلَّ صَيۡحَةٍ﴾: تدلُّ مادة (صيح) على الصَّوت العالي. والصِّياح رفْعُ الصوت بما لا معنى له[١]، وفي تنكير ﴿صَيۡحَةٍ﴾ دلالة على التحقير، وإيثار التعبير باسم المرَّة في الإفراد يدلُّ على جُبنهم الشديد، بخلاف ما لو عُبِّر بلفظ (صِيَاح)؛ فالمدُّ فيه يفيد معنى الاستمرار؛ فيجعل بإمكان المتلقِّي التماس العُذر لهم في ذلك الخوف؛ إذ إنَّه سيكون طَبَعِيًّا[٢]. أما هذا الخوف فمَرَضي يشخِّصه الأطباء النفسيُّون بما يعرَف بالخواف أو (الفوبيا)؛ وهو خوف دائم - وهميٌّ أو حسِّيٌّ -، مما لا يخيف عادة، ويصعب ضبطه أو التخلص منه؛ فسببه غير محدَّد. ومن سمات المصابين به التطرُّف في الأنانية والتمركز حول الذات والانطواء والتشاؤم والجبن[٣].

وفي إضافة ﴿صَيۡحَةٍ﴾ إلى ﴿كُلَّ﴾ دلالة على العُموم، فهم لا يميزون بين مصادر الخوف المختلفة؛ لقلَّة استبصارهم وضَعف قلوبهم ومرض نفوسهم.

هذه الكناية تُعمِّق صفة الفزع الدائم، والذُّعر الذي يستولي على نفوسهم؛ فيجعلهم في توجُّس ورُعب دائمين إلى درجة الأوهام والوساوس، وعدم تمييز الأشياء المخيفة من غيرها؛ فـ«إذا نادى منادٍ في العسكر، أو انفلتت دابة، أو أُنشدت ضالة، ظنُّوه إيقاعًا بهم»[٤]. وأيّ وصف لسيطرة الخوف والرعب يمكن أن يؤدِّيَ المعنى الذي صوَّرته هذه الكناية البديعة!!

مَثَلٌ قرآنيٌّ يُشْهَر في وجه من رفع شعار الخداع بظاهر مموَّه؛ يغطِّي باطنه المشوَّه[٥]. فيه صورة تلك النفوس ولمَّا يقع الخوف فكيف بها حين تدقُّ طبول

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: صيح: ٥٥٩، والفروق اللغوية: ٣٨.
(٢) وردت الإشارة إلى الخوف الطَّبَعي ص٣٣.
(٣) ينظر: السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر: ٢١٧.
(٤) الكشاف: ٤/ ١٠١، وينظر: التفسير الكبير: ١٠/ ٥٤٧.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨/ ٢١٥.

الحرب؟ هذا ما تصفه الآية الكريمة بإلقاء الضوء على نفوس خاوية خرِبة يرقُبها القارئ وقت التمحيص حين تُبلى معادن النفوس وينتفي خبَثُها! وقت القتال حين تكشِف الحرب عن ساقها؟! قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]

تصوِّر الآية الفزع حين يسيطر على المنافقين؛ فيَفضح نفوسهم المنتفشة السبَّاقة عند الطمع، المتخلِّفة عند الفزع. وتكشف الاستعارة في الفعل ﴿جَاءَ﴾ جُبنهم، وما يعانون من هَلَع ورُعب؛ «والخوف من الأمور المعنويَّة التي لا يُتَصَوَّرُ منها إتيان أو مجيء، لكنَّها شُبِّهت بمن يكون منه الإتيان والحركة تجسيمًا للمعنويَّات وتشخيصًا لها»(١). لقد شُبِّه الخوف بقويٍّ ذي بطش حلَّ في ديارهم، كُني عنه بلازم من لوازمه هو المجيء على سبيل الاستعارة المكنيَّة التشخيصيَّة. وهنا نلمح الأثر النفسيَّ لهذه في فضح جُبنهم وما يعروهم من فزع؛ إذ يتجسَّد أمام أعينهم خوف يطاردهم ليبطش بهم. وهذه حال المجرم يطارده شبح جريمته أنَّى ذهب!

يسلِّط البيان القرآنيُّ الضوء هنا على حالة محسوسة مشاهدة، تدلُّ على خَوَر المنافقين، وضَعفهم؛ فتأتي عناصر الصورة التشبيهية مُنصبَّة على ما تقع عليه حاسَّة البصَر كما يلي:

- ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ المقصود به الرؤية البصريَّة(٢). والخطاب للنبيِّ ﷺ(٣) و«يقتضي أنَّ هذا حكاية حالة وقعت، لا فرض وقوعها؛ ولهذا أُتي بفعل ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾، ولم

---

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن: ٢٢٠.
(٢) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٦/ ٦٢٢، ومن أسرار التعبير القرآني: ١٣٩.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١٩/ ٥٣، والتحرير والتنوير: ٢١/ ٢١٨.

يُقَل: فإذا جاء الخوف ينظرون إليك»[١].

- في جملة ﴿يَنظُرُونَ﴾ تكثيف للمحسوس؛ إذ تعكس العين ما يموج في النفس من أحاسيس وانفعالات. «ثم بيَّن بُعدهم حِسًّا ومعنًى بحرف الغاية فقال: ﴿إِلَيْكَ﴾»[٢].

- يدلُّ لفظ ﴿تَدُورُ﴾ على حركة مستمرَّة، يُقال: دارَ يدُور إذا طاف حول الشيء، ثم عاد إلى حيث بدأ[٣]، ومن مصادره دَور ودُوار ودَوَران والأخير على وزن (فَعَلان) من الفعل اللازم. ويدلُّ على تقلُّب واضطراب وحركةٍ في ارتفاع[٤]، وفي اصطفاء السياق القرآنيِّ له دون (تتقلَّب) إيحاءٌ بالسرعة، والحركة الدائبة التي تتَّضِح في الدوران أكثر. ومما يزيد أبلغيَّة المعنى إيثار المضارع في التعبير عن هذه الحالة لإفادة التجدُّد والحدوث، فهاهي ذي عيونهم تدور، وتضطرب في أجفانها مُحمْلِقة فيما حولها من مصادر الخطر.

- في ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ إسناد مجازيّ[٥]؛ فالأصل دوران الأحداق[٦] في الأعين، لكن لشدَّة الدوران وسرعة التقلُّب من حالة الفزع والهول والاضطراب الذي يعتريهم يُخيَّلُ إلى الرائي أنَّ العيون كلَّها تدور. وهناك من حمله على

---

(١) التحرير والتنوير: ٢١/٢١٨ .
(٢) نظم الدرر: ٦/ ٨٧ .
(٣) ينظر: لسان العرب: دور: ٢/ ٤٢٨.
(٤) ينظر: شرح المفصل: ٦/ ٤٧، وأوضح المسالك: ٣/ ٢٣٦، وشرح ابن عقيل: ٢/ ١٢٥.
(٥) ينظر: حاشية القونوي: ١٥/ ٣٢٨ .
(٦) الحَدَقة: هي السواد المستدير وسط العين (ينظر: لسان العرب: حدق: ٢/ ٤٣) فهي التي تدور في العين، وليس العكس كما ذكر بعض المفسرين، ومنهم: (البيضاوي في أنوار التنزيل: ٤/ ٣٦٨، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم: ٥/ ٢١٧) وهناك من قال: تدير أعينهم أحداقهم، ومنهم: (القونوي في حاشيته على البيضاوي: ١٥/ ٣٢٨، والألوسي في روح المعاني: ١١/ ١٦٢) .

المجاز المرسل والعلاقة محلِّيَّة؛ فقد أُطلق المحلُّ على الحالِّ[١]. وكلا الوجهين صحيح، وإن كان الأول أعمق في أداء المعنى وإبراز مشهد الرعب والاضطراب.

- يأتي البيان الفذُّ مقرِّبًا المعنى بصورة حسِّيَّة مبصَرة ﴿كَٱلَّذِى يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ لقد شُبِّهت حالة الخوف التي تنتابهم، بصورة واضحة محسوسة، يتخيلها المتلقِّي ماثلة أمامه، فهاهو ذا الرُّعب يجول في أنفسهم حين تدور رَحَى الحرب حولهم؛ إذ يخافون أن يكونوا من طَحْنها؛ فتعلو وجوهَهم صُفرة الموت، وتُخرِس ألسنتَهم شِدَّةُ الفزع، وتدور أعينُهم في أحداقها كالذي يصارع سَكَرات الموت، فتدور عيناه «ضارعًا إلى من حوله كأنَّه يستغيث بهم... هذا الرُّعب يَشُلُّ حركتهم، ويفكِّك أجسامهم، ويحُلُّ عزائمهم، بحيث لا يَبقَى من قدرتهم على الحركة، والتعبير إلَّا ما يبقى لدى المحتضَر الذي يُعاني الموت»[٢]! والتشبيه هنا تمثيليٌّ مرسَل مجمَل.

هنا يعنُّ سؤال عن كيفية دوران العين- وهذا من الإعجاز العلميِّ في القرآن الكريم- يجيب الطبُّ عنه، بأنَّ دوران العين من العلامات الرئيسة التي تُصاحِب الإصابات المرَضِيَّة في جذع الدِّماغ، ويدلُّ على إصابة مميتة، يكون المريض خلالها في غيبوبة، تدور عيناه إلى الأسفل، ثم إلى وضعها الوسط العادي، تمامًا كعين الدُّمْية[٣].

في إيثار التعبير بالموصوليَّة عن المشبَّه به ﴿كَٱلَّذِى يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ﴾ زيادة في تقرير الغرض المسُوق له الكلام[٤]؛ إذ إنَّ (الذي) لا تصل إلَّا بجملة من الكلام قد

---

(١) ينظر: من أسرار التعبير القرآني: ١٣٨.
(٢) الإسلام وخطر النفاق: ٥٨ .
(٣) ينظر: من علم النفس القرآني: ١٧٠، ١٧١.
(٤) ينظر: إيضاح الإيضاح: ١/ ٣٩٤، والمطول: ٢١٨.

سبق علم السامع بها[١].

ويدلُّ أصل ﴿يُغْشَىٰ﴾ على تغطية شيء بشيء، يقال: غُشِي عليه غَشْيةً وغَشْيًا وغَشَيانًا؛ أي: أُغمي عليه، ونابه ما غَشِيَ فَهمه، فهو مَغْشِيٌّ عليه[٢]، واللفظ هنا دالٌّ بمعناه وأصواته على ذُعرهم، فيطالعنا ابتداءً حرف الغين الحلقيِّ كأنما يوحي بغُصَّة تعتريهم، ومن صفاته الرخاوة والاستعلاء والجهر والتفخيم مما يُسهِم في إبراز سيطرة الخوف، وهيمنته على نفوسهم الضعيفة، يشاركه في الرَّخاوة حرف الشين المهموس الذي يتفشَّى معه الرُّعب في جوانب نفوسهم الخوَّارة. وأوثر الفعل المضارع لاستحضار صورة جبن عجيبة تغطيهم فيها سحابات الإغماء خوفًا ورهبة من القتال.

ويأتي التعليل بـ ﴿مِنَ﴾[٣] في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾أي: لأجل الموت، وذلك هو نهاية الغَشْي، فالمنافق هنا لا يَطْرِف بعينه، بل هو شاخصٌ هلعًا ورُعبًا وكراهة للقتال[٤].

وأصل ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ يدلُّ على ذَهاب القوَّة من الشيء، وهو خلاف الحياة؛ فيه إبانة الروح عن الجسد، وزوال القوَّة الحاسَّة والعاقلة[٥]، وقد أوحى هذا اللفظ بتعريفه بما يعانون من رُعب وفَزَع.

نتابع البيان القرآنيَّ الفريد، وهو يرقم أوصاف الجبن والخور على نفوس مريضة تموت بصَعَقات الخوف قبل ضَرَبات السيوف وطَعَنات الرماح! وبعد أن

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٠٠.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: غشي: ٧٨٧، ولسان العرب: غشا: ٥/ ٣٩.
(٣) ينظر: مغني اللبيب: ١/ ٣٥٠، والتحرير والتنوير: ٢٦/ ٩١.
(٤) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ١٦٧.
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة: موت: ٩٣٣، والمفردات: ٤٧٩ .

ارتسمت ملامح الهول على وجوههم الكالحة، لم تلبث أن انقلبت حالتهم في نهاية المعركة انقلابًا تامًّا بعد إحساسهم بالأمان، فإذا البُغاث يستنسر[(١)]! قال اللَّه عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

هنا وقفة مع براعة الألفاظ والتراكيب في تصوير تيك النفوس المراض حال ذهاب الخوف:

- ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾أوثر التعبير عن الحالة المضادَّة للخوف، بذَهابه - وهذا مجاز مشهور في الانقضاء، أي: زوال أسبابه بأن يُترك أو يُتبيَّن انتفاء وقوعه[(٢)]- دون أن يورد لفظ الأمن لبعده التامِّ عن نفوسهم؛ فمخاوفهم مستمِرَّة متنوِّعة، إن لم تكُ من الحرب، فمِن افتضاح أمرهم، وهتك أستارهم.

- ﴿سَلَقُوكُم﴾: السَّلْق الصِّياح، وشِدَّة الصوت، يُقال: سَلَقَه بلسانه يَسْلَقه؛ أي: أسمعه ما يكره فأكثر، وسَلَقه بالكلام سلْقًا إذا آذاه واشتدَّ عليه في القول، ولسان مِسْلَق وسَلّاق: حديدٌ ذَلِق، وخطيب سَلَّاق: بليغ في الخُطبة[(٣)]. والمعنى أنهم أشحُّ قوم عند الغنيمة؛ يخاصمون فيها أشدَّ مخاصمة وأبلغها، أما عند البأس فأجبن الناس، وأخذلهم للحقِّ[(٤)]. وفي اصطفاء لفظ ﴿سَلَقُوكُم﴾ دِقَّة وبراعة، حيث يدلُّ على البلاغة مع حدَّة اللسان، ومع دلالته على حال من القوَّة إلَّا أنَّ خِسَّة نفوسهم ولؤم نحيزتهم تأبى إلَّا أن تُفتضَح عاجلًا. ويتآلف هذا الفعل مع سياقه فيفضح صفات الضعف والجبن والتناقض واللؤم التي رُقموا بها؛

---

(١) هذا مثل من أمثال العرب. قال الميداني: «إن البغاث بأرضنا يستنسر». يضرب للضعيف يصير قويًا، وللذليل يعز بعد الذل. (مجمع الأمثال: ١/ ١٣). .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢١/ ٢١٩.

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: سلق: ٤٦٨، ولسان العرب: ٣/ ٣٢١، ٣٢٢ .

(٤) ينظر: جامع البيان: ١٩/ ٥٤.

ومحاولاتهم تعويضها بإيذاء المسلمين عند ذَهاب أسباب الخوف. وهذه الطريقة هي ما يسمَّى (التعويض) في علم النفس[١]، ويسخر منهم القرآن «مبيِّنًا أنَّ مشاعر القوَّة التي يُظهِرونها إنما هي نتيجة لإحساسهم بذَهاب مصدر الخطر وهو الأحزاب، ولو أنهم شعروا أنَّ الأحزاب عادوا لما اكتفَوا بالاختفاء في المدينة، وإنما يتمنَّون أن يهربوا في الصحراوات والجبال»[٢].

وفي العدول عن خطاب الواحد ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ إلى خطاب الجمع ﴿سَلَقُوكُم﴾ إشارة بديعة إلى تكريم الرسول ﷺ وصيانته من وقوع لفظ السلق عليه.

- في تقييد النظر بـ ﴿إِلَيْكَ﴾ لفتة إلى أن المنافقين مع مكابرتهم ومراوغتهم؛ على يقين في دخائل أنفسهم أنَّ النبيَّ ﷺ مصدر الأمن؛ فيلوذون به عند الشدائد[٣].

- في تخصيص السلْق ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾ إثبات لضَعفهم وجُبنهم، فالعمل محكُّ القوة، أمَّا هؤلاء المخادعون الجبناء فما أقوالهم إلا ادِّعاءات تناقضها أفعالهم. كما لا يخفى ما في تنكير الألسنة من تحقير! «فالمنافقون أحدُّ الناس ألسنة، وأكثرهم قولًا وأقلُّهم فعلًا. إنَّ بضاعتهم كلَّها من زيف الكلام، وباطله، ينفقون منه في سخاء بلا حساب!»[٤].

---

(١) التعويض: «عملية سيكلوجية أو حيلة دفاعية بقصد التغلب على الشعور الذي يخامره بالضعف أو الدونية أو عدم المقدرة، بحيث يعمد إلى إحراز التفوق في ميدان آخر أو اتباع نمط ثان من السلوك. فالتعويض هو إخفاء الصفة غير المستحبة تحت ستار صفة مستحبة والإفراط في تضخيمها» تعويضًا للذات عن اعتبارها المهدور. (الأمراض النفسية والعقلية: ٤٧، وينظر: علم الاضطرابات السلوكية: ١٣٢).

(٢) الإسلام وخطر النفاق: ٥٩، ٦٠.

(٣) ينظر: لغة المنافقين في القرآن: ٢/ ٨٧، ٨٨.

(٤) التفسير القرآني للقرآن: ٦/ ٦٧٥.

- في وصف الألسنة بأنها ﴿حِدَادٍ﴾ تعميق لحالة التناقض والخداع، فأصل معناها: حَدَّ السيف والسكين يحُدُّه حَدًّا، والحَدُّ: كلُّ ما دقَّ في نفسه من حيث الخِلْقة أو المعنى، يُقال: سكِّين حَديدةٌ وحَديد، من سكاكينَ حَديدات وحَدائد وحِداد[١]. ذكر الزمخشريُّ في المجاز: هو حَديد من أحِدَّاء الرِّجال، ولسان حَديد إذا كان يؤثِّر تأثير الحديد[٢]. ويُحمَل المعنى في الآية على الاستعارة المكنيَّة، فألسنة المنافقين كالسيوف والسكاكين بجامع القوَّة والتجريح في كلٍّ. ونلمس معنى الحِدَّة في إيحاء الصوت وصفات الحروف، فالحاء حرف مهموس رخو، يليه حرف الدَّال المجهور الشديد المقلقل، وفي تضعيفه ما يُبيِّن شِدَّة حركة ألسنتهم السليطة وحِدَّتها؛ تعويضًا لجبنهم وتخاذلهم.

- يبرز تناقض شخصيَّاتهم المنحرفة الخادعة، في تبايُن الحالين بين ألسنة صارت «ذَرِبة قاطعة فصيحة، كانتْ عند الخوف في غاية اللجلَجة، لا تقدرُ على الحركة من قلَّة الريق، ويُبْس الشفاه؛ وهذا لطلب العَرَض الفاني من الغنيمة أو غيرها»[٣].

إنَّ صورتهم بعد ذَهاب الخوف أكثر إثارة للسخرية فهاهم أولاء قد «خرجوا من الجحور، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش... ونفشوا بعد الانزواء، وادَّعَوا في غير حياء ما شاء لهم الادِّعاء من البلاء في القتال، والفضل في الأعمال!»[٤].

ذلك الجبن والخوف من القتال لا يسيطر على تلك النفوس المريضة عند تلاحُم الجيوش فحسْب، بل بمجرَّد سماع ذكر القتال. والبيان القرآنيُّ المعجِز

(١) ينظر: المفردات: حدّ: ١١٧، ولسان العرب: حدد: ٢/ ٤٠.
(٢) ينظر: أساس البلاغة: حدد: ٧٦.
(٣) نظم الدرر: ٦/ ٨٧.
(٤) في ظلال القرآن: ٦/ ٥٥٧.

يرصُد آثار الخوف الذي يضرب أوتاده على نفوسهم، فيعتريها ما يعتري من يُصارع سكرات الموت، قال عالم الغيب والشهادة ﷻ: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

هنا وصف مفصَّل للمظاهر الخارجيَّة المحسوسة البادية عليهم؛ يُظهِر ما يُخفون من النِّفاق، والخوف والنفور من القتال؛ فقد كانوا في مجلس الرسول ﷺ «يتظاهرون بالإقبال على تلقِّي ما ينطق به من الوحي؛ فلمَّا سمعوا ذكر القتال بُهِتوا»(١)، وشخصت أنظارهم نحو النبيِّ ﷺ محدِّقة لا تَطْرِف ذُعْرًا وهَلَعًا، كنظر المغشيِّ عليه من الموت؛ إذ «يتمثَّلون في تلك الحالة النبيَّ ﷺ، وهو على رأس المؤمنين يقودهم إلى الجهاد في سبيل اللَّه، فيتمثَّل لهم أنهم في هذا الجيش الذاهب إلى ميدان القتال، وتتمثَّل لهم مصارعهم هناك؛ فيغشاهم لذلك ما يغشى الميِّت ساعة احتضاره»(٢).

لنجُل قبل تحليل هذا التشبيه بين الألفاظ ودلالاتها وإيحاءاتها نستشفّ عناصره التي تبرز جماله وبراعته في تحقيق الغرض المنشود:

- يُطالعنا ابتداءً أسلوب الشرط ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ واصطُفي له ﴿إِذَا﴾ لدلالة معناها على تحقُّق الوقوع - كما تقدَّم(٣)-. ومعنى ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ أي: غير منسوخة، أو لم يُنسَخ منها شيء(٤). قال قتادة: «كلُّ سورة فيها الجهاد فهي مُحكَمة، وهي أشدُّ القرآن على المنافقين»(٥).

(١) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩١.
(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٣/ ٣٥٠.
(٣) تقدم الحديث عن ﴿إذا﴾، والفرق بينها وبين (إنْ) في ص١٤١.
(٤) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٤٢٠.
(٥) جامع البيان: ٢١/ ٢١٠، وينظر: الكشاف: ٣/ ٤٥٧، والبحر المحيط: ٨/ ٨١.

- وفي قوله: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ دلالة على هيمنة الرعب والرهبة من القتال على نفوسهم، فلو قيل: وأمروا فيها بالقتال، لكان أقلَّ دِلالة على الخوف؛ إذ مِن طبيعة الإنسان كراهة القتال، وقد أخبر عن ذلك العليم الحكيم في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦] أمَّا تلك النفوس المراض فبمجرد ذكر القتال بأيِّ ذِكْر كان؛ تخور قواهم، بله أن يؤمروا به!

- ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ والمقاتَلة: المحارَبة وتحرِّي القتل[1]، ويدلُّ أصله على إذلال وإماتة، و(أل) هنا تعريفيَّة للعهد، أي: القتال الذي يعهدونه، وتقوم حياتهم في معظمها عليه، ومع ذلك يمثِّل ذكره ذُعرًا لهم.

-﴿رَأَيْتَ﴾ الرؤية هنا بصريَّة، «والخطاب للنبيِّ ﷺ لأنَّه تابع لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد:١٦]»[2].

- في إيثار التعبير عن المنافقين بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾أبلغيَّة للمعنى في التعريض بهم، وزيادة تحقيرهم وبيان سيطرة الجبن والخور على نفوسهم غير السويَّة؛ فالأصل في الإنسان الاتِّزان، أمَّا من يكون دائم الفزع فهو خارج من زمرة الأسوياء، لذا عبَّر القرآن عن النفاق بالمرض.

- ﴿مَّرَضٌ﴾: «أصل صحيح يدلُّ على ما يخرج به الإنسان عن حدِّ الصحَّة، في أيِّ شيء كان منه العلَّة»[3]، ويُطلَق على الرذائل كالجهل والجبن والبُخل

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: قتل: ٨٤٤، والمفردات: ٣٩٤.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩١، وينظر: روح المعاني: ١٣/ ٢٢٣.
(٣) معجم مقاييس اللغة: مرض: ٩٤٤ .

والنفاق على سبيل المجاز[١]، فقد «استعير المرض الخفيُّ للنفاق بجامع أنَّ كلًا منهما مضادٌّ للسلامة والصحَّة؛ فإنَّ المرض يأكل جسد صاحبه، والنفاق يُذْهب الإيمان في القلب ويقضي عليه، وهي استعارة تصريحيَّة أصليَّة»[٢]. وفي تخصيص القلوب بالمرض وتقديمها دلالة على شِدَّته وتغلغُله، وفي خفضه بـ﴿فِي﴾ ما يوحي بفرط قلق وضعف حال جعل قلوبهم كالوعاء استقرَّ فيها المرض وتمكَّن منها[٣]؛ فلا يُرجى معه برء.

- ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: كراهةً لما نزل، وخوف أن يؤمروا بالجهاد مع المسلمين، فيكون تخلُّفهم مدعاة لافتضاح أمرهم وظهور نفاقهم[٤]. «وانتصب ﴿نَظَرَ﴾ على المفعوليَّة المطلَقة؛ لبيان صفة النظر من قوله: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، فهو على معنى التشبيه البليغ »[٥].

- ﴿ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾[٦]: اسم مفعول دلَّ هنا على الحال، وقد شُدِّد آخره لإدغام الواو مع الياء، ممّا يوحي بشدَّة الفزع الذي يستولي عليهم.

والتشبيه حسِّيٌّ تمثيليٌّ مجمَل مؤكَّد؛ وقع بالمصدر وغابت فيه الأداة[٧]. قال

(١) ينظر: المفردات: ٤٦٩، وأساس البلاغة: ٤٢٦.
(٢) النظم القرآني في آيات الجهاد: ٣٣١ .
(٣) ينظر: الطراز: ٢/ ٣١، ٣٢ .
(٤) ينظر: جامع البيان: ٢١/ ٢١٠، والبحر المحيط: ٨/ ٨١، ونظم الدرر: ٧/ ١٦٧، وروح المعاني: ١٣/ ٢٢٣.
(٥) التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩١ .
(٦) سبق الحديث عن معنى غشي ص١١٩.
(٧) اختلف العلماء في التشبيه الواقع بالمصدر؛ فبعضهم جعله من التشبيه المؤكَّد (البليغ) ومنهم ابن عاشور -كما أسلفت-، والسعد في المطول: ٥٦١، وهناك من عدَّه من المرسل، فأدرج المصدر المنصوب ضمن أدوات التشبيه، ومنهم: ابن أبي الإصبع المصري (ت٧٥١هـ) في تحرير التحبير: ١٦١، والحموي (ت٨٣٧هـ) في خزانة الأدب: ٢/ ٤٨٤، وعلي الجندي، وقد =

صاحب المثل السائر عن هذا النوع إنه أحسن ما استُعمل في باب التشبيه[١]. والمعنى: ينظرون إليك مثل نظر المتحيِّر يتَّجه إلى صوب واحد، ووجه الشبه: هيئة الخوف الحسِّيَّة المتمثِّلة في السكون وثبات الحدَقَة[٢]، مع ما يقترن بها من صُفرة اللون والإعياء العام.

ما أشنع ما فُضح به أولئك الجبناء على رؤوس الأشهاد! إنهم نماذج للخور والتشبُّث بالحياة، لقد ظهرت تلك الصورة التي طالما حاولوا إخفاءها، إنها «صورة خالدة لكلِّ نفس خوَّارة، لا تعتصم بإيمان!»[٣].

«هذا التشبيه أبلغ في وصف الخائف من جميع الأوصاف، وأوقع التشبيهات لهذه الحال»[٤]؛ فقد أرانا الأحياء موتى من الخوف؛ لنُدرك البُعد الشاسع بين هؤلاء الموتى وهم أحياء، وبين الأحياء مع أنهم موتى، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩].

موازنة بين الصورتين:

الأولى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].

والثانية: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

= استدل على كلامه بما ذكره التنوخي (ت٦٩٢هـ) من أن أداة التشبيه هي الكاف أو كأن أو إرادتها أو إرادة معناها. (ينظر: فن التشبيه: ١/ ١٩٢، والأقصى القريب: ٤٢). ويبدو لي أن جعله من البليغ أقرب إلى القبول، كما هو القول الأول.

(١) ينظر: المثل السائر: ١/ ٣٧٩.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩١ .
(٣) في ظلال القرآن: ٧/ ٤٦٣ .
(٤) القرآن والصورة البيانية: ٤٥ .

- اعتمدت كلتا الصورتين على التشبيه التمثيليّ الحسّيّ المبصَر في وصف الخوف، ودلَّت عليه الألفاظ ﴿رَأَيْتَ﴾، ﴿يَنظُرُونَ﴾.

- يلفت السياق في كلتيهما النظر إلى العين؛ إذ تعكس كلَّ مشاعرهم وانفعالاتهم.

- شُبِّهت فيهما هيئة المنافقين بهيئة الذي يُغشى عليه من الموت، وخُصَّت الأُولى بدوران العين، والأخرى بثباتها.

فما سرّ الاختلاف هنا؟ يُستمَدّ مما قاله صاحب أسرار البلاغة في جانبين:

١- التشبيه الواقع في الهيئات: فمنه نوع يعتمد على الحركة التي قد تقترن بأوصاف أخر كالشكل واللون، أو تجرَّد هيئة الحركة لئلا يُراد غيرها. ونوع آخر في الهيئات التي تقع عليها السَّكَنات[١]، ويمكن أن يقترن معها غيرها من أوصاف الجسم[٢].

فالصورة الأولى متحرِّكة، الحال فيها حال قتال، ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ دارت أعينهم في كلِّ اتجاه مع دوران المعركة حيرة وفزعًا - لكثرة أماكن الخطر- باحثين عن مخرج. وقد اقترنتْ هذه الحركة بأوصاف غيرها نحو صُفْرَة الوجه، وإعياء الجسم.

أمَّا الأُخرى فساكنة يتبع التشبيه فيها الهيئات التي تقع عليها السَّكَنات، نرى فيها قومًا عند رسول اللَّه ﷺ متظاهرين بسماع الوحي، يُفاجؤون بذكر القتال؛

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة: ١٨٠- ١٨٨، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: ٢٢٤- ٢٢٧، والطراز: ١/ ١٧٩، ١٨٠، ومقدمة تفسير ابن النقيب: ١٣٠- ١٣٣، وعروس الأفراح (شروح التلخيص): ٣/ ٣٦٥- ٣٧٥.

(٢) ينظر: فن التشبيه لعلي الجندي: ٢/ ٨١.

فتشخص أبصارهم رجاء أن ينقذهم النبيُّ ﷺ من المأزِق.

٢- السرّ المعنويّ الذي يتبع إرسال التشبيه أو توكيده[١]: فالصورة الأولى «تتزاحم فيها عناصر الخوف والرُّعب، ففيها المحاجر الجاحظة من سرعة التقلُّب والوله والحيرة، وفيها الرجل المسجَّى الذي يعالج الموت، وقبل ذلك فيها الخوف المتسلط الرهيب»[٢]؛ لذا أوثر إرسال التشبيه فيها. أمَّا الثانية فيتَّحد طرفاها في وصف خوفٍ يصحبه سكون النظر والحركة.

وربما اعترت الرهبة من القتال بعض المؤمنين حين فُرض الجهاد؛ إذ كره فريق منهم لقاء العدو في وقعة بدر لا عن جُبن وتخاذُل، بل تهيبًا من أوَّل وقعة بعد إسلامهم فضلًا عن قلَّة عددهم وعدم تأهُّبهم[٣]، ولما كان الأَحرى بنفوسهم أن تفيض بالإيمان الحقِّ بنصر اللَّه؛ فقد أتى التعجيب في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال: ٦]. ليقدِّم دليلًا محسوسًا تتجسَّد فيه كراهة القتال والخوف من مواجهة العدوّ، لقد جادلوا ﴿فِي ٱلۡحَقِّ﴾ أي: القتال، بحجة أنهم لم يخرجوا ابتداء إلَّا للعِير لا النفير[٤]، ولم يُعلِمهم النبيّ ﷺ بلقاء عدوهم فيستعدُّوا. وكان الأحرى بهم أن يسارعوا إلى ما أمرهم رسول اللَّه ﷺ فقد ﴿تَبَيَّنَ﴾ أنّه لا يأمر بأمر إلَّا بإذن اللَّه، وأنَّ اللَّه وعدهم

(١) يمثِّل عبد القاهر للمرسَل بـ (زيد كالأسد) ويثبَت فيه للموصوف حظٌّ ظاهر في الشجاعة لا يخرج عن الاقتصاد، وفي المقابل يأتي المؤكَّد على نحو: (هو الأسد)، وقائله يتناهى في الدعوى فيجعل بين طرفيه تشابهًا تامًّا، فلا تنقص شجاعة الموصوف عن شجاعة الأسد، ولا يُعدَم منها شيئًا، حتى يكاد يتوهَّم الرائي لهما في حاليهما أنه رأى شيئًا واحدًا. (ينظر: أسرار البلاغة: ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) من أسرار التعبير القرآني: ١٣٩ .

(٣) ينظر: أنوار التنزيل: ٣/ ٩١ ، ونظم الدرر: ٣/ ١٧٦.

(٤) ينظر: صحيح أسباب النزول: ١١٨.

الظفر بالعِير أو النفير[١].

وتأتي ﴿كَأَنَّمَا﴾ للمقارنة بين الحالين، والتأكيد على غرابة المشبَّه[٢]؛ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ لقد شُبِّهتْ حال من يسار بهم إلى الظفر والغنيمة، والخوف من غلبة العدوّ يهيمن عليهم بحال مَن يُعتَل[٣] صاغرًا إلى موت محقّق حاضر أمام ناظريه[٤]. فالتشبيه تمثيليٌّ مجمَل مرسَل، والجامع حسّيٌّ مرئيٌّ وهو هيئة من يساق إلى شيء حتميٍّ مروِّع يرى فيه حتفه، لكنَّه يضطرُّ إلى الاستسلام. وقد خرج التشبيه إلى التعجيب من مشاعرَ تملَّكت مؤمنين باللّه موقنين بإتمام وعده؛ إذ الفارق واضح بين صورتي المشبَّه والمشبَّه به؛ فتنتهي الأُولى بنصر وُعِدوا به، وتنتهي الثانية إلى مجهول! فكيف استوت عندهم مشاعر هذه مع تلك؟ وهنا وقفة سريعة مع الإيحاءات المعنوية نتمّم بها بلاغة التصوير:

- لقد أوحى لفظ ﴿يُسَاقُونَ﴾ باستسلام لا مُمانعة فيه للسائق، وأوثر بناؤه للمفعول ليدلَّ على أنَّ المكروه هو السَّوق ليس غيره. فخلف الصورة يختفي السائقون، ويبرُز المسوقون، فلا يشغَل ساحة البصر غيرهم، تنمُّ وجوههم عن سرائرهم[٥].

---

(١) ينظر: جامع البيان: ١١/ ٣٨، ومعالم التنزيل: ٥١٢، وفتح القدير: ٢/ ٣٧١.

(٢) تتميز (كأنّ) بمجيئها في كلِّ تشبيه فيه غرابة ناشئة من كون المشبه به بعيدًا عن المشبه كما في هذه الآية، أو كون المشبه به غير محقق الوقوع؛ لكونه مستحيلًا بحكم العقل أو العادة كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، ويكثر ذلك حين تكون (كأنَّ) مكفوفة بـ (ما). (ينظر: أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم: ٢٢١، ٢٢٢).

(٣) العتْل: الدفع والإرهاق بالسوق العنيف (لسان العرب: ٤/ ٢٥٤).

(٤) ينظر: الكشاف: ٢/ ١١٥، وقطف الأزهار: ٢/ ١٠٦٩.

(٥) ينظر: في إعجاز القرآن دراسة تحليلية لسورة الأنفال: ٥٠٤.

- يضفي لفظ ﴿ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ جوًّا من الهول يلفُّ الموقف أوحى به معناه وتعريفه[(١)].

- ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾: حالٌ تضاعِف رهبة السَّوق، وتقتضي شدَّته، فـ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ﴾ ناظرين مشهد القتل أمامهم تتساقط فيه الرؤوس[(٢)]! صورة معبَّأة بالروع تنضح بالاستسلام واليأس!

ويبرز التشبيه الحسِّيُّ في مشاهد القيامة؛ لتقريب العالم الغيبيِّ[(٣)] الذي لا يُدركه عقل بشر، ومنه قول المهيمن- جلَّ ثناؤه -: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج:٢]. وقد جاء هذا التشبيه ضمن سياق تعدَّدت فيه الكنايات -التي سيرد تناولها لاحقًا[(٤)]- ليتناغم معها في تصوير رهبة الموقف.

وقفة مع النظم وعناصر الصورة:

- ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الخطاب في ﴿تَرَى﴾ لغير معيَّن[(٥)]. وفيه دلالة على الهول والاضطراب الذي يسود الموقف، فلا تخفى على أحد رؤية آثاره.

- في قوله: ﴿ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ شُبِّه الناس من شدَّة اضطرابهم بالسُّكارى؛ والسُّكر -كما هو معروف - حالة تعرض للعقل بسبب الشراب ولشدَّة المشابهة

(١) وردت الإشارة إلى ما يوحي به لفظ ﴿ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ ص١٥٢.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٥٠٣.
(٣) سبق الحديث عن ذلك في سمات التشبيه القرآني ص١٣٨.
(٤) في التصوير بالكناية ص٢٤٢- ٢٤٦.
(٥) أصل الخطاب أن يكون لمعيَّن، وقد يُترَك إلى غير مُعيَّن، فيخرج من صورة الخطاب إلى العموم، وهو في القرآن كثير، ويدلُّ على تفظيع حال تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها، فلم تعُد مُختَصَّةً براءٍ دون آخر، بل كلّ مَنْ تتأتّى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب (ينظر: الإيضاح: ٤٠) .

بين الحالين أوثر إنزال المشبَّه منزلة المشبَّه به بطريقة التشبيه البليغ[١]كما ذكر المحقِّقُون من علماء البيان[٢] . . والجامع حسِّيٌّ صوَّر الهيئة الماديَّة، والحركة المتماوجة المتمثِّلة في انتفاء الثبات الذي يتبع «سلب كمال التميز، وصحَّة الإدراك»[٣]. ف ﴿ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ من عظيم ما رابهم من ذعر أطار صوابهم، فذهلت نظراتهم، وترنَّحت خطواتهم، ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ من شرب الخمر[٤].

- يفتح المدّ في لفظ ﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ آفاقًا من الفكر وبواطن الوجدان بتأمُّل الحالة المفزِعَة وتصوُّر أبعادها وتأثيرها النفسيّ، وما تنطوي عليه من دِلالة على جبروت الواحد القهَّار ﷻ فكيف بِتكرار المدِّ في اللفظ، ومجيئه منفيًّا في صورة عكسيَّة على أسلوب طباق السلب ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾تحار فيها النفس فتتأمَّل وتتدبَّر[٥].

- ثُمَّ يأتي الاستدراك[٦] فيثبت ما استدعته تلك الحالة، مختتِمًا المشهد بما يُلقي الرهبة والهول في الحسِّ والوجدان، ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

إنهم ﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ من شدَّة الرعب والوجل والذهول لما عاينوا من الكرب، وعظيم الهول[٧].

ومن الآيات التي تصوِّر حال الناس يوم الفزع الأكبر بكلٍّ ما يحمله من انقلاب

(١) ينظر: حاشية ابن التمجيد: ٨/١٣، وحاشية القونوي: ٦/١٣، والتحرير والتنوير: ١٣٩/١٧.
(٢) سبقت الإشارة إلى رأي العلماء في التشبيه المضمر الأداة ص١٠٤.
(٣) فتح القدير: ٥٧١/٣.
(٤) ينظر: جامع البيان: ٤٥٨/١٦، والكشاف: ٢٥/٣.
(٥) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن: ١٤٣.
(٦) ينظر: البحر المحيط: ٣٥١/٦، وذكر النحاة أنَّ الأشهر في (لكنَّ) أن تكون للاستدراك بعد النفي فيُنسَب لما بعدها حكم مخالف لما قبلها. (ينظر: معاني الحروف للرماني: ١٣٣، ورصف المباني: ٣٤٩، ومغني اللبيب: ٣٢٠/١) .
(٧) ينظر: جامع البيان: ٤٥٨/١٦، وتلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٩٠، ونظم الدرر: ٦/ ١٣٢، وتيسير الكريم الرحمن: ٥٣٣ .

وهول تنخلع له القلوب قول اللّه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦ -٨].

تصوير دقيق لأهوال المحشر وخروج الموتى من أجداثهم مذعورين. وإن كان النائم يهبُّ فزِعًا لدوِيٍّ أيقظه! فكيف بموتى- بعد طول رُقاد - تجلجل نفخة القيامة وما يتبعها من زلازل ورجَفَات، فإذا هم قيام ينظرون؟! الأرض تميد بهم، والسماء تمور فوقهم، والجبال الراسية تُسيَّر أمامهم! وإذا البحار سُجِّرت، والشمس مع القمر جُمعت! وموازين الكون كلُّه انقلبت! حتى هم! هم الذين كانوا يمشون في الدنيا باتِّزان، ما لهم كالجراد مضطربين؟

«انظر كيف جمع فيما بعد قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ كثيرًا من الأهوال آخذٌ بعضها بحُجَزِ بعض بحُسن اتِّصال ينقُل كلٌّ منها ذهنَ السامع إلى الذي بعده من غير شعور»[1].

- فيُشعِر إبهام لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ وتنكيره بالهول والتعظيم[2].

- وفي لفظ ﴿نكر﴾ ثِقَل تُوحي به الضمتان المتتاليتان يُحاكي صعوبة الموقف وفظاعته.

-وفي﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ تصوير لسوء حالهم جسَّد ملامح الفزع والذلَّة والاستسلام. ولا غرو أن خُصَّت فيه الأبصار؛ إذ ينكشف بها تماسُك النفس وتخاذُلها. ويدعم الجمع تمكُّن هذه الصفات منهم، وبلوغها أقسى ما يُتصوَّر. وفي إيثار ﴿خُشَّعًا﴾ - اسم الفاعل المجموع جمع تكسير للكثرة - وتقديمه على

(١) التحرير والتنوير: ٢٧/ ١٧١.
(٢) نظم الدرر: ٧/ ٣٤٧.

العامل أثر في استحضار الصورة ولفت الانتباه «وكأنهم يوصفون به الآن، لا ما أُجِّل لهم من العذاب، كلّ ذلك تعانَق مع سياق يبثُّ نذر الساعة، ويلوح بشارات الخطر القريب، كما يتعانق الجمع ﴿خُشَّعًا﴾ مع الكثرة التي نشرها التشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾»[1].

-﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ و﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: جمعٌ، مفردُهُ الجدَث وهو القبر[2]، وهنا لطيفة دقيقة في الفرق بين الجدث والقبر تجلّت أثناء استقراء ورود كلٍّ منهما، لقد استُعملت القبور في خمسة مواضع لمقرِّ الميت، وأصلها -كما ذكر ابن فارس- يدلُّ على الغموض والتطامُن، يُقال: أرضٌ قَبُور، أي: غامضة[3]، في حين لم ترد كلمة ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ إلّا في ثلاثة مواضع وعلى صيغة الجمع عندما تُفتَح القبور، ويخرُج أصحابها إلى مواقف القيامة فلم يعُد للغموض فيها مكان.

- ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ تشبيه تمثيليٌّ معجز! أدخله ابن رشيق تحت ما سماه بالتشبيهات العُقْم[4]، يقصِد بها الفريدةَ من نوعها التي «لم يُسبَق أصحابها إليها، ولا تعدَّى أحد بعدهم عليها»[5]، وتابعه في ذلك ابن الأثير[6].

لقد استوقفتني غرابة هذا المصطلح؛ فالمعنى المعروف لكلمة (عُقم) لا يشجع

---

(١) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ٢٣٨.

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: جدث: ١٩٠.

(٣) ينظر: السابق: قبر: ٨٤١.

(٤) ذكر منها في القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٩] وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان: ٣٢] وقد ارتضى هذا المصطلح من بعده بعض المعاصرين منهم علي الجندي (ينظر: فن التشبيه: ٣١٣-٣٣١)، ولم يذكره أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغية، ولا بدوي طبانة في معجم البلاغة؛ فليستدرك عليهما.

(٥) ينظر: العمدة في صناعة الشعر ونقده: ١/ ٤٨٥، ٤٨٦.

(٦) ينظر: كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب: ١٩٤.

على وصف تشبيه قرآنيٍّ بديع كهذا بها! فأصل العُقم يدلُّ على غموض وضيق وشِدَّة. يقال: رجلٌ عقيمٌ، وامرأةٌ عقيمٌ لا تلد، وعقل عقيم لا ينفع صاحبه، وعكسه المثمر، وريح عقيم لا تُلقح شجرًا، ولا تُنتج ثمرًا، ولا تُنشئ سحابًا، ولا تحمل مطرًا، وهي أكره وأشنع ريح عند العرب. والدنيا عقيم، أي: لا تردُّ على صاحبها خيرًا، ورجُل عَقامٌ وعُقام سيِّئ الخلُق، وكلام عُقْمِيٌّ، أي: عويص جاهليٌّ لا يُعرَف وجهه[(١)].

لذا لا أرى وصف البيان المعجِز بما اشتُقَّ من تيك المعاني! وإن كنتُ أوافقه في أسبقيَّة القرآن إلى تلك التشبيهات وانقطاع نظيرها. والأَولى تسميتها فرائد التشبيه أو مبتكَراته؛ لتحمل معاني التميُّز والتفوُّق مع ابتكار وإثمار يبرِز تألُّق التشبيه القرآنيِّ وسموّه. لقد نظر ابن رشيق إلى جانب التفرُّد دون مراعاة الإيحاء النفسيِّ المرتبِط بالكلمة، وله - دون شكّ- فضل لفت الأنظار إلى التشبيه، والتعمُّق في فهم إبداعه والطُرق الفريدة لسبكه.

وهنا وقفة عند إدراج ابن رشيق هذا التشبيه تحت مصطلحه مع أنَّ «الجراد مَثَل في الكثرة والتموُّج. يُقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد، وكالدَّبَى[(٢)] منتشِر في كلِّ مكان»[(٣)]! وعللتُ ذاك بما ذكر ابن عاشور أنَّ من وجوه الإعجاز «ما أبدعه القرآن في أفانين التصرُّف في نظْم الكلام»[(٤)]. فقد تصرَّف الإبداع القرآنيُّ فيه بصوغه في قالب لم تعهده العرب.

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: عقم: ٦٥٠، وكتاب الصناعتين: ٢٧٩، وأساس البلاغة: ٣١٠، ولسان العرب: ٤/ ٣٩٧، والقاموس المحيط: ١١٣٩ .

(٢) وفي مجمع الأمثال: «أكثر من الدَّبى أو (الدَّبا) »: ٣/ ٧٥ . وهو صغار الجراد قبل أن يطير، وقيل: أصغر ما يكون من الجراد والنمل (لسان العرب: ١/ ٣٥٥) .

(٣) الكشاف: ٤/ ٤٤، وينظر: التفسير الكبير: ١٠/ ٢٩٣، والبحر المحيط: ٨/ ١٧٦.

(٤) التحرير والتنوير: ١/ ١٠٢.

هكذا صوَّر هذا التشبيه الفريد الهيئة الحسِّيَّة المتمثِّلة في خروج الناس من أجداثهم يوم الحشر بهيئة خروج جراد من ثُقَبٍ في الأرض استثير فانتشر مسرعًا مضطربًا يدفع بعضه بعضًا(١). ووجه الشبه الهيئة الحاصلة من خروج مجموعات كبيرة مُتدافِعة مُتصادمة تتحرَّك وتموج على ظهر الأرض من غير تحديد ولا تعقُّل(٢) بعد أن كانت كامنة مستقرَّة في جوفها. يفسِّر هذا الموقف قول اللّٰه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق:٤٤] «ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصوُّر هذا المنظر العجيب»(٣)، ولعلَّ التشبيه هنا يدخل تحت ما سمّاه الرمَّانيُّ إخراج ما لا يُعلَم بالبديهة إلى ما يُعلَم بها(٤).

- أدِّي بـ (كأنَّ) التي تحمل معنى التأكيد؛ إذ يرتبط بتخيُّل الموقف المفزع الذي يبعث في النفوس السويَّة أهمية الاستعداد له.

- تُسهم كلمة ﴿جراد﴾ بأصواتها في تصوير الموقف؛ إذ توحي صفة الشدة في الجيم والدال بالحال العصيبة للناس يوم الفزع. ثُمَّ يأتي الوصف ﴿مُّنتَشِرٌ﴾ أي: منبَثٌّ متفرِّق حيران مضطرب بعد سكون. مختلِطٌ بعضه ببعض، لا جهة له في الحقيقة يقصِدها لو خلا ونفسه(٥)، فكلٌّ منهم مشغول بنفسه عما سواه. هذا ما ذكره الحقُّ - تبارك وتعالى- في قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس:٣٧] وحيث إنَّ الانتشار قد يُفهَم على وجه المهل والوقار، فقد انتفى ذلك

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/ ١٧٣.
(٢) ينظر: معالم التنزيل: ١٢٥٣، وأمثال القرآن وصور من أدبه: ١٤٤، والتصوير البياني لأبي موسى: ٤٣.
(٣) التصوير الفني في القرآن: ٥.
(٤) ينظر: النكت في إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٨١.
(٥) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٣٤٨.

بتصعيد معنى التوتر والخوف أكثر بلفظ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين خائفين مادِّين أعناقهم إلى الداعي في صمت واستكانة، لا يلتفتون إلى سواه لِمَا يرون من مخايل الهول والرعب[١].

وقريب منه في تصوير الموقف قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ [القارعة: ٤] شُبِّه الناس بالفراش في الخِفَّة والتفرُّق والضعف[٢]، فقلوبهم مُستطارة يلوذون بالفرار بحثًا عن الأمان. وتُوحي أصوات الكلمة بهذا المعنى فالفاء والشين مهموستان، وتشترك الفاء مع الراء في الذلاقة، كما أنَّ التفشِّي في الشين يدعَم معنى الانتشار والتطاير.

يتماثل التشبيهان في وصف الناس يوم القيامة. إلَّا أنَّ بينهما فروقًا دقيقة تتأتّى من اختلاف أجزاء كلٍّ منهما، وهي:

١- الزاوية التي يُسلَّط عليها الضوء: فأكثر ما يظهر في الأول خروج الناس خائفين متتابعين متصادمين. أمَّا هنا فَيُسلَّط الضوء على معنى التفرُّق والتخاذُل والوهن[٣].

٢- الزمن: «فهما تشبيهان باعتبار وقتين»[٤] فحينًا يخرجون من الأرض متدافعين متوجِّهين إلى الداعي أشبه بالجراد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨]، وحينًا تطيش أحلامهم، فينبثُّون متفرقين هائمين على مَواطن يتوهَّمون فيها نجاتهم، كفراش مبثوث طائر هنا وهناك متخاذلين، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [الزلزلة: ٦].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٢١٣، ونظم الدرر: ٧/ ٣٤٨ .
(٢) ينظر: الكشاف: ٦/ ٤٢١، والتفسير الكبير: ١١/ ٢٦٧.
(٣) ينظر: التصوير البياني: ٤٤، والكشاف: ٤/ ٢٣٠.
(٤) البحر المحيط: ٨/ ١٧٦ .

٣- الوصف الذي وصِف به كلٌّ منهما: إذ وصِف الجراد بالانتشار والفراش بالبثِّ، والفرق بين الانتشار والبثِّ، أنَّ الأول فيه فضْل تماسُك لا يوجد في الآخر الذي يحمل معنى انعدام التصرف المنتظم والسيطرةِ على النفس، لأنَّ الفراش يرد في كلام العرب مثلًا في الخِفَّة والحماقة والتهافُت، كما أنَّ الانتشار يحصل من الجراد فهو ﴿مُّنتَشِرٌ﴾ بنفسه، أمَّا (الفراش) فهناك من يبثُّه؛ إذ هو متخاذِل لا فعل له[١].

٤- أداة التشبيه: هي في الأوَّل (كأنَّ) تؤكِّد تشبيهًا حمل دقائقَ تشترك فيها الصورتان مِن خروج إلى هيئة انتشار، أمَّا الثاني فأداته (الكاف) حيث لا يحمل سوى هيئة البثِّ.

وبعد هذا نرى التأثير النفسيَّ المرتبط بتلك الصور يترجمه تساؤل يتردَّد صداه في نفوس أُولي الألباب، أفلا يستحقُّ يوم الفزع الأكبر أن نستعدَّ له، ونحتقرَ الدنيا التي تُلهينا عنه لنكون من الآمنين الذين قال اللَّه عنهم: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

* * *

(١) ينظر: التصوير البياني: ٤٤، ٤٥.

المبحث الثاني
التشبيه المعنويّ

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

مَثَل ضُرِب لقوم من المسلمين[(١)] لاقَوا أذى كبيرًا من المشركين، فاستأذنوا النبيَّ ﷺ في قتالهم ولما يفرض القتال بعد، فقال لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ووجَّههم إلى ما فُرض عليهم من صلاة وزكاة. فلمَّا فُرض القتال شقَّ على بعضهم ركونًا إلى الدنيا ونفورًا من الموت والإخطار بالأرواح، لا شكًّا في الدين أو رغبة عنه[(٢)].

وقفة مع تناغم السياق في نقل صورة تثير العجب من حال الخوف الذي اعتراهم:

- عُبِّر عن أولئك القوم بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ على طريقة الكناية للتعجيب من حالهم[(٣)].

- أتى العطف بالفاء التي تفيد الترتيب مع التعقيبت ﴿فَلَمَّآ﴾؛ ليحقِّق كمال

(١) هذا ما عليه جمهور المفسرين. ذكر ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير: ٤/ ١٨٩، وينظر: معالم التنزيل: ٣١٨، والكشاف: ١/ ٢٨٢، وتيسير الكريم الرحمن: ١٨٨.
(٢) ينظر: جامع البيان: ٧/ ٢٣١، والكشاف: ١/ ٢٨٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣٤٣.
(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٦٥، وروح المعاني: ٣/ ٨٣.

التعجيب؛ إذ لم يمض وقت طويل على ما طلبوه ليطرأ ما يعوقهم!

- في اصطفاء لفظ ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ دون الجهاد لطيفة؛ فالجهاد أوسع نطاقًا من القتال في دلالته - حسبما جاء في النصوص الشرعيَّة-؛ إذ يشمل نشاطات الدعوة كلّها[١] لكنَّه أخصُّ من جهة فاعله؛ فهو جهد مبذول بإخلاص للَّه وحده، أمَّا ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ فهو أخصُّ في الدِّلالة اللغويَّة؛ إذ يقتصر على خوض غمار الحروب، وأعمُّ في الفاعل؛ إذ لا يُشترط فيه الإخلاص؛ ولمَّا كان الأمر في بداية الدعوة اصطُفي لفظ ﴿ٱلْقِتَالُ﴾؛ إذ لم تكن حرارة الإيمان قد غمرت نفوسهم بعد؛ ليستشعروا حلاوة الأجر والحياة الأبديَّة عند اللَّه، فيمزجوا بهما مرارة الخوف والعنت. إنما لا يعدو لهم إيحاؤه آنذاك معنى القتل المفزع.

- ربطت ﴿إِذَا﴾ الفجائية[٢] في قوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ بين لمَّا وجوابها لإتمام دلالة التعجيب[٣]، كأنما قيل: انظر مَن كانوا حِراصًا على القتال ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾كرهه بعضهم[٤]. وبذا يتحقَّق التباين بين المعطوفين، والتعريض بالحالة المغايرة لما قبلها[٥].

- صُوِّر نفورهم من الجهاد ابتداءً، وخوفهم من مواجهة الناس بتشبيه معنويٍّ مرسَل مجمَل ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ شُبِّهت فيه حال خشية أولئك القوم للناس بحال خشية اللَّه، والجامع بينهما هو الخشية في كلٍّ؛ فكأنما «يخشون الكفَّار أن يقتلوهم كما يخشون اللَّه أن ينزل عليهم بأسه»[٦]؛ إذ

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ١٣٧-١٤١.
(٢) ينظر: أنوار التنزيل: ٢/ ٢٢٠، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ١٦٥، وروح المعاني: ٣/ ٨٣.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٤/ ١٨٩.
(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٦٥، روح المعاني: ٣/ ٨٣.
(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٦٥.
(٦) أنوار التنزيل: ٢/ ٢٢٠.

«كانوا يخافون اللَّه في جهة الموت، لأنهم لا يخشون الموت إلَّا منه، فلما كتب عليهم قتال الناس رأوا أنهم يموتون على أيديهم، فخشوهم في جهة الموت كما كانوا يخشون اللَّه»[١].

وغرض التشبيه بيان مقدار حال المشبَّه في القوَّة. وقد جرى على طريقة المبالغة، وخرج إلى التعجيب والإنكار، لأنَّ ما نعلم من فضلهم لا يتلاءم وحمل الكلام على ظاهر الإخبار[٢].

- و﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ﴾ للإبهام، والفرق بينه وبين الشكِّ: أنَّ الأخير لا يعلمه المخبِر، أمَّا الإبهام فيعلمه ويبهِم على السامع لمعنى ما[٣]، «فقد أفاد هذا أنَّ خوفهم من الناس ليس بأقلَّ من خوفهم من اللَّه جزمًا، بل إمَّا مثله أو أشدّ منه، وقد يكون الإبهام للتفاوت بالنسبة إلى وقتين، فيكون خوفهم منه في وقت متساويًا، وفي آخر أزيد، فهو متردِّد بين هذين الحالين»[٤]. وفيه تعريض بأنَّ الأجدر بهم أن يصرفوا هذه الخشية للَّه وحده.

ولمَّا كان الخوف قد يطرأ على نفوس مؤمنة، إذ يظلُّ الضعف البشريّ سمة لها؛ فقد خُلق الإنسان ضعيفًا، فكيف بنفوس حائرة ضالَّة عن المنهج الربانيِّ المربِّي الأمثل للنفوس؟ ألا تتمثَّل شبح الخوف أينما حلَّت؟ لقد صوَّر الواحد الأحد ﷻ الشرك بصورة مشوَّهة يفهمها كلُّ ذي عقل يفكِّر. فقال ﷻ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ [الروم: ٢٨].

---

(١) المحرر الوجيز: ٢/ ٨٠.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٤/ ١٨٩.
(٣) ينظر: رصف المباني: ٢١١.
(٤) نظم الدرر: ٢/ ٢٨٢.

دليل منطقيٌّ خَطابيٌّ يستند إلى العقل ويحرِّك المشاعر؛ فلا مجال للجدال فيه، ساقه الفرد الصمَد ﷻ إلى المشركين من أنفسهم علَّ قلوبهم المقفلة تنفتح له، فيفهموا العقيدة الصحيحة متوجِّهين بأنواع العبادة - ومنها الخوف(١)- إلى مستحقِّها ﷻ.

وقفة مع بلاغة نظم الصورة:

- معنى ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾أي: شبهًا لحالكم من اتخاذ الشريك. وفي استعمال لفظت ﴿ضَرَبَ﴾ غالبًا مع المثل نكتة بديعة؛ فيؤتى بالمثل عادة عند إرادة التأثير وإثارة الانفعال، كأنَّ ضاربه يقرع أذن السامع قرعًا، بحيث ينفذ أثره إلى القلب، ويصل إلى الأعماق(٢).

- يدلُّ قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾على براعة اختيار المثل ليكون من أقرب الأمور إليهم وأظهرها دلالة؛ فلا يحتاجون في تأمُّله إلى إمعان فكر وإنعام نظر.

- سُلك الأسلوب الإنشائيُّ الطلبيُّ في عرض المثل ﴿هَل لَّكُم﴾؛ ليكون أكثر إثارة للوجدان، وأقربَ إلى التذكير وأبعدَ عن التنفير، وخرج الاستفهام فيه إلى الإنكار والتوبيخ(٣)والنفي(٤)، و﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي(٥).

---

(١) ينظر: شرح ثلاثة الأصول للشيخ ابن عثيمين: ٥٤.
(٢) ينظر: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم: ٢/ ١٠٣٧.
(٣) ينظر: نظم الدرر: ٥/ ٦١٩.
(٤) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٦/ ٥٤١، وحاشية القونوي: ١٥/ ١٣٣، وروح المعاني: ١١/ ٣٨.
(٥) ينظر: الكشاف: ٣/ ٢٠٣، وحاشية شيخ زاده: ٦/ ٥٤١، حاشية ابن التمجيد: ١٥/ ١٣٣، وقد علقت د.هيفاء فدا على معنى ﴿مِّن﴾ بقولها: «وفيها استغراق ينفي الشركاء عنهم في أموالهم وأزواجهم من عبيدهم، ولو حذفت ﴿مِّن﴾ لم يكن فيه معنى العموم والشمول» زيادة الحروف بين التأييد والمنع: ٦١٩.

- يدلّ الالتفات من الغيبة ﴿ضَرَبَ﴾ إلى التكلُّم ﴿فِي مَا رَزَقْنَكُمْ﴾ على القُرب مع العظمة، بعد طول تعبير بالغيبة قد يُتوهَّم معه بُعد. وفيه تنبيه على أنَّ إيجاد الرزق، وقسمته بين الخلق من شؤون اللَّه وحده ﷻ، فليس لهم ولا لمعبوداتهم الباطلة يدٌ فيه؛ فكيف يشركونها معه في العبادة؟

- الضمير (أنتم) في قوله: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ شامل للمماليك بالتغليب؛ أي: لا فرق بينكم وبينهم فيما أنتم فيه شركاء[١].

- معنى ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: كما تخافون مثلكم في الحريَّة وملك الأموال وجواز التصرُّف[٢]. فالمراد بالأنفس غير المخاطبين؛ فهو مجاز للمناسَبة التامَّة بين الفريقين أصلًا أو دِينًا[٣]. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] نُزِّل فيه الملموز نفسًا للامزِهِ لتقرير معنى الأُخوَّة[٤].

وبتآزر تيك الألفاظ والأساليب يتمّ التعجيب في هذا النظم الفريد ليتردَّد صداه تساؤلات في نفوس المخاطَبين: أترضون أن يشارككَم عبيدُكم في أموالكم؟ أترضون تفويض الأمر لهم في سلطانكم حتى تقوى شوكتهم؛ فيكونوا قوَّة تخافونهم كما يخاف حرٌّ شريكَه الحرَّ ذا القوَّة والسلطان أن يستأثر بحقِّ التصرُّف في أمرِ ما يملكان؟[٥] «إذا كنتم لا ترضون شيئًا من ذلك لأنفسكم؛ لمنافاته مرتبة كمالكم في تصوُّركم، ولأنه يقلِّل من سلطانكم فيما هو لكم، أفترضون مثله لبارئكم»[٦] وله المثل الأعلى؟

---

(١) ينظر: روح المعاني: ١١/ ٣٨، والتحرير والتنوير: ٢١/ ٤٤.
(٢) ينظر: روح المعاني: ١١/ ٣٩.
(٣) ينظر: حاشية القونوي: ١٥/ ١٣٤ .
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ٢٠٧.
(٥) ينظر: معالم التنزيل: ١٠٠٦.
(٦) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع: ٧٢.

ولنقف قليلًا مع سرِّ اختلاف التعجيب من الخوف بين هذا المثل وسابقه في قوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧]، لقد عبَّر في آية النساء بالخشية وهنا بالخوف، وممَّا يؤكِّد اختلاف الخشية عن الخوف(١) مجيئهما متعاطفين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه:٧٧]. علَّق الألوسيُّ (ت١٢٧٠هـ) على هذه الآية بأنَّ الخشية أعظم الخوف، وأوثر التعبير بها في الغرق؛ إذ هو أعظم من إدراك فرعون وجنوده ففي الإدراك مظنَّة السلامة(٢)، وثمة لطيفة أخرى في الفرق بينهما، فالخشية تكون من عِظَم المخشيِّ، وإنْ كان الخاشي قويًّا؛ لذا عُبِّر عن خوف المؤمنين بلفظ الخشية؛ إذ الأَولى بنفوس أقوياءَ مثلِهم أن تخلوَ من خشية غير اللَّه فضلًا عن الخوف. أمَّا المشركون فنفوسُهم ضعيفة مريضة تمتلئ بالجبن والخوَر، لذا أوثر التعبير بالخوف الذي يدلُّ غالبًا على ضَعف الخائف، وإن كان المخُوف يسيرًا(٣) حقيرَ الشأن كأوثانهم التي صنعتها أيديهم، ثُمَّ خافوا بأسها، وأشركوها مع اللَّه في العبادة.

التشبيه هنا تمثيليٌّ مجمَل مفصَّل شبِّهت فيه الهيئة المنتزَعة من زعم المشركين أنَّ الأصنام شركاء للَّه؛ إذ كانوا يفزعون إليهم عند الملِمَّات، ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند اللَّه؛ بهيئة عبيد صاروا شركاء سادتهم في أرزاقهم؛ مما جعل السادة يخافون أن يتصرفوا في أملاكهم المشترَكة بتصرُّف لا يُرضي عبيدهم، كما يخافون مثلهم من الأحرار(٤). والجامع بينهما معنويّ هو الهيئة الحاصلة مِن

---

(١) تقدمت الإشارة إلى الفرق بين الخوف والخشية ص٤٠.
(٢) ينظر: روح المعاني: ٨/ ٥٤٧.
(٣) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن: ٢٢٦، والفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم: ٢٦٩.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢١/ ٤٤، ٤٥. ولفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك تعليق =

قياسٍ ضعيف ساقط المنزلة بمن يفوقه بل لا يقارن به؛ إذ شتَّان بينهما علوًّا وقدرًا وصفات، ويظهر منه «أنَّ الهيئة المشبَّه بها هيئة قبيحة مشوَّهة في العادة، لا وجود لأمثالها في عرفهم؛ فكانت الهيئة المشبَّهة منفيَّة منكَرة، ولذلك أُدخل عليها استفهام الإنكار»[١].

وحاصل هذا المثَل أنْ ليس مملوك كمالك وقد دلَّ على بُطلان الشرك من باب قياس الأَولى[٢] الذي يعتبر فيه المقِيس أولى بالحكم، وهذا شأن الأمثال القرآنيَّة التي تُساق لتقرير وَحدانيَّة اللَّه وتنزيهه عن الشركاء؛ فإذا لم يجُزْ أن يكون مملوك أولئك المشركين - مع حقارة أنفسهم ونقصانها وعجزها - شريكًا لهم مع أنَّه مثلهم في البشريَّة غير مخلوق لهم، بل للَّه تعالى؛ فليس لهم تصرُّف في روحه وآدميَّته بقتل وقطْع، وليس لهم منعه من العبادة، فكيف يجعلون مخلوقَهُ بل مصنوعُ مخلوقِه عَزَّوَجَلَّ شريكًا له؟[٣]

= على الآية قال فيه: «لا يجوز أن يقال للَّه شريك من عبيده وخلقه، ولا يرضى ﷻ بذلك، كما لا يرضى السيد من البشر أن يكون مملوكه شريكًا له، بل اللَّه أولى أن لا يكون مملوكه شريكًا له، ... وهذا التشبيه من باب قياس الأولى الذي يعتبر فيه أن يكون المقيس أولى بالحكم. وهذا شأن الأمثال التي يضربها اللَّه في القرآن لتقرير وحدانيته، وتنزيهه عن الشركاء، وهو تعالى لا تُضرب له الأمثال التي فيها مماثلة لخلقه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤] وما ضربه سبحانه من الأمثال -كما في هذه الآية- ففيه الدلالة على أنه أحقُّ بكلِّ كمال، ومنزَّه عن كل نقص، فهذه الأمثال التي ضربها اللَّه لا تقتضي تشبيهه بخلقه في شيء من خصائصهم ولا تسويته بهم، إنما المقصود بها تقرير التوحيد وإبطال الشرك بدلالة العقل، فإن الأمثال أدلة عقلية، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ونظير المثل في هذه الآية المثلان المضروبان في سورة النحل» (مجموع فتاوى البراك: ١/ ٢٥ مخطوط).

(١) التحرير والتنوير: ٢١/ ٤٤، ٤٥.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٧٥.

(٣) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٦/ ٥٤٣، وروح المعاني: ١١/ ٣٩.

ما أعجب حالهم! حقًّا إنهم سفهاء، ما أحلم الله عنهم! «إنَّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته»(١)! قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٣].

مشهد يصف يوم التغابُن وموقف الظالمين الذين طغَوا وتجبَّروا، فهاهم أولاء أذلَّةٌ صاغرون يقصمهم الحَكَم العدْل بعد إمهال، ويُنزِل بهم أشدَّ العذاب في يوم ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وترصد الآيتان آثار الفزع الذي يفجأ أهل الموقف، ويهزُّ كيانهم. تتلاحق فيهما كنايات تصوِّر آثار الذلِّ والخوف على الظالمين يوم العرض(٢)، ثم يأتي التشبيه البليغ(٣)﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ متسقًا معها في وحدة تنبض بالهول. لقد شُبِّهت الأفئدة بالهواء، والشبه هنا على وجهين:

١- خلوّ ﴿أَفْـِٔدَتُهُمْ﴾ «من عزائم الصبر والجلد لعظيم الإشفاق والوجل»(٤) فهي جُوْف منخرقة(٥)، «لا تعي شيئًا للرعب الذي دخلها والهول الذي استولى عليها»(٦).

٢- أن تكون في اضطرابها وجيَشانها؛ إذ تجيء وتذهب وتبلغ - على ما

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي موسى: ٣٨٩، رقم: ٤٦٨٦، ومسلم: ١١٣٠، رقم: ٦٥٨١ .
(٢) سيرد تحليلها ص ٢٣٩- ٢٤٢.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز: ٣/ ٣٤٤، والتحرير والتنوير: ١٢/ ٢٦٧، وهناك من أدرج هذه الآية في الاستعارة. (ينظر: تأويل مشكل القرآن: ١٣٩، وكتاب الصناعتين: ٢٧٥، وتلخيص البيان: ١٣٢)، وذكر السيوطيُّ أنَّ البيانيين يجعلونه استعارة (ينظر: معترك الأقران: ٢/ ٤٩١) وقد تمَّ تحقيق هذه القضية ص١٠٤.
(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٣٢، ١٣٣.
(٥) ينظر: مجاز القرآن: ١/ ٣٤٤، والمحرر الوجيز: ٣/ ٣٤٤، ومعنى منخرقة: أي لينة سهلة، يُقال: انخرقت الريح؛ إذا هبت على غير استقامة (لسان العرب: خرق: ٢/ ٢٤٥). .
(٦) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٣٣.

رُوي- حناجرَهم.

وعلى ذلك يشبَّه قلب الجبان والمضطرب في أموره بالهواء[١]. والتشبيه هنا مجمَل، والجامع بين طرفيه الخلوُّ والاضطراب. والأصل اللغويُّ للكلمة يؤيِّد هذا المعنى؛ إذ يدلُّ على خلوٍّ وسُقوط، وعليه سُمِّي الهواء لخلوِّه، قالوا: كلُّ خالٍ هواءٌ، وفؤادٌ هواء: فارغ، وكذلك الجمع، ويسمَّى الجبان هواءً على المجاز[٢]، ومنه هجاء حسَّان بن ثابت لأبي سفيان، رضي الله عنهما:

أَلا أَبـلِغْ أَبـا سُـفْـيَـانَ عـنِّـي   فـأَنْـتَ مُـجَـوَّفٌ نَـخِـبٌ هَـوَاءُ[٣]

لِم عبِّر في الآية عن القلوب بالأفئدة؟وهل من فرق بين القلب والفؤاد في المعنى؟

أصل الفؤاد مِن (فأد) ويدلُّ على حُمَّى وشِدَّة حرارة، والتفؤُّد: التوقُّد، ومنه سمِّي الفؤاد لتفؤُّده وتوقُّده. وقيل الفؤاد: وسط القلب، وقيل: غشاؤه، والقلب حبَّته وسويداؤه[٤]. وأكثر ما ورد في القرآن بهذا المعنى؛ إذ «يطلق على القلب في حال خوفه وفزعه، أو انشغاله بأمر خطير، أو غير مألوف للنفس. إنَّ الفؤاد يمثِّل الحالة الشعوريَّة والنفسيَّة للإنسان حين تضطرب في نفسه مشاعر وأحاسيس متأجِّجة لسبب ما»[٥].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٣/ ٣٤٤، ٣٤٥، وأنوار التنزيل: ٣/ ٣٥٤.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: هوي: ١٠١٧، وأساس البلاغة: هوى: ٤٨٩، ولسان العرب: هوا: ٦/ ٣٧٢.
(٣) من الوافر، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري: ٦٠، ومعنى مُجَوَّف: جبان كأنه خالي الجوف من الفؤاد، ومثله النخِب.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٨٠٥، والمفردات: ٣٧٢، ولسان العرب: ٥/ ٨٤، والكليات: ٦٩٧.
(٥) من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم: ٦٢.

وانظر إلى اختلاف التعبير في قصَّة أمِّ موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص:١٠] كان فؤادها «فارغًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد عدوِّه فرعون»[1]، وبعد تحوُّله من الفراغ إلى الإدراك عبِّر عنه بالقلب.

وللعلاقة الوثيقة بين الفؤاد والإحساس ارتبط أكثر وروده بالسمع والأبصار، وجُعل معهما مناط المسؤولية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

* * *

(١) روح المعاني: ١٠/٢٥٩.

الفصل الثالث
التصوير بالمجاز

المبحث الأول: المجاز اللغوي

المبحث الثاني: المجاز العقلي

توطئة

المجاز مطيَّة الذهن إلى آفاق جديدة، ومشاهد متناسقة لا تتأتَّى بالاستعمال الحقيقيّ. يفتِّح للفكر مجالات من التعبير رحبة يصول فيها ويجول. وكثيرًا ما تستعمله العرب، إذ هو «دليل الفصاحة ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللُّغات»(١).

وللكلمة في سياقها ملامحُ خاصة مستمَدَّة من عدَّة روافدَ منها المعنى الأصليُّ لمادتها في اللُّغة وأصواتها وصيغتها؛ فيُنظر إلى معناها الحقيقيّ أولًا لئلَّا تُصرَف عنه إلَّا بقرينة، لتتَّصل الكلمة بنسبها، ولا يُقطَع اعتلاقها برحمها(٢). ويدلُّ أصل المجاز على قطْع وتَعْدية، يُقال: جاز الموضعَ وأجازه إذا سار فيه وسلكه، والمجاز والمجازة: الطريق إذا قُطِع من أحد جانبيه إلى الآخر(٣)، ويرتبط المعنى الاصطلاحيُّ بهذا؛ فالكلمة فيه تخلُف معناها الأصليَّ إلى معنًى آخر. وعرَّفه القزوينيُّ بأنَّه: «الكلمة المستعملة في غير ما وُضعت له في اصطلاح التخاطُب على وجه يصحُّ، مع قرينة عدم إرادته»(٤). ويُعدُّ هذا التعريف أكمل التعريفات وأوضحها على إيجازه، وفيه ذكر القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصليّ؛ ليتميَّز المجاز عن الغلَط والكناية.

ومجاز القرآن جمانة في تاج البيان العربيِّ، وقف البلاغيُّون أمام إبداعه محلِّلين

---

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده: ١/ ٤٢٩.
(٢) ينظر: المثل السائر: ١/ ٧٩، وإشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز: ١٦ .
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: جوز: ٢١٣، ولسان العرب: ١ /٤٨٦، ٤٨٧، والقاموس المحيط: جاز: ٥٠٦ .
(٤) ينظر: التلخيص بشرح البرقوقي: ٢٩٤، وشرح التلخيص للبابرتي: ٥٤٧.

مؤصِّلين مُدافعين لافتين الأنظار إلى جماله وقيمته. فكانت البداية الجادَّة لابن قتيبة الذي عقد له فصلًا بدأه بالاستعارة[١]، وتوسَّع بعده الشريف الرضيُّ (ت٤٠٦هـ) فألَّف كتابه: تلخيص البيان في مجازات القرآن. فلهما بذلك قَصَب السبق إلى المجاز على أنهما توسعا في مفهومه[٢]؛ إذ لم تكن حدوده قد اتَّضحت بعد.

ويطالع المتصفِّح في أيٍّ من كتب البلاغة أنَّ الإجماع قد وقع على أنَّ المجاز أبدًا أبلغ من الحقيقة[٣]. ويعنُّ تساؤل عن المقصود بتلكم الأبلغيَّة، أمِن البلاغة هي أم من المبالغة؟ والحقّ أنّ معنى (البلاغة) هو أول ما يتبادر إلى الذهن من قولهم؛ «وذلك لأنَّ (أبلغ) اسم تفضيل، وإنما يشتقّ من الثلاثي، كما هو مذهب جمهور النحويِّين، فلا غرو أن تحمل (أبلغ) على (بلُغ) لا (بالغ)، هذا شيء، وشيء آخر وهو أنَّ (أبلغ) في عُرف أصحاب هذا الفنّ؛ من البلاغة لا من المبالغة، كما إذا قالوا: هذا التعبير أبلغ من ذاك، وقد يعطفون عليها (أفصح) تأكيدًا لمعنى البلاغة، كقول أبي هلال العسكريّ: (قوله عزَّ اسمه: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧] ليس في جميع القرآن أبلغ ولا أفصح منه)[٤]»[٥].

فلو كان قصدهم أنَّ اشتقاقها إنما هو من البلاغة، فكأنما يطوون كشحًا عما

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ١٣٥ .

(٢) جعل ابن قتيبة المجاز المرسل من الاستعارة، ويتضح ذلك من قوله: «فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاورًا لها، أو مشاكِلًا لها» تأويل مشكل القرآن: ١٣٥، ورجع الشريف الرضي معظم المجاز إلى الاستعارة.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ٧٠، ومفتاح العلوم: ٥٢٣، والإيضاح: ٣١٠، والطراز: ٦/٢.

(٤) كتاب الصناعتين: ٢٨٢.

(٥) إصلاح الإيضاح: ٥٢ (بحث مخطوط للدكتور عبد المحسن العسكر) .

قالوا في مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ الذي ينبغي استحضاره والنظر في مدى تحقُّقه لدى إثبات أبلغيَّة أسلوب ما - حقيقة كان أو مجازًا -؛ فهو قطب رحى البلاغة، وسرُّ إشراق بيانها، كما ورَّثونا.

لذا رأى بعض المعاصرين أنَّ حكم الأبلغيَّة هذا ليس له مسوِّغات مقنعة، فمع اشتمال المجاز على عناصر من الإيماء والتأثير لا تتوافر دائمًا في الحقيقة، إلَّا أنَّ كلتيهما وسيلتا تعبير لا تغني إحداهما عن الأخرى في تصوير المعنى، وإذا استمدَّ المجاز قيمته الفنِّيَّة من الخيال ووسائل الإيماء بالغة التأثير نحو تصوير المعقول في صورة المحسوس، فكذا الحقيقة تستمدُّ قيمتها من سهولتها وصدقها وحرارتها التي ربما تفتقر إليها بعض التعبيرات المجازيَّة، مما يجعل الحقيقة في موضعها وسيلةَ إيماء بالغةَ التأثير. فالتسليم بأنَّ البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال يقتضي ألَّا يُقبل حكم صارم يخالفها كهذا، وثمة أحوال كثيرة تقتضي الاعتماد على الحقيقة المجرَّدة. وحين يقتضي المقام من الأديب أن يقنع أو يناقش، فلن يغني المجاز شيئًا. كما أنَّ الحقيقة أصل والمجاز فرع عنها، ولا يُعدَل عن الأصل إلى الفرع إلَّا لفائدة. ولو كان أحدهما أبلغ من الآخر، لاقتصر كلام اللَّه - وهو أبلغ الكلام - على نمط واحد منهما، لكنَّا نجد الحقيقة والمجاز يتجاوران جنبًا إلى جنب في بيانه المعجِز، وكلّ منهما في موضعه أبلغ من الآخر[١]. فلا ينبغي أن يفضُل أحدُهما الآخَرَ إلَّا بمقدار ما يثير لدى المتلقِّي من إيحاءات.

ولعلّ أقرب ما يستشفُّ من كلام عبد القاهر[٢] ومَن تبعه، أنَّ المراد من

---

(١) ينظر: الصور البيانية بين النظرية والتطبيق: ٢٢٤، ٢٢٦، والمجاز في اللغة والقرآن: ٢/ ١٠٨٧، والبيان في ضوء أساليب القرآن: ٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) فقد ذكر أن الأبلغية لا تحمل زيادة في المعنى ذاته، بل زيادة في إثباته ليكون آكد وأشد، وهنا تحصل له المزية والمبالغة (ينظر: دلائل الإعجاز: ٧٢). وربما قصد بها سرعة الوصول حين =

مصطلح الأبلغيَّة معنى المبالغة لا البلاغة[١] - فعليه يمكن أن يقبَل الحكم؛ إذ لا خلاف في أنَّ المبالغة في المجاز وغيره من فنون البيان أظهر فالمعنى فيها يأتي مشفوعًا بدليله. وليتَهم دفعًا لذيَّاك اللبس استعملوا مصطلح: (أكثر مبالغة)[٢] أو بيَّنوا مرادهم بالأبلغيَّة.

لقد أخذ المجاز منزلته وتحدَّدت أصوله ومعالمه على يد عبد القاهر الذي أكَّد على الجانب الحيِّ النابض فيه، وسَبَر أغوارَه شرحًا وتطبيقًا؛ فقسمه إلى قسمين: لغويّ وعقليّ[٣]، وفرَّق بينهما، وحدَّد العلاقة بين المجاز والاستعارة؛ ف «كلّ استعارة مجاز، وليس كلُّ مجاز استعارة»[٤]؛ إذ قصَر الاستعارة على ما نقْلُه نقْل تشبيه للمبالغة. وتعجَّب ممن أدخل فيها ما كان للمُلابَسَة[٥].

وفيما يلي تفصيل أقسام المجاز:

المجاز اللُّغَويّ:

مضماره الكلمة المفردة وعلاقتها بمعناها الحقيقيّ مشابهَة أو ملابَسَة. عرَّفه السكَّاكيُّ بقوله: «هو أن تعدِّي الكلمة عن مفهومها الأصليِّ بمعونة القرينة إلى غيره؛ لملاحَظة بينهما ونوع تعلُّق»[٦]، وهو ضربان فإن كانت العلاقة بين المعنى

= قال: «ولا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظَه، ولفظُه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك... فهذا مما لا يشكّ عاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لا يتصوَّر أن يراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة » الدلائل: ٢٦٧ .

(١) ينظر: المجاز في اللغة والقرآن: ٢/ ١٠٨٧ .

(٢) ينظر: إصلاح الإيضاح: ٥٢.

(٣) ينظر: أسرار البلاغة: ٣٧٣- ٣٧٩.

(٤) السابق: ٣٩٨.

(٥) ينظر: نفسه: ٤٠٠، ٤٠١.

(٦) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٧٣.

الأصليِّ والمجازيِّ مشابَهة سُمِّي استعارة، وإلَّا فمجازًا مرسَلًا[١].

١- الاستعارة:

تقوم الاستعارة على الرَّبط بين عناصر متباعِدة بقوَّة الخيال مع استغلال الإمكانات اللُّغويَّة الثرَّة لخدمة الأفكار والانفعالات، ووسْمها بالخصوصيَّة والتميُّز[٢].

ويدلُّ الأصل اللُّغويُّ للاستعارة على مجيء وذَهاب. يُقال استعارَ الرجل سهمًا من كِنانته أي: رفعه وحوَّله منها إلى يده[٣]. والعاريَّة طلب شيء للانتفاع به زمنًا، ثُمَّ ردّه دون مقابل، ولا تكون إلَّا من اثنين بينهما عَلاقة. ومن هذه المعاني أُخذت استعارة الألفاظ[٤]، فعُرِّفت اصطلاحًا بأنها «اللفظ المستعمَل في غير ما وُضع له؛ لعلاقة المشابَهة بين المعنى الأصليّ الذي نُقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصليّ»[٥].

واختصاصها بعلاقة التشبيه يدعم آصرة القربى بينهما، فهو أصل والاستعارة كالفرع منه؛ فيه يحتفظ كلٌّ من المشبَّه والمشبَّه به بصورته، تربط بينهما أداة ظاهرة أو مقدَّرة، أمَّا في الاستعارة فتسقط الأداة ويُدمَج الأصليُّ بالمستعار، إذ مِلاكها تقريب الشَّبَه والامتزاج بين الطرفين[٦]. فليست كسوة ظاهرة ينهض بها اللفظ، لكنَّها رؤية قلبيَّة وإدراك روحيٌّ تتداخل فيه الأشياء وتتَّحد، وهذا هو مناط الفرق

---

(١) التلخيص بشرح البرقوقي: ٢٩٤، ٢٩٥ .
(٢) ينظر: مفهوم الخيال: ٣٣٣ .
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: عير: ٦٩٦، ولسان العرب: ٤/ ٤٧٦ .
(٤) ينظر: أسرار البلاغة: ٣٢٤، والمثل السائر: ١/ ٢٤٧، والطراز: ١/ ١٠٤.
(٥) القرآن والصورة البيانية: ١٩٣، وينظر: علوم البلاغة: ٢٣٩ .
(٦) ينظر: الوساطة: ٤١، والعمدة: ١/ ٤٣٧، ومفتاح العلوم: ٤٧٨، وجوهر الكنز: ٦٠.

بينها وبين التشبيه[١]، ولا بُدَّ لكلِّ استعارة ومجاز عمومًا من حقيقة هي أصل الدّلالة على المعنى في اللُّغة، ولابُدَّ أيضًا من معنًى مُشترَك بين المستعار والمستعار منه.

وقد أبان عبدُ القاهر عن اتِّساع فنون الاستعارة والطاقات البيانيَّة التي تتميَّز بها، فلا تقتصر مهمَّتها على نقل اللفظ إلى معنًى آخر، إنما «هي أمدُّ مَيدانًا وأشدُّ افتنانًا، وأكثرُ جَرَيانًا وأعجبُ حُسنًا وإحسانًا، وأوسع سعة وأبعد غورًا. . . من أن تُجمَع شُعبُها وشعوبها، وتُحصَر فنونها وضروبها»[٢]، فهي تُضفي على المعنى قوَّة ووضوحًا وتزيده ألَقًا، وتتفتَّق عن دلالات طريفة تُعطي المعنى انطباعًا خاصًّا؛ إذ تُبرِز البيان في صورة مستجِدَّة تزيد قدرَه نُبلًا، وتوجِب له بعد الفضل فضلًا. ومن خصائصها إعطاء كثير معانٍ بيسير لفظ، لتُخرِج من الصدف أفانين الدُّرر، وتجني من الغصن ألوان الثمر. فيُرى بها الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخُرس مُبِينة، والمعاني الخفيَّة بادية جليَّة. كما تجسِّم المعاني الخفيَّة حتى تراها العيون، وتلطِّف الأوصافَ الجسمانيّة حتى تعود روحانيّة، لا تنالها إلا الظُّنون[٣].

فليست الاستعارة حركة في ألفاظ فُرِّغت من معانيها، ولا تلاعُبًا بالكلمات، إنمَّا هي إحساس وجدانيٌّ عميق يُبدِع واقعًا جديدًا بَنَتْه كلماتٍ اكتسبت عُمقًا دلاليًّا من عشرات الصياغات التي استُعملت فيها، فتولَّدت عنها معانٍ جديدة أتحفت الرَّصيد اللُّغويَّ الثرَّ[٤].

---

(١) التصوير البياني للدكتور أبي موسى: ١٩٧.
(٢) أسرار البلاغة: ٤٢.
(٣) ينظر: السابق: ٤٢، ٤٣.
(٤) ينظر: التصوير الشعري: ١٢٧، ١٣٢.

وتتسنَّم الاستعارة القرآنيّة ذروة الوضوح والبلاغة والإيجاز بين الاستعارات، فالمناسبة بين طرفيها ظاهرة قويَّة، وألفاظها مُنتقاة مُوحية مُؤتلِفة تجعل القارىء يحسُّ بالمعنى أتمَّ إحساس، إذ تصوِّر المنظر للعين، وتنقل الصوت للأذن، وتجعل المعنويَّ ملموسًا محسًّا[١]. كما تمتاز بالحياة والتجدُّد بخلاف غيرها من الاستعارات التي تُولَد «ويذهب الزمن بطراءتها وتشيخ ثُمَّ تموت؛ فتفقد قدرتها على الاستثارة، ويتمُّ تمثُّلها في اللُّغة فيما يمكن تسميته الاستعارات الميتة أو الذابلة»[٢]، بينما تتألَّق الاستعارة القرآنيَّة برموزها الفنِّيَّة الخصبة. وتُعنى بتصوير الحالات النفسيَّة باقتطاف جوهر خصائص الظاهرة الخارجيَّة، وإشباع صفاتها المخصوصة بالقِيَم النفسيَّة[٣]لتنتِج عنها صورًا إيحائيَّة مدهشة تضيء دلالات غير متوقَّعة.

٢- المجاز المرسَل:

يأتي مقابِلًا لما قُيِّد بعَلاقة المشابَهة - أي الاستعارة -، والإرسال لغة: الإطلاق والامتداد. وأرسله أي أطلقه[٤]؛ لذا سُمِّي هذا النوع مرسَلًا[٥]، فهو حرٌّ مطلَق من التقييد بعلاقة مخصوصة، أو هو مرسَل عن دعوى الاتحاد بين المستعار منه والمستعار له، وقد عرَّفه صاحب الإيضاح قائلًا: «هو ما كانت العلاقة بين ما استُعمل فيه، وما وضع له مُلابَسة غير التشبيه»[٦].

---

(١) ينظر: من بلاغة القرآن: ٢١٧ ، والاستعارة لشيخون: ٩٢، ٩٩.
(٢) التصوير الشعري: ١٣٣.
(٣) ينظر على سبيل المثال ربط القلوب في هذا الفصل ص١٨٠، ١٨١.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: رسل: ٣٨٢، ولسان العرب: ٣/ ٧٢.
(٥) أول من أطلق عليه هذه التسمية السكاكي (ينظر: مفتاح العلوم: ٥٢٥) مستهديًا بالإشارات التي خطها عبد القاهر في هذا الطريق حين عاب من أدخل في الاستعارة ما ليس منها قائلًا: «إلا أنه لا يعتد بمثل هذا؛ فإن ذلك قد يتفق حيث تُرسَل العبارة » (أسرار البلاغة: ٤٠٢) .
(٦) الإيضاح: ٢٥٤.

وبعض ما يُقال في الاستعارة يصدُق على المجاز المرسَل، كيف لا وهما جناحا المجاز اللغويّ؟ وتكمن بلاغة المرسَل في إضافة صور تنتقل عبر دلالة اللفظ الأصليَّة إلى دلالات أكثر غَناء واتِّساعًا، وأبعد أفُقًا وأدعى إلى التأمُّل، يلمِح إليها اللَّفظ في سياقه تعضُده قرينة تسهِم في تكوين جوٍّ تنمُّ ألفاظه عن معانيه(١). ويعتمد المجاز المرسَل على الخيال وقوَّة التذكُّر والقدرة على نبش المعاني، واستدعائها لصياغة صور طريفة مثيرة ينبني عليها اكتشاف علاقات جديدة تصل الألفاظ بمعانٍ جديدة تُفصِح عنها سياقاتها.

والحقُّ أنَّ علاقاته بلغت من الكثرة والوفرة والتشعُّب -خاصَّة عند المتأخِّرين- بحيث قد تخرج عن دائرة الذائقة الفطريَّة إلى ولوع بالتخريجات المضنية دون حاجة بلاغيَّة. فقد بلغت عند الزركشيّ - مثلًا - ستًّا وعشرين عَلاقة(٢). ولعلَّ هذه التقسيمات وأمثالها مما أضرَّ بالبلاغة وأفقدها جمالها وأصالتها؛ إذ ولَّت وجوه الباحثين شطر التقعيد والفلسفة والاستدلالات العقليَّة المنطقيَّة، ضاربين صفحًا عن تحكيم الذوق الأدبيِّ والحاسَّة الفنيَّة.

لقد استطاع المجاز القرآنيُّ بإبداعه وأصالته ووجازته «أن ينقُل الذهن العربيَّ إلى أُفق جديد، متميِّز بالابتكار، ويمدُّه بحياة لُغويَّة ثانويَّة متَّسمة بالشُّموليَّة والإبداع»(٣).

المجاز العقليّ:

مضماره الجمل في التأليف والإسناد والإثبات عن طريق المعنى والمعقول،

(١) ينظر: مجاز القرآن للصغير: ١٤١، والمجاز المرسل والكناية الأبعاد المعرفية والجمالية: ١٠٣.
(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/٢٥٩-٢٩٨.
(٣) مجاز القرآن للصغير: ١٤١.

وقد انقسم البلاغيُّون فيه إلى قسمين: فمنهم من بحثه في علم المعاني بالنظر إلى الإسناد، وعلى هذا جرى الخطيب وأتباعه[١]، ومنهم من بحثه في الدّلالة وأدخله في علم البيان[٢]. وعرَّفه القزوينيُّ بأنَّه «إسناد الفعل أو معناه إلى مُلابِس له غير ما هو له بتأويل»[٣]، ولابُدَّ من قرينة تصرفه عن إرادة الظاهر كما في سائر أنواع المجاز. وله قُدرة على «استيحاء التلازُم الذهنيِّ بين الأصل وهو على طبيعته لم يُنقَل منها وبين الفرع الذي هو المجاز؛ في إدراكه من خلال الترابط البيانيِّ لدى الانتقال من معنى إلى معنى جديد بحكم الإسناد»[٤].

وتظهر قيمته في أنَّه روابطُ ذهنيَّة تصِل بين طرفي الإسناد، وتعقد بينهما علاقات فكريَّة تسمح للذكيِّ اللمَّاح بأن يُدرِكَ أصلَ الإسناد الحقيقيِّ في اصطلاح التخاطُب، والسرَّ البلاغيَّ الذي يستتبع العدول عنه إلى إسناد مجازيّ.

وسيكون تصنيف الآيات في هذا الفصل - بإذن اللَّه - على ضوء أقسام المجاز مع تأمُّل سياقاتها، والعناية بالعناصر الموجِّهة لفَهم نصوصها، ومعايشتها واستشفاف أسرارها، والوقوف من ثَمَّ على قُدرة المجاز وطاقاته الإيحائيَّة، التي تتجلَّى في تضافر الأصوات مع الألفاظ والمعاني، وإبراز آثارها الفاعلة في تصوير الأبعاد النفسيَّة، وفقًا للمنهج التذوُّقيِّ في تقدير الجمال مع البُعد عن الطابَع التقعيديِّ بتقسيماته العقيم، وأساليبه المنطقيَّة؛ إذ بتتبُّعها تنحية للذوق الأدبيِّ في الحكم على الصورة، وحجْبٌ لجمالها.

* * *

(١) ينظر: الإيضاح: ٢٨، والتلخيص بشرح البرقوقي: ٤٥، ٤٦. وذكر البابرتي في شرحه للتلخيص أن إدخاله في البيان أولى: ١٨٠.
(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٦٦.
(٣) الإيضاح: ٢٨.
(٤) مجاز القرآن للصغير: ١٣٣.

المبحث الأول
المَجاز اللُّغويّ

الاستعارة:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

تشير هذه الآية إلى قصَّة قوم من السابقين فرُّوا من طاعون، أو عدوٍّ دُعوا لقتاله متشبِّثين بالحياة؛ فأماتهم اللَّه مِيتة رجل واحد من غير علَّة، ثُمَّ أحياهم لطفًا منه ورحمة، في آية بيِّنة وعبرة فريدة وتذكِرة لكلِّ غافل؛ أنَّ الحذَر لا يُنجي من القدَر، وما الموت والحياة إلا للَّه، فأن يكونا في سبيله أَولى[١]. وقد جاءت القصَّة بين يدي أمر بالجهاد ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٤] لتصحيح التصوُّر عن الموت والحياة بطريق استعارة تمثيليَّة شُبِّهت فيها حال الخائفين من قتال دُعوا إليه بحال الفارِّين من ديارهم لوباء أو قتال، بجامع الخوف والهلَع في كلٍّ[٢]؛ فالفرار من لقاء الأعداء لا يُنجي أحدًا من قضاء حلَّ بساحته، ولا يدفع عنه أسباب مَنِيَّته كما لم ينفع أولئك الهاربين.

وقفة مع الجمال الفنِّيِّ وما يحمله من بلاغة وإيحاءات تربويَّة إيمانيَّة:

- ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: استئناف ابتدائيّ قُدِّم له بالاستفهام للتقرير والتعجُّب والتعجيب

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٤/ ٤١٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٩٩، وأنوار التنزيل: ١/ ٥٤١، وتيسير الكريم الرحمن: ١٠٦.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/ ٤٥٦.
(٣) ينظر: قطف الأزهار: ١/ ٤٨٩.

والتشويق[١]، وفيه تذكير بأنَّ الجبان قد يلقى حتفه في مظنَّة نجاة. وقد وقع الدليل: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ قبل المستدَل عليه ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توطئة له وتشويقًا، وعناية بالحجَّة قبل ذكر الدَّعوى، أو حمْلًا على التعجيل بالامتثال[٢].

- عُبِّر عن القوم بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للدلالة على أنَّ القِصَّة مشهورة كمَثَل سائر.

- بيَّن الفعل المجرَّد ﴿خَرَجُواْ﴾ أنَّ خروجهم كان بتدبير مِن أنفسهم قبل مواجهة خطر قادم اضطرَّهم للفرار. وفي تعليق الخروج بالدِّيار، وإضافتها إلى الضمير العائد إلى من ضُرب بهم المثل ﴿دِيَـٰرِهِمْ﴾ إشارة لطيفة إلى أنَّ حبَّهم للحياة غلب ما سواه؛ فأرغمهم ترك ما أَلِفوا وأحبُّوا.

- أضافت الجملة الحاليَّة ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ معنى التعجيب من خوفهم على كثرتهم؛ فالعرب تقول للجيش الكثير: لا يُغلَب مِن قِلَّة[٣].

- براعة الانتقال من مشهد الحياة والحركة المتمثِّلة في خروج آلاف تحذر الموت وتضطرب ذعرًا؛ إلى مشهد الموت المطبِق المباغِت؛ فبكلمة واحدة ﴿مُوتُواْ﴾ ذهب كلُّ هذا الحذر، وكلُّ ذاك التجمُّع هباء ليُلقي في الحسِّ عبَث المحاولة وضلالة المنهج، كما يُلقِي صرامة القضاء وسُرعة الفصْل عند اللَّه[٤].

- اصطُفيت الفاء التي تُفيد الترتيب بلا مُهلة[٥]، لتعمِّق معنى السرعة وتضيف

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/ ٤٥٣، ٤٥٤، وتفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) لابن عثيمين: ٣/ ١٩٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/ ٤٥٥ .

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ١/ ٣٨٨.

(٤) ينظر: معاني الحروف للرماني: ٤٣.

معنى الطواعية المطلَقة، والمسابَقة إلى الانصياع لأمر الجبّار ﷻ ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ «أي: قال لهم قولًا كونيًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس:٨٢] »[١]، فماتوا مِيتة رجل واحد من غير علّة! وهذا أبلغ في الاعتبار.

- في السياق إيجاز حذف؛ إذ التقدير: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾، ويَرِدُ هذا الحذف كثيرًا في القصص القرآنيّ[٢]، وفيه إشارة إلى بدَهيّة الحصول، واستحالة تخلُّف مراد اللّه ﷻ عن إرادته الكونيّة[٣]، وإتاحة فرصة للخيال؛ يمضي متأملًا ما يحدِثه هذا القول الكونيّ المباغِت الرهيب، وما يعقبه من استسلام للمصير المحتوم، ليتملّى الفجوة الكبيرة بينهما التي أوثر التعبير بعدها بحرف التراخي والمهْلة[٤] للدّلالة على عظيم القُدرة ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾؛ فبعد أن طمَست أصابع الموت معالم الحياة في تلك الأجساد؛ إذ بها بقوّة المحيي القدير ﷻ تعود بسهولة إلى الحياة. مما يجعل تالي هذا البيان المعجز يهتف باليقين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

ونقف هنا مع الفاء و﴿ثُمَّ﴾ لكشف دواعي تبايُنهما في الدّلالة، وفيض الإحساس الذي يوحي به جرس كلٍّ منهما؛ فينعكس على مرآة الزمن. الفاء حرف واحد يمرُّ بظاهر الشفَة همسًا، ليمرَّ بسرعة صوته كلُّ ما عبَّر عنه من أحداث، و﴿ثُمَّ﴾ لفظ من أحرف ثلاث أثقَلَ التضعيف حركته على اللِّسان؛ فدلَّ على تباطؤ الأحداث، وتثاقُل خُطوات الزمن. يا لها من لغة شاعرة حقيقة بأن تكون

(١) تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) لابن عثيمين: ٣/ ١٩٥.
(٢) ينظر: التصوير الفني: ١٨٧، ١٨٨، ونظرات تحليلية في القصة القرآنية: ٣٩، ١٧٠.
(٣) ينظر: روح المعاني: ١/ ٥٥٣.
(٤) ينظر: معاني الحروف للرماني: ١٠٥.
(٥) ينظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: ١٠.

لغة الكتاب المعجز![(١)]

- تبرز بلاغة القرآن في ذكر القِصَّة دون خوض في تفصيلاتِ الذين خرجوا: مَن هم؟ وفي أيِّ زمان؟ وفي أيِّ مكان؟ كيف قال لهم اللَّه موتوا؟ فكلُّ ذلك مطويٌّ، إنَّما هي عبرة وعظة يُراد مغزاها، وذلك التحديد لن يزيد شيئًا في العبرة التي انطوت عليها[(٢)].

يقرِّر القرآن حقيقة الموت في غير آية، وبطرق متنوِّعة تتنافس في تقريب المعنى وتأكيده؛ فليس أثر دقَّة على مِسمار كدقَّتين، ولا رشْفة ماءٍ على قلبٍ صادٍ كرشْفتين. قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

بهذه اللمسةِ يُعالَج كلُّ هاجسِ خوفٍ ينشئه تصوُّرٌ مضطربٌ يفُتُّ في عضُد الإنسان فيقعِدُه عن القتال، فللموت أجلٌ مسمًّى لا عَلاقة له بحرب وسِلم، أو حصانة مكان أو اتخاذ تدابير مظنَّة النجاة[(٣)]؛ فمن لم يمُت بضربة سيف أو طعنة رُمح مات حتْف أنفه.

وقفة مع بلاغة الصورة:

- شُبِّه الموت بكائن ذي قوَّة وبطش، يجِدُّ في البحث عمَّن حانت ساعته ليصطادَه أينما كان، ومهما تمنَّع أو اعتلى البروج القويَّة[(٤)]. واستُعير الإدراك؛ أي: اللّحاق للموت بطريق الاستعارة بالكناية.

- يدلُّ أصل ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ على رفْع، شاد البناء يُشِيده شَيْدًا فهو مَشِيد؛ أي: مبنيٌّ

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١/ ٣٨٦.

(٢) ينظر: فتح القدير: ١/ ٦٣٧، وفي ظلال القرآن: ٢/ ٤٥٧.

(٣) ذكر بعض المفسرين أن المقصود بالبروج أبراج السماء، لكن وصفها بـ ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ يرجح كونها أبنية محكمة مرتفعة في الأرض، فكل ذكر للبروج في القرآن معناه أبراج السماء ماعدا هذا الموضع فإنها القصور الطوال الحصينة المرتفعة (ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٠٥).

بالشِّيْد، وهو ما طُلي به الحائط من جِصٍّ أو بلاط، ومُشيَّد محكَم ومرتفع[١].
وهكذا أدَّى لفظ ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ معناه بمبناه وجرسه، فأداء الياء مع التشديد يُشعِر بقوَّة، تسندها الدَّال الشديدة المجهورة.

- يغرس الإطناب ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ في الألباب حقيقة لا مِراء فيها، ويبعث في القلوب جرأة على مُلاقاة الموت بإقدام[٢]، واستعدادًا لخوضه في سبيل اللَّه بثبات، فلا يعود الهرب دأبها في كلِّ خوف كحال مَن تصوِّرهم الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٢].

قوم ظَلَمة عتَوا عن أمر اللَّه؛ فأنزل بهم بأسًا لا يُرَد عن أمثالهم، فما كان منهم وقد جاءتهم مقدماته ونذُره إلَّا أن فرُّوا من قُراهم منهزمين.

ولنتأمل تآزر الألفاظ في نقل الصورة:

- في ﴿أَحَسُّواْ﴾ استعارة تبعيَّة شُبِّه فيها إدراكهم شِدَّة العذاب بإدراك المحسوس في قُوَّة اليقين[٣]، فأُطلق اسم الإحساس، واشتُقَّ منه ﴿أَحَسُّواْ﴾، وفي هذه الاستعارة ما يدلُّ على شِدَّة العذاب وتنوُّعه مابين رؤية ما يزعجهم مِن مقدماته إلى سماع أصوات مؤذِنة بالهلاك كالصواعق والرياح[٤].

- تبرز الفصاحة في انتقاء لفظ (بأس) لما أصابهم؛ فأصله يدلُّ على الشِّدَّة، ويُطلَق على العذاب الشديد[٥]، وتزيد إضافته إلى ضمير العظَمة من تهويله. ويدلُّ جرسه على القوَّة؛ فالباء حرف مجهور شديد مقلقل، يخرج بانطباق

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: شيد: ٥٢٣، ولسان العرب: ٣/ ٥٠٠.
(٢) من لطائف التفسير: ١/ ٢٣٠.
(٣) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٦/ ١١، وحاشية القونوي: ١٢/ ٤٢٣.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧/ ٢٠.
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة: بأس: ١٤٨، لسان العرب: ١/ ١٥٥.

الشفتين كانطباق العذاب عليهم، يليه الهمز بصوت انفجاريٍّ شديد، فإذا هم من قوَّته يسرعون الهرب من القرية مضطربين فزعين ظانِّين فرارَهم منجاة من العذاب، وهذا مسلك الخائف لا تفكير ولا شعور!

- أتى حرف المفاجأة ﴿إِذَا﴾ في جواب (لمَّا) قاطعًا الاسترسال بانتقال يفجأ الذهن بجواب طريف ساخر ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾.

- يدلُّ أصل الركْض على حركة إلى قُدُم أو تحريك. وارتكض الشيء اضطرب، يُقال: رَكَض الرجل دابته يركُضُها ركْضًا: إذا ضربها برجله لتتقدَّم. ومِن المجاز رَكَضَتِ الدابة إذا عَدَت، ورَكَضَ الرجل، أي: ضرب الأرض برجلِه[١].

وقد حلَّل محيي الدِّين شيخ زاده (ت٩٥١هـ) هذه الصورة مجوِّزًا «أن يكونوا ركبوا دوابَّهم يركُضُونها هاربين منهزمين من قريتهم لمَّا أدركتهم مقدّمة العذاب، ويجوز أن يشبَّهوا في سرعة عدوهم بالراكبين الراكضين لدوابِّهم»[٢]؛ بجامع فرط الإسراع على سبيل الاستعارة التبعيَّة[٣]. ولعلَّ في إجرائها على المكنيَّة بلاغة من جهة أخرى ربما تجسِّد الخوف أكثر حين يُشبَّهون بالدوابِّ بجامع الفرار وسرعة العدو دون تفكير، فكأنَّ الخوف من العذاب يركبهم فيركُضُهم بقوته. وأتى المضارع ﴿يَرْكُضُونَ﴾ لاستحضار صورة حركتهم، وهم يحاولون الفرار مما يحيق بهم[٤]. كيف صوَّرت لهم تفاهة عقولهم أنَّ في العدْوِ إفلاتًا من قبضة الجبَّار ﷻ ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ركض: ٤٠٠، ولسان العرب: ٣/ ١١٤، وأساس البلاغة: ١٧٦، وغريب القرآن للسجستاني: ٥١٥.
(٢) حاشية شيخ زاده: ٦/ ١١، وينظر: إرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٢٧.
(٣) ينظر: عناية القاضي: ٦/ ٤٢٣، وحاشية القونوي: ١٢/ ٤٨٥، وروح المعاني: ٩/ ١٦.
(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٥/ ٥٢١، ٥٢٢.

في هذه الاستعارة لفتة موحية تبثُّ في الأخلاد حقيقة منسيَّة مع ما لها من أهميَّة، وحقُّها أنْ تستقرَّ في نفوس حمَلة أمانة اللَّه في الأرض راسمةً لهم نهجًا واضحًا[١]؛ إنَّ الموت الذي تخافونه وتجتنبون كلَّ سُبله، آتيكم حتمًا إذا استوفيتم آجالكم ولا مناص. وحقيقة الفرار غيرُ متصوَّرة لذا أتت في صورةٍ متحرِّكة أبرزتها الاستعارة المكنيَّة حيث شخَّصت الموت في صورة كائن قويٍّ مرعب لا تُبارى قوته يُسرع اللَّحاق بضعفاء خائفين يهربون منه بكلِّ ما أوتوا من قوَّة، لكن. . إليه!! فهو ليس كغيره من الأخطار التي يكون الهرب منجاة منها. وهذا أبلغ دليل على انعدام جدوى الهرب، وضرورة الاستعداد للمواجهة[٢].

ويتجلَّى جمال نظم هذه الاستعارة فيما يلي:

- ربط الفرار بالملاقاة ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾؛ إذ نشأ منهما حركة خاصَّة تقوم على معنًى سببيٍّ بديع[٣].

- توكيد المعنى بـ ﴿إِنَّ﴾، وتكرارها يدعم معنًى من شأن الإنسان الغفلة عنه.

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٨/ ٩٢.

(٢) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٨/ ٢١٤، وروح المعاني: ١٤/ ٢٩١.

(٣) جوَّز الرماني في الفاء هنا الزيادة، وذكر أنَّ هذا هو الظاهر حيث إنَّ الموت سيلاقيهم، فروا منه أو لم يفروا، وجوز كذلك فيها الجزاء بأن يكون في الكلام معنى الشرط؛ فكأنهم ظنوا أنَّ الفرار من الموت ينجيهم (ينظر: معاني الحروف: ٤٥) ولعلَّ الأخير أقرب؛ وهو ما ملت إليه في تحليل الصورة؛ إذ ترتسم به صورة بديعة للخوف. وقد وجدتُ د.هيفاء فدا قد سبقتني إلى ذلك وردَّت على من قال بزيادة الفاء، بأنَّ هذا القول خلاف الأصل، ولا سند له ولا داعي للجوء إليه؛ لوجود مسوغات نحوية يخرَّج بها الحرف على الأصالة، واختارت أن تكون الفاء جزائية واقعة في خبر الاسم الموصول الذي يعامل معاملة الشرط، ومعناها التعقيب؛ فملاقاة الموت لهم تأتي عقيب فرارهم منه، وفي ذلك إيذان بسرعة الملاقاة، وأنه لا جدوى من فرارهم، فلقاؤهم بالموت حتمي. وبجانب ذلك فهي تفيد السببية من حيث إنَّ الفرار الذي توقعوه سببًا لنجاتهم من الموت، كان سببًا لملاقاته! (ينظر: زيادة الحروف بين التأييد والمنع: ٥٧١).

أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب: ١٦].

لقد شخَّصت الصور السابقة حال الموت مع البشر سبَّاقًا جبَّارًا لايني أو يفتُر في ليل أو نهار! وارتبطت ألفاظ الحذر والركض والفرار والملاقاة والإدراك بالموت بؤرة تيك المشاهد؛ لتدلَّ على حقيقته الفعليَّة التي لا ينبغي الغفلة عنها. أوَكان المعنى باقيًا على جماله ودِقَّته لو جاء السياق على غير سبيل التصوير فقيل مثلًا: إنَّ الموت سيأتيكم في أجله المحدَّد؟

وتبدو صور الخوف واضحة عند التقائها مع الأمن في سياق واحد يبعث في نفوس ذوي الألباب أحاسيسَ عميقةً بالامتنان لمن آمنهم من خوف، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦]. يذكِّر المهاجرين بأيام ضَعف وقهر مرَّت عليهم بمكة، كانوا فيها قلَّة مُستضعَفة مضطَهدة، يخافون بطش قريش، فنقلهم من بيده مقاليد السموات والأرض ﷻ إلى حياة عزيزة تشرق أمنًا ونصرًا في المدينة النبويَّة، انهالت فيها نعمه ﷿ يسبغها عليهم من حيث لم يحتسبوا[١].

ولنتوقف برهة مع بلاغة النَّظم في تصوير الأمن والخوف:

- جاءت الجملة الاسميَّة ﴿أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ «للدّلالة على ثبات وصف القِلَّة والاستضعاف فيهم»[٢].

- تلاها التعبير باسم المفعول ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ وفي إطلاقه دلالة على ضَعف

(١) ينظر: جامع البيان: ١١/ ١١٩، ١٢٠، والمحرر الوجيز: ٢/ ٥١٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٥٧٦.
(٢) التحرير والتنوير: ٩/ ٧٣.

شديد يعلمه عدوُّهم[١]؛ فيطمع فيهم حيث ثقفهم، وقد تولَّد عندهم ذانك العجز والخوف لقلَّتهم.

- ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ أصل التخطُّف من الخطْف وهو أخْذ وانتزاع في سُرعة وخِفَّة، ومنه قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١] - نسأل اللَّه السلامة- يقال: خَطِف يَخْطَف خَطْفًا والخَطْفة هي ما انتزعه الذئب من أعضاء الشاة وهي حيَّة، والخُطَّاف طائر يخْطَف الشيء بمخلبه، وخطاطيف الأسد براثنه[٢]. والتخطُّف شدَّة الخطْف وتكراره[٣]، وفي تشديده إيحاء بالغلَبَة التي تجعل المتخطَّف لُقَمًا سائغة تتردَّدُ في يدِ عدوٍّ مجهول يفوقه قُوَّة وعدَّة وعَتادًا.

- أوثر التعبير بالمضارع ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ عن حالة مضت وولَّى زمنها؛ لاستحضارها في الذِّهن مع الإشارة إلى تجدُّدها بما تصوِّره مِن ترقُّبٍ وَجِل لمشهد مُفزِع؛ تستبق فيه أيدٍ قويَّة شرسة للنيل من قلَّة مُستضعَفة، كما تتخطَّف الجوارح الصَّيود طرائدها[٤]؛ شُبِّه فيه الاعتداء على القِلَّة المسلمة بالتخطُّف، ثم اشتُقَّ منه الفعل﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ على الاستعارة التبعيَّة.

- أتت بعده الفاء العاطفة دالَّةً على التعقيب ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ لتدلَّ على معنى السرعة. سبحان مغيِّر الأحوال! سرعان ما تبدَّل حالهم بقوَّة اللَّه ورحمته أمنًا وغَلَبة ونصرًا ورزقًا طيِّبًا في حِمى الكريم ﷻ؛ ليشكروا المحسن القادر على إعادتهم إلى سابق عهدهم.

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٣/ ٢٠٦.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: خطف: ٣٠٤، ولسان العرب: ٢/ ٢٧٩.
(٣) ينظر: العذب النمير: ٤/ ١٨٨٧.
(٤) ينظر: نظم الدرر: ٣/ ٢٠٦.

- عُبِّر عن الحالة الجديدة الآمنة بالماضي ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم. . . وَرَزَقَكُم﴾ لاستثارة تلك التجربة بمعطياتها من زاوية بعيدة في مقام العبرة والتذكير، فقد جعلتهم كمَن لم يرَ في حياته شقاء قطّ. لقد قيَّض لهم المدينة النبويَّة مأوى يأمنون فيه بعد خوفهم وتخطُّف الناس لهم، وتتابعت عليهم الهبات الإلهيَّة تأييدًا ورزقًا.

- لم تحدِّد الآية مكانًا ولا زمانًا، فعُبِّر فيها بـ ﴿إِذَا﴾ الظرفيَّة التي «تقع على الأزمنة الماضية كلّها مُبهَمة فيها لا اختصاص لها ببعضها دون بعض»[1]، ووافق إطلاقها حال مَنْ استُضعِفوا حيث ثُقِفوا، ثُمَّ جاءهم تأييدُ اللَّه ونصرُه في مواقعَ عدَّة، وثمة لطيفة أخرى في التعميم تجعل الحالة منطبِقة على كلّ من أنعم اللَّه عليه بعد شِدَّة؛ إذ تنطوي على التنبيه على استحضار نعم اللَّه وأداء شكرها، والاستجابة لدعوة الحقّ والثبات عليها. وهذا يصدُق على المسلمين في كلّ عصر، فلم تزَل أمتهم منصورة عزيزة منيعة ما شكروا وأخذوا بأسباب العزِّ، ولا سبيل لهم إلى النَّصر ما غفلوا وتنازعوا.

- اجتمعت حالتا الأمن والخوف في سياق واحد، بيْد أنَّ البُعد المعنويَّ بينهما يستغرق من الخيال مدًى بعيدًا في تصوُّر تعاقبِهما، وما ينطوي عليه من دلالة على القُدرة، وتذكير بعظيم المنَّة في سرعة تغيُّر الحالة. أوَلم يكن المؤمنون خائفين في مكة؟ وأيام الهجرة؟ ثُمَّ يوم بدر؟ بلى، ثُمَّ أذاقهم اللَّه نعمة الأمن من بعد نصر بدر المؤزَّر.

- يوحي ذكر الإيواء بعد ضعف وتخطُّفٍ بالاستقرار والسكون وقت الحاجة إليهما. فتبرز حالة الأمن بما تحمل من عطاء ربانيٍّ غير مجذوذ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم. . . وَرَزَقَكُم﴾، فتضفي على الصورة أبعادًا وظلالًا بديعة، تتواتر فيها منح

(١) شرح المفصل: ٣/ ٩٥.

إلهيَّة عظيمة تنقذهم من تلك الوهدة السحيقة، وتمحو أيَّ أثر لذيَّاك الضَّعف.

- يُشعِر تَكرار ضمير المخاطبين، وتعليق التأييد بنصر اللّه، وتقييد الرزق بالطيِّبات بمزيد تكريم يحظى به أهل التقوى، فلو قيل: آواكم وأيد ورزق، ما تحقَّق المعنى الذي أبرزه النَّظم الكريم.

- خُتِمت تلكم الصورة البديعة بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وكيف لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القويَّة الغنيَّة من تأمَّل نقلة رفيعة كهذه؟ ألن يشكر المنَّان على إيوائه ونصره وآلائه، وهذا المشهد وذاك معروضان عليه؛ لكلٍّ منهما سماته وإيحاءاته؟ وأيّ علاج للنفس الإنسانيَّة أنجع من هذا الذي يستأصل شأفة الخوف ليغرس في النفس أمنًا وإيمانًا، ويسمو بها عمَّا يخيفها فتحيا الحياة الحقَّة؟

ومما قوبل فيه بين حالتي أمن وخوف؛ قول المولى - جلَّ شأنه-: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [القصص: ٥٧].

وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧﴾ [العنكبوت: ٦٧].

في الأُولى معاذيرُ واهيةٌ لفريق من المعاندين ظلُّوا على ما ألِفوا من الكفر. ومن عجبٍ أنهم مقرُّون بأنَّ الإسلام هو الهدى، ومع ذلك يخافون باتِّباعه أن يتخطَّفهم الناس(١) -كما يزعمون- ناسين أو متناسين أنْ لا أمن إلَّا في جوار اللّه، ومنشأ الخوف البعد عن هداه! وقد ردَّ اللّه عليهم بما يفنِّد مزاعمهم. فأنَّى لهم الأمن؟ مَنِ الذي مكَّن لهم في البيت الحرام؟ من الذي جعل القلوب تهوي إليه حاملة معها طيِّبات الرزق؟

(١) ينظر: جامع البيان: ١٨/ ٢٨٧، والتحرير والتنوير: ٢٠/ ٨٠.

وجاءت الآية الأخرى في معرِض محاجَّة مشركي قريش[١] وذمِّ تخبُّطهم وتناقضاتهم، فبينا يوقنون بربوبيَّته وأنَّه الخالق الرازق المحيي المميت؛ إليه يفزعون في الشدائد؛ يشركون به ويكفرون نعمه وقت الأمن، فأيّ قيمة لاعترافهم بربوبيَّته؟

وتتشابه الآيتان فيما يلي:

- الاستفهام الذي ينكر على المشركين جحود المنَّة التي يتوق إلى مثلها كلُّ مَن رزح تحت وطأة شريعة الغاب، ورأى دستور التعامل بالمخلب والناب!

- صورتا الأمن والخوف: فعُبِّر في كلتيهما عن حال الخوف بلفظ التخطُّف للاعتداء على سبيل الاستعارة التبعيَّة. وفي الأمن أُسند لفظ ﴿ءَامِنًا﴾ إلى الضمير العائد إلى الحرم ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾، والأصل ألَّا يوصَف بالأمن إلَّا مَن يصحُّ اتِّصافه بالخوف، وعليه يكون الإخبار بـ ﴿ءَامِنًا﴾ عن الحرم، إمَّا بجعل وزن فاعل هنا للنسبة بمعنى «ذا أمن يأمَن فيه كلُّ خائف حتى الطير من كواسرها والوحش من جوارحها»[٢]، أو على طريقة المجاز العقليِّ[٣] بعلاقة المفعوليَّة؛ فكأنَّ الأمن يرفرف على كلِّ ما في المدينة لا يقتصر على الأحياء فحسب. واختصاصه بجماعة ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ أبرز جمال الصورة وأشعر بقيمتها؛ لنرى بقعة تَشِعُّ أمنًا واطمئنانًا في وسط يعَجُّ خوفًا وهولًا.

واختلفتا بما يناسب حال المخاطب في كلٍّ منهما:

- فاختيرت ﴿نُمَكِّن﴾ في آية القصص لتكون أبلغَ دلالة على القدرة وجليل

---

(١) ينظر: جامع البيان: ١٨/٤٣٨، ٤٤١.
(٢) نظم الدرر: ٥/٥٠٢، وينظر: الكشاف: ١/٩٣.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١/٦٩٥.

النعمة لإفحام مُعاند لجوج؛ فالتمكين إمَّا من المَكِنَة؛ أي: القُدرة والاستطاعة، والاستظهار بأسباب الدنيا من حُسن حال ومَنعة من العدوِّ، أو مِن المكان بمعنى التثبيت والتقوية[١]، وفي الجمع بين المعنيين (المَكِنة والمكان) إيحاء بالاطمئنان والاستقرار والمنعة. كما انتقيت ﴿جَعَلْنَا﴾ في آية العنكبوت لتناسب مخاطَبًا غير منكِر للربوبيَّة.

- خرج الاستفهام في (القصص) إلى التوبيخ مع الإنكار[٢]، وأتت فاصلة الآية معرِّضة بجهل المعاندين؛ لإفحامهم ودحض دعاواهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأبرز الاستفهام الإنكاريّ[٣] في (العنكبوت) ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ مع أسلوب الطباق تناقضًا عجيبًا بين إيمان المشركين بالباطل، وكُفرهم بما أنعم اللّه عليهم.

- اقتضى مقام التبكيت وتنزيل الجاحد منزلة الجاهل في (القصص) الإطناب في موضعين:

أولهما: وصف الحرم الآمن بأنه ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا﴾، وأصل ﴿يُجْبَىٰ﴾ يدلُّ على جمع الشيء يُقال: جبى الخراج والماء يَجْباه ويَجْبيه ويجبوه جَبْوًا وجَبْيًا وجِباية، إذا جمَعه[٤]، ففي معنى ﴿يُجْبَىٰ﴾ وبنائه للمفعول دلالة على أنهم مكفولون من الرزّاق عَزَّوَجَلَّ دونما تعب يُذكَر، فهاهي ذي الخيرات تتوافد إلى البلد الحرام مع قوافل الحجيج من كلِّ حدب وصوب مذ دعوة أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة:١٢٦].

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل: ٢/ ٣٩٢، وحاشية ابن التمجيد: ٨/ ١٨، والتحرير والتنوير: ٦/ ٢٠.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠/ ٨١.
(٣) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٦/ ٥٢٣.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: جبي: ٢١٧، ولسان العرب: ١/ ٣٧٣.

والآخر: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾، وفيه تأكيد على أنَّ مصدر الرزق هو اللَّه وحده المختصّ بهذا الأمن والكرم الفيَّاض، أفمن أمَّنهم وهم عُصاة يتخلَّى عنهم وهم تُقاة؟

أوَليس الذي أسبغ هذه النعم بقادر على نزعها منهم إن جحدوها؟ كما قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]

مَثَل يضربه اللَّه لتقدير عاقبة كفر النعم، أتى مرسَلًا؛ استُغني فيه عن تحديد القرية أو الفئة التي ضُرِب لها - كما في بعض أمثال القرآن - بوصف حالها، لأخذ العبرة ممن هذا صنيعهم من الأمم الغابرة، وذكر بعض المفسِّرين أنَّ القرية هي مكة، وعليه يكون في هذا المثَل تعريض بالمشركين ليعتبِرَ بهم مَن بعدهم(١)، أو تسلية للمسلمين عن إخراجهم من بلدهم، وحثّهم على الشُّكر أنْ سلموا مما أصاب أهلَها(٢).

وقفة مع بلاغة النظم:

- من «مجموع العبارات نلحظ استعارة تمثيليَّة، هي تشبيه جماعة من الناس كانت مؤمنة مرزوقة فلمَّا كفرت بالنعم، ولم تقم بحقِّها، ولم تؤدِّ الطاعات، ولم تنتهِ عن المنهيَّات بحال قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها واسعًا من كلِّ مكان، فجحدت نعمة اللَّه، فضاق رزقها، وبدِّلت من الأمن خوفًا، ومن الرَّغَد جوعًا»(٣).

---

(١) ينظر: جامع البيان: ١٤/ ٣٨٢، والمحرر الوجيز: ٣/ ٤٢٦.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٣/ ٢٤٥.
(٣) المشاهد في القرآن الكريم: ٣٦١، وينظر: المعجزة الكبرى: ٢٨٠.

- نُكِّرت ﴿قَرْيَةً﴾ لتكون شائعة في جنسها، فلا تخصُّ واحدة دون غيرها، إنما تنطبق على كلِّ من أُنعم عليه فبَطِر[١].

- وُصفت القرية بأنها ﴿ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾، وعُطف على هذه الأوصاف بالفاء ﴿فَكَفَرَتْ﴾، ﴿فَأَذَاقَهَا﴾ ويوصَف بهذه المعاني على الحقيقة سكان القرية، لكنَّها أُسندت إلى الضمير العائد على القرية[٢] بمجاز عقليٍّ، يُعطي إحساسًا عميقًا بحلاوة الأمن المرفرف على كلِّ أجزائها.

- ينتقل الذهن من تلك الصورة إلى حال القرية وشبحٌ مُرعِب قد ضرَب أوتاده في كلِّ زواياها؛ فيرى البون الشاسع بينهما رأي العين. لقد أبرزت الفاء بشاعة الجرم في مقابلة نعم المحسِن ﷻ بالكفران قبل أن يجفَّ ندى إحسانه من أيديهم! ففي قوله تعالى: ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ ما يُشعِر بأنَّ القرية ظلَّت رَدْحًا من الزمن تنعم بأمن وعيش رغيد، وفجأة انطوت تلك الصفحة المضيئة بسرعة الفاء ﴿فَكَفَرَتْ﴾، ﴿فَأَذَاقَهَا﴾ ولا عجب؛ فسوء العاقبة يمحو كلَّ أثر للنعمة، حتى كأنَّ صاحبها لم يرَ سعادة قطّ[٣].

- يقرِّر الانتقال من التعبير بالقرية إلى الضمير البارز العائد على أهلها ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾أنَّ سرَّ تلك النقمة المباغتة على أهل القرية إنما هو شؤم كفرهم، كما دلَّ على ذلك قبله ﴿فَكَفَرَتْ﴾؛ فما ربُّك بظلام للعبيد.

- يزيد قوله تعالى: ﴿مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نصاعة الصورة الأولى، فالسعي للرزق مطلب للآمن وغيره، وهنا يأتي﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ دالّا على عظيم النِّعمة، أي: «قارَّة بأهلها لا يحتاجون فيها إلى نجعة وانتقال بسبب

---

(١) ينظر: الكشاف: ٢/ ٣٤٦، وأنوار التنزيل: ٣/ ٤٢٣.
(٢) كما ذُكر في وصف الحرم الآمن ص٢٠٣.
(٣) ينظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: ٥٩.

زيادة الأمن بكثرة العدد وقوّة المدد، وكفِّ اللّه الناس عنها، ووجود ما يحتاج إليه أهلها»[١]، يسوق إليها المنعِم ﷻ رزقَها حيث هي.

- ابتُدئ من أوصاف القرية بالأعمّ وهو ﴿ءَامِنَةً﴾؛ إذ لا تحصل الطمأنينة دونه، وثُني بالمترتب عليه وهو ﴿مُّطۡمَئِنَّةً﴾، وأُتبع بصفة ثالثة: ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا﴾ في سبْك مغاير يضيف إلى ثبوت الأمن واستمراره معنى تجدُّد الرزق[٢].

ومن عجبٍ أنْ يخالف ردُّ فعلهم المتوقَّعَ ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾؛ فتحلك الصورة، وتمتلئ جوعًا وخوفًا ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾.

- يبعث تَكرار اسم الجلالة وتفخيمه إحساسًا مفعَمًا بالامتنان، يدفع كل من تقلَّب في نعَمِه ﷻ واستشعر أنَّه القابض الباسط، أنه يخشى عاقبة الجحود والنكران. ويتمِّم براعة الأداء في الآية ترقيق لام اسم الجلالة في وصف الأمن والإفاضة بالنعم لينساب في النفس شعور بالاطمئنان، وتغليظها في وصف نزول النِقَم؛ لتنبعث الهيبة في النفوس!

- تطلُّ من الآية استعارتان: «إحداهما تصريحيَّة والأخرى مكنيَّة؛ فقد شُبِّه ما غشي الإنسان عند الجوع والخوف من أثر الضَّرر من حيث الاشتمال باللِّباس، فاستُعير له اسمه، ومِن حيث الكراهية بالطَّعم المرِّ البشع... وتكون الإذاقة تخييلًا»[٣].

وقد دلَّت الإذاقة على قوَّة الإحساس بالعذاب، وعلّل العسكريُّ اصطفاء الذوق على ما سواه من الحواسِّ بأنَّ «حسَّ الذائق أقوى لإدراك ما يذوقُه،

(١) نظم الدرر: ٤/ ٣١٧.
(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٤/ ٩٨.
(٣) عناية القاضي: ٥/ ٦٦٢، وينظر: وروح المعاني: ٧/ ٤٧٧، ٤٧٨.

وللذوق فضل على غيره من الحواسّ؛ ألا ترى أنَّ الإنسان إذا رأى شيئًا شمَّه، فإن عرفه وإلا ذاقه؛ لما يعلم أنَّ للذوق فضلًا في تبيين الأشياء»[١]، ويرتبط الذوق في حقيقته بالمطعم والمشرب لا الملبس، لكنّ إيقاعه على الملبس على التجريد أوحى بشمول العقاب وملابسته، فقد شبّه الخوف الذي يعمُّ الناس ويلازمهم باللباس السابغ؛ فأزمات الخوف الجائحة لا ينجو منها أحد، كما لو قيل: أذاقهم ما غشيهم من ضرر الجوع والخوف[٢]، وشتّان بينهما إيجازًا وبيانًا ومبالغة! وقد بيَّن صاحب الإفصاح طريقة التجريد في هذه الاستعارة قائلًا: «وقد بُني التجريد في الآية على المعنى المشتهر؛ فيكون معناها: فأصابهم اللّه بلباس الجوع، والإصابة تلائم الأحداث ولا تلائم اللباس، فتكون تجريدًا؛ لملاءمتها المستعار له»[٣].

- تُرى ما السرّ في اصطفاء لفظ ﴿لِبَاسَ﴾ دون مرادفاته كالثياب والأكسية، أو سائر تصريفاته كاللِّبس والملبس؟

لفظ (ثياب) يشارك ﴿لِبَاسَ﴾في التغطية والاشتمال إلَّا أنَّ بينهما فرقًا دقيقًا في الاستعمال القرآنيّ من أجله اصطُفي ﴿لِبَاسَ﴾ هنا دون (ثياب)، فاللباس من الملابَسة، فهو أدلُّ على المخالَطة والمداخلَة[٤]، وأصعب في التخلّي عنه لذا آثر القرآن إصحابه الفعل ﴿يَنزِعُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ [الأعراف: ٢٧]؛ ليكافئ ما فيه من صعوبة، أمَّا الثياب فأغلب ما تستعمل لما يكون خارجيًّا شاملًا لظاهر البدن كما في قوله ﷻ: ﴿عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ

(١) كتاب الصناعتين: ٢٨١.
(٢) ينظر: الكشاف: ٢/ ٣٤٦.
(٣) الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان: ١٨٧.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: لبس: ٩١٢.

﴿وَإِسۡتَبۡرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وعليه يسهل التخلّي عنها(١) إذ يدلُّ أصلها على العَود والرجوع؛ لأنها تلبس ثُمَّ تلبس ويثاب إليها(٢)؛ لذا ناسب سياقها الفعل ﴿تَضَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النور: ٥٨].

باستقراء ورود مادة (كسا) في القرآن يتبيَّن السرّ في عدم استعمال الأكسية في هذه الآية؛ إذ اختصَّ ورودها بمقام الفضل والإنعام بخلاف الثياب واللباس التي تدلُّ على الإنعام والعذاب.

المدُّ في صيغة ﴿لِبَاسَ﴾ فضلًا عن دلالتها المعنويَّة يُشعِر بطول أَمَدِ ما حلَّ بهم، بخلاف ما لو قيل: ملبَس الجوع أو لِبْسه!

قد يسأل سائل: لم أوثر تجريد الاستعارة في الآية على الترشيح؟

يجيب الشريف الرضيّ بتعليل وجيه قائلًا: «فكأنَّه ﷻ لمَّا شملهم بالجوع والخوف على وجه العقوبة حسُن أنْ يقول ﷻ: (فأذاقهم ذلك) أي: أوجدهم مرارته كما يجد الذائق مرارة الشيء المرير ووخامة الطعم الكريه، وإنما قال تعالى: ﴿لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ ولم يقُل: طعم الجوع والخوف؛ لأنَّ المراد بذلك -واللَّه أعلم- وصف تلك الحال بالشمول لهم، والاشتمال عليهم كاشتمال الملابس على الجلود؛ لأنَّ ما يظهر من مضيض الجوع وأليم الخوف من سُوء الأحوال؛ وشُحوب الألوان وضُؤولة الأجسام كاللِّباس الشامل لهم والظاهر عليهم»(٣)، ويعلِّق القُونويُّ (ت١١٩٥هـ) بأنَّ التجريد فيها وإنْ فات ما في الترشيح من المبالغة، فقد دعم معنى الإصابة، وقوَّى المبالغة من جهة أخرى

---

(١) ينظر: الترادف بين النظرية والتطبيق: ٢٢٣، وقد استقرأ المؤلِّف نصوص القرآن في هذين اللفظين كاشفًا عن لطائف بديعة في كلِّ موضع. (للاستزادة: ينظر: ٢١٨- ٢٢٣).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ثوب: ١٧٣.

(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٤٧.

بإيثار الإذاقة على الكُسوة[١]؛ إذ جعل الجوع والخوف لباسًا يُذاق؛ لتتمازج استجابات الحواسّ في تجسيم شِدَّة الحالة.

ذكر صاحب الطِّراز أنَّ اللِّباس من الاستعارات التي تميَّز بها القرآن، ولم تأتِ في غيره من الكلام، وهي من عجائب الاستعارة ودقيقها[٢].

وثمة صورتان أخريان لمن رجا الأمن في غير كنف اللَّه، وهيهات أنْ يحوزه مهما تمنَّع وتحصَّن؛ تتجلَّيان في قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

وردت أولاهما في شأن بني قُريظة في غزوة الأحزاب[٣]، والأخرى في إجلاء بني النَّضير[٤]. وفيهما تجسيد للرُّعب في قلوب اليهود أبرزه تناغم السياق على النحو التالي:

- تحوَّل لفظ ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ بالاستعارة المكنيَّة من معنًى شعوريٍّ في النفس إلى سلاح يُقذَف من علٍ فيبلغ سويداء القلب، بجامع القوَّة والنَّفاذ والارتكاز في كلٍّ. وتتجلَّى القوَّة الإلهيَّة الفذَّة في إرعاب أولئك اليهود بسلاح خُصَّ به نبيُّنا الكريم

---

(١) ينظر: حاشية القونوي: ١١/ ٤٠١.
(٢) ينظر: الطراز: ١/ ١٦٤.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١٩/ ٧٢.
(٤) ينظر: السابق: ٢٢/ ٥٠٠.

ﷺ، وهو النصر بالرُّعب مسيرة شهر[١]، كما ورد في حديث جابر عن رسول اللَّه ﷺ أنَّه قال: «أُعطيتُ خمسًا لم يُعطهنَّ أحدٌ قبلي، نُصرت بالرُّعب مسيرة شهر. . .»[٢].

لقد قاتل المسلمون وكان من اللَّه عونهم ومددهم وقوتهم، كان الرُّعب «يملأ القلوب التي تحمي الباطل وتدافع عنه، فهي حين تواجه صولة الحق وقوَّة العقيدة؛ تشعر بضعف واستخذاء. وشتَّان بين من يقاتل في سبيل حقٍّ يعلو، وبين مَن يُدافع عن باطل مُنهار!»[٣].

- دلَّ لفظ ﴿وَقَذَفَ﴾ على الطَّرح والرَّمْيِ القويِّ البعيد[٤]، والمراد «أنزل إنزالًا كأنَّه قذفه بحجارة، فثبت وارتكز»[٥]، وفي جرسه قوَّة، ويوحي انتقال الصوت من استعلاء القاف وتفخيمها إلى استفال الذال والفاء وترقيقهما بالانحدار والطَّرح البعيد من قُوَّة إلهيَّة علويَّة مهيمنة[٦]، مجسِّمًا الإحساس بالرُّعب!

- قُدِّم الجارّ والمجرور ﴿فِى قُلُوبِهِمُ﴾ على المفعول به ﴿الرُّعْبَ﴾ اهتمامًا بالمحلِّ الملقَى فيه قبل ذكر الملقَى[٧]؛ لأنَّ القلب حاكم البدن وأميره تهتزُّ لاضطرابه سائر الأعضاء، وله أهميته في ثبات الإنسان؛ لذا وقع عليه القذف.

- انتُقِي الحرف ﴿فِى﴾ ليضيف معنى تمكُّن الرعب من قلوب خاوية استقرَّ فيها.

---

(١) ينظر: من خصائص النبوة: ٦١ .
(٢) أخرجه البخاري، واللفظ له: ٢٩، رقم: ٣٣٥، ومسلم: ٧٥٩، رقم: ١١٦٣ .
(٣) من خصائص النبوة: ٦٢.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: قذف: ٨٤٩، والمفردات: ٣٩٨، ولسان العرب: ٥/ ٢١٧ .
(٥) نظم الدرر: ٧/ ٥١٢.
(٦) ينظر: جماليات المفردة القرآنية: ١٠٥، ١٠٦.
(٧) ينظر: البحر المحيط: ٣/ ٧٧.

ويلازم قذف الرُّعب في الاستعمال القرآنيِّ اليهود المحتمين بحصونهم واثقين من صمودها ضدَّ أيِّ هجوم كان، إذ يفجؤهم القويُّ المتين عَزَّوَجَلَّ بسلاح مُعجِز غفلوا عنه، ولم يحسبوا له حسابًا، أصاب قلوبهم فارتكز فيها، وضعضع نفوسهم من دواخلها، فما أغنت عنهم حصونهم وأسلحتهم من اللَّه شيئًا!

أبلِغ بها من دقَّة في التعبير وتنوُّع في الأسلوب وجمال، تلاحمت لتبرز تآلف الاستعارة مع سياقها في نقل حيٍّ للموقفين!

- أُسنِد إلى اللَّه تَعَالَىٰ في كلٍّ من تَين الصورتين فعلان جَلَّيا قدرته في نصر المؤمنين وإذلال أعدائهم، أحدهما نفسيٌّ يوقن به المؤمن وهو قذْف الرُّعب، وآخرُ حسِّيٌّ رآه مَن شهد الموقعة، هو ﴿أَنْزَلَ﴾ في الأولى، و﴿أَخْرَجَ﴾ في الثانية. بُدئ بالحسِّيِّ حتى إذا وَعَى المتلقِّي الدِّلالة أدرك أنَّ ما جعل بني يهود يتركون ديارهم وحصونهم للمسلمين رغم ما عُرف عنهم من بخل وحبٍّ للبقاء، لا بُدَّ أن يكون أمرًا نفسيًّا قهريًّا لا تُعجزه حصون ولا تردُّه صياصٍ منيعة. أمرٌ أقوى من حاجة النفس وشهوة المال[1]؛ إنَّه الرعب يُقذف في القلوب!

- أوثرت صيغة الفعل المزيد بالهمز في ﴿أَنْزَلَ﴾ و﴿أَخْرَجَ﴾ ليُسهما في النقل الحسِّيِّ للصورة، فيوافقا مقام خوف وقهر، صدَرَ عن أمرٍ إلهيٍّ صِرفٍ، أُسنِد إلى اللَّه بالضمير العائد إلى اسمه جَلَّالَهُ. بخلاف ما لو جِيء بالمجرَّد (نَزَل وخَرَج) اللذان يدلَّان على الاختيار لا القهر، أو المضَّعف الذي لا يؤدِّي معنى السرعة إنما يحصُل على دفعات.

- اختير الفعل ﴿أَنْزَلَ﴾ مع الصياصي و﴿أَخْرَجَ﴾ مع الدِّيار، واشترك كلاهما في عرض مشهد إذلال أعناق يهود، وإفزاعهم وتفريق شملهم[2]، وإبراز قدرة

(١) ينظر: في البلاغة والأداء الفني: ٢٠١.
(٢) ينظر: البداية والنهاية: ٤/ ١٢١.

اللَّه التي لا تُقهر. ولنحتكم إلى حسِّ العربية وجوِّ الآيتين لاستشفاف السرِّ البيانيِّ في ذلك:

﴿صَيَاصِيهِمْ﴾ الصياصي جمعٌ مفردُه صِيْصة وصِيْصِية، وهي في الأصل شوكة الحائك أو طرف القرن والجبل، وتطلق على الحصون[١]، وجُلُّ استعمالاتها اللُّغويَّة في الحِدَّة والارتفاع مع القوَّة، وفي أدائها ما يوحي بهذه المعاني فقد تكرَّر حرف الصَّاد بصفاته القويَّة مِن صفير وإطباق واستعلاء وتفخيم، وارتفع الصوت بتصعُّد الفتح مع حرف المدِّ، وفي جمعها على صيغة منتهى الجموع بيانٌ لكثرة العدد الذي غلبته قُدرة اللَّه وقوَّته الجبَّارة. ولم ترِد الصياصي في القرآن إلَّا في هذا الموضع الذي أدَّت فيه وظيفتها أتمَّ أداء، فالوارد أنَّ بني قريظة كانوا في أعالي حصونهم، حتى إنَّ النبيَّ ﷺناداهم بأعلى صوته ليسمعوه[٢]، وفي هذا ما يؤكِّد أن التعبير بها أنسب من التعبير بالحصون. ثم اختير لها ﴿أَنْزَلَ﴾ ليتلاءم مع الانحدار من عُلْوٍ إلى سُفْل[٣]، كما يتلاءم الفعل ﴿أَخْرَجَ﴾ الذي ورد في سياق جلاء بني النضير من ديارهم مع سياقه دالًّا على القوَّة والقهر بالطرد مما أَلِفوا وأحبُّوا.

ثُمَّ يأتي تجسيد ذلك الموقف واستحضار الآثار العميقة لقذف الرعب في الوقعتين:

* دبَّت الفُرقة في صفوف بني قريظة ونزلوا﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أذلَّة صاغرين. فهاهم أولاء قد «أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم للأسر... من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلًا عن المخالفة والاستعصاء»[٤]، فكانت أراضيهم-

(١) ينظر: المفردات: صيص: ٢٩٤، ولسان العرب: ٤/ ٢٩٣.
(٢) ينظر: البداية والنهاية: ٤/ ١٢١.
(٣) ينظر: لسان العرب: نزل: ٦/ ١٧٢.
(٤) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٢٢٠.

بفضل اللّه- غنيمة باردة للمسلمين.

ولعبارة ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ملامح بديعة:

- ملمح معنويّ: في تقديم فعل القتل باعتباره أعظم الأثرين الناشئَين عن الرُّعب ﴿تَقْتُلُونَ﴾ على فعل الأسْر ﴿وَتَأْسِرُونَ﴾، وفي إيثار مجيئهما على صيغة المضارع على خلاف مقتضى الظاهر في التعبير بالماضي - كما في الفعلين السابقين ﴿أَنْزَلَ﴾ و﴿وَقَذَفَ﴾ فالقصة قد ولّى زمانها- استدعاء لتلك التجربة بمعطياتها العظيمة في مقام الامتنان والتذكير.

- ملمح لغويّ: في اصطفاء لفظ ﴿فَرِيقًا﴾ الدالّ على الفُرقة؛ ويعني: مَن تفرّقوا عن الآخرين، بخلاف ما لو قيل جماعة الدالّ على الاجتماع[١].

- ملمح تركيبيّ: في تقديم ﴿فَرِيقًا﴾ على فعلِهِ، وجريان الجملة التالية على الأصل بتأخير المفعول به؛ لئلا يفصل بين الأثرين فاصل[٢] ﴿تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ﴾، وللتفريق بالتالي بين الفريقين لفظاً كما هما في الواقع؛ مع الجمع بين القتل والأسر لارتباطهما بهزيمة اليهود وشفاء غليل المؤمنين. وإذ بالقوم صرعى وأسرى بين السطور! ففي جانب القتل فريق وفي جانب الأسر فريق[٣]﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

- ملمح صوتيّ: يساند ذيّاك الجمال، ويكمن في مراعاة الفواصل التي بُنيت عليها سورة الأحزاب حيث «كان لحروف المدِّ واللِّين فيها آثارٌ بعيدة المدى في انطلاق الأنفاس الحبيسة أو اللاهثة في المواقف المختلفة»[٤].

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: فرق: ٨١٤، والمفردات: ٣٧٩.
(٢) روح المعاني: ١١/ ١٧٢.
(٣) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ٩٦، ومن أسرار التعبير القرآني: ٢٢٢.
(٤) ينظر: من أسرار التعبير القرآني: ٢٢٢ .

وما أجمل أن تتضافر هذه الملامح جميعًا لترسم الصورة أبدع رسم وأجلّه!!

* يظهر أثر قذف الرعب في قلوب بني النضير في قول اللَّه ﷻ في آية الحشر: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فبعد أنْ حاصرهم النبيُّ ﷺ ورضُوا بالجلاء، صالحهم على أنَّ لهم ما أقلّت الإبل؛ فكانوا يستحسنون الخشبة أو العمود فيهدمون بيوتهم ليحملوه، وهكذا يخربونها من الداخل بأيديهم فضلًا عن خرابها من الخارج بأيدي المسلمين(١).

- أوثر التعبير بالمضارع لاستحضار الصورة بما تنطوي عليه من معاني النصر والعزة والغلبة التي امتنَّ اللَّه بها على أوليائه.

- تجلّت في عطف ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ نكتة بديعة في أنَّ كفرَهم داعٍ إلى إخراب بيوتهم، فكأنما هم من خربها بأيدي المؤمنين. وفي الرَّفع من شأن المسلمين؛ إذ دخولهم فتح، وما كان الإخراب إلا بسبب اليهود المخربين بأيديهم وأيدي غيرهم.

- معنى ﴿يُخْرِبُونَ﴾ ينقُبون الدار فيعطِّلونها، ويتركونها إلى أحصن منها. فالإخراب من خَرَب الشيء يَخرُبه خَرْبًا إذا ثقبه أو شقَّه(٢). وقرأها أبو عامر بالتشديد(٣) ﴿يخرّبون﴾: مِنْ التخريب؛ أي: الهدم(٤)، ويحتمِل سياق الآية الأمْرَين؛ فقد عرَّض بنو النضير دورهم للإخراب والتخريب لئلّا يتحسَّروا على بقائها للمسلمين. وفي كلتا القراءتين تتجلّى صورة الرُّعبِ ومشهد الخراب.

لقد جُسِّد الرُّعب في البيان القرآنيِّ تارة مع لفظ القذف -كما تقدَّم- وأُخرى مع الإلقاء، وذلك في موضعين هما قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٢٢/ ٥٠٠، ٥٠١، والبداية والنهاية: ٤/ ٧٧.
(٢) ينظر: لسان العرب: خرب: ٢/ ٢٣٣.
(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر: ٢/ ٣٨٦.
(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/ ١٤٣.

ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥٠-١٥١].

وقوله ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

وصفت أولاهما غزوة أحد يوم وعد اللّه المؤمنين بالنصر ما استقاموا على عهده، وتمسَّكوا بطاعته بإلقاء الرعب في نفوس أعدائهم لئلَّا يظهروا عليهم، وورد أنَّ أبا سفيان والمشركين انطلقوا نحو مكَّة يوم أحد حتى بلغوا بعض الطريق، ثم ندموا على تركِهم المسلمين، فحدثتهم أنفسهم بالرجوع إلى المدينة للقضاء على من بقي من المسلمين. فقذف اللّه ﷻ في قلوبهم الرُّعب فانهزموا[1].

وجاءت الآية الثانية في غزوة بدر يوم هاب المسلمون لقاء عدوٍّ يفوقهم عَددًا وعُددًا[2]، فنظر النبيُّ ﷺ إلى أصحابه مشفقًا، وجعل يدعو مستغيثًا اللّه والمؤمنون معه حتى سقط رداؤه[3].

أوجه التشابه في الآيتين:

- اشتركت الآيتان في بثِّ الثقة بنصر اللّه في النفوس المسلمة ليسودها الأمن والثبات:

في الأُولى: بولاية اللّه ونصره ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ولمَّا كان النصر مع قلَّة

(١) ينظر: جامع البيان: ٦/ ١٢٧، ١٢٨.
(٢) سبقت الإشارة إلى قصة غزوة بدر في قول اللّه تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: ٦] ص١٦١.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١١/ ٥١، ٥٣، والبداية والنهاية: ٣/ ٢٧٤.

عَددهم وكثرة أعدائهم مُستغرَبًا، فقد أُسند إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وأُخبر عنه بالمولى «أي المأمول في النصر والمعونة لأنه هو المالك ولا مفزع للمملوك إلا مالكه»[١]، وأضيف إلى ضمير المخاطبين ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ إيماء إلى قربه وعنايته، فهو وحده مسدِّدهم وناصرهم لا يحتاجون إلى سواه، وتُذيِّل بقوله عزَّ من قائل: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ تأكيدًا على الثقة به.

وفي الثانية: أُضيف اسم الربِّ ﷻ إلى ضمير الخطاب الموجَّه إلى النبيِّ ﷺ تلطُّفًا وتكريمًا وإشعارًا بمعنى التربية بالتدبير والإنعام[٢]، وأتى التثبيت بمعيَّة اللَّه الخاصَّة لأصفيائه نصرًا وتأييدًا بإرسال الملائكة، ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتكثير سوادهم وتقوية قلوبهم وقتال أعدائهم[٣]. «والتثبيت هنا مجاز في إزالة الاضطراب النفسانيِّ مما ينشأ عن الخوف ومن عدم استقرار الرأي واطمئنانه. وعُرِّف المثبَّتون بالموصول لما تومئ إليه صلة ﴿ءَامَنُواْ﴾من كون إيمانهم هو الباعث على هذه العناية»[٤]. ولمَّا كان الخوف يشبه بالزلزلة كما في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١][٥] حسُن في الأمن وتقوية القلوب أن يوصفا بالثبات، واشتُق منه ﴿فَثَبِّتُواْ﴾ على سبيل الاستعارة التبعيَّة.

ومِن طمأنة النفوس المسلمة بثُّ الرُّعب والفزع في صفوف أعدائهم. لقد كسا الأمر الصورة جلالًا وهيبة، ﴿فَثَبِّتُواْ﴾ ﴿فَٱضْرِبُواْ﴾ ﴿وَٱضْرِبُواْ﴾ أوامر عظيمة واجبة الامتثال قطعيَّة الثبوت تُبرِز أهميَّة الفعل المطلوب إنجازه، صدرت من القويِّ

---

(١) النهج الأسمى: ٢/ ٤٧.
(٢) ينظر: السابق: ١/ ٤١٢.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١١/ ٦٩، والمحرر الوجيز: ٢/ ٥٠٧، ونظم الدرر: ٣/ ١٩٤.
(٤) التحرير والتنوير: ٩/ ٣٩.
(٥) سيرد تحليل الآية في فصل الكناية ص ٢٨٢.

المتين ﷻ إلى ملائكته لنصرة القلّة المؤمنة في أولى معاركها مع الشرك، فجوهر النصر تثبيت المؤمنين، يقابله تكثيف الضرب على الكثرة العادية وفق تقدير إلهيٍّ محكَم ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

- يُعرَض في كلتا الآيتين مشهدان أَبرزت فيهما الأفعال المضارعة ﴿سَنُلْقِي﴾ ﴿يُوحِي﴾ ﴿سَأُلْقِي﴾ صورة نصر حاسم فوق كلِّ تدبير بشريٍّ، وأكبر من قُوَّةِ العَدد أو العُدد؛ كيف لا وهو تدبير المهيمن القاهر فوق عباده ﷻ وتقديره وعونه ومَدده؟ وفي التوكُّل عليه وحده، وصدق اللَّجأ إليه، وبذل الأسباب يتحقَّق نصره المؤزَّر داحرًا كلَّ طغيان!

- في كلتيهما التفات من الغيبة إلى التكلُّم ففي (آل عمران) ﴿هُوَ﴾ ﴿سَنُلْقِي﴾ ﴿هُوَ﴾ وفي (الأنفال): ﴿يُوحِي﴾ ﴿سَأُلْقِي﴾ للتنبيه على أهمية الحدث الذي يلقيه سبحانه وتعالى(١)، والإشعار بعظمته.

- في كلتا الآيتين الكريمتين استعير الإلقاء للرعب في نفوس المشركين على سبيل الاستعارة المكنيَّة(٢)«إذ حقيقة الإلقاء إنما هي في الأجرام»(٣)، وهو بإسناده إلى اللَّه وحده مشعِر بسرعة الطَّرح وقوَّته. وأُسند في الأُولى إلى ضمير العظمة ﴿سَنُلْقِي﴾، وفي الثانية إلى اللَّه ﷻ على الإفراد ﴿سَأُلْقِي﴾ فَدَفع توهُّمَ دخول الملائكة في إلقائه، وأكّد اختصاصه باللَّه وحده(٤)، «وإنما كان الرُّعب في قلوب المشركين خارق عادة لأنَّ أسباب ضدِّه قائمة، وهي وفرة عَددهم وعُددهم»(٥).

---

(١) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٣/ ١٨٨، ١٨٩.
(٢) كما ذُكر في قذف الرعب ص٢١٠.
(٣) المحرر الوجيز: ١/ ٥٢٢.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٩/ ٤٠.
(٥) السابق: ٩/ ٣٩.

تُرى ما سرُّ المغايرة بين لفظي القذف والإلقاء مع الرعب؟ وهل يظلَّان على بلاغتهما تلك في حال المبادَلة بينهما؟

ورد كِلا اللفظين في سياق الجهاد ومحاربة الأعداء، واختصَّ بهما القويُّ المتين ﷻ يوقِعهما في قلوب أعداء الإسلام، لكنَّ لقذفِ الرُّعب دِلالة أقوى؛ إذ تجتمع له معاني الطَّرْح والبُعد والقوَّة لتناسب سياقه، ذكر ابن منظور: أنَّ القذف بالحجارة. وسُمِّي المنجنيق القَذَّاف لأنَّه يرمي القذيفة عن بُعد، أما الإلقاء فأصله من اللَّقى وهو ثوب المحرم يُلقيه إذا طاف بالبيت في الجاهليَّة، إذ يقولون: لا نطوف بثياب عصينا اللّه فيها. ومنه يُطلَق على الشيء المطروح كاللُّقَطة[١]. وبإنعام النظر وإمعان الفكر تتجلَّى بعض أسرار البلاغة في النظم المعجِز؛ أتى القذف في آيتي الحشر والأحزاب حين كان اليهود متمنِّعين بحصونهم فقد ذُكرت في (الحشر) ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾ وفي (الأحزاب) ﴿دِيَـٰرِهِمْ﴾ و﴿حُصُونُهُم﴾ وأتاهم اللّه بهذا السلاح المعجِز (قَذْف الرعب) ليخرجوا أو تُدكَّ حصونهم فوق رؤوسهم، بينما في آيتي آل عمران والأنفال كان المشركون في أُحد وبدر مجتمعين في ساحة المعركة دون حصون؛ فأتت كلِمة الإلقاء في مكانها المناسب، ولعلَّ القذف وقع على اليهود لأنهم أكثر خُبثًا ومراوغة. وهكذا يتجلَّى الإبداع في تمكُّن الكلمة في سياقها.

وقد ورد ذكر الرعب مجردًا في موضع واحد في قصة أهل الكهف هو قول اللّه تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨]

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾: امتلاء الصدر والقلب بالمهابة والخوف «مجاز في عِظَمهما مشهور في كلام العرب كما يُقال في الحسن: إنَّه يملأ العيون»[٢]. وفي

(١) ينظر: لسان العرب: قذف: ٥/ ٢١٧، لقا: ٥/ ٥١٧.
(٢) عناية القاضي: ٦/ ١٤٦.

هذا التعبير القرآنيّ صورة معبِّرة عن الرُّعب المتمكِّن في النفس، استعيرت من حال الماء أو غيرِه حين يملأ وعاءً، ويوجِّه ابن عاشور بفكره الثاقب عناصر هذه الصورة إلى الاستعارة التمثيليَّة؛ «فمُثِّلت الصِّفة النفسيَّة بالمظروف، ومُثِّل عقل الإنسان بالظرف، ومُثِّل تمكُّن الصفة من النَّفس بحيث لا يخالطها تفكير في غيرها بملء الظرف بالمظروف، فكان في قوله: (مُلِئْتَ) استعارة تمثيليَّة»[١]. وما كان هذا المعنى البديع ليتحقَّق لو قيل: لو اطَّلعتَ عليهم لارتعبت. ففي تآخي ألفاظ الآية مع التعبير بالاستعارة لطائف، منها:

- بناء الفعل ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ للمفعول فيه تصوير لتمكُّن الرُّعب داخل النفس وقد صدَر من قوَّة قاهرة لا حول للإنسان فيها. إنها قوَّة اللَّه الذي ألبسهم الهيبة والجلال لحكمة أرادها. ويفيد إسناده إلى المخاطب شموله أجزاء الجسد[٢]، فكأنما مُلِئ من هامه إلى إبهامه. وما كان هذا المعنى ليتحقق لو قيل: لامتلأ صدرك بالرعب.

- ظهور آثار تمكُّن الرُّعب الحسِّيَّة من الإنسان في عبارة ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾، وانتصاب ﴿فِرَارًا﴾ على المفعول المطلق المبيِّن للنوع[٣]. ويزداد المشهد عمقًا بهذا التصوير الحيِّ للحركة الظاهرة، فتتمثَّل فيه حركات الفَزِع حين يتولَّى على الفور؛ لئلَّا يرجع بصره إلى المنظر المرعِب قبل أنْ يُطلق ساقيه للريح. وفي تَكرار أحرف الذَّلاقة في ﴿فِرَارًا﴾ ما يوحي بسرعة الحركة وخفَّتها من شدَّة الفزع. وما كان المعنى ليتمَّ بالتولِّي عنهم وحده، فالمرء يحسبهم أيقاظًا، فيعجّل بالفِرار قبل أن يتعرَّضوا له.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥/ ٣٧.
(٢) ينظر: حاشية القونوي: ١٢/ ٣٩.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/ ٣٧.

- تكرُّر حرف الجر مع ضمير الغائبين العائد على الفِتْية ﴿مِنۡهُمۡ﴾ مؤكِّدًا أنَّ هيئتهم هي منشأ الرُّعب، فقد جعلهم اللَّه آية لا يجرؤ على الدنوِّ منهم مَن يراهم رقودًا كالأيقاظ، يتقلَّبون ولا يستيقظون(١). وعليه فلا صحَّة لما ذكره بعض المفسرين من أنَّ منشأ الرُّعب وَحشة مكانهم(٢).

- انتصب لفظ ﴿رُعۡبٗا﴾- الفاعل في المعنى- على التمييز لمَّا بُني الفعل للمفعول، ومقتضى الظاهر أن يُقال: ملأ الرعب صدرك، فأضاف هذا النَّظْم البديع إلى الاستعارة لمُعًا بيانيَّة مِن المبالغة والتشويق(٣).

عَوْد على موقعتي أحد وبدر في آيتين أخريين لتجلية وسائل الأمن والتثبيت، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال عز وجل: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال: ١١].

وصفت أُولاهما ألطاف الرحمن جل جلاله بأوليائه في أُحد، وعن بدر كانت الأخرى، وقد حصل الأمن فيهما بالنُّعاس دليل على تمام التوكُّل على اللَّه واطمئنان القلوب إلى قدَره، وإنما ينعس من يأمن.

في كلتيهما أتى لفظ ﴿أَمَنَةٗ﴾ مرتبطًا بـ ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ ولم يرد كلا اللفظين إلَّا في هذين الموضعين. وهنا تساؤل عن سرِّ الإتيان بـ ﴿أَمَنَةٗ﴾ دون لفظ (أمن) فيهما:

(١) ينظر: حاشية القونوي: ١٢/ ٤٠، وفي ظلال القرآن: ٥/ ٣٧٦.
(٢) ينظر: الكشاف: ٢/ ٣٨٣، وأنوار التنزيل: ٣/ ٤٨٤.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥/ ٣٧، والتبيان في إعراب القرآن: ٢٤٣، والجملة العربية والمعنى: ٢١٥.

قال أبو حيَّان: «الأَمَنَة تكون مع بقاء أسباب الخوف، والأمْن يكون مع زوال أسبابه»[١] فهي حالة أخفُّ من الأمن وأقصر وقتًا اختصَّت بـ «تثبيت اللَّه للمسلمين في معاركهم مع الكفار، وإنزاله - سبحانه - الجنود الربانيين ليكونوا معهم، مثل الملائكة والمطر والنعاس! »[٢]، وربما كان للجانب الصوتيِّ الذي تميَّزت به صيغتها أثر في المعنى؛ فيمنحها توالي الفَتَحات عند النطق تدرُّجًا في التسرُّب إلى النفس، في حين لا يُشعر سكون الوسط في (أمن) بهذا المعنى[٣].

في كلتيهما استعارة مكنيَّة أُعطي فيها النُّعاس صورة الغطاء ليستر الإحساس كما يستر الغطاء الجسد، نكاد معها «نرى غشاوة رقيقة تنسحب على الأعين والأجساد، وتضفي السكون والسكينة في ذلك الجوِّ الآمن»[٤] فتسكن أفئدة مضطربة ونفوس خائفة. و ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ أوَّل النوم، وهو يزيل التعب ولا يغيِّب صاحبه، لذا كان ﴿أَمَنَةً﴾؛ إذ لو ناموا نومًا ثقيلًا لأُخذوا[٥] «لقد كانت هذه الغشية، وهذه الطمأنينة، مددًا من أمداد اللَّه للعصبة المسلمة»[٦]. لكنها اختلفت يوم بدر عنها في أحد:

فقد عمَّت المجاهدين ليلة بدر[٧]. إنها «قصَّة حالة نفسيَّة عجيبة، لا تكون إلا بأمر اللَّه وقدره وتدبيره، لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلَّة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه، ولم يتَّخذوا له عُدَّته»[٨]، فإذا غِلالة من نعاس تزيح

(١) البحر المحيط: ٣/ ٨٥.
(٢) لطائف قرآنية: ١٠٣.
(٣) ينظر: سرّ الإعجاز في تنوُّع الصيغ المشتقة من أصل واحد: ١٩٩.
(٤) في إعجاز القرآن دراسة تحليلية لسورة الأنفال: ٥٠٧.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٣/ ٢٥٦.
(٦) في ظلال القرآن: ٣/ ٨١٧.
(٧) البداية والنهاية: ٣/ ٢٦٦.
(٨) في ظلال القرآن: ٣/ ٨١٧.

توترهم، وتُضفي عليهم أمنًا يهيِّئ النفوس إلى أعلى مستويات الثبات روحًا وجسدًا؛ لتنبثق إمكاناتهم وعطاءاتهم الميدانيَّة في المعركة.

وهكذا كان يوم أُحد، تكرَّرت الـ ﴿أَمَنَةً﴾ وكانت ﴿نُّعَاسًا﴾ أيضًا، إلَّا أنها خصَّت المؤمنين الكُمَّل بعد المعركة لكشف الغمِّ عنهم، وإبعاد شبح اليأس ومرارة الهزيمة عن نفوسهم؛ ليهبُّوا إلى الجهاد بنفوس مشرقة يحدوها الاطمئنان والثقة التامَّة بحكمة اللَّه وتقديره. وعَرِي منها أهل النفاق والشكِّ؛ الذين ما جلبت إليهم نفوسهم المريضة وظنونهم السيئة غير الهمِّ وخوف القتل أو ذَهاب المال. وعليه اختلف النظم هنا:

- عُطف بأداة البُعد في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾؛ لما بين الصورتين من مفارقة كبيرة، ومسافة بعيدة المدى تتناسب وحرف التراخي الذي يضيف البُعد المعنويَّ والاختلاف الجوهريَّ بين الحالين مع البُعد الزمنيِّ أيضًا؛ فقد كان الابتلاء في هذه الموقعة بتأخُّر الفرج، «وطول احتباس الأنفاس تحت جُدُر الهموم المطبقة عليهم جزاء ما خالفوا أمر رسولهم سعيًا وراء الغنائم»(١)، حتى تكاد خلجات المشاعر ومكنونات السرائر وأحاديث الخواطر تبدو لشدَّتها في المشهد، وإذا بـ ﴿أَمَنَةً﴾ تمحو كلَّ ذلك.

- أوثر لهذا السياق لفظ ﴿أَنزَلَ﴾ مع الأَمَنَة ومعنى إنزالها: إلقاؤها وإيجاد أسبابها الجوهريَّة والعارضة.

- عدِّي الإنزال بأداة الاستعلاء تفخيمًا وتشريفًا(٢)؛ فقد كانت الأمنة نُعاسًا مقدَّرًا من اللَّه لحكمة خاصَّة نزل من عوالم مُشرَّفة؛ لتسليتهم عن حزنهم وتجديد نشاطهم.

---

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: ١٦٥.
(٢) ينظر: حاشية القونوي: ١٨/٥٨، ٥٩، والتحرير والتنوير: ٢٦/١٢٦.

- في تقديم لفظ ﴿أَمَنَةً﴾على ﴿نُّعَاسًا﴾ لطيفة تبرز في مرور المسلمين يوم أُحُد بظروف عصيبة ضاعفت خوفهم وغمَّهم، من أشدِّها إشاعة قتل النبيِّ ﷺ، ثمَّ رؤيته وقد تخضَّب وجهه بالدماء، وانقلاب نصرهم هزيمة بترك الرُّماة أماكنهم، ومباغتة جيش المشركين من خلفهم. فإذا النفوس توّاقة إلى أمن يخرجها مما اعتراها من خوف وغمٍّ، وإذا به يعجَل إليها مع قول الرحيم القادر عزَّوجلَّ : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾!

أمَّا في بدر فكان تقديم لفظ ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ على ﴿أَمَنَةً﴾ أنسب لنفوس أحوج ما تكون إلى السكون والراحة لتجديد نشاطها قبل بَدء النِّزال.

عُبِّر في كلتا الآيتين بالمضارع لاستحضار الصورة، فكأنَّ المجاهدين الآمنين تلقاء أبصارنا يجلِّلهم النُّعاس، والجلال سيِّد الموقف! إلَّا أنَّ آية الأنفال أوثر فيها المضعَّف ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ للتَّأكيد على فضل عناية بتلك العُصبة المؤمنة في أُولى غَزَواتها مع الشِّرك. وانظر معي إلى تقييد أفعالها، وتَكرار ضمير المخاطبين (كُم)، ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ ألا يدلُّ ذلك أيضًا على مزيد عناية وتكريم؟ ألا يذكِّر بالنعمة ويُشعر بعظيم المنَّة؟ بلى؛ إذ لو خلا الكلام منها ما تمَّ المعنى الذي انطوى عليه النَّظم المعجِز من تكريم إلهيٍّ واحتواء ربانيٍّ يستحضره المؤمنون في مواقف الخوف والجهاد؛ فتمتلئ نفوسهم ثقة ويقينًا.

ويتبدَّى أفق آخر من آفاق الإعجاز في التصوير والأداء في الفعل ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ فالرَّخاوة في الغين وكذا الشين مع تضعيفها وتفشِّيها تضفي أبعادًا حقيقيَّة للصورة، ويناسب حرف السين الهامس بعد حرف المدِّ في ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ هدْأة الليل وسكونه. فإذا جاءت حركات الفتح قصيرة متوالية خفيفة الجرس في ﴿أَمَنَةً﴾،

زادت في ظلال الهدوء وخفوت الأصوات، حتى إذا انتهينا إلى الهاء قبلها النون الساكنة في آخر الجملة ﴿مِنْهُ﴾ انقطع الصوت وعمَّ السكون[١] و(مِن) في ﴿مِنْهُ﴾ للابتداء المجازيّ، وهو وصف لـ ﴿أَمَنَةً﴾ فيه تشريف وتأكيد لإسنادها إلى اللَّه[٢].

ينتقل السياق من ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ وما يرسمه من هدوء أشبه ما يكون بالموت إلى صورة حيَّة للماء أثرٌ بارز فيها، تغمرها ألطاف ربانيَّة حانية توقظ المجاهدين لأسمى المقاصد. لقد أنزل اللَّه الغيث ليطهِّر المؤمنين ويثبِّتهم ظاهرًا وباطنًا ويذهب عنهم كيد الشيطان[٣]، الذي خنس لمّا نزل المطر.

وتبرز الفصاحة في إطلاق لفظ ﴿رِجْزَ﴾ على نجوى الشيطان؛ إذ يدلُّ أصل الرِّجز على اضطراب، ويطلَق على الشرك والقَذَر والعذاب[٤]، فكأنَّ الوسوسة قذَر حسِّيٌّ يُلقيه الشيطان على المشركين، ويحاول مثله مع المؤمنين ليحزُنهم ويخذِّلهم، فأبعده اللَّه عن أوليائه المجاهدين وطهَّرهم بغيثه.

ثُمَّ تأتي لفتة علويّة كريمة تتوِّج ما حازوا من أسباب الأمن بإفراغ الطمأنينة في القلوب، والرَّبط عليها بالصبر واليقين، وأصل الرَّبْط يدلُّ على شدٍّ وثبات. من رَبَط الشيء يَرْبِطه ويربُطه رَبْطًا، والرِّباط والمِربَط ما تُشَدُّ به القِربَة والدَّابَّة. ومنه سمِّي ملازمة ثَغر العدو رِباطًا. ومن المجاز: رجل رابط الجأش وربيط الجأش، أي: شديد القلب لا تتفرَّق نفسه عند الفزع، كأنَّه يربطها عن الفِرار بجرأته وشجاعته[٥].

---

(١) ينظر: في إعجاز القرآن دراسة تحليلية لسورة الأنفال: ٥١٠، ٥١١.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٩/ ٣٦.
(٣) ينظر: البداية والنهاية: ٣/ ٢٦٦.
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: رجز: ٤٢٢، ولسان العرب: ٣/ ٣٨، ٣٩ .
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ربط: ٤١٧، وأساس البلاغة: ١٥١، ١٥٢، ولسان العرب: ٣/ ٢٢، ٢٣، والمحرر الوجيز: ٣/ ٥٠١.

قال ابن القيِّم: «الرَّبط على القلب عكس الخذلان. فالخذلان حلّه من رباط التوفيق، فيغفل عن ذكر ربه، ويتَّبع هواه ويصير أمره فرطًا، والرَّبط على القلب شدُّه برباط التوفيق فيتَّصل بذكر ربه، ويتَّبع مرضاته، ويجتمع عليه شمله»(١).

والرَّبْط حقيقة للأجسام، مستعار هنا لما حصل في قلوبهم من ثبات وطمأنينة في لقاء العدوِّ، بعد أن بلغت الحناجر وخلت مِن كلٍّ ما يثبِّتها رهبة منه. «ولمَّا كان الفزع وخَوَر النفس يُشْبِه بالتناسب الانحلالَ، حسُن في شدَّة النفس وقوَّة التَّصميم أنْ يُشْبِه الرَّبْط»(٢).

لقد سكنت الأفئدة بعد الثقة بلطف اللَّه عند كلِّ مُلِمَّة حتى امتلأت بكلِّ خير، وثبت ما فيها بالربط. أوَ يمكن أن يطرأ عليهم ما يخيف بعد النعم التي أسداها إليهم البرُّ الرَّحيم ﷻ؟ تجيبنا استعارة تمثيليَّة(٣)، قال فيها العزُّ بن عبد السلام: «شُبِّه حفظه لما في القلوب من يقين وإيمان بحفظ من رَبَط على شيء برِباط ليحفظه ويمنعه من الانقلاب، فالرِّباط ههنا الصبر، والمربوط عليه اليقين والإيمان، والرابط هو اللَّه عزوجل»(٤). وعدِّي الفعل بـ ﴿عَلَىٰ﴾ خلافًا لمقتضى الظاهر من تعديته دونها (ربطنا قلوبهم)؛ إيذانًا بأنَّ النعمة التي أفرغها اللَّه على قلوبهم قد بلغت الكمال فتمكَّنت من قلوبهم وعلتها، فلا سبيل لتسرُّب الخوف، أو نفوذ الضعف والوهن إليها(٥)، ولعلَّ استعارة الربط من هذه الصورة أقرب وأجمل من استعارتها من ربْط الدابَّة بالحبل كما ذكر بعض المفسِّرين(٦)؛ إذ

---

(١) مدارج السالكين: ٣/ ٥٧.
(٢) المحرر الوجيز: ٣/ ٥٠١، وينظر: البحر المحيط: ٦/ ١٠٥.
(٣) ينظر: حاشية ابن التمجيد: ١٢/ ٢٧، وحاشية القونوي: ١٢/ ٢٨.
(٤) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: ٧٠.
(٥) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٤/ ٣٧١، ومن أسرار حروف الجر: ١١٢.
(٦) ينظر: حاشية ابن التمجيد: ١٢/ ٢٧، وحاشية شيخ زاده: ٥/ ٤٥٣، وعناية القاضي: ٦/ ١٤٠، وحاشية القونوي: ١٢/ ٢٨.

تتقارب في الأُولى عناصر المعنيين الحقيقيّ والمجازيّ؛ فتكون الهيئة الجامعة بينهما المنتزعة من عدَّة عناصر (الوعاء والمثبِّت والشدّ) أقرب للاستدعاء.

وردت مادة (ربط) في القرآن مصحوبة بهالة من الشرف والفضل وكريم الخصال ووظِّفت فيما يحفظ للأمة سلامة عقيدتها، وحماية بيضتها[(١)]، واقترب منها في معنى إحكام الغلق وارتباط الإيقاع باللَّه ﷻ عند مجيئها مع القلوب كلٌّ مِن: الشدّ والطبع والختم، وشتَّان بين هذه وذاك!! فقد اختصَّ الربط بالقلوب المؤمنة لتقويتها والحفاظ على ما استُودع فيها من يقين واطمئنان، وجافى القلوب المريضة التي يقع عليها الختم والطبع والشدُّ. فشتَّان بين جراب مسك وجراب عفَن! قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧]، وقال ﷻ: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٩٣] والختم والطبع «التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يخرج منه شيء، ولا يدخله شيء»[(٢)]. فسَّرهما ابن جرير بـ«ما صحَّ بنظيره الخبر عن رسول اللَّه ﷺ... «إنَّ المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نُكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تغلق قلبه...»[(٣)]، فأخبر ﷺ أنَّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قِبل اللَّه ﷻ والطبع، فلا يكون للإيمان فيها مسلك، ولا للكفر منها مَخلَص... نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلي ما فيها إلَّا بفضِّ ذلك عنها ثُمَّ حلِّها،

---

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ١٨٩.

(٢) لسان العرب: ختم: ٢/ ٢٢١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (طبعة أحمد شاكر): ١٥/ ٩٧، رقم: ٧٩٣٩، وابن ماجه في السنن (طبعة: محمد فؤاد عبد الباقي) ٢/ ١٤١٨، رقم: ٤٢٤٤ من حديث أبي هريرة ﷺ ولم يذكر فيهما (حتى تغلق قلبه) «فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره اللَّه في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]» قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف اللَّه أنّه ختم على قلوبهم إلَّا بعد فضّ خاتَمه، وحلّ رباطه عنها»(١). وفي الشدّ على قلوب الكفّار قال تعالى على لسان موسى عليه السلام داعيًا على فرعون ومَلَئه: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس:٨٨] «أي: واشدُدْ على كفر قلوبهم حتى لا يخرج منها، كما يُشَدُّ على الأوعية بالأوكية حفظًا لما فيها. شبّه القلوب بالأوعية، وشبّه ما خلقه فيها من موانع الإيمان بالشدّ على وعاء جُعل فيه شيء»(٢).

عودة إلى النَّظم الكريم في سورة الأنفال نستكمل معه قصّة الأمَنَة والتثبيت يوم بدر، قال تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾. التغاير في طريقة نظمه يثير تساؤلًا عن سرّ إعادة لام التعليل بعد العاطف في ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ والاكتفاء به في ﴿وَيُثَبِّتَ﴾؟

يجيب عنه البقاعيُّ قائلًا: «أعاد اللام في ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ للإشارة إلى أنَّه المقصد الأعظم وما قبله وسيلة إليه، وعَطَف عليه بغير لام لازمَه من التثبيت، فقال: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ أي: بالربط أو بالمطر ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي: لعدم الخوف؛ فإنَّ الخائف لا تثبت قدمه في المكان الذي يقف به، بل تصير رجله تنتقل من غير اختياره، أو بتلبيد الرمل»(٣). وذكر أبوحيَّان أنَّ «التثبيت للأقدام معنويّ، والمراد به كونه لا يفرُّ وقت القتال»(٤). وعلى هذا يمكن اعتباره كناية يشترك في تصويرها المعنى الأصليُّ ولازمه، فالأصل ثبات أقدامهم في الرمل، حيث قال ابن كثير: «بعث اللَّه السماء وكان الوادي دهسًا، فأصاب رسول اللَّه ﷺ وأصحابه منها ماء لبَّد لهم

(١) جامع البيان: ١/ ٢٦٧.
(٢) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: ٧٠، ٧١، وذكر ابن جرير ما يوافق هذا المعنى فقال: «أي: اطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان» (جامع البيان: ١٢/ ٢٦٧).
(٣) نظم الدرر: ٣/ ١٩٣.
(٤) البحر المحيط: ٤/ ٤٦٩.

الأرض ولم يمنعهم من السير، وأصاب قريشاً منها ماء لم يقدروا على أن يرتحلوا معه»[١] ولازِمُ ثبات الأقدام قوّة القلوب وهي الطُّمأنينة والتماسك، من قولهم: رَجُلٌ ثابت القَدَمَ وثَبْت الجَنان وثَبْت وثَبِيت مِن رجال ثُبَّت، أي: متماسكون شجعان[٢].

وقد ورد التثبيت في البيان القرآنيّ للفؤاد كما في خطابه تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. وقوله عزَّ مِن قائل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

لا يخفى ما في قصص السابقين ونزول القرآن منجَّمًا حسب الحوادث من تثبيت ومواساة للحبيب ﷺ، وهذا يجعله ثابت الجَنان راسخًا رسوخ الإيمان الذي يعمر قلبه، فيصمد في مواجهة العواصف والفتن، لا كالأفئدة الهواء تذروها الرياح حيثما هبَّت. فقد استُعير التثبيت هنا لطمْأنة القلب وتهدئة روعه، بجامع الاستقرار في كُلٍّ، على سبيل الاستعارة التبعيَّة. وفي إيثار لفظ الفؤاد هنا على القلب لطيفة، فالفؤاد -كما تقدم[٣]- موطن الإحساس، فلا بدَّ أن يعتريَه بعض الخوف الجاري على البشر تجاه بعض الشدائد، إلَّا أنَّ الرحمة الإلهيَّة تتداركه باليقين والصبر، فيسكُن ويزداد يقينه؛ فتكاثُر الأدلَّة أثبت للقلب وأرسخ للعلم[٤].

وردت استعارة الربْط على القلوب في موضعين آخرين:

أحدهما: قول اللّه تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) البداية والنهاية: ٣/ ٢٦٦.
(٢) ينظر: أساس البلاغة: ثبت: ٤٢، ولسان العرب: ١/ ٣٢٥.
(٣) سبق بيانها ص١٧٩.
(٤) ينظر: الكشاف: ٢/ ٢٣٩، ونظم الدرر: ٣/ ٥٩١.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] في قصَّة أصحاب الكهف الذين هجروا ما عمَّ زمانهم من ضلال، واتجهوا بيقين قويٍّ إلى اللَّه، فأمدَّهم بألطافه الربانيَّة وربط على قلوبهم فاستمسكوا بإيمانهم، واعتصموا بربهم وصبروا على هجر ديارهم، ومفارقة ما هم فيه من خفض العيش[١]، «فكأنَّ الإيمان قد سكن وعاء القلوب؛ فربط اللَّه تعالى بالصبر حتى لا يخرج من وعائه الذي استقرَّ فيه واطمأنَّ؛ فلا يتشعشع أمام أيِّ حادث»[٢].

وهكذا كان للربط على قلوبهم أثر واضح في وصولهم إلى مرفأ الأمان، فإذا بهم يجاهرون بإيمانهم متَحدِّين قُوى الشركِ، بقلوب ثابتة راسخة، مطمئنَّة إلى الحقِّ الذي عرفتْ، معتزَّة بالإيمان الذي اختارت.

والموضع الآخر: قول المؤمن ﷻ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: ١٠]. في قصَّة أمِّ موسى عليه السلام بعد أنْ طار فؤادها فزعًا، وقد ألقت في اليمِّ فِلْذة كبدها، وكادت تخور قواها فتكشف السرَّ رغمًا عنها، ولولا أن تداركها اللَّه فثبَّتها في محنتها لأسلمت وليدها إلى الموت بنفسها. لقد سكن اضطراب قلبها بالإيمان وحُسن التوكُّل على اللَّه، والثقة في وعده بردِّه[٣].

وتتجلَّى رحمة اللَّه بعباده المؤمنين في نصره الدائم لهم مع تذكيرهم بأنَّ كلَّ ما حازوه مِنَّة من عنده - جلَّ شأنه- تهبط عليهم مع المدد السماويِّ، ففي بدر وأُحد كانت الأمَنَة، وفي مواقع أخرى كان إنزال السكينة على المؤمنين عاملًا مهمًّا في النصر، كما حكى القرآن عنه يوم حُنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى

---

(١) ينظر: مدارج السالكين: ٣/ ٥٧.
(٢) المعجزة الكبرى: ٢٢٧.
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٩٩٨، وتيسير الكريم الرحمن: ٦١٣.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]. حين غرَّتهم كثرة عددهم حتى إنَّ منهم مَن قال: لن نُغلَب اليوم مِن قِلَّة، وإذا العليم الحكيم ﷻ يبيِّن لهم أنَّ القوَّة وحدها لا تكفي، ما لم يعضدها ثقة تامَّة بنصر اللَّه وحوله وقوَّته. وإذ بالدائرة تدور عليهم، فينكشفون مولِّين الأعداء أدبارهم! وسرعان ما يكشف القدير ﷻ نازل البلاء عنهم بإنزال سكينته[١]. وفي إظهار ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على خلاف مقتضى الظاهر في إضماره بأن يقال: (عليكم)؛ إشارة إلى أن ذاك التشريف قد خصَّ من ثبت منهم ممن يستحقُّ اسم المؤمن الحقيقيّ[٢].

وقد نزلت السكينة على النبيِّ ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه في الغار، يوم سمع أبوبكر رضي الله عنه أقدام المشركين فوق الجبل، فتناوشته الهموم والمخاوف على صاحبه وذاك أقصى السموّ البشريّ. وبجواره الحبيب ﷺ يحسُّ بكلِّ نبضة من قلبه الكبير، وبكلِّ هاجس خوف يهتزُّ له فؤاده؛ فيطمئنه بعبارة تفيض ثباتًا ويقينًا ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٣]؛ فيحقِّق الرحيم ﷻ ظنَّه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ووردت ثلاث آيات في وصف أحداث الحديبية العصيبة يوم كان المسلمون بحقٍّ في أمسِّ الحاجة إلى الطُّمأنينة والأمان.

أُولاها: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] يومئذْ صُدَّ المؤمنون عن البيت الحرام، فدخل عليهم من ذلك أمر عظيم اضطربت له قلوبهم، وأخذتها الحميَّة الإيمانيَّة حتى كادوا يهلكون[٤]. وفي تخصيص القلوب باستقبال السكينة، وتعدية الإنزال بـ ﴿فِى﴾ دون (على)

---

(١) ينظر: جامع البيان: ١١/ ٣٩٥، ومعالم التنزيل: ٥٤٦-٥٤٩.
(٢) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٣٣.
(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٧٩١، والمعاني الثانية في الأسلوب القرآني: ٣٨٢، ٣٨٣.
(٤) ينظر: جامع البيان: ٢١/ ٣٠٩، ٣١٠.

لطيفة، فقد كان المسلمون بحاجة حقَّة إلى السكينة تتغلغل في قلوبهم، كيف لا وقد خرجوا واثقين من الفتح لا سيما بعد رؤيا النبيِّ ﷺ[١]! فكانت السكينة رحمة أنزلها اللَّه في قلوبهم، تهيِّئها للصبر والاطمئنان إلى ما يأمرهم به رسوله ﷺ؛ ليرسخ فيها الإيمان، ويعمرها الرضى والاطمئنان، فيدرك أصحابها فضل الإيمان بعد الكفر، والأمن بعد الخوف، والهدنة غِبَّ القتال.

والثانية: قول اللَّه ﷻ: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [الفتح:١٨]. نزلت فيها السكينة على المؤمنين حين استنفرهم النبيُّ ﷺ للقتال ودعاهم إلى مبايعته بيعة الرضوان؛ فبايعه الصفوة على أن يناجزوا قريشًا، ولا يفرُّوا فعلم اللَّه منهم صفاء الطويَّة وصدق النيَّة على الوفاء بالبيعة والطاعة والتسليم ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ طمأنينة وثباتًا على الحقِّ الذي هداهم إليه[٢].

والثالثة: قول اللَّه ﷿: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٦] وفيها تذكير بتعنُّت المشركين وصلفهم في صلح الحديبية، وتمسُّكهم بجاهليَّتهم حين أَنِفوا كتابة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في افتتاح وثيقة الصُّلح -كما أمرهم النبيُّ ﷺ - ولم يقرُّوا بأنَّه رسول اللَّه، وحالوا بين المسلمين وبين البيت ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ على المؤمنين؛ فكظموا غيظهم أمام تلك الاستفزازات؛ وانصاعوا لأمر نبيِّهم ﷺ مع كرههم الصلح[٣].

تتمثَّل السكينة في هذه الآيات في صورة حسِّيَّة بديعة بالاستعارة المكنيَّة، فهي

---

(١) ينظر: البداية والنهاية: ٤/ ١٧٠.
(٢) ينظر: جامع البيان: ٢١/ ٢٧٣-٢٧٨، ومعالم التنزيل: ١٢٠٤، ١٢٠٥.
(٣) ينظر: البداية والنهاية: ٤/ ١٧٧- ١٧٩.

من جند اللَّه يثبِّت بها أولياءه؛ إنَّها مدد ربَّاني كالغيث ينزل من عوالم علويَّة مشرَّفة في وقت تشتدُّ حاجة النفوس إليه فيحييها، ويُزيل ما انتابها من خوف واضطراب ويغرس فيها الأنس باللَّه والثقة بقضائه، والاستظهار بعونه كلَّما راب أمر أو أظلم أفق. ويتوارى ذلكما التخييل والجمال بكلِّ تأكيد لو قيل: فطمأنهم أو أسكن نفوسهم.

ويرتبط نزول السكينة في الكتاب العزيز بالنبيِّ ﷺ والمؤمنين من أمته، وقد وردت في حقِّ مؤمني بني إسرائيل في قول اللَّه ﷻ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

يحكي القرآن أنهم لم يطمئنُّوا إلى ما أخبرهم به نبيُّهم عن طالوتَ واصطفائه للملك، وما هيَّأ اللَّه له من مقوِّماته كقوَّة الجسم والعقل والقُدرة على سياسة الأمَّة؛ وأبَوا الانضواء تحت رايته تعنُّتًا ولجاجة كعادتهم. فجعل اللَّه أمارة ملكه آية محسوسة يجدونها بين أيديهم، هي عودة التابوت الذي أخذ منهم، فيه بقيَّة مما ترك آل موسى وآل هارون، كانوا يقدِّمونه معهم في غزواتهم، ويستنصرون به على أعدائهم -كما قيل-؛ فتسكن نفوسُهم وتأمن فلا يفرُّون. فلمَّا فُقِد منهم أصبحوا لا يجرؤون على ملاقاة عدوٍّ![(١)]

وفي قوله: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ مجاز[(٢)] فالتابوت لم يأتِ بنفسه، إنما حملته الملائكة، بيْد أنَّ الإتيان أُسند إليه في أوَّل الأمر؛ فشُبِّه بمن يكون منه الإتيان بطريق الاستعارة المكنيَّة الدالَّة على عناية خاصَّة من اللَّه، أعاد بها لأولئك

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٤/ ٤٦٦، وتيسير الكريم الرحمن: ١٠٨، وتفسير القرآن الكريم (سورة البقرة) لابن عثيمين: ٣/ ٢١٩.
(٢) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٢/ ٦٠٥.

القوم ما فقدوه بعد بحث طالما أضناهم، علَّهم يؤمنوا! فهل فعلوا؟

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ المراد: اطمئنان النفوس وهدوؤها لرؤية ما عرفت من آيات[١]، وبالاستعارة المكنيَّة جُعلت تيك السكينة المعنويَّة المدرَكة شيئًا مشاهَدًا يجدونه في التابوت مع سائر مفقوداتهم، عسى أن يؤثِّر في نفوسهم. وفي اصطفاء الحرف (في) إيماء إلى التمكُّن والظرفيَّة، بخلاف ما لو عُبّر بحرف المصاحبة (مع) أو الاستعلاء (على). والتنكير في ﴿سَكِينَةٌ﴾ وتخصيصها باللَّه تشريف لها وتعظيم لشأنها، وفي اصطفاء اسم الربِّ وإضافته إلى ضمير المخاطبين ﴿رَّبِّكُمْ﴾ إشعار بإحسانه وتربيته باللُّطف[٢].

وصورة أخرى للأمن فيها لفتة حانية من المؤمن المحسن ﷻ إلى كليمه عليه السلام حينما ناله فزع من الآيتين اللتين جرتا على يده، يتولَّاه البرُّ الرَّحيم عز وجل بعطفه فيمَّحي كلُّ ما اعتراه، ويوجِّهه إلى ضمِّ يده إلى صدره ليسكن اضطرابه وتطمئنَّ نفسه[٣]: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]. فهنا استعارة من حال الطائر صارت مثلًا في الأمن وكناية عنه[٤]، وكأنما الخائف طائر، ويده جناح، والخفَقان رفرفة، والاطمئنان يُشبِه قبْض الجناح[٥]، ويتجلَّى الإبداع في انتقاء تيك العناصر وصياغتها نظمًا بديعًا صوَّر الهيئة النفسيَّة الحاصلة من «جلادته عليه السلام عند ظهور مثل هذه الأمور العجيبة، وضبط نفسه عند الاضطراب بالهيئة المنتزعَة من الطير وضمِّ جناحيه عند أمنه عن المخاوف»[٦].

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٤ / ٢٧٢، ومعالم التنزيل: ١٥١.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ١/ ٤٧٤.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١٨/ ٢٤٥، ومعالم التنزيل: ٩٨١ .
(٤) ينظر: حاشية ابن التمجيد: ١٤/ ٥١٠، وحاشية شيخ زاده: ٦/ ٤٤٧، وحاشية القونوي: ١٤/ ٥١١، والتحرير والتنوير: ٢٠/ ٥١.
(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٤٦.
(٦) حاشية القونوي: ١٤/ ٥١١.

وبتدبُّر هذا المعنى ترتسم صورة تنبض بلاغة، تحفُّها معاني القدرة والرحمة والاحتفاء بشخصية أعدَّها اللَّه لحمل رسالته. ولعلَّ في الأداء الصوتيِّ لكلمة ﴿ٱلرَّهْبِ﴾فضلَ طاقة تشفُّ عن المعنى حين تتوسَّط الهاء الساكنة الضعيفة بين راء مشدَّدة مفخَّمة مكرَّرة يرتعد اللسان عند النُّطق بها، وباء مُقلقلة شديدة مجهورة تنضمُّ لها الشفتان كما ينضمُّ الجناحان أمنًا.

المجاز المرسَل:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٩].

يا لهؤلاء المنافقين!! حتى لدى تلقِّي القرآن الكريم تعتري نفوسهم المراض شُبَه وشكوك تجاه زواجره وهي تقرع آذانهم، وتخلع بالوعيد قلوبهم! ثُمَّ لا يرون من نور أدلَّته القاطعة، وبراهينه الساطعة، وأوامره العظيمة، سوى العقوبات والمثلات التي تجمع إلى ظُلمة نفاقهم وكفرهم وَحشة التوجُّس والخوف. وفي الآية تمثيل لذاك الحال بحال جَهَلة أصابهم غيث يسقي جدب أراضيهم، فلم ينلهم منه إلا ظلمات أرعبتهم، ورعد أزعجهم، وبرق سلب أبصارهم العمياء! وإذا المخاوف تستبِدُّ بهم؛ فيزدادون تخبُّطًا بين النَّافع والضَّارِّ، وإذ باستجابة شاذة صَدَقت في تصوير جُبنهم الواضح وجهلهم المطبِق! فهاهم أولاء يسدُّون آذانهم فرارًا من هول الموقف! أوَ يستوحش مَن علِم خيرات القرآن وإحياءه القلوب بأيِّ من ذلك، أم يأنس به ليقينه بما يحمل معه من خير وحياة[1]؟

والتشبيه تمثيليٌّ صوَّر الهيئة المنتزعَة من حال جَهَلة تنزَّل عليهم مصدر للخير

(١) ينظر: الوابل الصيب: ٦٨، وأضواء البيان: ١/ ٥٤، وتفسير القرآن (سورة البقرة) لابن عثيمين: ١/ ٦٧.

والحياة؛ فما أفادوا من كلِّ خيراته إلّا الوحشة والمخاوف. وهذا التمثيل البديع قابل للتفريق إلى أجزاء: فالصيِّب القرآن، والرَّعد زواجره ووعده ووعيده، والبرق أوامره وأدلَّته الساطعة، والصواعق الآيات التي تفضح مكنون صدور مَن يبيِّتون ما لا يُرضى من القول.

هكذا نقف على جلال التمثيل في القرآن ودِقَّته في تصوير إطباق هذا الهول على منافذ حسِّهم، فيعمّ بيانه كلَّ دقيق وجليل، ليوفِّي الصورة حقَّها من التهويل والتفظيع[١].

- في اصطفاء لفظ (صيِّب) بكلِّ قوَّته التي تبرز مع حرف الصاد المطبَق المستعلي الصافر، وتقوية الياء الحرف الليِّن المستفل بتضعيف منحه فضل قوَّة في تصوير المعنى، تلاه الباء الشديد المقلقَل فأتمَّ جماله. ففي جرس اللفظ وتنكيره إيحاء بعظمته وشدَّته؛ إذ فاض من أرجاء السماء وغمر الوجود[٢].

- لا يخفى الإيجاز البديع في ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ «إذ أصله؛ أو كمثل ذوي صيب، فحذف ذوي لدلالة ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ عليه»[٣].

- تتجلَّى بلاغة الإطناب في قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ إذ من المعلوم أنَّ الصيِّب لا يأتي إلَّا من السماء، لكنَّها ذُكرت تشريفًا للمنزَّل، وإعلاءً لشأنه، كما لا يخفى ما يوحي به من علوٍّ شاهق، ينزل منه مطر دافق[٤]، يشعرون معه برعب يملأ الخافق!

- فيه ظلمات ورد ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾كم وراء هذه الظرفيَّة من تهويل

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١/ ٧٢ .
(٢) ينظر: أسرار التنوع في تشبيهات القرآن: ٢١٣.
(٣) الإيضاح: ٢٩٩، ٣٠٠.
(٤) ينظر: من بلاغة القرآن: ٣٣.

وتعظيم! كيف لا وقد جُعل الصيِّب مقرًّا لكلِّ هذا، فكأنما سكنته تيك المخاوف، فهي تنزل معه من السماء، على سبيل المجاز المرسَل لعلاقة المصاحَبة[١]؟ ثم إنَّ وراء هذه الظلمات والظواهر المصاحِبة لإيحاشٌ وغُمَّةٌ تغمر نفوس المنافقين، وأُنس لأولي الألباب الذين يعرفون دلائلها ومعطياتها.

- يضفي التعبير بالنكرات ﴿ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ مزيدًا من الرهبة والوحشة على الموقف؛ فالتنوين يفيد التهويل، فكأنما قيل: برق هائل، أو النوعيَّة ليكون المنكَّر نسيجَ وحدِه، مباينًا سائر أنواع جنسه[٢].

وهنا تساؤل عن سرِّ إتيان النكرة ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ على الجمع، ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ على الإفراد، مع إنَّ مقام المبالغة في تصوير شِدَّة ما أصابهم من الفزع والذعر يقتضي جمعهما كذلك؟

يجيب عنه ابن التمجيد (ت٨٨٠هـ) بأنَّ «لفظ ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ وهو جمع منكَّر مراد منه أنواع من الظلمات لا يُكتنه كنهها، ففي تنكير الجمع من المبالغة ما ليس في تنكير المفرد، فإنَّه يفيد التهويل فقط لا الكثرة والجمع... بخلاف النكرة المفردة؛ فإنها موضوعة للجنس والحقيقة من حيث هي؛ فلا كثرة فيه، وإنما الكثرة في أفراد الجنس»[٣]. ويتنبَّه الشهاب الخفاجيُّ إلى نكتة خفيَّة لهذا الإفراد في إثبات تكاثف الظلمات؛ وهي «أنَّ الرعد كما... جرت به العادة يسوق السحاب من مكان لآخر، فلو تعدَّد وكثرلم يكن السحاب مطبِقًا، فتزول شِدَّة ظلمته، وكذا البرق لو كثر لمعانه لم تطبِق الظُّلمة، كما يشير إليه قوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ فإفرادهما متعيِّن هنا. وهذا مما لمعت به بوارق الهداية في

---

(١) ينظر: النهر الماد: ١/ ٨٤، ٨٥.

(٢) ينظر: حاشية ابن التمجيد: ٢/٢٩٥، ٢٩٦.

(٣) السابق: ٢/٢٩٦.

ظلمات الخواطر»[١]. وما أبلغ هذا التفنُّن في العبارة القرآنيَّة!

وثَمّ نكات لطيفة في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾:

- تفضح هذه الجملة الحاليَّة ما يعتمل في نفوس المنافقين من فَرَق وذُعر.

- أوثر ﴿يَجْعَلُونَ﴾ على ما يقارب معناه كيُدخلون أو يضعون وفي هذا دقائقُ قد لا يُنتبه إليها، فجَعْلُ شيء في شيء أدلُّ على الإحاطة من الإدخال فيه[٢]، كما أنَّ في معنى ﴿يَجْعَلُونَ﴾ «إشارة إلى أنَّ أصابعهم لطول ما صارت في آذانهم، أصبحت كأنها مركَّبة معها. أمَّا الوضع فلا يُستفاد منه هذا الثبات والاستمرار»[٣]. و «اختير المضارع إمَّا للاستمرار، أو لحكاية الحال الماضية استحضارًا لتلك الحالة الشديدة الشنيعة»[٤].

- أُريد بـ ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾ أناملهم فهي- لا الإصبع كلّها - ما يُجعل في الأذن. وفيه اتِّساع من إطلاق الكلِّ على الجزء. فكأنهم لفرط انزعاجهم، وارتعاد فرائصهم لا يكتفون بالأنامل، بل لو أمكنهم إدخال أصابعهم كلّها لفعلوا[٥]. كما أنَّ فيه إيماءً إلى تملُّك حَيرتهم وفرط دهشتهم، وبلوغهم حيث يضلُّون استعمال جوارحهم كالمعتاد[٦]، «وفيه إشارة إلى مبالغة أخرى من فرط دهشتهم حيث يظنُّون مالا ينفع نافعًا»[٧].

ويتدرَّج التصوير من حركة آليَّة خارجيَّة محسوسة، تمثِّلها حركة أصابع

---

(١) عناية القاضي: ١/ ٦١٥.
(٢) ينظر: السابق: ١/ ٦١٨.
(٣) من بلاغة القرآن: ٣٣، ٣٤.
(٤) حاشية القونوي: ٢/ ٣٩٩.
(٥) ينظر: البحر المحيط: ١/ ٨٦.
(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١/ ٧٤.
(٧) روح المعاني: ١/ ١٧٦ .

مضطربة تَلِج آذانًا منزعجة، إلى ما تنطوي عليه من حركة قلوب وجِلة ترجُف حذر الموت.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: «أي: لأجل قوتها؛ لأنَّ هولها يكاد أن يصمَّ»(١).

﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ «مفعول لأجله، وهو هنا علَّة وغاية معًا»(٢). يدلُّ على شِدَّة الجبن في تمثُّل الموت لهم، وإحساسهم بكمونه في كلِّ موقف، وتمسُّكهم الشديد بما يظنُّونه حياة، وهو البقاء على الكُفر والنِّفاق.

وتُختَم الآية بما يتمُّ بيانها - كدأب المعجزة الفريدة!- ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وإسناد هذه الإحاطة إلى اسم الجلالة المفخَّم فيه من الجلال والرَّهبة وتهديد الكفَّار بسعة علمه وهول عذابه ما فيه! فلا يستطيعون الإفلات منه أينما ساروا! فهو محيط بأعمالهم جميعها لا يعزُب عنه مثقال ذرَّة، فسيوفِّيهم جزاءهم، وينزل عقوبته بساحتهم، إنْ عاجلًا أو آجلًا(٣).

وفي انتقاء كلمة (الكافرين) دون المنافقين دلالة عمليَّة وضعها عالم الغيب والشهادة أمامهم تحقيقًا لمعطيات تلك الصِّفة في بيان حقيقة حالهم التي لا تخفى عليه، مهما حاولوا المراوغة، فما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون! وفي وضعهم موضع الضمير إشعار باستحقاقهم ذيَّاك العذاب لكفرهم(٤).

ذلكم الجبن والخوف الذي يعتريهم ما هو إلا غيض من عذاب الآخرة الذي يهول كلَّ كافر، فشتَّان بين آثار أهواله على البشر كما صوَّرها القرآن، وبين ما سواه من مخاوف الدُّنيا! قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾ [القيامة: ٧].

---

(١) نظم الدرر: ١/ ٤٩.
(٢) التحرير والتنوير: ١/ ٣١٥، وينظر: البيان في غريب إعراب القرآن: ٦٦.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١/ ٣٧٧، ٥/ ٧٢٥.
(٤) ينظر: روح المعاني: ١/ ١٧٦.

أصل البرْق ما يلمع في الغيم، ومنه يُقال: بَرَق النجم أو السيف أي: لمع، ومنه اشتق البُراق لنصوع لونه وشِدَّة بريقه، وقيل لسرعة حركته، أمَّا برِق يَبْرَق فهو بَرِقٌ فمعناه دهش وفزع[١]، قال البقاعيُ: «بَرِق الرجل إذا نظر إلى البرق فحسر بصره، وتفرَّق تفرُّق الشيء في المايع إذا انفتح عنه وعاؤه»[٢]، وعلى هذا ﴿بَرِقَ﴾ بالكسر من أحوال الإنسان، وإنما عُبِّر فيه بالبصر على سبيل المجاز المرسَل بعلاقة الجزئيَّة؛ لأنَّ الإنسان إذا بُهِت شخص بصره، وهذا على قراءة جمهور القرَّاء، أمَّا نافع فقرأها بفتح الراء ﴿بَرَقَ﴾[٣]، من البريق؛ أي: لمع شخوصًا[٤]، أو اضطرابًا من الخوف[٥]، وعلى هذه القراءة يحمل المعنى على حقيقته. ومآل القراءتين واحد في وصف مشهد رهيب للَّهول تظهر آثاره جليَّة على من يشهده، وإن اختلفت طريقتاهما حقيقة ومجازًا. وهنا يظهر تميُّز الألفاظ في البيان القرآنيِّ؛ فهي ليست وعاء معنى دقيق فحسب، بل مصدر صورة بأبعادها وظلالها وحيويَّتها. إنَّه إعجاز القرآن وكفى!

ويشعُّ لفظ ﴿بَرِقَ﴾ في سياقه راسمًا بمعناه وجرسه جانبًا كبيرًا من الصورة، فتشترك الباء والقاف في الشِّدَّة والجهر والقلقلة، ليُشعِرا باضطراب يسود الموقف، ينحبس له الصوت والنفس، وتشترك الباء مع الراء في الإذلاق والانفتاح، مما يوحي بالخفَّة والسُّرعة والتفرُّق.

أدَّى لفظ ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ وهو عامٌّ للعين والقلب[٦]- ما لا يؤديه (النظر) في هذا

(١) ينظر: لسان العرب: برق: ١/ ١٩٥.
(٢) نظم الدرر: ٨/ ٢٤٥.
(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر: ٢/ ٣٩٣ .
(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٣/ ٢٠٩، ومعترك الأقران: ٢/ ٨٧، ونظم الدرر: ٨/ ٢٤٥، والتحرير والتنوير: ٢٩/ ٣١٩.
(٥) ينظر: المفردات: ٥٤ .
(٦) ينظر: لسان العرب: بصر: ١/ ٢١٢.

السياق، ففيه تعميق للفزع يتجلَّى في الظاهر وفي أغوار النفس، بينما خَصَّص بعض اللغويِّين النظر بالعين فقط[١].

وقفة مع النظم:

- ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ أتت هذه الآية في ضمن الجواب عن سؤال من ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾ سؤال استبعاد وتهكُّم[٢]، وفي العدول في إجابته عن تعيين وقت القيامة إلى التهديد بأهواله[٣] يتجلَّى الأسلوب الحكيم في التعريض والتوبيخ للمفرِّط في توقِّي ذلك اليوم، المنشغل بما ليس من شأنه[٤]!

- تبايَنَ الأداء الصوتيُّ بين سؤال يُلمِح المدُّ فيه إلى استبعاد ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، وبين جواب يأتي سريعًا بحركات قصيرة تُنبئ عن حسم وسرعة، مصوِّرًا ما يجثم على الحواسّ والمشاعر الإنسانيَّة من أهوال[٥]. و﴿أَيَّانَ﴾ اسم يُستفهَم به عن تصوُّر حقيقة الزمن المستقبل، ولا يستعمل إلَّا فيما يُراد تفخيم أمره وتعظيمه[٦]، وفي وروده على لسان منكِر بالبعث دلالة على السخرية، التي انتقلت منه إليه في الجواب!

- عُبِّر بأداة التحقُّق (إذا) ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ للدلالة على خطب جلل انقلبت له نواميس الكون وأحوال الإنسان[٧]. وأتى فعلها ماضيًا ليؤكِّد تحقُّق الوقوع واصفًا ما يحدث يوم الفزع الأكبر ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: ٧-٩].

---

(١) ينظر: لسان العرب: نظر: ٦/ ٢١١.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٨/ ٢٤٥.
(٣) ينظر: السابق: ٨/ ٢٤٥، والتحرير والتنوير: ٢٩/ ٣١٩.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣١٩.
(٥) ينظر: في ظلال القرآن: ٨/ ٣٨٠.
(٦) ينظر: شرح المفصل: ٤/ ١٠٦، والطراز: ٣/ ١٥٩.
(٧) سبقت الإشارة إلى معناها، وفرق الدلالة بينها وبين (إن) ص١٤١.

- ضرب التعبير بصيغتي المضارع والماضي على خلاف مقتضى الظاهر بسهم وافر في التصوير، فعن الحالة الماضية عُبِّر بالمضارع ﴿يَسْـَٔلُ﴾ لاستحضارها في الذهن وتجدُّدها، وعن المستقبل عُبِّر بالماضي ﴿بَرِقَ﴾ لإثبات وقوعه، وبهما سُلِّط الضوء على حالين متباينين لمنكِر القيامة! أمنٌ في الدنيا، ثم فزعٌ حين تحيط به أهوال تفجؤه بأمر طالما أنكره. فأين كلُّ ذلك الغرور والاستبعاد؟ أين ذاك الاستهزاء؟ ما باله تبدَّل ذُلًّا ورُعبًا؟ لقد أضحى ذلك المستهزئ صورة متحرِّكة في موقف أنكره، فأمسى محلَّ السخرية وهو يبذل شتَّى وسائل النجاة هربًا وبحثًا عن أمان، ولات حين مناص! فتنفجر من أعماقه صرخة يأس وارتياع ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ وهذا الأسلوب الإنشائيُّ يدعم النقل الحيَّ للمشهد، فكأنَّنا نسمع صوته ونراه يتلفّت يمنة ويسرة، فإذا كلُّ سُبل النجاة مسدودة. وما كانت بلاغة الصورة لتبرز لولا تنوُّع العرض خبرًا وإنشاءً، مضارعًا وماضيًا في هذا البيان الفريد.

- إصابة المحزِّ بأخصر عبارة وأقصر طريق، فهاهي ذي الأهوال تترى في آيات قصيرة معجِزة يمتزج أداؤها الصوتيُّ مع المعنويِّ، وتُختَم فواصلها بالرَّاء المذلَقة المفخَّمة وصلًا ووقفًا، الموسومة بالتَّكرار، فيرتعد اللسان لدى النطق بها.

- التناسب الواضح بين اسم السورة ومضمونها.

لَمَّا كانت أهوال القيامة ماثلة في حسِّ المسلم، كان عليه تجديد الإيمان والتوبة في كلِّ حين، خوفًا من المعاصي، وسعيًا للحصول على الطمأنينة والأمان كمن عنَتْهم الآية الكريمة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

نزلت هي وسابقتها في قوم تخلَّفوا عن غزوة تبوك، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد، بعد أن آداهم(١) لذع الذنب وتأنيب الضمير، فلمَّا رآهم النبيّ ﷺ سأل

---

(١) آداه الأمر: كثر عليه فغلبه (ينظر: لسان العرب: أدا: ١/ ٥٤).

عنهم، فذُكر له أنهم عاهدوا اللَّه بعدما كان منهم أن يوثقوا أنفسهم أو يُعذروا. فأرجأ المصطفى ﷺ الحكم فيهم، حتى إذا أُنزلت الآية أطلقهم وعذرهم، فأرسلوا إليه بأموال يتصدَّق بها عنهم، وسألوه الدعاء والاستغفار، فرفض أن يأخذ من أموالهم شيئًا؛ إذ لم يؤمر به[(١)]. فنزلت الآية الكريمة لتفكَّ أسرهم معلنة قبول توبتهم.

تأمَّل التناسب بين اسم السورة ومضمونها في هذا الكتاب المعجز!

لقد عفا اللَّه عنهم لِما علم من حُسن سريرتهم، ولم يأمر نبيَّه الكريم ﷺ أنْ يأخذ صدقاتهم فحسب، إنما أراد الغفور الرَّحيم ﷻ أن يُسكِن تلك النفوس المرهَفة، ويفتح لها من أبواب الأمن والطمأنينة ما أوصدته الهموم والمخاوف، فأمر مصطفاه ﷺ بالدُّعاء لهم[(٢)].

وقفة مع النظم:

- في قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، المعنى «واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم»[(٣)]. وفيه تشريف وتكريم وبشرى بقبول توبتهم، ومحو ذنوبهم. فسبحان ذي الفضل العظيم!

---

(١) رواه ابن جرير في جامع البيان: ١١/٦٥٨، ٦٥٩، والبيهقي في دلائل النبوة: ٥/٢٧٢، وأبو الشيخ وابن منده في الصحابة، كما في لباب النقول للسيوطي، وقال: «إسناده قوي»، ونقله صاحب كتاب صحيح أسباب النزول: ١٣٤، وقال: «الحديث صحيح لشواهده».

(٢) ينظر: معالم التنزيل: ٥٨٠، والمحرر الوجيز: ٣/٧٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٩٢٦.

(٣) أنوار التنزيل: ٣/ ١٧٠، «فالصلاة هنا بمعناها اللغوي، لا الصلاة المخصوصة بصفتها الشرعية المعروفة. والقرينة الشرعية الصارفة إلى هذا المعنى هي ما أخرجه الشيخان من حديث عبد اللَّه أبي أوفى قال: كان رسول اللَّه إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللَّهم صل على آل أبي أوفى» الاختلاف المذهبي وأثره في التفسير (رسالة دكتوراه مخطوطة): ٢٨٤. والحديث أخرجه البخاري: ١١٨، رقم: ١٤٩٧، ومسلم: ٨٤٩، رقم: ٢٤٩٢.

- عُدِّي ﴿وَصَلِّ﴾بـ (على) لِمَا فيه من معنى العطف، وإلَّا فالدعاء لا يتعدَّى به إلَّا للمضرَّة[١].

- في قوله: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تعليل بديع[٢]، فيه اطمئنان القلوب بقبول توبتها؛ لتسكن نفوس أسرها الخوف، وكبَّلها الإحساس بالذنب. أوَ تطمئن نفوس ألِفَت الذُّرا إنْ انحطَّت دونها؟ أوَ ترضى البقاء في شراك المعصية؟ لا، حتمًا، فهاهي ذي تسعى جاهدة لاستعادة ما كانت عليه، وليس ثمة ما يحلق بها صُعُدًا سوى الدعاء والاستغفار.

- ﴿سَكَنٌ﴾ السَّكَن من السُّكون وهو ضدّ الحركة، يقال سَكَن الشيء يَسْكُن سُكُونًا إذا ذهبتْ حركته، وسَكَن الرجل إذا سكت أو هدأ بعد تحرُّك[٣]، وفي جعل الدعاء سكنًا مجاز مرسل علاقته المسبَّبية، إذ السَّكَن مسبَّب عنه. مشتقٌّ من السُّكون بالمعنى المجازيِّ، أي سكون النفس وسلامتها من الخوف الذي يؤدِّي إلى اضطرابها[٤]، وفي أصواته ما يوحي بمعناه فهمس السين والكاف يرسم هدوء الموقف، وينساب المعنى في النفس مع حرف النون المستفل انسياب النمير العذْب.

- في تقييد ﴿سَكَنٌ﴾ بـ ﴿لَّهُمْ﴾ إيحاء بتكريمهم، وإيذان بصدق توبتهم، مما يجعل قلوبهم تتلهَّف إلى دعاء النبيِّ ﷺ ترى فيه موئلًا حانيًا يُسكِن ما أضناها من قلق الإحساس بالذَّنب. وهنا تتجلَّى سَعة رحمة الرَّبِّ - تبارك وتعالى - وجليل عفوه. فعلام ييأس العُصاة؟ ألا فلتمتلئ النفوس أملًا بالتوبة، فهي تضفي على

---

(١) ينظر: عناية القاضي: ٤/ ٦٣٢، وحاشية القونوي: ٩/ ٣٢٨، وروح المعاني: ٦/ ١٥.
(٢) ينظر: روح المعاني: ٦/ ١٥.
(٣) ينظر: لسان العرب: ٣/ ٣١١.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠/ ١٩٦.

النَّفْس أمنًا واستقرارًا.

- تُذيِّل الآية بما يناسب مقام الاعتراف بالذَّنب والتوبة والدُّعاء بإسناد السَّمْع والعِلم إلى اللَّه ﷻ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فهو ﴿سَمِيعٌ﴾ لكلِّ ما يُسمع من اعتراف بالذُّنوب وتوبة ودُعاء، ﴿عَلِيمٌ﴾بكلِّ ما في الضمائر من غمٍّ وندم وإخلاص[١]. ناهيك عمَّا في اجتماع السَّمْع والعِلْم من مزيد كمال، فصفة السَّمْع تنبئ عن إحاطة بالمسموعات، واقتران العِلْم بها يدلُّ على تجاوز السَّمْع حدود البُعد الماديِّ للمسموعات ليضفي إحاطة أقوى؛ إذ إنَّ متعلَّق صفة العلم أوسع من متعلَّق سابقتها[٢]، والملحوظ أنَّ اسم (السميع) حيثما ورد مع اسم (العليم) قُدِّم عليه، وفي ذلك لطائف منها:

- أنَّ السمع يتعلَّق بما يصدر عن اللِّسان أشدِّ الجوارح تأثيرًا في الخير والشرِّ، فتقديم الصفة المتعلِّقة به أهمُّ وأولى[٣].

- أنَّ لتقديمه «في مقام الدُّعاء أثره في انطلاق اللسان بالدُّعاء والطلب حين يستشعر الداعي أنَّه يخاطِب من يسمعه ويُصغي إلى نجواه»[٤] ويستجيب له.

وصورة أخرى تشعُّ أمنًا امتنَّ اللَّه به على عباده: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] تذكير بمنَّته وفضله؛ إذ هيَّأ أسباب الأمن في البيت الحرام في زمن استبدَّ فيه الخوف، مما يدلُّ على تشريفه لهم؛ فلم يكُ أمنهم لقِلَّة البُغاة بل حماية إلهيَّة وموهبة ربانيَّة أفاضها الوهَّاب ﷻ عليهم[٥]، لقد أراد اللَّه بيته مزارًا

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل: ٣/ ١٧٠، وإرشاد العقل السليم: ٣/ ١٨٨.
(٢) ينظر: مطابقة أسماء اللَّه الحسنى مقتضى المقام في القرآن: ٢٤٧.
(٣) ينظر: بدائع الفوائد: ٦٤.
(٤) مطابقة أسماء اللَّه الحسنى مقتضى المقام في القرآن: ٢٤٨.
(٥) ينظر: عناية القاضي: ٢/ ٣٨٥.

تهفو إليه أفئدة الناس آمنين على أرواحهم وأموالهم، فلا يروعهم فيه أحد.

وقفة مع النظم:

- ﴿جَعَلْنَا﴾أي: صيَّرنا البيت مثابة للناس وأمنًا، وذلك بما أوجده اللَّه من أسباب الأمن، وما أودعه في النفوس من تعظيم للبيت الحرام، وما يسَّر مِن دوام معاودته، وكذلك بأمر خليله عليه السلام بتعظيمه فأبلغه ذريته، ثم تلقَّاه أعقابهم تلقِّي المسلَّمات، فدام الأمن فيه على مرِّ العصور إلى أن أغنى اللَّه عنه بما شرع من أحكام الأمن في الإسلام[١]. وفي إسناده إلى ضمير العظَمة إيحاء بعلوِّ منزلة البيت الحرام، وعِظَم مُنشئه جل جلاله .

- ﴿ٱلْبَيْتَ﴾عَلَم بالغَلَبة على الكعبة المعظَّمة، فتلزمه اللام أو الإضافة[٢].

- ﴿مَثَابَةً﴾ أي مرجعًا للناس يأخذ بمجامع قلوبهم، فلا يقضون منه وطرًا، يقصدونه كلَّ عام، ويرجعون إلى أهليهم، ثم يأخذهم الحنين فيعودون إليه[٣]، والمثابة كالمثاب اسم مكان مِن ثاب يَثُوب إذا رجع، والهاء للمبالغة لكثرة مَن يثوب إليه، وأصله مَثْوَبة فأُعلَّ فصار ﴿مَثَابَةً﴾[٤]. «وفي صيغة مَفْعَلة دوام المعاودة والمثابرة»[٥]، فكلَّما لاحت لهم منائره قادمين أو راحلين زاد اشتياقهم.

- ﴿وَأَمْنًا﴾مصدر عُطِف على ﴿مَثَابَةً﴾ وأُطلق على ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ على سبيل المبالغة لدوام أمنه، فهو مجاز بمرتبتين أولاهما إطلاق المصدر على اسم الفاعل

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٦٩٠.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١/ ١٩٤، وعناية القاضي: ٢/ ٣٨٥.

(٣) ينظر: جامع البيان: ٢/ ٥١٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١١٧.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ١/ ٣٧٩، وحاشية القونوي: ٤/ ٢١٥، ومعجم مفردات الإبدال والإعلال: ٧٥ .

(٥) نظم الدرر: ١/ ٢٣٩.

على سبيل المجاز المرسَل أي: آمنًا[١]، والأخرى إسناد ما بُني للفاعل إلى ضمير المفعول فليس هو الآمن، إنما أهله. ويوضِّح معنى المجاز هنا قولُ القُونويِّ: «فإذا كان البلد بأسره حرمًا آمنًا، فالبيت العتيق كان عين أمْنٍ لكسب البلد الأمنِيَّة منه، أو يأمَن حاجُّه من عذاب الآخرة»[٢] إذ به تمَّحي الذنوب إلّا أن يُحبَط بعمل سوء.

- «ولم يذكر ﴿لِلنَّاسِ﴾هنا كما قيل من قبل اكتفاء به، أو إشارة إلى العموم؛ أي: أنَّه أمن لكلِّ شيء كائنًا ما كان؛ حتى الطير والوحش إلا الخمس الفواسق؛ فإنها خُصَّت من ذلك على لسان رسول اللَّه ﷺ[٣]، ويدخل فيه أمن الناس دخولًا أوليًّا»[٤].

* * *

---

(١) البحر المحيط: ١/ ٣٨٠.

(٢) حاشية القونوي: ٤/ ٢١٦.

(٣) يشير إلى حديث عائشة مرفوعًا: «خمس فواسق يقتلن في الحرم الفأرة والعقرب والحُدَيَّا والغراب والكلب العقور» أخرجه البخاري: ١٤٣، رقم: ١٨٣٠، ومسلم: ٨٧٣، رقم: ٢٨٦٥ .

(٤) روح المعاني: ١/ ٣٧٧.

المبحث الثاني
المَجاز العَقليّ

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣)﴾ [المائدة: ٨٣].

شاهد حيٌّ لفئة ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾، تتمثَّل فيها إنسانيَّة منطلِقة تنشد الخير حيث كان؛ لا يصمُّها عن الحقِّ كِبْر أو يعميها تعصُّب وحسد، تستمع إليه فتهتزُّ مشاعرها وتلين قلوبها؛ وتترجم أعينها التأثُّر العميق بدمع هَتون. ذكر ابن عباس أنَّ الطائفة المذكورة هي النجاشيُّ وأصحابه، فقد تُلي عليهم القرآن، فبكَوا حتى أخضلوا لحاهم[١].

﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ تمتلئ بالدمع حتى تفيض. والفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه[٢]، فوَضْعُ المسبَّب مقام السبب (الامتلاء) مجاز مرسَل علاقته المسبَّبِيَّة. كما يمكن أن يجري المجاز في التركيب بإسناد الفيض - وهو في حقيقته للدموع - إلى الأعين بالضمير العائد عليها على طريقة المجاز العقليِّ بعلاقة المكانيَّة، فيخيَّل للرائي أنَّ أعينَهم من فرط البكاء تفيض بأنفسها. ولا يخفى أنَّ المبالغة في هذا المعنى آكد[٣].

وقفة مع النظم:

- أتى الإسناد المجازيُّ ﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ جوابَ شرط أدِّي بـ ﴿إِذَا﴾ ليدلَّ

---

(١) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ٢٠٣، وصحيح أسباب النزول: ٢٧٧.
(٢) ينظر: الكشاف: ١/ ٣٥٩.
(٣) ينظر: أنوار التنزيل: ٢/ ٣٥٧، وحاشية الكازروني: ٢/ ٣٥٧ .

على التحقُّق، ووليها الفعل الماضي ﴿سَمِعُواْ﴾ دالّاً على ثبوت تلك الحالة العظيمة[١]، وما تنطوي عليه من خَشية للَّه ورِقَّة في القلوب.

- ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ بُني الفعل لما لم يسمَّ فاعله وحذف نائبه للتعظيم، واصطفي الفعل الماضي إيذانًا بثبات رسالة النبيِّ ﷺ.

- ﴿تَرَىٰٓ﴾ «خطاب لكلِّ من يصحُّ أن يَرى فهو خطاب لغير معيَّن ليعمَّ كلَّ مَن يخاطَب»[٢] وهو جواب الشرط غير الجازم، أوثر فيه المضارع الدالُّ على التجدُّد، ووجِّهت الرؤية إلى ﴿أَعۡيُنَهُمۡ﴾ فهي مرآة تعكس ما يموج في النفس.

-﴿تَفِيضُ﴾حال من الأعين[٣] أتت بالمضارع ليستحضر المتلقِّي صورة عظيمة رفيعة تنطوي على رقَّة القلوب وشِدَّة الخشية[٤]والاستجابة لما يُسمع. لقد انطلقت دموعهم معبِّرة عن مشاعرَ ساميةٍ فيَّاضةٍ كشفتها مدامعهم. وما أسماه من موقف! تخور فيه قُوى العظماء خَشية للجبَّار ﷻ ؛ لذا كان صاحبه من السبعة الذين يظلُّهم اللَّه في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «ورجل ذكر اللَّه خاليًا ففاضت عيناه»[٥].

- ﴿مِمَّا عَرَفُواْ﴾ مِن تعليليَّة، ﴿ٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: الأمر الثابت المطابق للواقع أنَّى كان[٦]. والمراد أنَّ سبب فيضها ما عرفوا عند سماع القرآن من أنَّه الحقُّ الموعودُ به.

---

(١) ينظر: حاشية القونوي: ٧/ ٥٤٠.
(٢) التحرير والتنوير: ٥/ ١٨٧.
(٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ١٣٢.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٢٢٧، وأنوار التنزيل: ٢/ ٣٥٧.
(٥) أخرجه البخاري: ٥٤٤، رقم: ٦٤٧٩، ومسلم: ٨٤٠، رقم: ٢٣٨٠ .
(٦) ينظر: نظم الدرر: ٢/ ٥٢٣.

- وتشرق صورة خَشية اللَّه أكثر عندما تتحوّل سلوكًا عمليًا حاسمًا لا يقف صاحبه موقف المتأثّر الضعيف، يسوّف أعماله ليعفّيها النسيان والغفلة؛ فيعود إلى سابق عهده. بل يحسم أمره مجتثًّا كلَّ ما يحول دونه ودون الاهتداء إلى الحقّ والاستقامة عليه ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ هاهي ذي النفوس النقيَّة الحيَّة تعلن إيمانها مخبِتة إلى ربها منيبة إليه، وتزداد النفس إكبارًا لها، وهي تلهج داعية بارئها عزّ وجلّ معلنة توبة صدق ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ «أي: أمّة محمد ﷺ الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة»(١).

- في حذف حرف النداء في ﴿رَبَّنَا﴾ دلالة على إحساسهم بأنهم بين يدي خالقهم، وفي اصطفاء اسم الرَّبِّ وإضافته إليهم بـ(نا) المتكلّمين دلالة على إقرارهم بأنهم مربوبون له، معترفون بإحسانه. لقد نَمَّت عبراتهم عن مشاعر إيمانيَّة تنضح خَشية ورقَّة، داعين رحمن الدُّنيا والآخرة ورحيمهما أن يكتبهم مع الشاهدين؛ ليأمنوا يوم الفزع الأكبر.

وما أحوج المرء إلى الأمان يوم الفزع الأكبر! يوم تشيب الولدان الموصوف بقول اللَّه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ [المزمل: ١٧-١٨] فيه خطاب لمشركي قريش خاصَّة، ولكلٍّ من بلغته الدعوة عامَّة(٢)، فقد سُبِق بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ [المزمل: ١٥].

وخرج الاستفهام بـ(كيف) إلى التعجيز وإنكار(٣) أن يُجمَع مع الكفر أمان ونجاة من فزع يومئذٍ(٤). استُعمل الشَّرط ﴿إِن كَفَرۡتُمۡ﴾ «في معنى الدَّوام على الكُفر؛

---

(١) نظم الدرر: ٢/ ٥٢٣.
(٢) ينظر: السابق: ٨/ ٢١٢.
(٣) ينظر: نفسه: ٨/ ٢١٢، والتحرير والتنوير: ٢٩/ ٢٦٥.
(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٣٨٩، وتيسير الكريم الرحمن: ٨٩٤.

لأنَّ ما يقتضيه الشَّرط من الاستقبال قرينة على معنى الدَّوام من فعل ﴿كَفَرْتُمْ﴾، وإلَّا فإنَّ كفرهم حاصل قبل نزول هذه الآية»[١]، فالمعنى: إن بقيتم على الكفر[٢]. ولمَّا كان التنفير أهمَّ من التهديد؛ لأنَّه أدلُّ على الرَّحمة وأبعث على الاجتناب، عبِّر عنه بأداة الشكِّ كيلا تبقى لهم شُبهة في استمراء الكفر مع إرسال الرَّسول، وإنما يُذكر فرضًا ليشير إلى عفو سابق كفرهم، فلا يعدُّ عليهم إلَّا ما أوقعوا بعد مجيء الرسول ﷺ[٣].

ولتحريك كوامن النفس وإيقاظها من الغفلة صُوِّرت أهوال ذلك اليوم وأوجاله بوصفين يبعثان على الرَّهبة، ترتسم صورتهما في الإنسانيَّة الحيَّة وفي الطبيعة الصامتة:

أولهما: شيب الولدان الذي يدلُّ على مبلغ الكرب والفزع يومذاك، ففي هذا الوصف كناية تبرز الشِّدَّة والهول «كقول القائل: قد لقيت من هذا الأمر ما تشيب منه النواصي؛ كناية عن فظيع ما لاقى، وعظيم ما قاسى»[٤]؛ فتفاقُم الهموم والمخاوف يُضعِف القُوى فيسرع الشيب.

أعظِم به من كتاب جمع إعجاز البيان والعلم! فعمليَّة الشيب -كما يذكر الأطبَّاء- جدُّ بطيئة لا يحدث التغيُّر فيها باليوم أو الشهر، عدا حالات الفَزَع والفرَق التي تُحدِث الشيب بين عشيَّة وضحاها، منها حال المحكوم عليه بالإعدام بين صدور الحكم وتنفيذه[٥]. وأين هذا الموقف من ذاك؟ «فلمَ لا يشيب الوليد

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢٦٥.
(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ٣٢٣.
(٣) ينظر: نظم الدرر: ٨/ ٢١٣، ٢١٤، وروح المعاني: ١٥/ ٢١.
(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٣٣٩.
(٥) ينظر: القيامة بين العلم والقرآن: ١١٩، ١٢٠.

وهذه الأرض ترجف تحت قدمه، والكواكب تتهاوى وتضطرب، مظلمة كدرة، وهذه الشمس والقمر قد اجتمعا مظلمين اجتماعًا يبعث الرَّهبة في النفوس؟»[١].

وفي «إسناد ﴿يجعل الوالدان شيبا﴾ إلى اليوم مجاز عقليٌّ[٢] بمرتبتين؛ لأنَّ ذلك اليوم زمن الأهوال التي تشيب لمثلها الأطفال، والأهوال سبب للشيب عرفًا. والشيب كناية عن هذا الهول فاجتمع في الآية مجازان عقليَّان وكناية ومبالغة»[٣].

والوصف الآخر: قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ فإن انفطرت السماء على عظمها وإحكامها فما ظنُّك بغيرها من الخلائق!

وفي إيثار التذكير على التأنيث في ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ لطيفتان هما:

- الإشعار بشِدَّة الهول البالغة، وهو يؤدي إلى انفطار ما بلغ منتهى الشِّدَّة لأنَّ الذَّكر في كلِّ شيء أشدُّ مِن الأنثى[٤].

- التنبيه على تبدُّل حقيقتها، حيث زال اسمها ورسمها من شِدَّة الهول، ولم يبقَ منها إلَّا ما يُعَبَّر عنه بالشيء[٥].

* * *

(١) من بلاغة القرآن: ٢٩٤.
(٢) ينظر: الطراز: ٣/ ١٤٣.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢٥٦، ٢٥٧.
(٤) ينظر: نظم الدرر: ٨/ ٢١٤.
(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ٣٢٣، وفتح القدير: ٥/ ٤١٦.

الفصل الرابع

التصوير بالكناية

المبحث الأول: الكناية عن الموصوف

المبحث الثاني: الكناية عن الصفة

المبحث الثالث: الكناية عن النسبة

توطئة

الكناية وادٍ من أودية البيان، يجمع محاسن تملأ الطرف، ودقائق تجِلُّ عن الوصف. لا يكمُل لها إلا الخطيب المِصْقَع، والشاعر المُفْلِق؛ إذ تكسب الألفاظ جمالًا، وتكسو المعنى ديباجة وكمالًا، وتستثير النفوس إلى فهمها، وتحرِّك بواطن القلوب إلى عملها. فإنْ أتت في مدح كانت أرفع له وأوقع، وإن صُدِّرت لذمٍّ كان آلم وأوجع، وإن أُدخلت في حِجاج كان أوضح وأبهر، وهي في الافتخار أسطع ضياءً، وأرفع منارًا، وفي الاعتذار أسلُّ لسخائم القلوب، وفلِّ غَرْب الخطوب، وفي الوعظ مبالغتها أنجع، وشفاؤها للقلوب أنفع. وإن أردتَ بها جانب الإعتاب والرِّضى، فهي أظفر بطيب الصُّحبة، وأوفر بلوازم الأُلفة[(١)]. ذلك أنَّ الحقيقة فيها ليست سافرة لكلِّ راءٍ، وإنما تطلُّ في خَفَر كغيداء من وراء السِّياق؛ فتحلِّق بالذِّهن في سماء البلاغة خِطبة للمعنى، فتشعر النفس بعد عناء تَطوافه بلذَّة الظَّفر بعد الغوص. أو«كالعزيز المحتَجَب؛ لا يريك وجهه حتى تستأذنَ عليه. ثُمَّ ما كُلّ فِكر يهتدي إلى وجه الكشف عمَّا اشتمل عليه، ولا كُلّ خاطر يؤذَن له في الوصول إليه. . .كما ليس كلّ من دنا من أبواب الملوك فُتحت له»[(٢)].

وقد أبان ابن سنان الخفاجيُّ (ت٤٦٦هـ) عن قيمة الكناية «في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة. . . لأنَّ مواضع الهزل والمجون، وإيراد النوادر يليق بها ذلك، ولا تكون

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٠٦، والطراز: ١/ ١٨٥، ٢١٩.
(٢) أسرار البلاغة: ١٣٩، ١٤١.

الكناية فيها مرضيَّة، فإنَّ لكلِّ مقام مقالًا، ولكلِّ غرض فنًّا وأسلوبًا»[١]، وتتميَّز الكناية بإثبات الصِّفة مع دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، وذلك آكد، وأبلغ في الدعوى[٢].

وأصلها في اللُّغة أن تتكلَّم بالشيء وتريد غيره، يقال: كَنَى عن الأمر يَكْنى، ويكْنو إذا تكلَّم بغيره مما يُستَدلُّ عليه، ومن معانيها السِّتر والخفاء يقال: تكنَّى الفارس: تستَّر[٣]. و«سميت كناية لما فيها من إخفاء وجه التصريح بالعلم»[٤]. فالمتكلِّم فيها «يريد إثبات معنًى من المعاني، فلا يذكره باللَّفظ الموضوع له في اللُّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورِدْفه في الوجود، فيومئ إليه، ويجعله دليلًا عليه»[٥].

لقد تبوَّأت الكناية منذ القدم مكانة رفيعة في البلاغة، لكنَّ الصِّبغة الفنيَّة في دراستها تحليلًا وتذوُّقًا -شأن كثير من الفنون البلاغيَّة- تجلَّت عند عبد القاهر؛ إذ وجدت لونًا من الدراسة المتأنِّية والتأمُّل العميق، والتذوُّق الإبداعيِّ لم تعهدْه عند مَن سبقه. ولم تجد ممن تلاه إضافة جماليَّة، بل ناء كاهلها بتقسيمات منطقيَّة جافَّة، وتأويلات بعيدة متكلَّفة، وإن لم تخل من تعريفات اصطلاحيَّة تعين على تحديد معالمها.

عرَّفها القزوينيُّ (ت٧٣٨هـ) بأنها: «لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ»[٦]، ورأيت هذا التعريف أوضح التعريفات؛ فقد أبان عن وجهي الكناية

(١) سر الفصاحة: ١٥٦.
(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٧١، ٧٢.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: كنو: ٨٧٧، ولسان العرب: كني: ٥/ ٤٤٤.
(٤) التبيان للطيبي: ٢٦١.
(٥) دلائل الإعجاز: ٦٦، وقد سبقه قدامة (ت٣٣٧هـ) إلى هذا التعريف، لكن سماها الإرداف. ينظر: نقد الشعر: ١٥٧.
(٦) الإيضاح: ٣٠١.

في إرادة اللازم فقط، أو إرادة اللازم والملزوم. وهذا هو حدُّها الذي ذكره ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) قبله حين قال: «حدُّ الكناية الجامع لها أنها كلُّ لفظة دلَّت على معنًى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز»[(١)]، والملحوظ أنَّ تعريفات البلاغيِّين لها قد خصَّصتْها باللَّفظ على أنَّ ورودَها في الجُمل كثير، فكان الأَولى أنْ يُقال: التعبير عن المعنى بلازمه مع جواز إرادة معناه حينئذ.

ومن تعريفاتها يظهر الفرق بينها وبين المجاز، فهي تختلف عنه في أنَّ قرينتها لا تعانِد الحقيقة، بينما قرينة المجاز صارفة مُعانِدة[(٢)]. والحديث عن الفرق بينها وبين المجاز يقود إلى مناقشة قضيَّة شغلت السَّاحة البلاغيَّة ألا وهي: إلامَ تنتمي الكناية؟ إلى الحقيقة أم إلى المجاز؟

وقد انقسم البلاغيُّون فيها إلى فئات:

- فئة رأت أنَّ الكناية ليست من المجاز؛ محتجَّة بإرادة المعنى الأصليِّ فيها، وعليه فلا يُنقَل اللَّفظ عن معناه، ومنهم الفخر الرازيُّ (ت٦٠٦هـ)[(٣)]، والعزُّ بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) الذي قال: «الظاهر أنَّ الكناية ليست من المجاز؛ لأنَّك استعملت اللَّفظ فيما وضع له»[(٤)].

- وأخرى جعلتها مجازًا؛ منهم العلويُّ (ت٧٤٩هـ) الذي أدرجها في طرازه ضمن قواعد المجاز قائلًا «اعلم أنَّ الكناية وادٍ من أودية البلاغة، وركن من أركان المجاز»[(٥)]، وقال أيضًا: «اعلم أنَّ أكثر علماء البيان على عدِّ الكناية من أنواع

---

(١) المثل السائر: ٢/ ١٨٢.
(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٥١٢، ٥١٣، والإيضاح: ٣٠١.
(٣) ينظر: نهاية الإيجاز: ٢٧٢.
(٤) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: ٦٣.
(٥) الطراز: ١/ ١٨٥.

المجاز خلافًا لابن الخطيب الرازيِّ، فإنَّه أنكر كونها مجازًا»[(١)].

- وصرَّح فريق أنَّ الكناية واسطة بين الحقيقة والمجاز، منهم السعد التفتازانيُّ (ت٧٩٢هـ)[(٢)] وابن عرفة الدسوقيُّ (ت١٢٣٠هـ)[(٣)]. وهذا الرأي هو الأقرب إلى القَبول، فليست الكناية حقيقة خالصة؛ إذ لا يصرَّح فيها بالمعنى، ولا يُراد بها ظاهره فقط، إنما هي تعبير غير مباشر. ولا تعدُّ مجازًا خالصًا؛ فقد تجاوِزُ معناها الظاهر إلى ما يُفضِي إليه معنى المعنى في الوقت ذاته، فيُجعل الأصليُّ دليلًا على الكنائيِّ. وقرينتها -كما تقدَّم- غير مانعة.

وتنقسم - تبعًا للمُكنى عنه - إلى ثلاثة أقسام: كناية عن موصوف، كناية عن صفة، وكناية نسبة[(٤)].

- يطلب بالأُولى ذات موصوفة، يُتوصَّل إليها بذكر صفة أو أكثر تنتقل بالذهن إلى الموصوف، يشترط لها الاختصاص بالمكنى عنه[(٥)].

- ويطلب بالثانية صفة معنويَّة[(٦)].

- أمَّا الثالثة فيطلب بها النسبة بإثبات أمر لآخر، أو نفيه عنه[(٧)] سواء كان طرفا النسبة مذكورين صريحين أو مكنى عنهما[(٨)].

---

(١) الطراز: ١/ ١٩٠.
(٢) ينظر: المطول: ٦٣٠، ٦٣١، وتجريد البناني: ٤/ ٣١٧.
(٣) ينظر: حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص): ٤/ ٢٦، وفنون بلاغية لأحمد مطلوب: ١٧٣.
(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٥١٤ - ٥١٧.
(٥) ينظر: الإيضاح: ٣٠٣، ومواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص): ٤/ ٢٤٨، وعروس الأفراح: ٤/ ٢٥٠.
(٦) ينظر: مواهب الفتاح: ٤/ ٢٥٠.
(٧) ينظر: الإيضاح: ٣٠٦، ٣٠٧، وعلم أساليب البيان للدكتور غازي يموت: ٢٨٩.
(٨) ينظر: تجريد البناني: ٤/ ٣٢٨.

لقد فقدت بعض أساليب الكناية طرافتها وجِدَّتها وأثرها في النفوس لتقادُم العهد بها، فذهبت عنها نضرتها وبليت من كثرة الردِّ، وصارت غريبة الوجه في ظلِّ حياة طوت صور الكلمات التي تركَّبت منها وقامت عليها إيحاءاتها، لتحلَّ محلَّها بدائل أخرى تمثِّل معانيها. ومما يستثير الإعجاب أنَّنا نجدها في كتاب اللَّه شامخة متجدِّدة تنبض بالحياة(١)، وتقوم «بنصيبها كاملًا في أداء المعاني وتصويرها خير أداء وتصوير، وهي حينًا راسمة مصوِّرة موحية، وحينًا مؤدِّبة مهذِّبة تتجنَّب ما ينبو على الأذن سماعه، وحينًا موجزة تنقل المعنى وافيًا في لفظ قليل، ولا تستطيع الحقيقة أن تؤديَ المعنى كما أدَّته الكناية في المواضع التي وردت فيها»(٢)، وتضرب بسهم وافر في تحسين المكنى عنه وتجميله، أو تقبيحه والتنفير منه(٣).

ومع كلِّ ما ذُكر من محاسنها ينبغي الحذر من التوسُّع فيها في كلام اللَّه تعالى؛ فالأصل فيه التصريح لا التكْنية؛ والتوسُّع فيها يجعل القرآن العظيم في يد الباطنيَّة وغيرها من المذاهب، يؤولون منه ما يخدم انحرافاتهم ويسوِّغ تُرَّهاتهم؛ ليَلبِسوا على الناس دينهم، كتأويل العصا بالحُجَّة في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٢]، والأنهار بالعِلم في قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] وغير ذلك من التأويلات المستَهْجَنة(٤).

ومن عجبٍ أن يعيبَ العلويُّ التوسُّع في الكناية حراسةً للتنزيل وصونًا لمعانيه- كما زعم -، ويجعل الأرض في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ

(١) ينظر: من بدائع النظم القرآني: ٦٩، ٧٠.
(٢) من بلاغة القرآن: ٢٢٦، وينظر: البلاغة فنونها وأفنانها (البيان والبديع): ٢٦٣، ٢٦٤.
(٣) ينظر: البلاغة العربية (البيان والبديع) للدكتور وليد قصاب: ٢٤٤ .
(٤) ينظر: الطراز: ١/ ٢٠٥.

﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٢٧] كناية عن النساء؛ معلِّقًا بأنَّه من جيِّد الكناية ونادرها؛ إذ يزداد به المعنى- على حدِّ قوله - رشاقة وحُسنًا[١]!! وقد تعقَّبه المحقِّق قائلًا: «هذا تفسير بعيد، ولا تحتمله الآية، ولم يقُل به أحدٌ من أهل التفسير المعتبَرين، بل جعله الزمخشريُّ من بِدَع التفاسير»[٢]. أوَ يزيد المعنى حُسنًا بالابتعاد عن رُوح الآية ومعناها؟! أوَ لابد من إخراج المعنى إلى الكناية قسرًا ليكتسب جمالًا؟ أوَليس جماله جليًّا كفلَق الصبح ضمن ما قال به أئمة السَّلف؟

وفي قول اللَّه تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ذكر بعض المفسِّرين أنَّ «بياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه. وقيل: يوسَم أهل الحقِّ ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة، وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك»[٣].

ولم يرتضِ محيي الدين زاده وابن عاشور حملها على الكناية محتجِّين بأنَّ بياض الوجه وسواده وسمان لفريقين يوم القيامة، فليس ثمَّة داعٍ لصرف المعنى عن حقيقته؛ إذ لا يوجد دليل على الصرف[٤]. وأُضيفُ أنَّ البياض والسواد للوجوه حقيقة بقطع النظر عن سببه، فلا يلزم أن يكون سببه سرورًا أو خوفًا، بل بياض الوجوه ثواب من اللَّه لأوليائه تشرق له ألوانها مع ما يعلوها من السرور والبشر سودًا كانت قبل أو سُمرًا، كما أنَّ سوادها عقاب من اللَّه لأعدائه تظلم له ألوانها مع ما يعلوها من الحزن والكآبة، وإن كانت قبل ذلك بيضًا أو حمرًا،

---

(١) ينظر: الطراز: ١/ ٢٠٥.
(٢) الطراز (رسالة دكتوراه بتحقيق الدكتور عبد المحسن العسكر): ٣٢٦ .
(٣) أنوار التنزيل: ٢/ ٧٧، وإرشاد العقل السليم: ٢/ ١٥.
(٤) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٣/ ١٤٠، والتحرير والتنوير: ٣/ ١٨٥.

فليست الآية وصفًا للسرور والخوف لا حقيقة ولا كناية؛ بخلاف قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس:٣٨-٣٩]الذي ذُكر قبله حال الفزع الموجب لفرار القريب من قريبه والحبيب من حبيبه، وفي هذه الحال كان التباين في الأمن والخوف، وأثرهما بين المؤمنين البررة والكافرين الفجَرة.

ولعلَّ الخير في الحدِّ من التوسُّع في الكناية، وقصرها على ما تواطأ على القول بالكناية فيه جمهور المفسِّرين وشهد به السياق نفسه، لاسيَّما في الآيات الواصفة لمشاهد القيامة؛ صيانة لكلام اللَّه ﷻ عن أن يصرف إلى غير وجهه، فأنَّى للعقل البشريِّ القاصر أن يدرك تلك المشاهد؟.

وفيما يلي تحليل شواهد الكناية أستشرف فيها بلاغة القرآن في التعبير بها عن معاني الأمن والخوف، وفقا للتقسيم المختار تبعًا للمكنى عنه من موصوف إلى صفة إلى نسبة.

❊ ❊ ❊

المبحث الأول
الكناية عن الموصوف

ضابطها أن يُترك التعبير بالموصوف إلى الدلالة عليه بصفة من صفاته تختصُّ به وتدلُّ عليه[١]، نحو قول اللّه تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٣] كُني فيه عن السفينة بوصف مختصٍّ بها هو ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ قال الزمخشري: «هي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها، وتؤدِّي مؤدَّاها»[٢].

فالملحوظ هنا أنه لم يصرِّح بأنها كناية، بل اكتفى بقوله: صفة تقوم مقام الموصوف، وعلى هذا سار كثير من المفسِّرين[٣]. كما أني لم أجد فيما اطَّلعت عليه مَن نصَّ على الكناية عن الموصوف في شيء من آيات الأمن والخوف، وإنما استأنست بما قالوه عن هاته الآية، واستهديت بما قاله البلاغيُّون في تعريف الكناية عن الموصوف وضابطها، إلى أنه قد يدخل تحت هذا المبحث أوصاف يوم القيامة التي اشتهرت في القرآن حتى أضحت علمًا عليه بالغلبة مثل: (القارعة، والغاشية، والصاخة...). فقد ذكر ابن التمجيد والقونويّ أنها أوصاف لموصوف مقدّر من باب طيِّ الموصوف وإقامة الصفة مقامه[٤]، وجوَّز ابن عاشور مع ماذكرا من هذا المعنى الوصفيّ أن تكون ألقابًا ليوم القيامة، صارت أعلامًا

---

(١) ينظر: لباب البيان: ٣٨٤.
(٢) الكشاف: ٤/ ٤٥.
(٣) ينظر: مدارك التنزيل: ١١٨٦، والبحر المحيط: ٨/ ١٧٧، وأنوار التنزيل: ٥/ ٢٦٦، وحاشية شيخ زاده: ٨/ ٣٨، وإرشاد العقل السليم: ٦/ ١٦٧، والتحرير والتنوير: ٢٧/ ١٧٧.
(٤) ينظر: حاشية ابن التمجيد: ١٩/ ٢٥٨، وحاشية القونوي: ١٩/ ٢٥٨.

بالغلبة(١). وحُذف الموصوف الأصليّ لها وهو يوم القيامة للإيذان بكمال ظهور اتصافه بتيك الصفات وجريانها مجرى الاسم(٢).

ووجدت إشارة للراغب في لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ بأنه كناية عن يوم القيامة(٣). فيكون هذا -على كلامه- من الكناية عن الموصوف؛ حيث نابت الصفة عن الموصوف.

وعليه يدرج ماجاء من هذا القبيل كالطامة والصاخة والقارعة والحاقة والواقعة، في مبحث الكناية عن موصوف بالنظر إلى أصلها، فهي صفات أضحت أعلامًا بالغلبة على يوم القيامة، فتكون من حيث المسمَّى مترادفة، أمَّا من جهة الصفة فمتباينة؛ وقد أشار إلى الكناية في هذه الأوصاف من المعاصرين د.عبد اللّه النقراط(٤). وقد اخترت منها ما يجلِّي معنى الهول ولم يضف إلى لفظ (يوم).

تأمَّل قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٤-٣٦]

وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

تجد في كلٍّ منها وصفًا مصوِّرًا ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ ليوم القيامة، في إيثار التعبير به تفنُّنٌ وبلاغة في التصوير والإيحاء بأفزاع الموقف وكروبه. وثَمَّ تشابُه بين الآيات في النظم كما يلي:

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩/ ١٠٣، ١٠٤، ٣٠/ ٢٦١.
(٢) ينظر: روح المعاني: ١٥/ ٤٦.
(٣) ينظر: المفردات: غشي: ٣٦٣.
(٤) ينظر: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم: ٢/ ٦٦٥.

- إسناد الفعل الماضي ﴿جَآءَتِ﴾ إلى ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ مما يضفي مزيدًا من الهول؛ ففيه دلالة على تحقُّق الحدث، فكأنَّه جاء وشوهدت مواقفه المروِّعة تصوِّرها الآيات تصويرًا حقيقيًّا حيًّا.

- تصدير الفعل الماضي بـ(إذا): ولا يخفى ما لها من أثر بيانيٍّ على السياق؛ فقد أضافت معنى المباغتة وصَرَفت الزمن إلى المستقبل دون أن يفقد التعبير ما يوحي به استعمال الماضي بدلًا من المستقبل الصريح. وهذه ظاهرة أسلوبيَّة من سمات الكتاب المعجز في تصوير مفاجأة الأحداث يوم الفزع الأكبر إمعانًا في الترهيب[١].

أمَّا الاختلاف بينهما فقد تجلّى فيما يلي:

- أوثر في أولى الصورتين وصف ذلك اليوم الرهيب بـ ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾؛ ويدلّ أصلها في اللُّغة على تغطية الشيء للشيء حتى يسوِّيه به، ومن ذلك قولهم طَمَّ الماء يطِمُّ طَمًّا وطُمومًا إذا علا وغمر، وطَمَّ السيل الركِيَّة إذا دفنها وسوَّاها، وفرس طَموم: سريعة، وطَمَّ الأمر إذا علا وغلب، ويقال للداهية طامَّة إذا غلبت ما سواها وقهرته، وأطلق وصف ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ على القيامة لطمومها على كلِّ هائلة[٢]. وقد خَصَّصت (أل) العهديَّة الموصوف بهذه الصفة؛ لئلَّا ينتقل الذهن إلى غيره، فهو معرَّف لفظًا لاقترانه بـ (أل)، ومعنًى لدلالته على معيَّن.

ولعلَّ في أصوات ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ فضل طاقة في التعبير عن معناها لتؤدِّيه أتمَّ أداء بالدلالة والجرس، ففي نطق الطاء مضعَّفة مع ما فيها من تفخيم وإطباق واستعلاء وشِدَّة وجهر، يليها المدُّ المفخَّم معها، بعده تنطبق الشفتان عند الميم المضعَّفة ما

---

(١) ينظر: التفسير البياني: ١/ ٨٧.
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: طم: ٥٩٢، ٥٩٣، ولسان العرب: طمم: ٤/ ١٩٦، ١٩٧، والكشاف: ٤/ ١٨٣.

يوحي بإطباق الهول وطمومه على كلِّ شيء في ذلك الحدث الرهيب.

ومما يزيد من الهول وصفها بـ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فهي أكبر الطوامِّ، تغطِّي كلَّ شيء وتغلبه. ويتفاقم الهول أمام الإنسان، حين يرى الجحيم بارزة للعيان ويتذكر مسعاه في الدنيا، كما صورته الآيات بعدها ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٥-٣٦].

- ويفجأ الأسماع في الثانية صوت ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ وأصل معناها الصرخة المفرطة التي تكاد تصمُّ الآذان لشدَّتها وعظيم وقعها، والداهية العظيمة التي يصمُّ نبؤها الآذان لصعوبته(١)، يُقال: صخَّ الصوت الأذن يصُخُّها صَخًّا، أي: يطعنها فيصمُّها لشدَّته(٢). وفي إيثار التعبير بالصفة عن الموصوف تفنُّن وبلاغة في التصوير؛ فيوحي معنى ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ بأصوات مرتفعة لأحداث مفجعة ما بين زلزلة الأرض وانشقاقها إلى اصطدام الكواكب والنفخ في الصور. ويُسهم معناها وجرسها القويّ في تصوير الهول الذي يُهيمن على الموقف، ففي نطق الصَّاد مضعَّفة مع ما فيها من تفخيم وإطباق واستعلاء وصفير، يليها امتداد الصوت بالمدِّ اللازم المثقَّل المفخَّم معها، بعده الخاء الحرف الحلقيّ المضعَّف؛ فيشعر المتلقِّي بصخَب تلك الساعة وامتداد هولها، وكأنما روحه تتصاعد هولًا وفزعًا. جُعِل هذا اللفظ بقوَّة جرسه ومعناه في فاصلة الآية «وهذا قصد فنيٌّ رفيع إلى تعظيم القيامة في النفس والحسِّ عن طريق الصدمة القويَّة والمفاجأة المتعمَّدة»(٣).

ثُمَّ تتنامى معاني الهول والاضطراب والمباغتة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ

(١) ينظر: جامع البيان: ٢٤/ ١٢٤، والمحرر الوجيز: ٥/ ٤٤٠، ونظم الدرر: ٨/ ٣٣٢، ٣٣٣.
(٢) ينظر: لسان العرب: صخخ: ٤/ ١٩، وحاشية شيخ زاده: ٨/ ٥٦٦.
(٣) الفاصلة في القرآن: ٢١١.

أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ فنرى الفرار يسيطر على الموقف في صورة يستحضرها الذهن، كأنما يشهد ما فيها من أفزاع وأهوال تشغل المرء بنفسه عما حوله، فإذ به يفرّ من أقرب الناس إليه[1]!

وهنا يثار تساؤل عن سرّ اختصاص سورة النازعات بوصف ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ بينما جاء وصف ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ في سورة عبس، مع أنهما عن موصوف واحد هو يوم القيامة؟

يجيب السيوطيّ (ت٩١١هـ) عنه بنكتة لطيفة ذكر فيها أنَّ وصف ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ أرهب وأنبأ دلالة على أهوال القيامة وأشدّ موقعًا؛ لذا خُصَّت به سورة النازعات أشدّ السورتين إنذارًا وتخويفًا، فقد بُنيت على الترهيب وتحقيق هول القيامة، والخبر عن أهل الخوف؛ ألا ترى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ ووصف ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، وما أتبع به بعد. أمَّا سورة عبس فلم تُبن على ذلك، إنما بنيت على قصة عبد الله ابن أمّ مكتوم الأعمى، وسيق قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ عقب التذكير بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾، والتذكير للاعتبار بقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾، ثم أُتبع بعد ذكر ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾. فسورة النازعات على الجملة أشدّ في التخويف، فناسبها أبلغ الوصفين. وقيل إنما خُصَّت النازعات بـ ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾؛ لأنّ الطمَّ قبل الصخّ، وقد تقدَّمت النازعات على عبس[2].

ومن أوصاف يوم القيامة التي تُظهر عِظَم الهول ما جاء في قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا

---

(١) ورد تحليل هذه الآية ص ٧٤ - ٧٥.
(٢) ينظر: معترك الأقران: ٣/ ١٢٠.

حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية: ١-٥]

وقفة مع بلاغة النظم:

- وردت هذه الآيات في مستهلِّ سورة مقصودها التخويف بظهور القيامة وبيان حال المستوجبين للعقوبة والمستحقِّين للمثوبة، وتنزيه اللَّه عن العبث بإثبات الدار الآخرة(١)؛ لذا أوثر التعبير عنها هنا بما يحرِّك القلوب استعدادًا لعظيم هولها.

- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾استفهام مشوق تبتدئ به السورة موحٍ بالعظمة(٢) دالٌّ على التقرير(٣)مقرون بخطاب عام يشمل النبيَّ ﷺ وكلّ من يتأتّى خطابه. تستثار به القلوب إلى تلقي الخبر(٤).

ويرد أسلوب الاستفهام بـ ﴿هَلْ﴾ المقرون بالخطاب مع الفعل (أتى) في الاستعمال القرآني للتعجيب والإشعار بأهمية الخبر وتنبيه النفس إلى استماع ما يلقى عليها منه(٥)، وقد جاء هذا الأسلوب ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ﴾ في خمسة مواضع منها قول اللَّه ﷻ : ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾ [طه: ٩]، وقوله ﷿ : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات: ٢٤] وفيه إيماء إلى أنَّ ما يساق معه «من الأحاديث البديعة التي حقها أن يتناقلها الرواة، ويتنافس عليها الوعاة»(٦). ويرى صاحب كتاب (أساليب الاستفهام في القرآن) أن أسلوب ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ لم

---

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥١٦، ونظم الدرر: ٨/ ٤٠٤.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٨/ ٤٠٤، وحاشية شيخ زاده: ٨/ ٥٨١.
(٣) ﴿هَلْ﴾هنا بمعنى (قد). ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٣٨، وحاشية القونوي: ٢٠/ ٢٢٩، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٦١.
(٤) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٤٧٢، والبحر المحيط: ٨/ ٤٦٢.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٣٨، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٦١.
(٦) إرشاد العقل السليم: ٦/ ٤١٨.

يُعرَف في كلام العرب قبل نزول القرآن؛ فهو من مبتكراته[(١)]، واللَّه أعلم!

- «وتعريف ما أضيف إليه ﴿حَدِيثُ﴾ بوصفه ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الذي يقتضي موصوفًا لم يذكر، هو إبهام لزيادة التشويق إلى بيانه الآتي؛ ليتمكَّن الخبر في الذهن كمال تمكُّن»[(٢)].

- وصف يوم القيامة بـ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ ويدلُّ أصله على تغطية، يقال: غشَّيتُ الشيء أُغشِّيه تغشِيَةً إذا غطَّيته[(٣)]، والغاشي كلّ ما أحاط بالشيء من جميع جهاته، ومنه أطلق على الداهية العظيمة والعقوبة المجلِّلة غاشية، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يوسف: ١٠٧]، وسُمِّيت القيامة بالغاشية[(٤)]؛ لأنها تغشى الناس جميعًا من الأوَّلين والآخرين، أو لأنها تغشى الناس بأفزاعها وكروبها وتلبسهم أهوالها[(٥)]. ولعلَّ في أصوات هذا اللفظ ما يدعم معناه؛ فالغين حرف مستعل مفخَّم، يخرج من الحلق كأنما ليصوِّر غصته في تيك الأهوال، يليه مدٌّ قصير مفخَّم معه يوحي بسرعة تغطية الهول على الموقف، ثُمَّ انتشاره مع تفشِّي الشين.

---

(١) ينظر: أساليب الاستفهام في القرآن: ٤٩٧.

(٢) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٢٦١.

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: غشي: ٧٨٧، ولسان العرب: غشا: ٥/ ٣٩.

(٤) على الأرجح وهو ما ذكره ابن كثير نقلًا عن ابن عباس وقتادة ﵄ (ينظر: تفسير القرآن العظيم: ١٤٢٩، ويؤيِّده قول اللَّه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، وهذا رأي الجمهور كما ذكر أبو حيان في البحر المحيط: ٨/ ٤٦٢، والشوكاني في فتح القدير: ٥/ ٥٦٥) وهو ما ذكره الشيخ ابن عثيمين في تفسير القرآن الكريم (جزء عم): ١٧٥. وجوَّز بعض المفسِّرين معه أن تكون ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ هي النار بقرينة قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، ومنهم ابن جرير في جامع البيان: ٢٤/ ٣٢٧، والزمخشري في الكشاف: ٤/ ٢٠٧، والبيضاوي في أنوار التنزيل: ٥/ ٤٨٣.

(٥) ينظر: الكشاف: ٤/ ١٨٣، وأنوار التنزيل: ٥/ ٤٨٣، وحاشية زاده: ٨/ ٥٨١، وروح المعاني: ١٥/ ٣٢٤.

- وما يكاد المسؤول يبحث عن جواب لذاك الاستفهام: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾﴾ حتى يردَ عليه من أصدق القائلين وصف لأحوال الناس يومذاك، فتأتي جملة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ مفصحة عن هول شديد ملتقية مع ما تردَّد في النفس من أجوبة تناسب وصف ﴿ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ المروِّع. وقد ابتدأت الجملة بتصوير حسّيٍّ لآثار الهول على وجوه الأشقياء، وأوثر إبهام الوجوه وتنكيرها لتزيد من معنى الهول الذي يلفُّ الموقف، فتظهر آثاره جليّة على وجوه الكفرة، بينما ينعم المؤمنون في خضمِّه بالأمن والسعادة، كما وصفتهم الآيات: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية:٨-١٠] فما أعذب الأمن يوم الفزع!

وثَمَّ وصف آخر يجسِّد الهول أقيم مقام موصوفه، في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة:١-٥].

وأصل ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾﴾من القَرْع وهو الضرب الشديد. يقال قَرعت الشيء أقرعه: ضربته. والمِقْرَاع كالفأس يُكسر بها الحجارة، والمقارَعَة: المضاربة بالسيوف. ومن هذه المعاني سميت النازلة الشديدة - التي تنزل بأمر عظيم، فلا تدع مالًا ولا غيره - قارعة[١]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد:٣١]، وجُعِل هذا الوصف بتعريفه بـ(أل) العهديَّة عَلَمًا بالغَلبة على الساعة[٢]؛ لأنها تقرع أسماع الناس وقلوبهم بصدمتها وعظيم هولها وفظيع بلائها، وتقرع أعداء اللّه بالعذاب[٣]. وفي جرسه ما يوحي بمعناه،

---

(١) ينظر: قرع: معجم مقاييس اللغة: ٨٥٠، ولسان العرب: ٥/ ٢٣٨.
(٢) ينظر: حاشية ابن التمجيد: ١٩/ ٢٥٥، وحاشية القونوي: ١٩/ ٢٥٥.
(٣) ينظر: جامع البيان: ٢٤/ ٥٩٢، ونظم الدرر: ٨/ ٥١٣، وفتح القدير: ٥/ ٦٤٥.

فيقرع الأسماع منه حرف القاف المستعلي المفخَّم الشديد المقلقل ليصف شدة الاضطراب الذي يفجأ الناس، يرتعد اللسان بعده عند النطق بالراء، وكأنما تعتري المتلقِّي من الخوف غصَّة في حلقه يحكيها نطق العين. ولمَّا كان «معظم مقصود السورة بيان هيبة العرَصات، وتأثيرها على الجمادات والحيوانات»[١] فقد أتى السياق منصبًّا على الإشعار بأهمية ذاك الحدث المروِّع الذي لا يمكن أن تحيط بهوله كلمة واحدة أو عبارة جامعة، وجاء وصفه وتنبيه النفوس إلى الاستعداد له بأفانين شتّى على النحو التالي:

- إيثار التعبير بوصف ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ الذي يقرع الأسماع، ويزلزل النفوس، ويخلع القلوب، وافتتاح السورة به وجعله فاصلة للآية، فيمتلىء الجو بتساؤل مُلِحّ: ماهي ماهي؟ يأتي على إثر النطق بذلك اللفظ مطلقًا قارعًا الأسماع بهوله. وهنا تتجلَّى براعة الاستهلال للتشويق إلى معرفة ما سيخبَر به[٢].

- ومع تشوُّق الأسماع إلى إدراك كنهه يأتي الإخبار عنه بجملة استفهاميَّة[٣] على وجه التعجيب والاستعظام ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ تدلُّ على عِظم شأن الموصوف به، فيها إبهام في تهويله، وإشارة إلى تفخيم شأنه؛ ليتخيَّل السامع أقصى جهده، ومهما بالغ في التعرُّف فلن يصل؛ لأنَّه لم يَعهَد هولًا مثله[٤].

- أُقيم المظهر ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ مقام المضمر للتفخيم والتعظيم[٥]، وأكثر ما

---

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٣٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٤٨.

(٣) ذكر ابن الأنباري (ت٥٧٧هـ) أن ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ مبتدأ خبره الجملة الاستفهامية ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ (ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن: ٢/ ٣٨٢) وجوَّز ذلك العكبري (ت٦١٦هـ)، أو أن تكون ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف (ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٣٧٦)، والرأي الأول أولى وأصح.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ٨/ ٣٢٠، ونظم الدرر: ٨/ ٥١٣ .

(٥) ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن: ٢/ ٣٨٢.

يُربَط هذا المعنى بتكرار المبتدأ؛ لتتحقَّق معه المبالغة في التهويل[(١)]، بخلاف ما لو قيل: ما هي؟

- يستمرُّ تصعيد الهول باستفهام آخر[(٢)] ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾ يتكرَّر فيه لفظ ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١﴾ للمرَّة الثالثة؛ لينفذ معناه وصوته القويّ إلى الأسماع والقلوب، وتشعر النفس بتلك الأهوال تقرعها مع تكراره، فتحار في تصوُّره، وتشعر بتضاؤلها وقصر فهمها عن إدراك كنهه. ويجوز أن يكون خبرًا، سيق لتأكيد هول يومذاك وفظاعته ببيان خروجه عن دائرة علوم المخلوقات[(٣)]، فهذه القارعة فريدة في الشدة؛ فلا غرو أن ينبأ عنها بالتجهيل[(٤)]، وفي هذا ما فيه من مضاعفة للأفزاع والكروب المستبِدَّة بالخلائق، ومدى عظمها.

- توجيه الخطاب إلى غير معيَّن[(٥)] ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فيه تعميم للتجهيل به بحيث لا يدرَك كنهها، ولا تبلغها دراية أحد ولا وهمه، فكيفما قدَّر المخلوق حالها فهي أعظم وأشدّ[(٦)].

- التوقيت بزمن مجهولٍ عُرِّف بأحوال مروِّعة مهولة[(٧)].

- لمَّا كان ذلك التعظيم منبئًا عن الوعد الكريم بالإعلام عنها جاء تصوير الهول الذي يبدو الناس في ظله ضِآلًا متهافتين بعد أن فارقهم اتزانهم مع ذلك القرع الشديد، وتُرى الرواسي كالصوف المنفوش تتقاذفها الأهوال ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٣٥٦، والكشاف: ٤/ ١٣٣، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٧٨.
(٢) ينظر: فتح القدير: ٥/ ٦٤٦، وحاشية القونوي: ١٩/ ٢٥٧.
(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ٢٩٣ .
(٤) حاشية القونوي: ٢٠/ ٤١١.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٥٠.
(٦) ينظر: الكشاف: ٤/ ١٣٣، وأنوار التنزيل: ٥/ ٣٧٨.
(٧) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٥٠.

ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٤-٥].

وبعد هذا العرض لبعض أوصاف يوم القيامة التي تجسِّد الهول يتبيَّن كيف أبرز كلٌّ منها ما اشتمل عليه موصوفه من مواقف مرعبة ومواطن مهولة، تتباين فيها الأوصاف لتحمل في كلِّ مرة مشهدًا جديدًا من هول يومذاك، يتلاءم مع سياقه ومقصده.

* * *

المبحث الثاني
الكناية عن الصِّفة

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

تصوِّر الآية «هيئة تلقِّي المؤمنين لهذا القرآن. هذا الكتاب المتناسق الذي لا اختلاف في طبيعته، ولا في روحه، ولا في خصائصه»[(١)]. وقد جاء في سبب نزولها عن سعد رضي الله عنه أنَّه قال: أُنزل على النبيِّ ﷺ القرآن، فتلاه على الناس زمانًا، فقالوا: يا رسول اللَّه لو حدَّثتنا؟ فأنزل اللَّه عز وجل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[(٢)].

وقفة مع النظم:

- تُستهلُّ الآية باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُقدَّمًا على مسنده الفعليِّ للدّلالة على الاختصاص، وفي هذا تفخيم للمنزَّل واستشهاد على حسنه، فقد نزَّله العليم بأفضل محاسن الذِّكر والأخبار[(٣)].

- أشار تضعيف الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ إلى توكيد نزول القرآن من عند اللَّه وكونه منجَّمًا حسب الوقائع والحوادث[(٤)]، ليكون أثبت في الحفظ وتسلية النبيِّ ﷺ، وتثبيت المؤمنين عند الشدائد.

---

(١) في ظلال القرآن: ٧/ ١٣٦ .

(٢) ينظر: أسباب النزول للواحدي: ٣٩٦، وصحيح أسباب النزول: ١٩٠ .

(٣) ينظر: أنوار التنزيل: ٥/ ٦٤، والتحرير والتنوير: ٢٤/ ٦٦.

(٤) ينظر: قطف الأزهار ١/ ٢١٠، والتحرير والتنوير: ١/ ٣٣١ .

- وُصِف القرآن بـ ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يحدِّث به قومه، فهو أحسن الحديث على الإطلاق، وأحسن الكتب المنزلة وهو المهيمن عليها[١]. فلا جرم أن كان لنظمه ومعانيه وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر.

- أضفى تنكير ﴿كِتَٰبًا﴾مزيدًا من التعظيم والتشريف.

- ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: قال قتادة: «الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف»[٢]، فيُشبِه بعضه بعضًا، ويصدِّق بعضه بعضًا؛ لا تضادَّ فيه ولا اختلاف، ولا تفاوت بينه في الحسن والإحكام وصحَّة المعاني وقوَّة المباني، فقد حاز أعلى درجات البلاغة[٣]. وهذا ما يشير إليه قول منزله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

- ﴿مَّثَانِىَ﴾: تثنَّى فيه القصص والأحكام والوعد والوعيد والحجج، وتثنَّى فيه أسماء اللَّه وصفاته، وصفات الجنَّة والنَّار وأصحابهما[٤]. ولمَّا كان للقرآن الكريم هذه الجلالة والعظمة، كان له أكبر الأثر على قلوب أولي الألباب حتى إنَّ جلودهم لتقشعرُّ بين يديه.

- في ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾كناية عن صفة الخشية بذكر لوازمها المحسوسة وآثارها على ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[٥]، فالمؤمنون حقًّا هم مَن يتمتَّع برهافة حسٍّ؛ تجعل آثار الخشية من اللَّه والخوف من قوارع تهديده ووعيده ترتسم بجلاء عليهم. يقال: اقشعرَّ الجلد يَقشعِرُّ اقْشِعرارًا، إذا لم يُصِبْ

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٧٢٢.
(٢) جامع البيان: ٢٠/ ١٩٠، ١٩١، وينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١١٥٣.
(٣) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ٤٣٨، وفتح القدير: ٤/ ٥٩٩.
(٤) ينظر: جامع البيان: ٢٠/ ١٩١، وتفسير القرآن العظيم: ١١٥٣، وتيسير الكريم الرحمن: ٧٢٣.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٤/ ٧١.

رِيًّا فتقبَّض تقبُّضًا شديدًا، والقشعريرة التقبُّض والرِّعدة[١]، وهي «حال تعتري الجسد من أثر رهبة أو خوف، فيموج الجلد بموجات أشبه بمسَّة الكهرباء»[٢]. وكم يوحي لفظ ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ بهذا المعنى لمن تأمَّل جرس حروفه! فالقاف حرف مجهور شديد مستعلٍ مفخَّم مقلقل يوحي بشِدَّة ما ينتاب المؤمن حال الخشية، ويأتي حرف الشين المهموس الرّخو؛ لينقل الإحساس بمناجاة الخالق بعظمته وجبروته، واستشعار قدرته وهيمنته، و(يتفشَّى) ذلك الإحساس مع الشين ليشمل الظاهر والباطن؛ وكأنما في تكرار الراء مُفخَّمة مضمومة رفع من شأن هذا الإحساس.

- قُيِّدت القشعريرة بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ وأوثر التعبير عنهم بالصِّلة مدحًا لهم وإيماءً إلى السبب الذي من أجله تقشعرُّ جلودهم. وفيه تفخيم لهذه الصِّفة وإعلاء لشأنها، وزاد الثناء عليهم بأنهم يخافون المحسن إليهم، وهكذا أضافت كلمة ﴿رَبَّهُم﴾ معنى اعترافهم بإحسانه إليهم، وهو من ربَّاهم على إجلاله وهيبته ﷻ[٣].

- تتلوها كناية أخرى ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ توضِّح الاتِّزان الوجدانيَّ في نفوسهم الشفَّافة خشيةً ورجاءً، رهبة ورغبة، فلا تلبث تلك الجلود أن تلينَ لدى سماع آيات الرحمة ووصف الجنَّة؛ فتسري الطُّمأنينة، والرَّاحة في النفوس، وتتبدَّل الخشية رجاء، والرَّهبة رغبة، وفي هذا كناية عن صفة الطُّمأنينة والسكون.

- عدِّي الفعل ﴿تَلِينُ﴾ بـ﴿إِلَىٰ﴾ تضمينًا لمعنى تسكن أو تطمئنّ[٤]، وبه ظهر

---

(١) ينظر: لسان العرب: قشعر: ٥/ ٢٦٢.
(٢) التفسير القرآني: ٢٣/ ١١٤٤.
(٣) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ٤٣٩.
(٤) ينظر: الكشاف: ٣/ ٣٤٥، وأنوار التنزيل: ٥/ ٦٤.

حسن الطِّباق بين ﴿تَلِينُ﴾ و﴿تَقْشَعِرُّ﴾، فهو أبلغ من أن يُقال: ثم تسكن[١].

ويتجلّى الإعجاز العلميُّ في ذكر الجلود؛ إذ بيَّن الطبُّ طريقة حدوث كلٍّ مِن الاقشعرار في حالات الانفعال الحادِّ، واللينِ من بعده، ففي الجلد تنتشر مستقبِلات حسِّيَّة خاصَّة تنقل إحساس الجلد إلى المراكز العُليا في المخِّ، مُتَّصلة بعضلات رقيقة تمكِّن الشَّعر مِن الانتصاب حال الخوف في مواجهة المؤثِّرات الانفعاليَّة الحادَّة التي ترتسم آثارها على حركة الوجه، وارتجاف القلب، وانتصاب عضلة الشعر؛ فيقشعرُّ الجلد، ثم يعود ليرتخيَ بعد الطُّمأنينة وشيوع الأمن[٢]. فسبحان الخلَّاق العظيم!

وتعبِّر كلتا الكنايتين عن المعنى ولازمه، وبهما تتَّضح المشاعر الدافقة النابضة بالحياة في «صورة حيَّة حسَّاسة ترسمها الكلمات، فتكاد تشخص فيها الحركات»[٣]!

- صوَّرت صيغة المضارعة ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ و﴿يَخْشَوْنَ﴾ و﴿تَلِينُ﴾ الاستمرار التجدُّديّ لهذه الأحوال العظيمة التي تلازم المؤمنين كلَّما سمعوا آي القرآن.

- نتساءل: ما سرُّ ذكر الجلود منفردة في الخشية، وجمع القلوب معها في الرجاء؟

يعلِّل ذلك الزمخشريُّ بأنَّ محلَّ الخشية القلوب، وهكذا يتضمَّن قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾ معنى خشيتهم للَّه أوَّل وهلة، حتى إذا ذكروا اللَّه واستشعروا كريم رأفته وواسع رحمته صاحَبَ الخشيةَ رجاءٌ في قلوبهم، وتبدَّلت القشعريرة لينًا في

(١) ينظر: حاشية القونوي: ١٦/ ٥١٤.
(٢) ينظر: رحلة الإيمان في جسم الإنسان: ١٧١، ٢٢٣، ٢٢٨.
(٣) في ظلال القرآن: ٧/ ١٣٧.

جلودهم[١]. ويضيف السيوطيُّ لطيفة أخرى هي أنَّ القشعريرة من وصف الجلود لا من وصف غيرها، أما اللِّين فتوصَف به القلوب والجلود. ولين القلوب ضدّ قسوتها، أمَّا لين الجلود فضدُّ قشعريرتها، فهي تقشعرُّ خوفًا ثُمَّ تلين رجاءً[٢].

- اختير لفظ (قلوب) دون (أفئدة)[٣]؛ إذ الفؤاد يحمل معنى التوقُّد، وفرط التأثير[٤]. والسياق يحمل معنى التفاوت بين حالات القلب في الخوف والرجاء؛ لذا أتى التعبير بالقلب أبلغ هنا لوصف حال الخشية، فللقلب كما ذكر ابن فارس أصلان يدلُّ أحدهما على خالص شيء وشريفه، ويدلُّ الآخر على ردِّ شيء وتحويله من جهته. وأدرج في الأوّل قلب الإنسان وغيره؛ لأنَّه أخلص شيء فيه وأرفعه[٥]، ولعلَّ ردَّه إلى الأصلين معًا أولى، فهو يحمِل معنى التقلُّب والتحوُّل، كما أنَّ له شأنه؛ إذ بصلاحه يصلح الجسد كلُّه، وفساده يفسد الجسد. كما تمتاز أصوات كلمة (قلوب) بما يؤيِّد انتقاءها دون أختها، فحرفا القاف والباء شديدان مجهوران من حروف القلقلة، يتوسَّطهما في المكان والصِّفة حرف اللام صاحب صفتي اللِّين والانحراف؛ كأنما ليشير إلى لين القلب وقابليَّته للانحراف والانسياق مع العواطف والأهواء، إضافة إلى أنَّ التفخيم في القاف واستعلاءها مما يدلُّ على التعظيم.

- ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: رحمته ومغفرته، ذلك أنَّ القرآن يعمد بعد ذكر الموعظة والترهيب إلى الترغيب والبشارة[٦]، وفي إطلاق ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إشعار بأنَّ

---

(١) ينظر: الكشاف: ٣/ ٣٤٥.
(٢) ينظر: معترك الأقران: ٢/٤١٨.
(٣) سبق الحديث عن الفرق بينهما ص١٧٩.
(٤) ينظر: المفردات: فأد: ٣٧٢.
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة: قلب: ٨٢٨.
(٦) ينظر: أنوار التنزيل: ٥/ ٦٤، وحاشية الكازروني: ٥/ ٦٤، وتيسير الكريم الرحمن: ٧٢٣.

أصل أمره الرحمة، التي تسبق الغضب.

انظر البَون الشاسع بين أثر ذكر اللّه على قلوب المؤمنين وقلوب الكفرة الجاحدين في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

والاشمئزاز انقباض وذُعر، والشمْز نفور النفس مما تكره[1]، فلا يُطلَق إلا على النُّفور والكراهية مع الانقباض، وهي حالة لا يوصف بها أهل الإيمان. فاشمئزاز قلب الكافر يأس وقنوط؛ ألَّا يجد من ينقذه من العذاب يوم القيامة، يتبعها استبشار أهوج بما ينسيهم ذلك الخوف. أمَّا قشعريرة المؤمن فمن الخشية والتقوى، ثم اللين من الاطمئنان والرجاء. فشتَّان بين هذه وتلك!

ووقت الحرب.. وقت الشدَّة والكرب.. لا يجد المؤمن أقرب من المولى النصير ﷻ ينصره ويشدُّ أزره.. وقد يغترُّ بالدُّنيا كما هي طبيعة البشر، ويكاد يركَن إليها؛ فيُبتلى بما يذكِّره ببارئه ويوثِّق صلته به ليعود إليه يقينه ويردِّد خاشعًا: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فلا عَدد يمكِّنه ولا عُدَد تنفعه ما لم يستمدّ عونه من بارئه.. قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

تذكير للمؤمنين بنصر يوم حنين بعد الحالة العصيبة التي عاشوها حين كادوا ينهزمون لولا فضل اللّه ورحمته، وكيف ماجت في نفوسهم انفعالات شتَّى فمِن إعجاب بكثرتهم، إلى زلزلة هزيمتهم الروحيَّة، إلى ضيق وحرج، ضاقت لشدَّته الأرض على رحابتها بهم، إلى هزيمتهم الحسِّيَّة، فإذا هم يولون مدبرين،

(١) ينظر: لسان العرب: شمز: ٣/ ٤٧١.

وينكصون على أعقابهم!!

وفي قوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾كناية عن الحيرة وشِدَّة الخوف، قُصد بها لازم المعنى؛ إذ بدت الأرض في أعينهم ضيقة[١].

ويتمِّم براعة الصورة في رسم الانفعالات قوله: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾، فقد أشار الطباق بينه وبين ﴿ضَاقَتْ﴾ إلى هموم ومخاوف، أثقلت أصحابها فغمَّت الرؤية أمامهم، وإذ بهم يرون الأرض على رحابتها قد ضاقت. ذكر صاحب البحر المحيط: «أنَّ الباء في ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ للحال وما مصدرية أي: ضاقت بكم الأرض مع كونها رحبًا واسعة؛ لشدَّة الحال عليهم وصعوبتها»[٢]. ويرى بعض المفسِّرين أنَّ المراد بضيق الأرض: أنَّ المسلمين لم يجدوا منجًى ومهربًا لفرط ما لحقهم من رُعب، فكأنما ضاقت الأرض[٣].

قد يتساءل ممعِن الفكر في نظم الآية وتفسيرها: ما السرُّ في تعدية الفعل ﴿ضَاقَتْ﴾ بحرف الاستعلاء (على) هنا، وفي آية الثلاثة الذين خلِّفوا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٨]، في حين عدِّي بالباء في مواضع أخرى كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر:٩٧]، وقوله: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت:٣٣].

فلو قيل: ضاقت بكم الأرض، لتحقَّق المعنى على ما ذكر المفسِّرون، لكنَّ تعديته بـ(على) تصوِّر معنًى أعمق يتلاءم مع الحدَث الذي أبدع في تصويره النَّظْم القرآنيُّ الفذّ!

---

(١) ينظر: حاشية القونوي: ٩/١٩١، والتحرير والتنوير: ١٠/٢٢٢.
(٢) البحر المحيط: ٥/٢٤.
(٣) ينظر: الكشاف: ٢/١٤٦، والبحر المحيط: ٥/٢٤، وإرشاد العقل السليم: ٣/١٣٦.

وقد تملَّى د. محمد الأمين الخضريّ أغراض النَّظم، ودلالات تراكيبه، وأسرار حروفه في آيتي التوبة، فأجاب بنظر نافذ: «تصوِّر الأولى ما لحق بالمسلمين نتيجة غرورهم بكثرتهم، فأطبق عليهم العدو وشتَّت جمعهم، وشلَّ تفكيرهم، فلم يعودوا يقوون على الخروج من محنتهم لولا تدارُك اللَّه لهم بلطفه، فجاء قوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ تصويرًا لشدَّة ما لاقوه، حتى يخيل إليك أنَّ الأرض صارت عدوًّا يحاصرهم، ويكتم على أنفاسهم، فلا يستطيعون منه فكاكًا، وحسبك بيانًا لشِدَّة وقْع هذه المفاجأة على نفوس المسلمين مِن إحساسهم بأنَّ الأرض تحارب مع عدوِّهم، وتجثم على صدورهم، وليس مراد الآية أنهم لم يجدوا ملجأً أو مهربًا، بدليل أنَّ اللَّه قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾مما يعني أنهم وجدوا ملاذًا من الأرض خلفهم يهربون إليه.

وذلك ما قصدت إليه الآية الثانية من سورة التوبة تصويرًا لأحوال نفوس المخلَّفين الثلاثة، بعد أن قاطعهم المسلمون، وحاصرتهم الوَحدة في بيوتهم، بل وصل بهم الأمر إلى حدِّ مقاطعة أزواجهم وأبنائهم لهم، حتى صاروا وكأنهم يعيشون في عالم كلّ ما فيه حرب عليهم، وإذا الأرض نفسها تؤدِّي دورها في محاصرتهم، والتضييق عليهم وكتْم أنفاسهم، وتصل المبالغة إلى ذروتها حين تُشَنُّ عليهم حرب من داخلهم، فإذا بأنفسهم تشارك الأرض والناس تضييقًا عليهم ومحاصرة لهم! أهي حرب الضمير وحساب النفس؟ نعم. وما أقساه من حساب، وأشدّه حين يجيء للإنسان مِن داخله، فلا يستطيع التفلُّت منه، ولا ردَّه عنه.

فهل يمكن أن ينهض بهذه المعاني ويشي بهذه الأغراض حرف غير حرف الاستعلاء؟ وهل تجد ما وجدتَ لو جاء النظم هكذا: وضاقت بهم الأرض بما رحبت؟»[1]

---

(١) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم: ٧٨، ٧٩ .

وفي قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ لطائف، منها:

- العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ مع أنَّ الفرار تزامن مع اللقاء؛ فما كاد المسلمون يلتقون بهوازن في وادي حُنين، حتى ثارت في وجوههم الخيل فشدَّت عليهم فانكفأوا منهزمين، ما عدا نفرًا قليلًا ثبتوا مع النبيِّ ﷺ(١)، فكان مقتضى المعنى العطف بالفاء، وأوثر عليها ﴿ثُمَّ﴾ الذي أفاد معنى التراخي الرُّتبيِّ(٢) لا الزمنيّ، فكم استبعد المؤمنون الفرار وهم يرون جيشهم جرارًا فيظنُّون أنَّه يغلب العدو بكثرته، وإذ بهم يولُّون مدبرين! ففي العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ إيماء إلى أنَّ فرارهم أعظم ما نالهم من الشرِّ(٣).

- قد تأتي التولية بمعنى الإقبال كما الانصراف؛ لذا أتت ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ لتدلَّ على «إدبار أخصّ من التولِّي، لأنَّ التولِّي مطلق(٤) يكون للَّهروب، ويكون للفرِّ في حِيَل الحروب، والإدبار شائع في الفرار الذي لم يُقصد به حِيلة، فيكون الفرق بينه وبين التولِّي اصطلاحًا حربيًا»(٥)، فأشار الإدبار إلى بأساء سلبتهم التفكير لولا فضل اللَّه عليهم ورحمته. لقد تبدَّد جيش المسلمين، وتناثرت جموعهم، وذهبت ريحهم، وما كان لأحد أن يجمع ذلك الكيان الممزَّق، ويبعث فيه الحياة من جديد إلا اللَّه. فقد ورد أنَّ النبي ﷺ حين رأى إدبار المسلمين يوم حنين «قال: «أي عبَّاس! ناد أصحاب السَّمُرة»، فقال عبَّاس - وكان رجُلًا صيِّتًا -:

---

(١) ينظر: البداية والنهاية: ٣/ ٣٢٥.
(٢) التراخي الرُّتبي يأتي إيذانًا بترتب الإخبار بما لم تجر به عادة، لا لترتيب الزمان وتراخيه، وذلك لإثبات تباين الصفات في الحال؛ وما له من أثر في تحريك النفوس. (ينظر: مغني اللبيب: ١/ ١٣٦، والبرهان في علوم القرآن: ٤/ ٢٦٨).
(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٤/ ٢٧٠، والتحرير والتنوير: ١٠/ ٦٠.
(٤) هكذا وردت، والصواب نصبها على الحال.
(٥) التحرير والتنوير: ١٠/ ٦٠.

فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ فواللَّه لكأنَّ عطْفتهم حين سمعوا صوتي، عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك! يا لبيك! قال: فاقتتلوا والكفَّار»(١). وهكذا جاءت أمداد السماء ونَفَحات الحقِّ في وقتها، فأحالت الهزيمة نصرًا حاسمًا كما قال - عزَّ من قائل-: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٦].

ويبرز الذُّعر والرَّهبة في القتال في صورة قويَّة في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

تذكير بوقعة الأحزاب وما كان أعظم هولها! تتجلَّى فيه صورة الهول الذي روَّع المدينة وقد تحزَّبت جحافل الكفر من قريش وغطفان وبني قريظة عليها من كلِّ جانب، وكان الابتلاء شديدًا عصيبًا يكشف طوايا النفوس ومعادنها، ليمِيز اللَّه به الخبيث من الطيِّب.

وقفة مع الألفاظ والصور بمعانيها وإيحاءاتها:

﴿جَآءُوكُم﴾: أي: أتوكم. ذكر الزركشيّ في الفرق بينهما أنَّ الأولى تسند إلى الجواهر والأعيان، بينما تسند الثانية إلى المعاني والأزمان(٢)، وأضاف د. المنجِّد أنَّ: «الإتيان تحيط به هالة من الغموض والشكِّ، والجهل والتكذيب، والغيب وعدم القصد، أمَّا المجيء فتحيط به ثُلَّة من معاني الجلاء واليقين والعلم والتصديق، وتحقُّق الوقوع والقصد»(٣). وباستقراء ما ورد من آي القرآن فيهما؛

(١) أخرجه مسلم: ٩٩٣، رقم: ٤٦١٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٤/ ٨٠.
(٣) الترادف بين النظرية والتطبيق: ١٥١.

يتَّضح أنَّ كلام الرجلين غير صحيح على إطلاقه؛ إذ ينقضه قول اللَّه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] فغنيٌّ عن البيان أنَّ إتيان اللَّه ﷻ يوم القيامة حقيقيٌّ على ما يليق بجلاله، فهو ﷻ يجيء بذاته لفصل القضاء بين العباد، كما دلَّت على ذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع السلف. قال أبو الحسن الأشعري: «أجمعوا على أنَّه ﷻ يجيء يوم القيامة والملك صفًّا لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها»[(١)]. وهل ثَمَّ شكٌّ في إتيان أمره وتحقُّق وقوع القيامة في قوله ﷻ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] حتمًا لا، وعليه فلا صحة لما قيل عن الإتيان من أنَّه يصاحبه غموض وشكّ وجهل وتكذيب.

وحاول أحد الباحثين أن يوجد فروقًا بين الإتيان والمجيء فذكر ما يلي:

سهولة الإتيان وصعوبة المجيء[(٢)]، وأنَّ المجيء يأتي عن دعوة وتوقُّع والإتيان دون دعوة، وأنَّ الإتيان يختلف عن المجيء في دلالته على النفاذ[(٣)]. وأقرب ما ينقض ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. ويرد عليه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، فاللَّه جلَّ وعلا هو الذي يجيء بالشهداء، فكيف يستقيم هذا مع قوله: إنَّ الصعوبة تكمن فيمن جيء به[(٤)]؟

بيد أنَّ الذي يظهر لي أنَّ الأمر كما قال العسكريُّ عن الإتيان والمجيء من أنَّه: «استُعمل أحد اللفظين في موضع الآخر»[(٥)]. فقد تبيَّن من خلال تتبُّع استعمال

(١) رسالة إلى أهل الثغر: ٢٢٧.
(٢) ذكره قبله الراغب في المفردات: أتى: ١٨، جاء: ٩١ .
(٣) الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن: ١٧، ٧١، ٩٧.
(٤) ينظر: السابق: ٢٤.
(٥) الفروق اللغوية: ٣٠٩ .

اللفظين التفنُّن في وضع هذا تارة، وذاك تارة أخرى، والتفنُّن أسلوب من أساليب القرآن. والمفسِّرون والمشتغلون بالإعجاز البيانيِّ مافتئوا يشيرون إليه[١] وذلك ما بدا لي في استعمال اللفظين في القرآن. والعلم عند اللّه تبارك وتعالى!

ويسهم الأداء الصوتيُّ للفعل ﴿جَآءُوكُم﴾ في إضفاء جوٍّ من الهول على الموقف، فللمدِّ الواجب يليه الهمز أداء فنِّيٌّ بعيد يأخذك لتعايش سير الجيوش مع امتداد الصوت، حتى إذا انتهى المدُّ انفجر صوت الهمزة إيذانًا ببَدء المعركة عند الخندق! والجيم والهمز حرفان شديدان مجهوران ينحبس لهما الصوت والنفَس ترقُّبًا للحرب المفزعة بين الكفر بشتَّى أنواعه وظلمه، وبين الإيمان بأنواره الربَّانيَّة؛ فلهذا الجرس بإيحاءاته المعبِّرة أوثر لفظ (المجيء).

وفي لفظ ﴿فَوۡقِكُمۡ﴾- أي: من أعلى الوادي - دِقَّة في اختياره على لفظ (أعلى) للاحتراز من وصف الكفرة بالعلوّ[٢].

وفي لفظ ﴿أَسۡفَلَ﴾ وإيثاره على (تحت) ما يدفع توهُّم أنه فوق الرؤوس وتحت الأرجل[٣]. وفي مبناه ما يدلُّ على معنًى أعمق في تحقير أولئك الكَفَرة؛ فالسَّفَالة هي النَّذَالة.. وسَفِلة الناس وسِفْلتهم أراذلهم وغوغاؤهم وسُقَّاطهم[٤]. وباستقراء وروده في القرآن وجدته يرد في ذكر عذاب الكفار، وما يتّصل بهم مثل قوله تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات: ٩٨].

ويزداد عجبنا إذا ما قرنَّا إيحاء الألفاظ بتآلفها في صورة بيانيَّة فريدة تلقي ظلال الرَّهبة على الموقف في كناية بديعة تصفُ كثرة الأحزاب وإحاطتهم بالمسلمين،

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٣٤١، والتحرير والتنوير: ١/ ١١٤.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ٨٠.
(٣) ينظر: السابق: ٦/ ٨٠.
(٤) ينظر: لسان العرب: سفل: ٣/ ٢٩٨.

وتمكُّنهم كُلَّ تمكُّن، فهاهي ذي «صورة جنود الأحزاب، وكأنهم يتحدَّرون من فوق رُؤوس المسلمين، وكأنَّ الأرض تنفجر عنهم من تحت أقدامهم»(١) فهل يداني هذا الوصف العظيم ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قول أحد من البشر: إذ أحاطت الجموع بالمسلمين. . .؟! هل يحمِل هذا المعنى الصريح تلك الإيحاءات المبدِعة التي تثيرها كلمات ربِّ العزَّة والجلال؟!!

وقد ساق الجبَّار ﷻ صورة قريبة منها في وصف عذاب الكفَّار في جهنم - نسأل اللَّه السلامة - فقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥٥]. هذا مع استحضار الذِّهن عُمق الهوَّة بين خوف الدُّنيا، وهول القيامة.

وقد يُكتفى بذكر موازنة سريعة تبيِّن تناغم الألفاظ في رسم الصورة، إذ يدلُّ لفظ ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾على التغطية، كما تصوِّر عبارة ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ عذابًا مطبِقًا. . عذاب من الجبَّار المتكبِّر ﷿ لا تضاهيه قُوى البشر جميعاً. ف «كأنَّه حممٌ تقذفهم بها السماء من فوقهم؛ أو براكينُ تنفجر عنها الأرض من تحت أقدامهم»(٢).

وإنما أُريد في كلتا الصورتين المعنى ولازمه من الإحاطة والهول، ويضاف إليه في عذاب جهنم صفتا التغطية والإطباق.

وبالعودة إلى مشهد الخوف في سورة الأحزاب، ومتابعة سائر ما فيه من حلقات الكناية، تطلُّ بقيَّة المشهد من السياق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

---

(١) من أسرار التعبير القرآني: ٩٧.
(٢) السابق: ٩٧.

لفظ ﴿زَاغَتِ﴾: من الزَّيْغ وهو الميل، زاغ يَزِيغ زَيْغًا وزَيَغانًا وزُيوغًا وزَيْغوغة، وأزاغه فهو زائغ من قوم زاغة[١]، و﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي: عدَلَت ومالت عن مقارِّها شاخصة حائرة[٢]. وقد أوثر على (مالت) لأنَّ الزيغ اسمٌ لميل مذموم، والميل عامٌّ في المحمود والمذموم، كما أنَّ الزيغ لا يكون إلَّا بالميل عن الحقِّ، ولا يُقال: زاغ عن الباطل[٣]. وبتأمُّله نلحظ إسهامه في رسم الهول بتفخيم الغين واستعلائِها، حتى توحي بالشخوص عن مستوى النظر، كما أنَّ جهر الزاي وصفيرها يكشفان هول مصابهم.

وفي تخيُّر لفظ ﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ دون (الأنظار) إعجاز فريد؛ فالبصر يطلَق على الجارحة الناظرة، وعلى قوَّة القلب المدرِكة، وقلَّما يطلَق على الحاسَّة إذا لم تضامّه رؤية القلب[٤]؛ فما زاغت الأبصار إلا لهول جثم على النفوس.

وفي عبارة ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾كناية عن الفزع والهول[٥] المعبَّر عنه بلا زمه مع إرادة كليهما، فهاهي ذي الأبصار زائغة تكاد تميل عن مقارِّها وسننها لتشخص حائرة طامحة.

وتتمُّ رهبة المشهد بكناية ثالثة ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾تعين أختيها في رسم المشهد. فتتراءى زاوية جديدة للصورة كانت خفيَّة، مصوِّرة ما تدلُّ عليه الحركات الحسِّيَّة من انفعالات تعبِّر عن رُعب مستبدٍّ بالنفوس.

ويدلُّ لفظ ﴿بَلَغت﴾ على الانتهاء إلى أقصى المقصِد[٦]، وهو أبلغ دلالة في

(١) ينظر: لسان العرب: زيغ: ٣/ ٢٢٠.
(٢) ينظر: مجاز القرآن: ٢/ ١٣٤، وجامع البيان: ١٩/ ٣٤، ٣٥.
(٣) ينظر: الفروق اللغوية: ٢١٣.
(٤) ينظر: المفردات: بصر: ٥٩.
(٥) ينظر: حاشية القونوي: ١٥/ ٣١٥.
(٦) ينظر: المفردات: بلغ: ٧٠.

سياقه بمعناه وإيحائه من (وصلت)؛ فالباء حرف شديد مجهور مقلقل، واللام تحمل معنى الخفَّة؛ لأنَّ فيها صفتي الإذلاق والانحراف، وحرف الغين المفخَّم الذي يخرج من الحلق يسهم في إبراز الإحساس بخفَّة القلوب، وارتفاعها إلى الحلوق.

وفي اصطفاء الجمع ﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾ على صيغة منتهى الجموع بدلًا من (الحنجرات) ما يدلّ دلالة واضحة على عموم الإحساس بالفزع والهول، وفي تعريفها بـ (أل) بدلًا من الإضافة تربية ربانيَّة، وإشارة إلى أدب التلميح في المخاطبة[١]. وهذا ينطبق على القلوب أيضًا في تعريفها.

قد يعنُّ سؤال: تُرى كيف تبلغ القلوب الحناجر، والقلب إن زال عن موضعه شيئًا مات صاحبه؟

وهذا من شُبَه الطاعنين في القرآن التي رد عليها ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) بأنَّ المعنى على إضمار (كاد) أي: كادت من شِدَّة الخوف تبلغ الحناجر، أو أن قوة وجيفها تصل إلى الحلوق، فكأنها بلغتها[٢]، ويذكَر أنَّ الرئة تنتفخ حال الهلع حتى ترفع القلب إلى الحنجرة من شِدَّة الرَّوع، ومنه يُقال عن الخائف انتفخ سحره[٣]. وأضاف الزمخشريُّ: بأنَّه «يجوز أن يكون ذلك مثلًا في اضطراب القلوب ووجيبها، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة»[٤]، وعلَّق ابن عطيَّة (ت٥٤٦هـ) قائلًا: «عبارة عمَّا يجده الهلِع من ثوَران نفسه وتفرُّقها شَعاعًا، ويجدُ كأنَّ حشوته

(١) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ٨٠.
(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٣١، ١٧١.
(٣) ينظر: معاني القرآن: ٢/ ٣٣٦، ومعالم التنزيل: ١٠٣١، والكشاف: ٣/ ٢٣٠. السَّحْر والسَّحَر والسُّحْر: ما التزق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن (لسان العرب: سحر: ٣/ ٢٥٣).
(٤) الكشاف: ٣/ ٢٣٠.

وقلبه يصعد عُلُوًّا لينفصل»[١].

ويقرِّر علماء النفس أنَّ مِن أعراض الخوف زيادة ضربات القلب؛ وسرعة التنفس واضطراب حركته، مع حدوث تقلصات عضليَّة داخليَّة[٢]. ويمكن بالتوفيق بين كلامهم وأقوال المفسرين الخلوص إلى أنَّ الفَزِع يحسُّ كأنَّ رئته تتضاعف لتسارُعِ أنفاسه، وكأنَّ قلبَه يملأ صدره لتزايد ضرباته حتى ليشعر به بلغ حنجرته، واللَّه أعلم!

وعلى هذا ففي الأسلوب كناية عن الرَّوع[٣]، قُصِد بها لازم المعنى؛ فليس بلوغ القلوب الحناجر حقيقة بالنَّقلة، وإنما عبِّر بها لترسم صورة الفزع الشديد. فكأنَّ القلب يكاد يخرج من مكانه فَرَقًا.

وثَمَّ لطائف بلاغية في عبارة ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ حريٌّ بنا أن نقف بين يديها:

- اصطُفي لفظ (الظنِّ) على ما يقارب معناه كالشكّ؛ إذ الظنُّ قوَّة في النفس من غير بلوغ حال الثقة الثابتة، ويحصل عن أمارة. وليس كذلك الشكُّ فهو لا يحمل دليلًا ولا أمارة، ويقف بين نقيضين من غير تقوية أحدهما على الآخر[٤].

- أوثر التعبير بالمضارع ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ على خلاف مقتضى الظاهر لينتزع الحدث من الزمن الغابر، ويعرضه أمام الذهن في وضوح وجلاء. موجِّهًا الأنظار إلى حديث القلوب، وهمس النفوس أهمِّ أحداث قصَّة الابتلاء والتمحيص؛ لذا خالف نسَق الأفعال قبله؛ ليكشف أتمَّ كشفٍ مُسْتَسَرَّ نفوس هذه الجماعة في موقفها العصيب، دالًّا بزمنه على أنَّ الظنون متتابعة متوالية على أذهان قلقة

(١) المحرر الوجيز: ٤/ ٣٧٢.
(٢) ينظر: آراء علماء النفس في الخوف ومثيراته: ٤٢، وسيكلوجية الخوف: ٢٤٨.
(٣) ينظر: حاشية القونوي: ١٥/ ٣١٥.
(٤) ينظر: الفروق اللغوية: ٩٨، ٩٩، والمفردات: ظن: ٣٢٠.

ونفوس مهمومة(١). لقد وقعت الحادثة بالفعل «لكنَّ صورتها ترسم الهزيمة مطلَقة من كلِّ ملابَسة، وما يزيد عليها أو ينقص منها إلا جزئيَّات في الواقع! أمَّا الصورة النفسيَّة فتتكرَّر في كلِّ زمان، حيثما التقى جمعان»(٢).

- قُيِّدت الظنون ﴿بِٱللَّهِ﴾ وقُدِّم على المفعول به، إشعارًا بفداحتها، كيف لا وهي تتعلق بمن تفرَّد بصفات الكمال حتى لا يعتري جناب عزَّته وعظمته أدنى شَين أو نقص(٣)؟؟!

- أُكِّد الفعل بمصدره المجموع ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ ليدلَّ على ظنون «كثيرة مختلفة، تعاود الشخص الواحد، كما أنها تختلف من شخص إلى شخص»(٤). وأضاف د.محمد الخضري أنَّ «غير الجمع لا يستطيع أن يجسِّد استيلاء الخوف على القلوب، وإفقاد العقول والأبصار توازنها ورؤاها، وتكاثر سحب الحيرة وتصاعد الأوهام، وتمزق النفوس، في لحظة ضعف بشري انحصر فيها مؤقتًا مدُّ الإيمان، في ساعة من ساعات اختبار صدق النفوس وحسن بلائها»(٥).

- ممَّا يتمِّم براعة الأداء وجود (أل) التعريف في كلمة ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾، وقد علَّل الفخر الرازيُّ تعليلًا دقيقًا لها فذكر احتمال أن تكون بمعنى الاستغراق؛ لتعدُّد الظنون حول هذا الأمر العظيم، أو للعهد بمعنى ظنونهم المعهودة؛ فالمعهود من المؤمن ظنُّ الخير باللَّه، ومن الكافر ظنُّ السوء(٦)، ووافقه في ذلك الشيخ محيي

---

(١) ينظر: من أسرار التعبير القرآني: ١٠١، ١٠٢.
(٢) التصوير الفني: ٥١ .
(٣) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ٨١.
(٤) التفسير القرآني: ٢١/ ٦٦٣.
(٥) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: ١٢٦.
(٦) ينظر: التفسير الكبير: ٩/ ١٦٠.

الدين زاده[١]، وفسَّرها ابن عطيَّة قائلًا: «تكادون تضطربون وتقولون ما هذا الخلف للموعد؟ وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها، وأمّا المنافقون فجلحوا ونطقوا»[٢].

- يسهم الإيحاء الصوتيّ للفظي ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ و﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ في تصوير المعنى؛ ففي تفخيم الظاء وإطباقها واستعلائها مع ضمِّها إشارات تهويل بيِّنة، تليها النون مجهورة متوسِّطة مستفلة من حروف الذلاقة، فما اعتراهم من خفَّة وفزع جعل الظنون تطبق عليهم.

- كم يتيح الوقف في ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ بمدِّ الصوت وانفراج الفكَّين عند ألف الإطلاق من فرص تأمُّل فريدة! فقد جاءت في موقف عنيف يُرى فيه القوم في طوفان من الهول لا يثبت فيه إلَّا رجال صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه.. موقف تسوده اضطرابات وانفعالات موَّارة تبلغ فيها القلوب الحناجر، وكأنَّ الموقف يكاد ينفجر لولا ذانك الإطلاق والامتداد فقد أفرغا من التوتُّر قدرًا استوى به نسق الأسلوب[٣]. وثَمَّ لطيفة أخرى تكمن في هذا الأداء الصوتيِّ؛ فهو يفتِّح آفاق الفكر لتوقُّع ما يمكن أن تكون عليه ظنون تينك الفئتين وفق سماتهما، ثُمَّ يأتي السياق القرآنيُّ من بعد ليؤكِّد توقُّعاته أو يصحِّحها بتفصيل يلي الإجمال.

وتوضِّح الصورة عُمق ما رأى المؤمنون يومذاك، وفي الإشارة ﴿هُنَالِكَ﴾دلالة على المكان، ويحتمل فيه الزمان[٤]، والأظهر هنا أن تكون إلى الزمان الذي حدث فيه الابتلاء[٥]؛ ليتداعى معه الإحساس بملابساته وتذكُّرها، لتكون موجِّهًا

(١) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٦/٦١٦.
(٢) المحرر الوجيز: ٤/ ٣٧٣.
(٣) ينظر: خصائص التراكيب: ٣٦١.
(٤) ينظر: البحر المحيط: ٧/ ٢١٧، ودراسات لأسلوب القرآن: ٣/ ١/ ١٦٥.
(٥) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٣٧٣، والتحرير والتنوير: ٢١/ ٢٠٦.

سلوكيًا في اليقين بنصر اللَّه، وفي اتِّصال الإشارة بحرفي البُعد لفتٌ إلى بُعد المقصِد وعُمق الابتلاء. لقد كان الحدَث قريب الوقوع لكنَّه انطوى على تجارِب قاسية ومواقف مخجلة، ربما لا يتمنى من عايشها أن يتذكَّرها، أو تُكرَّر على مسمعه، وكأنَّ لحرفي البُعد دلالة على ذاكم البُعد النفسيّ[1].

ويالبراعة الالتفات من التعبير بالخطاب ﴿جَآءُوكُم﴾ ﴿فَوۡقِكُمۡ﴾ ﴿مِنكُمۡ﴾إلى الغَيبة ﴿ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ﴾! وفي هذا التلوين الأدائيّ ما يلفت الانتباه إلى المغزى الرئيس من الحدث؛ ليتمكَّن المعنى في النفس؛ إذ جُعل من عايشوه ينظرون إليه بعين ناقدة، كأنما لم يكونوا ضمن شخصياته.

واصطُفي لفظ ﴿ٱبۡتُلِيَ﴾ ليحمل مقصِدًا شريفًا جاء ذلك الهول لتحقيقه. وقد فرَّق العسكريُّ بين الابتلاء والاختبار، بأنَّ الابتلاء استخراج ما عند المبتلَى، وتعرُّف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقَّة، بينما يكون الاختبار بذاك وبفعل المحبوب[2]. لكنَّ ابن قتيبة قبله وحَّد معناهما قائلًا: «أصل البلاء الاختبار. . .ثُمّ يقال للخير: بلاء، وللشرِّ بلاء؛ لأنَّ الاختبار الذي هو بلاء وابتلاء يكون بهما. قال اللَّه تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] أي: نختبركم بالشرّ؛ لنعلم كيف صبركم؟ وبالخير؛ لنعلم كيف شكركم؟»[3].

وباستقراء الابتلاء وجدت غالبه الابتلاء بالشرّ، خلا بعض المواضع مثل الآية التي ذُكرت، وقوله تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. ولم يرِد لفظ الاختبار في القرآن، أمَّا الامتحان فيدلُّ على المحنة، ويختلف عن الابتلاء رغم تقارُب معنييهما، وقد ورد في القرآن مرَّتين دالًّا على ابتلاء باطنيٍّ؛

(١) ينظر: في البلاغة والأداء الفني: ١٠٤.
(٢) ينظر: الفروق اللغوية: ١٧٨.
(٣) تأويل مشكل القرآن: ٤٦٩.

مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [الحجرات:٣]، ويقوّي إيحاء الأصوات هذا الفرق؛ فالحاء حرف مهموس رخو يدلُّ على معنى الخِفية، بينما الباء حرف مجهور شديد مقلقَل، يعكس شدَّة وقْع ذلك الابتلاء، ولإيجاز السياق وتنزُّهه عن الحشو؛ لم يصفه بالشِّدَّة إنما ترك المبنى ليدلّ على المعنى مُسهِمًا في تصوير الهول الشديد الذي أصابهم. و ﴿ٱبۡتُلِيَ﴾ في سياقه أبلغ من (بُلي) لما فيه من زيادة في صيغة الافتعال، فأتت قُوَّة اللفظ لقُوَّة المعنى.

وثَمَّ لطيفة أخرى تكمن في بناء الفعل لما لم يسمَّ فاعله[(١)] مما يشير إلى أنَّ هذا الابتلاء العظيم لا يصدر إلا من قِبل قوَّة قهَّار لا يغالَب، ولا يحيط بها علم ولا تصل إلى حقيقتها معرفة، فلا مجال لذهاب الوهم إلى غير اللَّه ﷻ[(٢)]!

أُردِف الابتلاء الشديد بلفظ ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ليصوِّر معناه حسِّيًا، وأصله من زَلَّ. يُقال: زَلَّتْ قدمُهُ، أي زال ثباتها واستقامتُها، ثُمَّ ضوعف لفظه لتضاعُف معناه، فالزلزلة الحركة العظيمة، والإزعاج الشديد. وزلزل اللَّه الأرض زِلزالًا وزَلزلة فتزَلزلتْ، أي: اضطربتْ[(٣)]. ومن المجاز أصابته زلازل الدهر أي: شدائده[(٤)].

وقد أظهر هذا اللفظ عُمق الابتلاء الذي تنصهر به الإرادة، ويتميَّز فيه الجوهر الأصيل من الزَّبَد الزائف؛ حيث شبّه ما أصاب المؤمنون من اضطراب وقلق

---

(١) درج كثير من النحويين والمفسرين والبلاغيين على تسميته بالمبني للمجهول! وقد قرأت هذا في أكثر من موضع، والأولى أن يسمّى مبنيًا لما لم يسمّ فاعله - كما هي تسمية القدماء-؛ إذ كيف يكون مجهولًا وهو الخالق سبحانه؟ هذا فضلًا عن أنّ الجهل غرض من الأغراض التي من أجلها يبنى الفعل على هذه الصورة؛ فليس من الدقة تعميمه.

(٢) ينظر: الإيضاح: ٣١٣.

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: زلّ: ٤٣١، ولسان العرب: زلل: ٣/ ١٩٧، وتلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٩٠، ونظم الدرر: ٦/ ١٣٠.

(٤) ينظر: أساس البلاغة: زلل: ١٩٤ .

بالزلزال بجامع التحريك والفزع، ثُمَّ اشتُقَّ من الزِّلزال ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾بمعنى حرِّكوا وأفزعوا على طريق الاستعارة التبعيَّة[١]. لقد زلزل الخوف النفوس، فزاغت له الأبصار ووجفت القلوب، وبدا للأعين الخائفة أنَّ الأرض تحتها ترتجُّ وتضطرب، وفي هذا التعبير الحسِّيِّ تعميق للرَّوع. ولو جَهِد بليغ في أن يضع كلمة مكانه ما استطاعت أن تؤديَ ذيَّاك الاضطراب النفسيَّ العنيف.

ومن أصوات لفظ ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ندرك عُمق معناه، ويتضافر الجرس والمبنى في إيصال هذا المعنى لتبرُز صورة الهول وعُمق المحنة؛ فالصفير والجهر في الزاي يضفيان معنى القوَّة، والانحراف في اللام والانتقال من الضمِّ إلى الكسر، وما فيه مِن مشقَّة يبرز الصخب والعنف إضافة إلى تضعيف الفعل، وإيثار مجيئه على صيغة المبني لما لم يسمَّ فاعله، كما ذُكر في ﴿ٱبْتُلِيَ﴾، ولكلٍّ هذا فهو أبلغ من أيِّ لفظ يعبَّر به عن عِظَم ما أصابهم. أضف إلى ذلك تأكيده بالمصدر ﴿زلزالا﴾، ثُمَّ وصفه بلفظ ﴿شَدِيدًا﴾ ممَّا يبرز شدَّة الموقف.

وقريب من تلكم الكناية ما جاء في قول اللَّه تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨][٢]

فيه خطاب للنبيِّ ﷺ أن ينذر قومه ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾، ويحمل اللفظ معنى المقاربة والدنوِّ، ومنه أزِف يأزَف أزَفًا وأُزوفًا أي: اقترب، والآزفة: القيامة[٣] لقربها، وإنِ استبعدها الكفَّار. ولمَّا كان المنذَرون إمَّا منكرين أو مستبعِدين حدوثه «وصف اللَّه

---

(١) ينظر: الطراز: ٣/ ١٨٨.
(٢) سترد الموازنة بينهما في تصريف البيان ص٣٥٥ - ٣٥٦.
(٣) هذا ما عليه معظم المفسرين، ينظر: جامع البيان: ٢٠/ ٣٠٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١١٦٧، وفتح القدير: ٤/ ٦٣٤.

هذا اليوم بعكس ما هو متصوَّر في أذهان الناس؛ كي يتنبَّهوا إلى خطأ تصوُّرهم، ولكي يعلموا أنَّ كلَّ ما هو كائن فهو قريب»[١] ويشعروا بأهمِّيَّة استثمار الوقت قبل فوات الأوان.

وفي جرسه ما يدعم معناه، إذ يقرع الهمز أسماعنا بمدٍّ قصير يأتي على عجَل، لينطلقَ بعده الصفير في الزاي مؤذناً بقُربها؛ فتتسارع الأنفاس لاهثةً مع حرف الفاء المهموس مع انحطاط اللسان، وانفتاح ما بينه وبين الحنك الأعلى، فيدرك المرء اقترابها، ونشر ما أُغلق من صُحف أعماله؛ فتنتابه حسرة لفوات العمل ينفثها آهة خفيَّة مع همس الهاء!

وفي استعمال ﴿إِذْ﴾ للمستقبل استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ فأصل وضعه للماضي، وشبِّه الزَّمن في المستقبل بالزمن في الماضي بجامع تحقُّق الوقوع في كلٍّ، ثُمَّ استُعير الزَّمن في الماضي للزَّمن في المستقبل، واشتُقَّ من الزَّمن ﴿إِذْ﴾ بمعنى (إذا)، والقرينة تعليق الظرف بـ ﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾. وهذه الطريقة «تلقِي في النَّفس أنَّ هذه الأحداث كأنها وقعت، وكأنها تُروى، وكأنَّ الزمان قد استدار»[٢].

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾كناية عن فرط التألُّم وشِدَّة الخوف[٣]، حيث تخفق القلوب بشدَّة مما يراه أهلها من فظيع الأهوال، حتى لكأنها «شخصت من صدورهم فتعلَّقت بحلوقهم، كاظميها يرومون ردَّها إلى مواضعها من صدورهم فلا ترجع، ولا هي تخرج من أبدانهم فيموتوا»[٤]. ومع قوَّة الهول

---

(١) من روائع القرآن: ٣٠١ .
(٢) التصوير البياني للدكتور أبي موسى: ٢٢٩.
(٣) ينظر: عناية القاضي: ٨/ ٢٥٠.
(٤) جامع البيان: ٣٠/ ٣٠١.

يحتاج المرء إلى التنفيس، وأنَّى له مع أهوال القيامة المتتالية؟! نسأل اللَّه النجاة! لقد فات وقت الكلام ووقت العمل، وحان في هذا الموقف الرهيب الوقوف للحساب بين يدي ربِّ الأرباب؛ فليس أمام الإنسان إلَّا الكظم.

وأصل الكظم إمساك الشيء وجمعه، كَظَم الرجل غيظه يَكظِمه كظْمًا ردَّه وحبسه، فالكظم احتباس النفَس، والكاظِم والكَظِيم السَّاكت المكروب حالَ امتلائه غمًّا وغيظاً[١].

ففي ﴿كَظِمِينَۚ﴾ استعارة مكنيَّة، شُبِّه فيها ما في قلوبهم من الخوف بما ملأ قِربة، وإثبات الكظم له تخييل، والمعنى أنهم ممسِكون على الأفواه لئلَّا تخرج قلوبهم مع أنفاسهم[٢]. ويتجلَّى الإعجاز في التأليف بين المتباعدين حيث إنَّ الجامع بينهما خفيٌّ «لا ينجلي إلَّا بعد التأنُّق في استحضار الصُّور وتذكُّرها، وعرْض بعضها على بعض والتقاط النُّكتة المقصودة منها»[٣]. فمن المرِيع أن يتحوَّل القلب مصدر الحياة إلى وعاء يمتلئ خوفًا، يتبعه ما لحركة الكظم من احتباس وانقباض.. وهنا تزداد دِقَّة الاستعارة في جمعها بين الشَّكل مع الحركة، فشكل القلب يشْبِه القربة، وتضاف الحركة لدى الكظم.. وهنا يظهر الغرض البلاغيُّ وهو التأثير النفسيُّ الذي يعمِّق مشهد الخوف؛ فيدفع إلى تجنُّب مسبِّباته.

وبالنَّظر إلى أصوات لفظ ﴿كَظِمِينَۚ﴾ تتجلَّى بعض أبعاده، ففي الكاف شِدَّة ينحبس لها الصوت كانحباس الغمِّ والكرب في الصدور، وتأتي الظاء المستعلية المطبَقة المفخَّمة توحي بامتلاء نفوسهم بالهمِّ والغمِّ الذي يتردَّد صداه في جنَبات

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: كظم: ٨٩٥: المفردات: ٤٣٤، ولسان العرب: ٥/ ٤١٠، والكليات: ٧٧٦.
(٢) ينظر: عناية القاضي: ٨/ ٢٥٠.
(٣) أسرار البلاغة: ١٥٣.

نفوسهم فيُلجِم ألسنتهم. وعند الميم تنطبق الشفتان لتعطيَ معنى الانحباس بعد امتلاء الفم بصدى الظاء المفخَّمة.. ولطيفة أخرى تكمن في حركة الفم حال نطق اللَّفظ؛ إذ تُشابه حركة الكظْم في الامتلاء ثُمَّ الاحتباس!

ومما وصف اضطراب القلوب يوم الفزع قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧].

همم عالية وعزائم صادقة وصِف بها عُمَّار المساجد في البكرات والعشيَّات. فلا زخرف الدُّنيا يستميلهم، ولا بهرجها يشغلهم عن ذكر اللَّه وإقام الصلاة في وقتها[(١)]. فتُرى ما سرُّ سموق تلك النفوس؟ وتقاعُس سواها؟

- أتى المضارع ﴿يَخَافُونَ﴾ ليدلَّ على خوف متجدِّد مستمرٍّ جعل حقيقة يومئذ؛ تستقرُّ في القلوب؛ فتمحو شهوات النفوس وأهواءها، وترتقي بها إلى ذرا المحامد، فلا تذرُها حتى تغشى بيوت اللَّه غدوًّا ورواحًا، ولا تعدل بمحبَّته وطاعته كنوز الأرض.

- يزيد تنكير ﴿يَوْمًا﴾ في وصف الهول، وتعظيم شأن يوم العرض الأكبر!

- معنى تقلُّب القلوب اضطرابها وقلقها من شِدَّة القوارع، وعَظَمة الأهوال بين طمع بالنَّجاة وفَرَق من هلاك الآخرة[(٢)]، وفيه كناية عن صفة الفزع والوجَل. واصطُفيت صيغة المطاوعة في الفعل ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ بإثبات التاءين وتضعيف اللام لتدعم معنى خِفَّة القلوب وشِدَّة الحال.

- جُمع بين ﴿ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لتصوير مبلغ الهول يومئذ، وقدِّمت ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ لأهميتها في ثبات المرء واتِّزانه؛ فهي محلُّ الأمن والخوف، ثُمَّ جيء

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٩٤٤، ٩٤٥.
(٢) ينظر: جامع البيان: ١٧/ ٣٢٥، والمحرر الوجيز: ٤/ ١٨٦.

بـ ﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ إذ هي الصورة الخارجيَّة التي تدلُّ على ما يموج في الباطن. فترى الأبصار تتقلَّب أيّ «ناحية يؤخَذ بهم؛ أذات اليمين أم ذات الشمال؟ ومن أين يؤتَون كتبهم؛ أمِن قِبَل الأيمان أم مِن قِبَل الشمائل؟ وذلك يوم القيامة»(١).

وثمة صور أخر من هول يومذاك يختلط فيها خوف الظَّلَمة بذُلِّهم، يسوقها البيان القرآنيُّ في مشاهدَ متعاقِبة، تسلية للمظلومين، وتهديدًا للظالمين أنَّ اللَّه عالم بكلٍّ ما انطوت عليه صدورهم، وما تقلُّبهم في ملذَّات الدُّنيا آمنين إلَّا إمهال لهم ليزدادوا إثمًا. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣] سبحان الحكيم الحليم الذي يملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته!!

موقف خزي عظيم تندى له جباه أولئك العُتاة الذين طالما استكبروا في الدنيا، وأعرضوا عن هدي ربٍّ رحيم. يستبدُّ بهم هول رهيب بين يدي الحساب والمساءلة.. نسأل اللَّه السلامة!

في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا﴾كناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين، ومنه جاء معنى التسلية للنبيِّ الكريم ﷺ، وليس نفي الغفلة عن اللَّه بجارٍ على صريح معناه فكيف يظنُّ ذاك مؤمن؟(٢)

ويتضمَّن قوله تعالى: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ نكات بلاغيَّة تبثُّ معنى الخوف:

- تصف الكناية ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أبصارًا ترتفع من الهول، لا تقرُّ في أماكنها، كموقف محتضَر يشخص بصره مبهوتًا خائفًا(٣).

---

(١) جامع البيان: ١٧/ ٣٢٥.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٦٧.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز: ٣/ ٣٤٤، والتحرير والتنوير: ١٢/ ٢٦٧.

- دلَّ المضارع ﴿تَشْخَصُ﴾على فزع متجدِّد يفجأ أهل الموقف، ترتفع لعِظَمه الأبصار، فتارة لا يرتدُّ إليهم طرفهم، وتارة يبلسون خائفين، لا يرون مواطئ أقدامهم(١).

- (أل) في ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾إمَّا عوض عن المضاف إليه، أي: أبصار الظالمين، أو عهديَّة(٢)، يفسِّرها قول اللّه تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وقد تعمُّ كلَّ مأخوذ بهول المفاجأة(٣).

ولا تلبث تلكم الحال أن تزول عن المؤمنين بأمر اللّه، كما بيَّن ﷻ في غير آية مثل قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩] وقوله ﷿ : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ويظلُّ غارقًا في لُجَّتها كَفَرة فَجَرة أَمِنوها في الدُّنيا؛ فلازمتهم في الآخرة بعدل العزيز الحكيم ﷻ.

ويتجلَّى إبداع السياق القرآنيِّ وبلاغته في التعبير بالجملة الاسميَّة في آية الأنبياء لتدلَّ على ثبوت تلك الحال للكفَّار وملازمتها لهم(٤): ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وأضيفت﴿أَبْصَٰرُ﴾ إلى الموصول إيماءً إلى أنَّ كفرهم سبب لذاك الفزع، وتشهيرًا بهم وتشنيعًا على حالهم، بخلاف حال الأمن الثابت للمؤمنين تكريمًا وتشريفًا في كثير من آيات اللّه مثل قوله ﷿ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]

---

(١) ينظر: معالم التنزيل: ٦٩٠، والكشاف: ٣/ ٣٨٩، وعناية القاضي: ٥/ ٤٨٢، والتحرير والتنوير: ١٢/ ٢٦٧.
(٢) ينظر: الكشاف: ٢/ ٣٠٦، وحاشية القونوي: ١١/ ٩٤.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١٣/ ٧٠٤، وإرشاد العقل السليم: ٣/ ٤٩٧، والتحرير والتنوير: ١٢/ ٢٦٧.
(٤) ينظر: إيضاح الإيضاح: ٦٤٨، والبرهان في علوم القرآن: ٤/ ٦٧.

فشتَّان مابين الفريقين!

كم يستبدُّ الهلع والذلُّ بالظَّلَمة في ذلك اليوم العصيب! فإذا هم يعانون أقسى حالاته. وفي التعبير بالوصف المشتقِّ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي﴾ دلالة على دوام وثبات[(١)].

ويرسم لفظ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ هيئة خائف يغذُّ السير مادًّا عنقه[(٢)]. وفي انتقال السياق من سكون مُطبِق يشي بالرُّعب والوجَل إلى سُرعة مَن لا يلوون على شيء مع شِدَّة الزِّحام، ممدودة أعناقهم رغمًا عنهم، ويمتدُّ بصرهم إلى ما يحيط بهم من مخايل الرُّعب، فلا يرجع إليهم ولا يطرف. وقلوبهم من فزع يومئذْ خاوية، ها قد جاء يومهم الذي فيه يُصعقون!

ويتتابع وصف حالهم يومذاك في سياق منتظِم، لا ينتظر رابطًا أن يجمعه، فيأتي لفظ ﴿مُقْنِعِي﴾ الذي يدلُّ أصله على ارتفاع، يقال: أقنع رأسه وعنقه: رفعه وشخص ببصره[(٣)]. ومعناه هنا«رافعي رؤوسهم ناظرين في ذلٍّ وخشوع إلى جهة واحدة، وهي جهة الدَّاعي، لا يلتفتون يمينًا ولا شمالًا»[(٤)]. وهو من الأضداد فيقال لرافع رأسه ولمطأطئه، إلَّا أنَّ الأول أعرف[(٥)]، وهو المراد هنا إذ «قال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء، لا ينظر أحد إلى أحد»[(٦)]وفيه كناية عن أشدِّ الذُّل والصَّغار[(٧)].

---

(١) ينظر: روح المعاني: ٧/ ٢٣٢.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢/ ٢٦٧.
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة: قنع: ٨٣٥، ولسان العرب: ٥/ ٣٢٩.
(٤) جامع البيان: ١٣/ ٧٠٧، معالم التنزيل: ٦٩١ .
(٥) ينظر: أساس البلاغة: ٣٧٨، والبحر المحيط: ٥/ ٤٣٠.
(٦) جامع البيان: ١٣/ ٧٠٨، ومعالم التنزيل: ٦٩١.
(٧) ينظر: نظم الدرر: ٤/ ١٩٤.

وفي خِضَمِّ هذا الهول العظيم، تنقلب طبيعتهم، ويطير صوابهم، وتفلت جوارحهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾. وأصل الطَّرْف تحريك الجفن، يقال: طَرَف يطْرِف طَرْفًا إذا حرَّك جفنيه، ثم سمِّيت به العين مجازًا[١]. وفي نفي ارتداده كناية عن هول ما رأوا[٢]. وما أروع وقفة صاحب التفسير القرآنيِّ لدى هذه العبارة حين قال: «أي: مأخوذة أبصارهم، إذا وقعت على هول من أهوال المحشر لصقت به، ولم تعد إلى أصحابها»[٣]؛ فقد فقدوا السيطرة عليها.

وقد يسأل سائل: ما سرُّ إفراد الطرف مع دلالته على الجمع؟

ذكر اللغويُّون أنَّه اسم جامع للبصر فيكون للواحد والجماعة؛ لأنَّه في الأصل مصدر[٤]، ولم يرِد مجموعًا في القرآن أبدًا، فمنه قول اللَّه تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الصافات:٤٨]، وقوله ﷻ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥]. كما علَّل صاحب نظم الدرر هذا الإفراد بتعليل طريف مفاده أنَّ القوم لمَّا كانوا في هيئة النظر سواء وُحِّد الطرف ولم يُجمع[٥].

فإن قيل: لِمَ أوثر فصل هذه الأوصاف ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[٦]؟

أُجيبَ بأنَّ الاستعمال القرآنيَّ قد جرى على الفصل بين الصِّفات، إذا أمكن

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: طرف: ٦٠٩، ولسان العرب: ٤/ ١٦٨ .

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٧٢٦، وإرشاد العقل السليم: ٣/ ٤٩٨، وعناية القاضي: ٥/ ٤٨٣، والتحرير والتنوير: ١٢/ ٢٦٧.

(٣) التفسير القرآني: ٣١/ ٢٠٠.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٤/ ١٦٨، وبصائر ذوي التمييز: ٣/ ٥٠١.

(٥) ينظر: نظم الدرر: ٤/ ١٩٤.

(٦) ﴿مُهْطِعِينَ﴾ و﴿مُقْنِعِي﴾ و﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾كلّ منها يعرب حالًا (ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢٢٣) .

الجمع بينها دون تضادٍّ، أمَّا إذا جاءت متضادَّة فيوصَل بينها للتنويع ودفْع توهُّم التناقُض[١]. وقد اتَّفقت هذه الصِّفات في تصوير مظاهر الخوف الخارجيَّة؛ لذا استُغني عن الرَّابط.

ثُمَّ يتدرَّج التصوير مِن ظاهر تيك النُّفوس إلى خباياها ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾واصفًا استيلاء الخوف عليها، حتى إنَّ قلوبَهم لخاوية لا تعي[٢].

وقد صوَّرت كثير من الآيات حال الرُّعب والهول يومئذ، منها قول اللَّه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١-٢] وردت هاتان الآيتان في مستهلِّ سورةٍ مقصودها الحثُّ على التَّقوى، افتُتحت بالأمر بها؛ إذ هي سبيل النَّجاة من هول القارعة، والأمن يوم الفزع الأكبر[٣]، تتجلَّى فيها ظلال القوَّة والشدَّة والرهبة، فتُحيي في النفس مشاعر التقوى والوجَل[٤]التي تبرُز منذ المشهد الأول في السُّورة، مشهد الزلزلة بأسراره ومخاوفه وأهواله. وقد صوَّرت الآيات أهوال الزلزلة؛ ليتصوَّرها الناس بعقولهم، وينظروا إليها ببصائرهم؛ فيعلموا أنه لا يُؤمنهم مخاوفها إلا تردِّي لباس التقوى[٥].

وتتجلَّى البراعة في تصوير أهوال الحدَث العظيم وأوجاله، باصطفاء ما يلائمه من أصوات وكلمات وتراكيب تدلُّ عليه أوفى دلالة:

---

(١) ينظر: الطراز: ٢/ ٢٠، والمعاني في ضوء أساليب القرآن: ٢٢٧.
(٢) سبق تحليلها ص١٧٩.
(٣) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ١٢٩.
(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٥/ ٥٧٥.
(٥) ينظر: الكشاف: ٤/ ١٧٣، وأنوار التنزيل: ٤/ ١١٣.

- تستهلّ السورة الكريمة بإعلام مدوٍّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ينذِر الناس جميعًا من يوم عظيم، أنِ انتبهوا من غفلتكم فالخطب جَلل والطارِق مهول، واعتصموا بالتقوى[١]المنجِية من أهوال الساعة[٢].

- عُلِّل[٣] الأمر بالتقوى بالترهيب من الساعة، ووصفها بأهول صفة. وفي التعبير عن الذات العلِيَّة بصفة الرَّبِّ دون غيرها من الصفات نحو السيِّد أو الجبَّار، وإضافته إلى ضمير المخاطبين ﴿رَبَّكُمْ﴾ إيماء إلى معنى المالكيَّة والتربية واستحقاقه أن يُتَّقى[٤]؛ لينبعث الرجاء في النفس الإنسانيَّة.

- يُسهم لفظ ﴿زَلْزَلَةَ﴾ في وصف تلك الأهوال الغيبيَّة، فكأني بصفتي الانفتاح والجهر في الزاي واللام، تعمِّقان معنى الهول بانفتاح أمور طالما خفيت في الدنيا، ثُمَّ تُعلَن مع الصفير في الزاي، وتظهر آثار أهوالها في انقلاب الموازين الكونيَّة، وزوال الأشياء التي عهدها الناس في دنياهم عن مقارِّها. وتبثُّ تلك الدّلالةَ صفتا الانحراف والذَّلاقة في اللام، ويزداد المعنى بتَكرار هذين الحرفين؛ فنشعر بأجواء خوف تطير لها القلوب، وتزيغ الأبصار، نسأل اللَّه أن يجعلنا من الآمنين!

---

(١) سبق بيان معنى التقوى ص٣٩.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ١٢٩.
(٣) ذكر ثلة من المفسرين إفادة ﴿إِنَّ﴾ معنى التعليل. (ينظر: الكشاف: ٣/ ٢٤، ونظم الدرر: ٦/ ١٣٠، وحاشية زاده: ٦/ ٨١، وإرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٦٤، وروح المعاني: ٩/ ١٠٦، والتحرير والتنوير: ١٧/ ١٣٧)، إلا أن النحويين- فيما رجعت إليه من مراجعهم- ضربوا عن ذكر ذلك المعنى صفحًا مع ثبوته في القرآن، وقد أحصى محمد عبد الخالق عضيمة أكثر من مئتي موضع لـ ﴿إِنَّ﴾ في مقام التعليل في القرآن. (ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: القسم/ ١: ١/ ٣٩٧، ٣٩٦)، وذكر عبد القاهر الجرجاني أثرها في تبيين وجه الفائدة في الكلام (أي: التعليل)؛ إذ بها تأتلف الجملتان وتتحدان حتى كأن إحداهما قد سبكت في الأخرى لبيان وجه الفائدة. (ينظر: الدلائل: ٣١٦، ٣٢٣).
(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٦٥، والتحرير والتنوير: ٢٧/ ١٣٦.

- يجلّي المجاز العقليّ بإضافة المصدر إلى زمانه في ﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ حال الهول؛ إذ حقيقة التحريك يسنَد إلى اللّه، لكنّه أُضيف إلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾[١]. وهنا يتميز العرض والأداء التصويريُّ في توجيه الأنظار إلى الحدث ذاته لتضخيمه؛ إذ عند تحاشي ذكر المسبِّب ينصبُّ التفكير في هول الحدث وينحصر الذهن في أبعاده، ولا يتوزَّع في غيره؛ فيدرك التلقائيَّة والطواعية التي يكون بها الكون كلُّه مُهيَّئًا مسخَّرًا بقوّة مهيمنة قاهرة لخطب جلل لا تحتاج الكائنات فيه إلى أمر[٢].

- أُخبر عن ﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾بأنها ﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[٣] للإيذان بهول تقصُر العقول عن إدراك كُنهه، وتضيق العبارة عنه إلا بلفظ مُبهَم[٤] موصوف بعِظَم يُضاعِف أفزاع المشهد.

- مضى السياق منذِرًا لافتًا النظر إلى قُوّة الحدَث[٥]، بطريقة فريدة معجزة تحسُّ معها «بأنَّك تشاهد مشهدًا مرئيًا، لا أنَّك تستمع إلى كلام متلوٍّ، فتنتقل أنت وعقلك وجوارحك كلُّها إلى هذا المشهد»[٦] ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ ففيه تصويرٌ حيٌّ مباشِر لحال المرء يوم يتملّكه الهلَع ورهبة المفاجأة، فترتجف حركاته، وتضطرب تعبيراته، ويقف مشدوهًا ذَهِلًا من هول ما يرى.

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل: ٤/ ١١٣، وحاشية ابن التمجيد: ٣/١٣ ، ونظم الدرر: ٦/ ١٣٠، وحاشية شيخ زاده: ٦/ ٨٤، وإرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٦٤، وحاشية القونوي: ٣/١٣.

(٢) ينظر: التفسير البياني: ١/ ٨٥، ومجاز القرآن للصغير: ٩٠ - ٩٢ .

(٣) قال ابن عاشور: «وهذه من المواضع التي يحسن فيها موقع كلمة ﴿شَىْءٌ﴾ وهي التي نبه عليها الشيخ عبد القاهر» (التحرير والتنوير: ١٣٧/١٧، وينظر: دلائل الإعجاز: ٤٧) .

(٤) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ١٣٠، وإرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٦٥، ومفتاح العلوم: ٣١٤.

(٥) ينظر: حاشية ابن التمجيد: ٧/١٣، وحاشية القونوي: ٧/١٣، والفتوحات الإلهية: ٣/ ١٥١، وفتح القدير: ٣/ ٥٧١.

(٦) المعجزة الكبرى: ٢٢٢.

- دلَّ التعبير بـ ﴿تَذْهَلُ﴾ على عمق الهول، فأصل الذهول يدلُّ على شُغل شيءٍ عن شيءٍ بذُعر أو غيره، تقول: ذَهَلتُ عن الشيء أَذْهَل، إذا نسيتَه أو شُغِلتَ عنه، والذهول والذَّهْل هو شُغُل يُورِث حزنًا وغفلة عن الإلْف[(١)].

- اختير لفظ ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ دون (مرضِع)؛ إذ من شأن الثانية أن تُرضِع وإن لم تباشر الإرضاع حال وصفها به، ولا عجب أن تذهَل امرأة عمَّن أرضعت في زمن ماضٍ، أمَّا ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ فلها دلالة على الهول أبعد شأوًا؛ إذ يتملَّى الخيال أمًّا ألقمتِ الثديَ رضيعَها أحبَّ الناس إليها،[(٢)] ثُمَّ تنزِعه من فيه؛ لانشغالها بخطب جلل.

- عُمِّم الهول على المرضعات بإضافة ﴿كُلُّ﴾ إلى ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ ليدلَّ على استوائهن فيه، فلا ينصرف ذهن إلى ضَعف ذاكرة أو غيره[(٣)].

- عُبِّر بالموصول ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ دون الصريح (ابنها)، وأوثرت (ما) الموصولة[(٤)] دون (مَن) على خلاف مقتضى الظاهر، وفي هذا تصوير دقيق لشِدَّة الفزع الذي يصيب أُمًّا بالذهول عن ماهيَّة ما ترضِع رغم أنه نُصب عينيها، وهي في قمَّة تعلّقها به[(٥)]. وشفقة الأمِّ على الابن أشدُّ من شفقة الأب، وشفقتها على الرضيع أشدُّ من شفقتها على غيره، فيدلُّ ذلك بدِلالة الأَولى على ذهول غيرها من النساء والرجال.

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ذهل: ٣٦٩، والمفردات: ١٨٦، ولسان العرب: ٢/ ٤٧٤.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٢١٤، ومعجم مقاييس اللغة: رضع: ٣٨٦، والكشاف: ٣/ ٢٤، ومعالم التنزيل: ٨٥٧، وحاشية ابن التمجيد: ١٣/ ٧ .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧/ ١٣٩.

(٤) ويمكن أن تكون مصدرية كذلك (ينظر: أنوار التنزيل: ٤/ ١١٣، وحاشية القونوي: ١٣/ ٥، وابن التمجيد: ١٣/ ٥)، إلا أن عدّها موصولة أكمل دلالة في تصوير الخوف.

(٥) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٦٥، والتحرير والتنوير: ١٧/ ١٣٩.

- دلَّت الكناية البديعة ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ على جميع لوازم شِدَّة الهول حتى ما لم تصرِّح به الآية. فذهول مرضعة عن رضيعها يستلزم شِدَّة فزع غيرها بطريق الأَولى، ويُسمَّى هذا النوع من الكناية إيماءً[١]. ومعلوم أن ليس ثمة حمل ولا إرضاع يومئذ، وإنما سُلك التعبير بهذه الطريقة على الكناية أو التمثيل تعميقًا لمعنى الفزع، أي: لو كان مثلها في الدنيا لذهلت[٢].

- تترسَّخ آثار الخوف الشديد في كناية تالية تسفر عن عظم الهول، في قوله تعالى: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾فقد تُسبِّب شِدَّة اضطراب الحامل مخاضًا قبل الأوان.

- تتبعها صورة تُعمِّم الفزع أكثر في قوله تبارك اسمه: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾[٣]. والخطاب في ﴿تَـرَى﴾ لغير معيَّن، فهو مساوٍ للخطاب في ﴿تَرَوْنَهَا﴾لهذا السبب، و(أل) في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للاستغراق.

فإن قيل: لِمَ بدئ بـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾، وثنِّي بـ﴿تَـرَى﴾على الإفراد؟

فجواب ذلك في تعليق الرؤية بالزلزلة ابتداء، وجعلها مرئيَّة للناس كافة، ثم تعلُّقها أخيرًا بحالة فريدة من السُّكر، لا بدَّ فيها أن يجُعَل كلُّ واحد منهم رائيًا لسائرهم[٤]، ولابن عاشور لطيفة تضاف إلى ما سبق، هي التفنُّن في العبارة كراهةَ إعادة الجمع[٥].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧/١٣٨، ١٣٩ .
(٢) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٦/ ٨٥، وإرشاد العقل السليم: ٤/ ٣٦٥، عناية القاضي: ٦/ ٤٨٨.
(٣) سبق تحليلها في فصل التشبيه ص١٦٣ - ١٦٤.
(٤) ينظر: الكشاف: ٣/ ٢٥، والبحر المحيط: ٦/ ٣٥٠، ونظم الدرر: ٦/ ١٣١، وحاشية ابن التمجيد: ١٣/ ٧، وحاشية شيخ زاده: ٦/ ٨٦.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ١٧/ ١٣٩.

- وهكذا يبدأ المشهد «بالتهويل المجمَل ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، وينتهي بالهول المفصَّل، فإذا هو مِصداق ذلك الإجمال»[١].

* * *

(١) مشاهد القيامة في القرآن: ٢٥٧، وينظر: في ظلال القرآن: ٥/٥٧٨.

المبحث الثالث
الكناية عن النسبة

ليس ثمة شواهد للكناية عن النسبة في موضوع الأمن والخوف - على حدّ علمي -، وحيث إنَّ الذلَّ مرتبط بالخوف، ولعلّه أقرب المعاني إليه، وفيه وردت آيتان متشابهتان قد يكون في تحليلهما ما يجلِّي الكناية عن النسبة، ولا يبتعد بنا كليًّا عن الخوف؛ لذا جعلتهما شاهد هذا المبحث.

قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]

وقال - جلَّ ثناؤه -: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢].

تتشابه الآيتان وتتواردان على معنى واحد في ذمِّ بني إسرائيل والإخبار عن حالهم، إلَّا أنَّ أولاهما في ذمِّ سلفهم، فسياقها يحكي ما كان بينهم وبين كليم الله عليه السلام حين قالوا له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾، والأخرى في ذمِّ خلفهم المعاصرين للمصطفى ﷺ وأصحابه، فقد سُبقت بقول العليم الحكيم جل جلاله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١] تنبيهًا للمسلمين إلى أن يأخذوا الحذر منهم، وتطمينًا لهم - حالًا ومستقبلًا - بأنَّ غاية ما يبلغه اليهود من كلِّ ما يكيدون وما يمكرون، لا يتجاوز الأذى باللِّسان؛ فقد رُقموا بذلٍّ وجُبن يمنعانهم من

المواجهة[١]. وفي الآيتين صورة حسِّيَّة تجسِّد حال المغضوب عليهم أنَّى وحيثما وُجدوا.

- يُشعر لفظ ﴿ضُرِبَتْ﴾ بملازمة الذلَّة لليهود وقوَّة إيقاعها عليهم، فأصل الضرب إيقاع شيء على شيء، ومنه ضرب الخيمة بضرب أوتادها بالمطرقة[٢].

- ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ على فِعلة كأنها الهيئة والحال[٣] من الذلِّ نقيض العزِّ، يقال: ذلَّ فلان يذِلُّ ذُلًّا وذِلَّة وذَلالة ومَذلَّة فهو ذليل، أي: مَهين صاغر[٤].

- ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ مصدر المسكين، يقال: سَكَن واستكَنَ وتَمَسْكَن واستكان، أي: خَضَع وذلَّ[٥]، قال الطبريُّ (ت٣١٠هـ): «والمسكنة في هذا الموضع مسكنة الفاقة والحاجة، وهي خشوعها وذلها»[٦]. ويصوِّر لفظها هيئة سكون وانكفاف حراك ومهانة تعلو اليهود، فقلوبهم فقيرة وإن كانوا مياسير، وليس في أهل الملل أذلّ نفسًا وأشحّ مالًا منهم[٧].

ذكر بعض المفسِّرين في معنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾: جُعلت من ملازمتها إيَّاهم محيطة بهم مشتمِلة عليهم إحاطة القبَّة بمن ضربت عليه، أو أُلصقت به حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه، فهم أذلَّاء مساكين، إمَّا على الحقيقة، وإمَّا على التكلُّف خِيفة أن تضاعف عليهم الجزية[٨].

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٢/ ١٣٦، والتفسير القرآني: ١/ ٥٥٣، ٥٥٤.
(٢) ينظر: ضرب: المفردات: ٢٩٨.
(٣) ينظر: المحرر الوجيز: ١/ ١٥٤.
(٤) ينظر: لسان العرب: ذلل: ٢/ ٤٦٧.
(٥) ينظر: السابق: سكن: ٣/ ٣١٣.
(٦) جامع البيان: ٢/ ٢٦.
(٧) ينظر: معالم التنزيل: ٣٧، ونظم الدرر: ١/ ١٤٩.
(٨) ينظر: الكشاف: ١/ ٧٢، وأنوار التنزيل: ١/ ٣٣٢، والبحر المحيط: ١/ ٢٣٦.

لقد لزمتهم الذلَّة والمسكنة صغارًا في نفوسهم، ودناءة في هممهم، ووضاعة في طباعهم حتى صارت سجيَّة باقية في أعقابهم قدرًا وشرعًا، فلا يزالون مستذلِّين، مَن وجدهم أذلهم وأهانهم وفرض عليهم الجزية[١]، فقد أمر اللَّه عباده أن لا يعطوهم أمانًا على القرار على ماهم عليه من كفرهم به وبرسوله ﷺ إلَّا أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[٢]. كما قال عز وجل: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾ [التوبة: ٢٩].

ففي التعبير بـ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ كناية عن النسبة تصوِّر ثبوت الذلة والصَّغار لهم[٣] على نحو ما قال زياد الأعجم:

إنَّ السَّماحة والمروءةَ والنَّدى في قُبَّة ضُرِبَتْ على ابنِ الحشْرجِ[٤]

وقد ذهب بعض المفسِّرين إلى حملها على الاستعارة المكنيَّة بتشبيه الذلَّة والمسكنة بالقُبَّة المضروبة، أو على التصريحيَّة التبعيَّة[٥] بأن يشبَّه إلزام الذلَّة لهم بضرب الطين على الحائط[٦]، وأضاف الشهاب الخفاجيُّ (ت١٠٦٩هـ) على هذين الوجهين من الاستعارة وجهًا ثالثًا لها على التمثيليَّة[٧].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٧٥.
(٢) ينظر: جامع البيان: ٢/ ٢٧.
(٣) ينظر: حاشية ابن التمجيد: ٣/ ٣٤٢، وحاشية القونوي: ٣/ ٣٤٣.
(٤) من الكامل، وهو منسوب إلى زياد في الأغاني: ١٢/ ٢٨، ٤٠، ودلائل الإعجاز: ٣٠٦، والإيضاح: ٣٠٦.
(٥) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٢/ ٧٣.
(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١/ ١٤٠.
(٧) ينظر: عناية القاضي: ٢/ ٢٦٩.

وما أبدع ما أضافته تعدية ضرب الذلَّة بحرف الاستعلاء ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ مع ارتباطها بالانخفاض والتطامن! فاستعلاؤها على اليهود يصوِّر في الذهن حالًا متناهية في الصَّغار والقماءة.

﴿وَبَآءُو﴾ البوء الرجوع، وهو هنا مستعار لانقلاب الحال[١]، فقد أبدل اللَّه عزَّهم ذُلًّا، ونعمتهم بؤسًا، ورضاه عنهم غضبًا، جزاء كفرهم بآياته، وقتْلهم أنبياءه، اعتداءً وظلمًا وعصيانًا.

ومما يدعو إلى التأمُّل أن يلازم ضرب الذِّلة في القرآن نفوس أولئك الجبناء قَتَلة الأنبياء، ولا عجب؛ فتاريخهم الملطَّخ بالشنائع والفظائع ونقض العهود وإثارة الفتن وإشعال الحروب وسفك الدماء، يحكي دناءة ولؤمًا وخبثًا. «وإن المتأمِّل في التاريخ لابدَّ أن يكتشف بلا عناء أنَّ أمَّة اليهود هي بحقٍّ أمَّة متميِّزة؛ متميِّزة بالمكر ترتديه، وبالإثم والسُّحت ترتضيه، وبالشرِّ والعَداء تمتطي صهوته، وبحبِّ العُمر الطويل والمال الكثير تستعذب سكرته. وإنَّ أمَّة من الأمم لم تشهد ما شهده تاريخ بني إسرائيل من قسوة وجحود وعناد وكنود، وتنكُّر للّهداية ومقت للمهتدين؛ حتى تأهَّلوا بجدارة لأن يكونوا محطَّ غضب اللَّه ومحلَّ سخطه... وإذا كان قتل النفس البريئة أفظع جرم يُتصوَّر من إنسان ضدَّ أخيه الإنسان؛ فما بالنا بقوم كان ديدنهم قتل الأنبياء..؟ »[٢].

وليس بمستغرَب أن تصدر من المغضوب عليهم تلك الشنائع، وقد فعلوا ما هو أدهى منها وأمرّ، حين تبجَّحوا على بارئهم وليِّ نعمتهم ﷻ ، وقد حكى القرآن أقوالهم المنكَرة- كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلَّا كذبًا- في غير آية، ومنها: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٥١١.
(٢) قبل الكارثة نذير ونفير: ٣١.

يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله - تبارك وتعالى -: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

وهكذا خصَّهم الحكَم العدل بذيَّاك العقاب، ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، فتراهم حيثما ثُقفوا أذلَّة صاغرين فقيري النفوس(١).

وفي الآيتين إشارة بيّنة إلى سرّ ضرب الذلَّة والمسكنة على بني يهود: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ استئناف بيانيٌّ أثاره ما شنع به حالهم من لزوم الذلة والمسكنة، فكأنَّه قيل: لم استحقُّوا ذلك؟ فأجيب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، والباء سببيَّة؛ أي: إن كفرهم وما معه كان سببًا لعقابهم، وفيه تحذير من مقارفة معاصيهم(٢).

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ «يحتمَل أن تكون الإشارة فيه إلى نفس المشار إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأُولى فيكون تكريرًا؛ لزيادة تمييز المشار إليه حرصًا على معرفته»(٣)لغرابته؛ فقد تغيَّرت حال الذين هادوا من العزِّ والتمكين إلى الذُّل والمسكنة جزاء وفاقًا لكفرهم ومعاصيهم واعتداءاتهم الشنيعة. «وصيغة البعد لعِظَم ذلك في بابه»(٤).

وعُطِف ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ على ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ «والاعتداء تجاوز الحدِّ الذي

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ١/ ١٥٤.
(٢) ينظر: نظم الدرر: ٢/ ١٣٨، والتحرير والتنوير: ١/ ٥١٢، ٥١٣.
(٣) التحرير والتنوير: ١/ ٥١٣.
(٤) حاشية القونوي: ٣/ ٣٤٥.

حدّه الله -تعالى ذكره- لعباده إلى غيره، وكلّ متجاوز حدّ شيء إلى غيره فقد تعدّاه إلى ما تجاوز إليه. فمعنى الكلام: فعلت بهم ما فعلت من ذلك بما عصوا أمري، وتجاوزوا حدّي إلى ما نهيتهم عنه»(١). ويجوز أن يكون المشار إليه هنا الكفر بآيات الله وقتل النبيّين؛ فهو سبب السبب تنبيهًا على أنَّ اقتراف الكبائر واجتراح السيئات يفضي إلى تغلغُل المعاصي في القلوب والإدمان عليها، والتنقُّل من أصغرها إلى أكبرها(٢).

واختير المضارع ﴿يَعْتَدُونَ﴾ مع ﴿كَانُوا۟﴾ لإفادة الاستمرار التجدُّديّ(٣).

وثَمَّ لطائف صُرِّف بها النظم في كلِّ آية تبعًا لاختلاف زمن الفئة المذمومة، واختلاف المقام الذي سيقت فيه كلٌّ منهما:

- جُمع بين ﴿ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ في آية البقرة وفُرق بينهما في آية آل عمران: فقد أتت جملة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في آية البقرة بعد تعداد نعم الله مذ فرق بهم البحر، وأغرق آل فرعون أمام أعينهم، ثم تواترت عليهم آلاؤه ومننه، وآتاهم من كلِّ ما سألوه، والعجيب بعد كلِّ هذا أن يقابَل الإحسان بالكنود، والتفضيل بالجحود، فإذ بهم بعد التكريم خنازير وقرود!

لقد جاءت الآية كالنتيجة الحتميّة لِمَا وصل إليه حال أولئك؛ فكان من الطبَعيّ أن تشتمل على جملة ما حُكم به عليهم من الهوان والذلّة والمسكنة والبوء بغضب الله، كما تشتمل النتائج على مجمل ما تؤدّي إليه المقدّمات؛ فقيل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) جامع البيان: ٢/ ٣٢.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٥١٣.
(٣) ينظر: حاشية القونوي: ٣/ ٣٤٥.

أمَّا في آية آل عمران فقد اختلف الحال، وكان الغرض الزجر والتخويف، ففُرِّق بين جملة ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ وجملة ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتستقل كلُّ جملة بمعناها، ولتلقي كلُّ جملة بظلالها في قلوب هؤلاء اليهود ترويعًا وتخويفًا وتفزيعًا، علَّ هذا يدفعهم إلى أن يؤوبوا إلى ربهم ويعتصموا بحبله[١].

- قُيِّدت الذلَّة بـ ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾، واستُثني منها ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ في آية آل عمران: وفي التقييد دلالة على عموم الذلَّة فيه «حكم قاطع بمصاحبة الذلَّة لهم، أينما وُجدوا، وأينما كانوا في كلِّ موطن وفي كلِّ زمن، هكذا هم في ذلَّة وهوان أبد الدهر. ذلَّة في أنفسهم وذلَّة بأيدي من يذلُّونهم من عباد اللَّه المسلَّطين عليهم، فإن نجوا من هذه الذلَّة التي يسوقها الناس إليهم، لم يخرجوا من تلك الذلَّة المستولية على طبيعتهم»[٢]. وكأنَّ الآية تصوِّر لهم تيك السجون التعيسة التي تلازمهم أينما ثُقفوا؛ لتوجِّه أنظارهم إلى طريق الخلاص من أسرها[٣]، فيمتدَّ أمامهم حبلان للنجاة لا ثالث لهما، أولهما قويٌّ متين يرفعهم إلى نجاة أبديَّة من قيد الذلَّة والمسكنة في الدنيا والآخرة وهو حبل اللَّه، فإن أبت عليهم سخافة عقولهم التمسُّك به، فليس أمامهم إلا الجزية يعطونها عن يد وهم صاغرون؛ ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم وأهليهم.

- قُدِّم غضب اللَّه في آية البقرة على المسكنة: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ ويعلِّل ابن الزبير الغرناطيّ ذلك بأنهم بعدما أنعم اللَّه عليهم بالمن والسلوى يأتيهم بغير مؤونة ولا مشقة، كان طلبهم ما ألفوا في مأكلهم وهو

---

(١) ينظر: من متشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربية: ٤٣، ٤٤.
(٢) التفسير القرآني: ١/ ٥٥٧.
(٣) ينظر: من متشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربية: ٤٤.

دونه ويستلزم الذلَّة والمهانة في التوصُّل إلى الانتفاع به: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾، فناسب ذلك أن يناط به ويبنى عليه ذكر ضرب الذلة والمسكنة عليهم؛ إذ لم يقدروا على التخلِّي عن إلفهم ثمنًا للعزة والتمكين، ثم أعقب ذلك بذكر ما باءوا به من غضب اللَّه. ولما تقدَّم في آل عمران وصف جبنهم وهوانهم في القتال كما قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾ ناسب هذا تقديم سرِّ ذلك الجبن الذي يجعلهم يولُّون الأدبار، وهو ما باءوا به من غضب اللَّه عليهم؛ إذ لا فلاح إلَّا مع رضى اللَّه، ولَينصرن اللَّه من ينصره؛ إنَّ اللَّه لقويٌّ عزيز[(١)]!

- عُرِّف ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ في البقرة ونُكِّر في آل عمران: لَما كان سَلَفهم ممن لم يشاهد أمر محمد ﷺ، ليسوا في ارتكاب البُهْت والمجاهرة بالباطل والتمرُّد والاعتداء كمن عاين البراهين من الخلَف ناسب حالهم التعبير بالمعرفة؛ إذ ليست في قوة النَّكِرة في التبكيت والتوبيخ، وقد تقرَّر في كتابهم- كما هو عندنا- ما يسوِّغ القتل ويوجبه بعد الإيمان، مع علمهم بأنَّ الأنبياء - عليهم السلام - مبرَّأون منه، فلاءم ذلك قوله: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: بغير وجه الحقِّ المبيح للقتل، فـ (أل) للعهد المتقرِّر في شريعتهم.

والأخرى فيمن شاهد منهم أمر محمد ﷺ، وعاين الأدلة والبراهين، واستوضح أنَّه الذي أخبر به موسى عليه السلام وغيره، ثُمَّ تمادى في الكفر والعناد من بعد ما تبيَّن له الحقّ، كان الأنسب أن يعبَّر عنهم أنهم ارتكبوه بغير شبهة، ولا سبب يمكن التعلُّق به، فقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ أي: بغير سبب، وذلك أوغل في ذمِّهم وسوء حالهم، فقد افترق مقصد الآيتين. والفئة التي ذكرت

(١) ينظر: ملاك التأويل: ١/ ٦٩، ٧٠.

فيهما[١]. «فاختير لفظ المعرفة في القصَّة التي وقعت ووقع الإخبار عنها ولفظ النكرة في القصَّة التي وقع التهديد مقارِنًا لها ليمنع من وقوعها»[٢].

- أوثر جمع السلامة في البقرة ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، والتكسير في آل عمران ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾: فجمع السلامة يدلُّ بظاهره على القِلَّة، فيناسب ما يقتضيه مقام الإخبار عن يهود بني إسرائيل زمن نبيِّهم موسى عليه السلام، أمَّا كثرة من قُتِل على امتداد الزمان فيناسبها التعبير بلفظ ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ ليحكي تاريخًا طويلًا فيه على صيغة الكثرة زيادة في التقبيح والتشنيع. وثَمَّ لطيفة أخرى تكمن في قطع الأعذار والأطماع لئلَّا يكون للنَّاس على اللَّه حجَّة، فقد ورد كِلا الجمعين عن العرب فكان التفنُّن في الأسلوب حتى لا يقتصر في شيء من خطابهم على أحد الجائزَين دون الآخر[٣].

وبعدُ ففي هذه الآيات سلوى لكلِّ محزون يرى شوكة يهود تقوى. فليتملَّ قول الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١]، ويستحضر قوله جل جلاله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥] فما انتصار أولئك الأذلَّة إلَّا إمهال من اللَّه لهم، وابتلاء للمسلمين فنحن على موعد مع نصره عز وجل بانتهاء دولة يهود، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه، وترتفع راية لا إله إلَّا اللَّه خفَّاقة في شتَّى البقاع رغم أنوف أعداء الإسلام، وما ذلك على اللَّه بعزيز!

* * *

---

(١) ملاد التأويل: ١/ ٧١-٧٣.
(٢) درة التنزيل وغرة التأويل: ١/ ٢٤٩.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١/ ٥١٣، ومن متشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربية: ٤٥ .

الفصل الخامس

المبحث الأول: تصريف الصور مع اتفاق المعنى

المبحث الثاني: تصريف الصور مع تقابل المعنى

المبحث الثالث: تصريف الصور بالتعبير بالماضي عن المستقبل وعكسه

توطئة:

التصريف فنٌّ بيانيٌّ دقيق المسلك بعيد الغَور، يتسنَّم به الكلام ذروة البلاغة. وهو سرٌّ عظيم من أسرار إعجاز مَثَل البيان الأسمى في معانيه وعرض موضوعاته، فمع تفرُّق المعنى الواحد في القرآن وتبايُن أوقات نزوله، إذ به يمثِّل وَحدة متكاملة يعرضها البيان الخالد وَفق نظام بديع، تنساب ألفاظه ملائمة لسياقها وموضوعها والعبرة التي تنطوي عليها في انسجام عجيب وسبك متين وتفنُّن دقيق.

مفهومه:

أصل التصريف يدلُّ على رجْع الشيء، فالصرْف ردُّ الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره[١]، قال اللَّه تعالى في وصف ابتلاء يوم أحد: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]أي: ردَّ وجوه المؤمنين عن الكفّار[٢]، يقال: صرَفه يصْرِفه صَرْفًا فانصرف، والتصريف كالصَّرْف إلَّا في التكثير، ومنه تصريف الرياح أي: ردّها من جهة إلى أخرى بأن تُجعَل ضُروبًا في أجناسها جنوبًا وشمالًا وصَبًا ودَبورًا. وتصريف الدراهم: إنفاقها وأخْذ بدلها، ومنه اشتُقَّ اسم الصَّيرفيّ لتصريفه النقد. وتصريف الكلام تزيينه والزيادة فيه، وسمِّي بذلك لأنَّه إذا زُيِّن صَرَف الأسماع إلى استماعه[٣]. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: صرف: ٥٦٦.
(٢) ينظر: جامع البيان: ٦/ ١٤٢.
(٣) ينظر: المفردات: ٢٨٣، ولسان العرب: ٤/ ٣٤.

عدَّ الرمانيُّ (ت٣٨٦هـ) التصريف من وجوه بلاغة القرآن، ووضَّح المقصود منه بقوله: «التصريف تصريف المعنى في المعاني المختلفة، كتصريفه في الدلالات المختلفة، وهو عقدها به على جهة التعاقُب، فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعاني المختلفة، وهو عقدها به على جهة المعاقبة، كتصريف المُلْك في معاني الصفات؛ فصرِّف في معنى مالك، ومَلِك، ذي ملكوت، والمليك، وفي معنى التمليك والتمالك والإملاك والتملُّك والمملوك... وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره وتدلُّ عليه. أمَّا تصريف المعنى في الدّلالات المختلفة فقد جاء في القرآن في غير قصَّة، منها قصَّة موسى عليه السلام، ذُكرت في سورة الأعراف وفي طه والشعراء.. وغيرها لوجوه من الحكمة، منها التصرُّف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة... فظهور الحجاج على الكفَّار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة»(١).

وبهذا كان الرمَّانيُّ أوَّل من استعمل مصطلح التصريف في الدراسات القرآنيَّة(٢)، وتبعه الباقلانيُّ فأدرجه ضمن وجوه الإعجاز مبيِّنًا تفرُّد القرآن فيه عن سائر الكلام، فقال: «وقد تأمَّلنا نظْم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرَّف فيه من الوجوه... على حدٍّ واحد في حُسن النظم، وبديع التأليف والرصْف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العُليا ولا إسفال فيه إلى الرُّتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرَّف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة؛ فرأينا الإعجاز في جميعها على حدٍّ واحد لا يختلف، كذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر

(١) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ١٠١- ١٠٢.
(٢) ينظر: بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم: ٢٥.

القصَّة الواحدة، فرأيناه غير مختلِف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنَّه مما لا يقدر عليه البشر؛ لأنَّ الذي يقدرون عليه قد بيَّنَّا فيه التفاوت الكثير عند التَّكرار وعند تبايُن الوجوه واختلاف الأساليب... والقرآن على اختلاف ما يتصرَّف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة، يجعل المختلِف كالمؤتلِف والمتبايِن كالمتناسِب»[(١)].

لنتأمَّل ما قاله المفسِّرون في الآيات التي ورد فيها لفظ التصريف، ومنها قول اللَّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨]؛ قال أبو حيَّان في تفسيره: «أي: مثل هذا التصريف والترديد والتنويع ننوِّع الآيات ونردِّدها»[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:٤٦] قال أبو السعود (ت٩٨٢هـ): «أي: نكرِّرها ونقرِّرها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب، تارة بترتيب المقدّمات العقليَّة، وتارة بطريق الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير»[(٣)].

ويتَّضح معنى تصريف الكلام أكثر عند ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في قوله: «وتصريف الآيات اختلاف أنواعها بأن تأتي مرة بحجج من مشاهدات في السماوات والأرض، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس النَّاس، ومرة بحُجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها اللَّه، فالآيات هنا هي دلائل الوحدانية، فهي متَّحدة في الغاية مختلفة الأساليب متفاوتة في الاقتراب مِن تناول الأفهام عامِّها وخاصِّها، وهي أيضًا مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي المقدّمات العقليَّة

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني: ٨٨، ٨٩.
(٢) البحر المحيط: ٤/ ٣١٩.
(٣) إرشاد العقل السليم: ٢/ ٣٨٣، وينظر: أنوار التنزيل: ٢/ ٤٠٩.

وغيرها، ومن جهتي الترغيب والترهيب ومن التنبيه والتذكير، بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول»[١]. وقد رأى ابن عاشور بحسِّه البلاغيِّ وذهنه الوقَّاد أنَّ هذا الإبداع القرآنيَّ في نظم الكلام مما لم يكن معهودًا عند العرب جانب مهمٌّ يقوم عليه ملاك الإعجاز في البيان الإلهيِّ الفذِّ[٢].

وفي ضوء ما قيل حول معنى التصريف؛ تبرز مصطلحات تقاربه كالتَّكرار والتَّكرير[٣] أوالتَّرداد والتَّرديد[٤] قد انتشرت عند بعض المفسِّرين والبلاغيِّين واللغويِّين.

وبالنَّظر في مدى ملاءمة هذه المصطلحات لكتاب اللّٰه يتجلَّى واضحًا تفوُّق مصطلح التصريف عليها؛ فهو مصطلح قرآنيٌّ؛ لذا كان الأليق بأسلوبه والأشمل لبيانه، بينما لا تسلم مصطلحات البشر من الخلل والقُصور والكراهة أو القبح والحشو أو النقد والطعن، فقد تباينت حولها آراء العلماء، فرأى بعضهم أنها من الفصاحة والبيان؛ فأطلقوها على بيان القرآن، وعارض آخرون وجودها في القرآن

---

(١) التحرير والتنوير: ٦/ ١٠٥.
(٢) ينظر: السابق: ١/ ١٠٢.
(٣) أفرده الذين صنفوا في المتشابهات وفي مقدمتهم الخطيب الإسكافي (ت٤٢٠هـ)، ثم الكرماني (ت٥٠٥هـ)، ثم ابن الزبير الغرناطي (ينظر: بلاغة تصريف القول: ١/ ٣٥).
(٤) كان أول من سماه بهذا الاسم الجاحظ (ت٢٥٥هـ) فقد نقل قولًا لسفيان بن عيينة عن الزهريّ قوله: «إعادة الحديث أشد من نحت الصخر»، ثم قال: «وجملة القول في التَّرداد أنه ليس فيه حدٌّ يُنتهى إليه ولا يؤتى على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره من العوامِّ والخواصّ. وقد رأينا اللّٰه ردَّد قصَّة موسى وهود وهارون وشعيب... وكذلك ذكر الجنة والنار وأمور كثيرة؛ لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبيٌّ غافل، أو معانِد مشغول الفكر ساهي القلب» البيان والتبيين: ١/ ١٠٤، ١٠٥.
وممن سمَّاه بالترديد (ابن أبي الإصبع في تحرير التحبير: ٢٥٣، وتلاه العلوي في الطراز: ٣/ ٤٧) وكلاهما ذكر التعريف نفسه وهو: «أن يعلِّق المتكلِّم لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردَّها بعينها ويعلِّقها بمعنى آخر». .

بحجَّة أنها لا تناسب بيانه الرائع وتصرُّفه البديع. فالأَولى يُستبدَل التصريف بها[١]؛ إذ نجد الكلمة القرآنية تتكرَّر في السياق، ثم نراها تتنوَّع وتختلف فتحمل في كلِّ مرَّة معنًى جديدًا، كما قال الخطيب الإسكافيُّ (ت٤٢٠هـ): «إذا أورد الحكيم -تقدَّست أسماؤه- آية على لفظة مخصوصة، ثم أعادها في موضع آخر من القرآن، وقد غيَّر فيها لفظة عمَّا كانت عليه في الأولى، فلا بدَّ من حكمة هناك تطلب، وإن أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها، فليس لأنَّه لا حكمة هناك، بل جهلتم»[٢]. وهذا دليل على أنَّه لا تَكرار ولا تَرداد في القرآن، بل تصريف وبيان له مقاصد عالية ومرامٍ سامية، يرمي إليها في كلِّ مرة، وهذا سرٌّ من أسرار بلاغته التي أعجزت الإنس والجن فُرادى ومجتمعين[٣]؛ كما قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٨-٨٩].

دعا إلى مصطلح التصريف من المحدَثين د. أحمد أبو زيد ود. عبد اللَّه النقراط مقارنَين بينه وبين المصطلحات التي حاولت منافسته في الاستعمال، منبِّهَين على وجوب الاهتمام به وإحيائه؛ فهو الأليق بالبيان المعجِز. وذكرا أنَّ الوجوه والنظائر نوع من التصريف؛ إذ تأتي الكلمة الواحدة على لفظ واحد وحركة واحدة في مواضع مختلفة، وتؤدِّي في كلِّ موضع معنًى غير المعاني الأخرى حسب السِّياق الذي يضمُّها[٤].

---

(١) ينظر: بلاغة تصريف القول: ١/ ٥١.
(٢) درة التنزيل وغرة التأويل: ١/ ٢٥٠-٢٥١.
(٣) ينظر: بلاغة تصريف القول: ١/ ٥٥.
(٤) ينظر: السابق: ٦٠، وعزاه إلى مصطلحات بيانية في القرآن: ١، ٦ (بحث للدكتور أحمد أبي زيد لم ينشر).

وقد استقرأ د. أحمد أبو زيد تصريف البيان في موضوع العقيدة أهمّ الجوانب المؤثِّرة في تهذيب النفوس وإقبالها على الخير ونفورها من الشرّ، ومحلِّ الإنكار الشديد من الفئات البشريَّة الضالَّة، فخرج من استقرائه بنتيجة مفادها أنَّ القرآن لا يسير على أسلوب واحد في النَّظْم بل يصرِّف القول على أوجهٍ وأساليبَ شتَّى تتبارى في البلاغة، ليتمَّ بها تقرير الحقائق أتمَّ تقرير[(١)].

وممن استعمل هذا المصطلح كذلك صاحب كتاب المعجزة الكبرى، وقد عقد له مبحثًا خاصًّا ذكر فيه تميُّز الإعجاز القرآنيِّ بالتصريف في كلِّ أبواب القول مابين تهديد وإنذار وتبشير وإثارة للتأمُّل ودعوة للتفكير في آيات اللّٰه تعالى الكونيَّة والقرآنيَّة، والتفكير في النفس والحسّ. وجعل التصريف في القرآن على ضربين: أحدهما في المعاني، والآخر في الألفاظ والأساليب.

فأمَّا تصريف المعاني، فالمؤدَّى في جملته واحد، لكنَّه يختلف بما يلائم سياقه. واستدلَّ عليه بالقَصص القرآنيّ؛ فقد تختلف ألفاظه أو تتقارَب أو تتَّحد في بعض العبارات[(٢)].

وعن تصريف الألفاظ قال: «وتصريف الألفاظ يتضمَّن لا محالة تصريف المعاني، لأنَّه لا مرادِف في القرآن، ولا يوجَد لفظان يؤديان معنى واحدًا من حيث الإحكام والدِّقَّة، ولا يوجَد أسلوب يؤدِّي معنًى يؤدِّيه الأسلوب الآخر، وإن كان يبدو باديَ الرأي أنَّ المعنيين يتَّحدان في جوهر المعنى، ولكن عند التأمُّل في الإشارات البيانيَّة التي تشير إليها الألفاظ، والتي تَطيف[(٣)] حولها وتشعُّ منها؛ تجدها مختلِفة، وإنَّ كلَّ تغيير في العبارات القرآنيَّة عن أخواتها في مثل موضوعها

(١) ينظر: التناسب البياني في القرآن: ٨١، ٨٣.
(٢) ينظر: المعجزة الكبرى: ١٦٦- ١٦٨.
(٣) يقال: طاف يَطِيف ويطوف طَيفًا وطَوفًا (ينظر: لسان العرب: طيف: ٤/ ٢١٦).

يُحدِث تغييرًا في المرامي ولمح القول، حتى الوقوف والفواصل تؤدِّي باختلاف نغمها ما لا تؤديه مثيلاتها مما هو في موضوعها»[١].

وقد أبان القرآن في غير آية عن سرِّ تصريف بيانه المعجز كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقوله ﷻ: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٤-١٠٥].

وعَدَّ صاحب كتاب مناهل العرفان براعة القرآن في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام من الخصائص التي امتاز بها بيانه الفذُّ، ذلك أنَّه «يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة، بمقدرة فائقة خارقة، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء»[٢]. واستدلَّ على ما قاله ببعض الآيات خلص منها إلى أنَّ القرآن «يفتنُّ في أداء المعنى الواحد بألفاظ وطرق متعدِّدة، بين إنشاء وخبر، وإظهار وإضمار، وتكلُّم وغَيبة، وخطاب ومُضيّ، وحضور واستقبال، واسميَّة وفعليَّة، واستفهام وامتنان، ووصف ووعد ووعيد إلى غير ذلك، ومن عجب أنَّه في تحويله الكلام من نمط إلى نمط؛ كثيرًا ما تجده لا يُجارى في سرعته، ثُمَّ هو على هذه السرعة الخارقة لا يمشي مُكِبًّا على وجهه، مضطربًا أو متعثرًا، بل هو محتفِظ دائمًا بمكانته العُليا في البلاغة يمشي سويًّا على صراط مستقيم.

ولقد خلع هذا التصرُّف والافتنان لباسًا فضفاضًا من الجِدَّة والرَّوعة على القرآن، ومسحه بطابَع من الحلاوة والطلاوة، حتى لا يملَّ قارئه ولا يسأم سامعه،

(١) المعجزة الكبرى: ٢٣٠.
(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٢٦٦.

مهما كثرت القراءة والسماع، بل ينتقل كلٌّ منهما من لون إلى لون، كما ينتقل الطائر في روضة غَنَّاء من فَنن إلى فَنن ومن زهر إلى زهر... فأعجز أساطين الفُصَحاء، وأعيا مقاويل البُلَغاء، وأخرس ألسنة فُحول البيان»[(١)].

وكلَّما أمعن المتأمِّل فكره في عناصر البيان القرآنيِّ المختلفة، وصبر على فَهم الدلالات البادية واللطائف الكامنة، ونَظَر في الأدوات والوسائل والطرائق؛ وقف على ثراء في المعاني لا ينفد، وبراعة في الأداء لا تُحَدّ، وتصريف في البيان يتجدَّد. فالقرآن لا يلتزم طريقًا واحدة من طُرق الكلام، بل يعبِّر في السياق الواحد أو الموضوع الواحد بأفانين مبدِعة من القول تجعل المعنى نابضًا بالحياة والجلال، ويتجلَّى الإتقان في إبراز دقائق الصُّوَر مع البراعة في انتقاء المفردات والإبداع في سبكها وصياغتها، و«محاكاة الواقع بتصوير فنِّيٍّ يُبرِز الحركة والحياة والمشاعر، ويعبِّر عن مختلِف أبعاد الواقع، ولا يقتصر على التصوير الجامد للأشكال والرسوم الظاهرة فقط»[(٢)].

وهنا يسير المتلقِّي وراء المعنى في تصريفه وتجدُّده بسبل صياغته المتنوِّعة من تشبيه إلى كناية، ومن الحقيقة إلى المجاز. وفي تخيُّر أحد هذه الفنون على أقرانه أساس للتمايُز البلاغيّ، وميزان للتفاضُل في القول. وترى التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، والماضي يُعبَّر عنه بالمستقبل لأسرار لا تخفى على أهل البلاغة والفنّ، وهذا ما يجعل البيان المعجِز كنزًا لا تفنى فرائده، وفيضًا زاخرًا لا تنقضي أمداده.

وللقَصص القرآنيِّ نصيب وافر من تصريف القول، فتارة يُنظَر إلى جِدَّة عَرْض القصَّة الواحدة وتنوُّع طرائقها التعبيريَّة من سياق لآخر على ضوء التناسُب بين

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢/ ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٨.
(٢) البلاغة العربية للميداني: ١/ ٥٣.

القصة ومقصود السورة التي ضمَّتها، والعبرة التي انطوت عليها. وقد تنبَّه الرمانيُّ -كما تقدم- إلى هذا النوع البديع من التصريف. وتارة أخرى يُنظَر إلى تصريفها في السياق الواحد وما يحمله من تقابُل في المعاني، وبراعة في الانتقال بينها، وإحكام في الربط بين حلقاتها، وإبداع في النظم والصياغة. وكلُّ هذا يكسوها حُلَّة قشيبة في كلِّ مرَّة، ويجنِّبها التَّكرار والإملال. لذا قامت كثير من الدراسات حول القصص القرآنيِّ - قديمًا وحديثًا - تتناوله من جانب المتشابِه اللفظيِّ والتناسب مبيِّنة أسرار تصريف القول فيه من سياق إلى آخر.

وحظي بعناية البلاغيِّين تلمُّس النِّكات البيانيَّة في التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه، فعالجوه من جهات مختلفة فتارة يذكرونه في الالتفات كما فعل صاحب المثل السائر، فهاهو ذا يفصح عن السر البيانيِّ في التعبير بالمستقبل عن الماضي بقوله: «اعلم أنَّ الفعل المستقبل إذا أُتِي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ في الإخبار بالفعل الماضي؛ وذلك لأنَّ الفعل المستقبل يوضِّح الحال التي يقع فيها، ويستحضِر تلك الصورة حتى كأنَّ السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي... وهكذا يُفعَل بكلِّ فعل فيه نوع تميُّز وخصوصيَّة كحال تستغرب، أو تهمُّ المخاطب أو غير ذلك»[1].

ويضيف مبيِّنًا وجهة نظره حتى لا يبقى فيها موضع شُبهة على مُعترِض: «فإنْ قيل: إنَّ الفعل الماضي أيضًا يتخيَّل منه السامع ما يتخيَّله مِن المستقبَل. قلتُ في الجواب: إنَّ التخيُّل يقع في الفعلين معًا، لكنَّه في أحدهما - وهو المستقبل- أوكد وأشدُّ تخيُّلًا؛ لأنَّه يستحضِر صورة الفعل، حتى كأنَّ السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه... وهذا لا يوجَد في الفعل الماضي؛ لأنَّه لا يتخيَّل

(١) المثل السائر: ٢/ ١٢، ١٣.

السامع منه إلَّا فعلًا قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدالِّ عليه، وهذا لا خلاف فيه»[١].

وأمَّا بلاغة التعبير بالماضي عن المستقبل فيذكُر في قيمتها: «أنَّ الفعل الماضي إذا أُخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجَد بعد؛ كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأنَّ الفعل الماضي يعطي من المعنى أنَّه قد كان ووُجد، وإنَّما يُفعَل ذلك إذا كان الفعل المستقبَل من الأشياء العظيمة التي يُستعظَم وجودها. والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أنَّ الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته، ليكون السامع كأنَّه يشاهدها، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجَد»[٢].

ولم يقتصر الحديث في التعبير بالماضي عن المستقبل وعكسه في موروثنا البلاغيِّ على الالتفات كما ذكره ابن الأثير، بل اختلفت طرائق البلاغيِّين وتباينت نظراتهم نحوه وتعاورته عدَّة مصطلحات كمخالفة مُقتضَى الظاهر[٣]، والعدول والصرْف. وأدخله ثلَّة من البلاغيِّين في باب الاستعارة التبعيَّة[٤]. ومذهب ابن عرفة الدسوقيّ أن كلَّ خروج على مقتضى الظاهر مجاز[٥]. وليس تتبُّع الفنِّ وباب وروده هو مصبّ اهتمام هذه الدراسة، بل غاية مرادها تذوُّق الناحية الإبداعيَّة الجماليَّة فيه. والرأي الذي أميل إليه هو معالجته في تصريف القول؛ فقد جعلت هذا الفصل لتجلية التحوُّل الأسلوبيّ سواء أكان باتفاق المعاني أم بتقابلها أم بالتغاير الزمنيّ.

---

(١) المثل السائر: ٢/ ١٤.
(٢) السابق: ٢/ ١٥، ١٦.
(٣) ينظر: تقرير الإنبابي: ٢/ ٣٠٧.
(٤) ينظر: عروس الأفراح (ضمن شروح التلخيص): ٤/ ١١١.
(٥) ينظر: حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص): ١/ ٤٨٧.

في ضوء ما سبق أخلص إلى المقصود من تصريف البيان فأقول: إنَّه تنوُّع عرض المعنى الواحد بطرائق تعبيريَّة شتَّى لكلٍّ منها أسلوبه وطبيعته وعناصره التي تتساوق مع سياقه والغرض المقصود منه.

وهكذا تتجدَّد صوره، وتتنوَّع مناهج التأثير فيها بين حقيقة ومجاز وتشبيه وكناية حتى تتفتَّق عن لطائفَ بيانيَّة خلَّابة تتنافس في تقرير المعاني وترسيخها. وستتناول هذه الدراسة من فنون التصريف ما يأتي باتِّفاق المعانى، أو بتقابلها لتتجلَّى صورها مع أضدادها، ومايعبَّر فيه بالماضي عن المستقبَل وعكسه؛ لتتجلَّى بهذا التصريف طريقة القرآن الفريدة في تناول موضوع الأمن والخوف.

* * *

المبحث الأول
تصريف الصور مع اتفاق المعنى

* من أهمِّ موضوعات الخوف التي صرَّف القرآن بيانها الخوف من الموت، وقد عالجه القرآن بتجلية حقيقته الحتميَّة في غير آية، وبطرق متنوِّعة تتنافس في تقريب المعنى وتأكيده. فتارة يأتي المعنى صريحًا مؤكَّدًا كما في قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠].

وتارة ينافس المجاز الحقيقة في تصحيح التصوُّر عن الموت والحياة مصرَّفًا بأسلوبِ تمثيل بديع على طريقة القَصص القرآنيِّ الحقِّ بما ينطوي عليه من عبرة وعظة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] شُبِّه فيها جال الخارجين من ديارهم مظنَّة نجاة من القتال أو الطاعون، بحال من تحدِّثهم أنفسهم بترك الجهاد فرارًا من الموت.

كما يأتي تصريف البيان بأسلوب نفي الخلود في الدنيا، وإثبات عموم الموت جميعَ البشر رغم كراهته، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥] استعير الذوق للموت تشبيهًا له بالطعام المرِّ البشيع[(١)] بطريقة الاستعارة المكنيَّة[(٢)].

---

(١) البشِع: طعم كريه، وطعام بَشيع وبَشِع: كريه مرّ حافّ يابس يأخذ بالحلق (لسان العرب: بشع: ١/ ٢١٢).

(٢) ينظر: حاشية القونوي: ١٢/ ٥١٩.

ويشخَّص الموت بالاستعارة في صورة كائن مرعِب لا تُبارى قوَّته يركض خلف ضعفاء خائفين يهربون منه بكلِّ ما أوتوا من قوَّة. كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨].

ويتجلَّى تصريف البيان في تين الصورتين مع اتِّفاق معناهما بإقامة أُولاهما على المبالغة الصادقة في حتميَّة الوصول مهما تمنَّع المطلوب، وتُميِّز قرينتها بمعنى سببيٍّ بديع يربط الفرار بالملاقاة؛ ليبثَّ في الأخلاد تيك الحقيقة المنسيَّة - على أهميَّتها- فالموت ليس كغيره من الأخطار التي يكون الهرب منها مَنجاة.

ويأتي تصريف هذا المعنى بطريق الاستعارة أيضًا مع النفي الصريح لجدوى الفرار في قول اللّه عزَّوجلَّ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [الأحزاب:١٦]، ويضيف الشرط معنى الاستبعاد أن يستطيعوا النجاة مهما حاولوا، فيضفي معنى التعجيز؛ ليقدِّم أبلغ دليل على انعدام جدوى الفرار، وضرورة الاستعداد للمواجَهة.

لقد عُرضت صورة الموت وحقيقته التي لا ينبغي الغفلة عنها- فلا مناص منه، ولا يجدِي معه فرار أوحذر- بهذا التصرُّف البيانيِّ الباهر؛ لتُشرِق بعد تأمُّل هذه الصور حقيقةٌ فعليَّة؛ هي أنَّه لا ينجي حذر من قدر.

* وقد صُرِّف في البيان الخالد وصف النفاق - أخطر المصائب التي حلَّت بالمسلمين في تاريخهم الغابر وواقعهم المعاصر- بعناصره الخُلُقيَّة الذميمة، من جُبن وطمع وقُدرة على المراوغة ولُبس الأقنعة المختلفة؛ للتحذير من أربابه خبيثي النفوس، الذين يندسُّون في صفوف المسلمين لا يألونهم خَبالًا، فيتربَّصون الغِرَّات، ويتحيَّنون الفُرَص السانحات؛ ليكشفوا عن طبائعهم الحقيقيَّة كراهية

وحقدًا وعداء(١).

ويفضحهم القرآن ويعرّي جُبنهم في كثير من آياته فتارة تجدهم في حالة من الرعب والتناقض والإحساس بالنقص يحاولون الانضمام إلى الصفِّ الإسلاميِّ مُدَّعين إسلامهم مؤيِّدين مخادعاتهم بالأيمان الفاجرة، كما في قول اللَّه تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧].

ما أبدع تصوير الألفاظ خِسَّة أولئك الهمَل ودناءة أنفسهم وحرصهم على الحياة كيفما كانت صورتها! ولا عجب في تلكم الحال؛ فمَنْ فقَد الإيمان انفرط أمره وانحلَّ عِقده وعَمِي وتخبَّط.

ويصرِّف هذا المعنى بوصف حقيقيٍّ آخرَ في قول عالم الغيب والشهادة ﷻ مقوِّيًا قلوب المسلمين على مواجهتهم: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٣- ١٤].

تتآزر الجمل في وصف يُثير الهزء والزِّراية بأولئك الجبناء، يُرَون خلاله تارة في قرًى مُحصَّنة أو مِن وراء جُدُر وقد استولى عليهم الرُّعب؛ فمنعهم من مواجهة المسلمين، وأخرى يكشف عن تخالُف بواطنهم.

وتارة تنافِس الصورُ البيانيَّةُ الحقيقةَ في التعريض بجبن ذيَّاك الصنف اللئيم في القتال، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].

---

(١) ينظر: ظاهرة النفاق: ١/ ١٣-١٦.

وقوله عزَّ من قائل: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ مُّحۡكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [محمد: ٢٠].

أول ماتراه في تين الصورتين أنهما متَّفقتان في التشبيه الحسِّيِّ المبصَر في وصف جبن النِّفاق، وفي العناصر المكوِّنة لهما من تشبيه هيئة المنافقين حين القتال بهيئة من يُغشَى عليه من الموت للدِّلالة على خوف متسلِّط يدفعهم إلى تخيُّل الموت كامنًا في كلِّ أُفُق. لكنَّ تصريف البيان فيهما أتى مخصِّصًا الأُولى بدوران العين، والأخرى بثباتها.

ونتساءل عن سرِّ تصريف التشبيه في الصورتين، ونلتمس الجواب فيما ذكره د. محمد أبو موسى بأنَّ «التشبيه من حيث لغته وصوره ولونه وطبعه امتداد للأحوال الجارية في السورة؛ لأنَّه جزء منها يجري فيه ما يجري فيها، بل هو جزء من كلٍّ له طبع واحد وفيه ماء واحد»[1]. فقد تتوارد الصورتان، ويبقى لكلٍّ منهما خصوصية أُشربتها من ملاءمتها لسياقها فلا يصحُّ إحلال إحداهما مكان الأخرى، لذا انتُقي لسورة الأحزاب تشبيه قائم على الحركة فسياقها يصوِّر حربًا دائرة، تدور أعينهم معها حَيرة وفزَعًا باحثين عن مَخرج، أمَّا في سورة محمد فأوثر التشبيه بالسُّكون؛ إذ نرى فيها أولئك الجبناء عند رسول اللَّه ﷺ مسندِينَ ظهورَهم إلى الجُدُر، يُفاجَأون بذكر القتال؛ فتجمد أبصارهم على النبيِّ ﷺ. وبهذا يكون التشبيه في كلتا الصورتين امتدادًا للأنسجة اللُّغويَّة في السياق الواحد.

وفي تصريف آخر يعبَّر عنهم بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [محمد: ٢٠] ويُستعار المرض لجبنهم الدائم وضَعفهم النفسيّ، فمن المعلوم أنَّ هناك مخاوف طَبَعيَّة؛ لا يُلام عليها الإنسان؛ فقد جُبِل عليها للحفاظ على جنسه وبقاء نوعه،

---

(١) دراسة في البلاغة والشعر: ٣١.

لكنَّها تزول بزوال أسبابها. أمَّا من يسيطر الرُّعب عليه دون أدنى داعٍ من مصادر الخوف المعروفة؛ فيخرُجْ بلا شكّ مِن زُمرة الأسوياء. وفي أحضانِ النِّفاق تولَد آلاف الرذائل، وتنشأ أمراض الخوَرِ والبُخل والخواء؛ لذا صوَّر القرآن شخصياتهم المتناقضة المنحرفة وهي تحاول إظهار الشجاعة بعد الحرب بالنَيل من المسلمين باستعارة بديعة وردت في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] ظهر منها سُلوطة ألسنتهم في الأمن تعويضًا عن حالة الذُّعر التي انتابتهم في وقت المعركة، مما يدلُّ على مرض نفوسهم.

وفي صورة أخرى لأولئك الجبناء يجلِّيها السياق القرآنيّ بطريقة المجاز المرسل في قول اللّه تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] منبئًا عن حال القوم مع آيات اللّه، وكاشفًا عن بليغ رُعبهم وارتعاد فرائصهم من قوارع القرآن وزواجره.

ويمضي البيان القرآنيُّ في تصريف جُبن النفاق فيتبدَّى مرض آخرُ لتيك النفوس في صورة فزع مبهَم دائم، لا يعرفون له سببًا، تصوِّره الكناية الواصفة في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [المنافقون: ٤]، فتثير السخرية بصنف مطموس البصيرة، تحكمه وساوسُ وأوهامٌ لا يملك انفلاتًا من قبضتها. يحسبون أنهم المعنيُّون بكلِّ صيحة؛ إذ يخشَون أن يفتضح كفرهم وينكشف نفاقهم؛ فيعاقبوا على كذبهم وخياناتهم.

ومن الملحوظ في تصريف البيان في جُبن النفاق أنَّه يفضح سوء نواياهم وفساد طواياهم ولؤم خططهم بأسلوب بليغ وتصوير مؤثِّر، لا يتعرَّض إلى ذكر أسمائهم مع أنهم معروفون؛ حتى لا يكون في ذلك إلحاق العار بهم وإلصاق الخزي بأعيانهم، علَّهم يثوبون إلى رُشدهم ويؤوبون إلى ربهم[1]. ومع هذا «هل رأيت

(١) ينظر: لغة المنافقين: ١/ ١٥.

قومًا أخسَّ طباعًا مِن هؤلاء المنافقين؟ وهل رأيت وصفًا يكشف عن هذه النفوس المريضة، ويحلِّلها ويبيِّن أدواءها كما رأيت في هذه الآيات التي تكشف عوارَهم، وتظهر المستور من عيوبهم؟»(١).

وثَمَّ خوفٌ آخرُ لنماذجَ منحرفةٍ من البشر أوقعه اللَّه رُعبًا في قلوبها دفاعًا عن دينه وأوليائه، عبَّر عنه القرآن بلفظ الرُّعب، وكان له آثارٌ ظاهريَّة بارزة أظهرت شِدَّته البالغة، وصرِّف البيان فيه باستعارة لفظ القذف لإيقاعه في قلوب اليهود، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

ويستعار لقلوب المشركين لفظ الإلقاء، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥٠-١٥١].

وقوله - جلَّ شأنه-: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

لقد أتى هذا التصريف مع اتِّفاق المعاني لنكت بيانيَّة تتعلَّق بموقف كلٍّ منهما وسياقه(٢).

---

(١) من بدائع النظم القرآني: ١١٨.
(٢) ورد بيان معنى إلقاء الرعب وقذفه ص٢١٠ - ٢١١.

* وثَمَّ تصوير آخر للرهبة من القتال طرأ على بعض النفوس المسلمة في حداثة عهدها بالإيمان، مصدره الضَّعف الملازم للبشر، صُرِّف في البيان القرآنيِّ بالتشبيه الحسِّيِّ تارة، كما في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال:٦]، وبالمعنويِّ أخرى، كما في قوله ﷻ: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾ [النساء:٧٧]. وفيهما عتاب للمؤمنين على ما بدر منهم.

ويأتي تصريف تلك الرَّهبة من القتال والهزيمة في مقام الامتنان على المسلمين بصورتين حيَّتين حسِّيَّتين على أسلوب الكناية، كاشفًا عمق الابتلاء الذي تعرَّضت له تيك النفوس وهي تجاهد أعداءها، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التوبة:٢٥]. وقوله ﷿: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١﴾ [الأحزاب:١١].

عبَّرت أُولاهما عن ضيق النفوس وخوفها يوم حنين بضيق الأرض، وقُصِد فيها لازم المعنى فقط؛ إذ لا يمكن أن تضيق الأرض على الحقيقة، لكنَّ الخوف غمر نفوسهم فبدت معه الأرض ضيقة. وصوَّرت الآية الأخرى حال المسلمين يوم الأحزاب وصرِّف الخوف فيها بزلزلة النفوس، وهنا يمكن أن يراد المعنى ولازمه؛ إذ قد يتحرَّك الخائف، ويرتجف ظاهريًّا حينما تموج في نفسه أحاسيس الفزع.

ما أبدع ما صُرِّفت به أحوال الأمن التي خصَّ اللَّه بها أولياءه في جهاد أعدائه! فحينًا تأتي الاستعارة بإنزال السكينة نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التوبة:٢٦].

وحينًا آخر تأتي بإنزال النُّعاس أَمَنة من اللَّه، كما في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ

عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آلعمران: ١٥٤][1]، فاللَّه عزوجل يتدارك أهل الإيمان الصادق الذين ثابوا إلى رُشدهم بأَمَنة خاصَّة تملأ قلوبهم، فتصرف الأذهان عن التفكير فيما نزل بهم من مصيبة، وما انتابهم من وساوسَ مزعجة، فيتسلَّل النوم إلى أجفانهم ليمحوَ كلَّ ذلك. بينما يبقى في الغمِّ أهل الريب، فتهتاجُ في نفوسهم الآلام، وتثور في قلوبهم الشكوك. وهكذا الإنسان بلا إيمان ريشة في مهبِّ الريح لا تستقرُّ على حال، ولا تعرف لها وجهة، قَلِق حائرٌ تائهٌ عن موئل الأمن والسكينة.

ف «للسكينة والأمن النفسيّ مصدر واحد هو الإيمان باللَّه واليوم الآخر، الإيمان الصادق العميق الذي لا يكدِّره شكٌّ ولا يفسده نفاق. وهذا ما يشهد به الواقع الماثل، وما أيَّده التاريخ الحافل، وما يلمسه كلُّ إنسان بصير في نفسه ومن حوله. لقد علَّمتنا الحياة أنَّ أكثر الناس قلقًا وضيقًا واضطرابًا وشعورًا بالتفاهة والضياع المحرومون من نعمة الإيمان وبرد اليقين»[2].

* وثَمَّ رهبة اختصَّت بها نفوس شفَّافة عند سماع الآيات، صُرِّفت بطرق عِدَّة في البيان الفذّ، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، فيه تصوير للوجل الذي يعتري القلوب المؤمنة عند ذكر اللَّه تهيُّبًا واستعظامًا، يتبدَّى في معنًى حقيقيٍّ يُسلِّط الضوء فيه على القلب أمير البدن وحاكمه؛ ليتبيَّن تغلغُل الخوف من اللَّه في تلك النفوس الطاهرة التي مُدِحت بهاته الصفة، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ

---

(١) ورد تحليل هذه الآية ونظيرتها في الأنفال (١١)؛ بما يظهر تصريف البيان في تقديم الأمنة وتأخيرها ص٢٢٤.

(٢) أثر القرآن الكريم في الأمن النفسي: ١٦٤.

﴿٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]

وفي تصريف آخر تُصوِّر شفافيَّة الجوهر المؤمِن في حركة ظاهريَّة تُعرَض بالصوت والصورة، فما تُتلى عليهم آيات الرحمن حتى يخروا سُجَّدًا وبُكِيًّا، كما وصفهم ربهم ﷻ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، ويأتي التصريف في سياق آخرَ مادحًا تيك النفوس ومعرِّضًا بمن سواها؛ ليبيِّن عُمق الهوَّة بين الفريقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ٧٣﴾ [الفرقان: ٧٣].

وينافس التصوير البيانيُّ الحقيقةَ في رسم صورة تنضح بخشية اللّه، يصوِّرها المجاز العقليُّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] لافتًا الانتباه إلى العين مرآة النفس وهي تفيض من الدمع، وإذا الينبوع الذي تسيل منه مخايل الرجولة الناضجة هو نفسه الذي تسيل منه معاني اليقين الحيّ! وليس أرقّ ولا أصفى من دموع التائبين في جِلاء صفحة النفس وإظهار روائها.

وتأخذ الكناية مكانها منافِسة تلكم الصور بذكر اقشعرار الجلود لازم الخشية؛ ليتمَّ به استحضار هذه الصفة العظيمة في الذهن مقرونة بدليلها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

هكذا ينقلك البيان القرآنيُّ بتصريفه المبدِع من فن إلى فن، ومن صورة إلى صورة، فترى المعاني نديَّة مطواعة لصُوَرِه.

* يتبدَّى أُفُق آخرُ للإعجاز يعرِض حال اضطراب الكون عند البعث والقيامة في ساحة تتفجَّر بالأحداث المفزعة، تُرى فيها صورٌ مريعةٌ وموازينُ مختلفةٌ للثابت والمتغيِّر يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات. وتحوُّلاتٌ جوهريَّةٌ لأحوال المظاهر الكونيَّة العظيمة، فإذا السماء على إحكامها تنفطِر، كما قال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل:١٨]، وإذا الأرض بما عليها ترجُف وتُزلزَل، وإذا الرواسي الشامخات تصطكُّ وترتعش وتنهار، ويظهر ذلك في نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤].

ويستبدُّ الرُّعب بالنفوس، فيشلُّ تفكيرها فيمن سواها، فإذا المرء يفرُّ من أقرب أحبابه، كما صوَّره قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وفي تصوير آخر بالحقيقة لهول القيامة يُعرَض المجرمون محشورين مع الشياطين جِثِيًّا حول جهنَّم، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم:٦٨]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم:٧٢]؛ وترتسم معهما في الذهن صورة أناس خائري القُوَى يهيمن الرُّعب عليهم؛ فيُطِير صوابهم.

وتَرى أحدَهم في تصريف آخر يودُّ لو يفتدي نفسه من العذاب بأقرب قرابته بدلًا من أن يحميهم كما كان حاله في الدنيا، يظهر في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج:١١-١٤]. وإذ بأهل الضلال والتكبُّر الذين لم يكونوا ليخشعوا في الدُّنيا يلازمهم خشوع مِن الذلِّ والخوف: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم:٤٣].

وتأتي طرق البيان منافسةً التصوير بالحقيقة في تصريف هذا المعنى، ومن

العجيب أن نجد بعض صورِهِ تشترك في أداء المعنى وتقريب العالم الغيبيّ الأخرويّ عن طريق التشبيه، إلَّا أنَّ المعنى في كلِّ آية يتجدَّد بطريقة العرْض المبدِعة في التصريف، فيطوف بالذِّهن في مجالات شتَّى، تُعرَض فيها مشاهد الناس حيَّة أمام الأنظار، تلتقط العين أبعادها في مشاهد مرئيَّة تموج بالحركة والانفعال، فإذ بهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] بما تحمله هذه الصورة مِن تدافُع وتصادُم واضطراب، وتؤثِّر أداة التشبيه (كأن) لتؤكِّد على الشَّبَه بين الطرفين، وتقرِّب إلى الذهن حقيقة البعث، فـ«عقيدة البعث هي لبُّ الإيمان وغاية من غايات الرسائل الإلهيَّة؛ ولذلك تجد القرآن يحتفي ببيان حقيقة البعث... والحقائق عن الغيب كلِّه بمقدار ما تدركه عقولنا ويقرُب إلى أفهامنا، والحقائق كاملة في غيب اللَّه»[1].

وفي صورة أخرى لفظاعة الهول نجد صورة الناس في ذلك العالم الغيبيِّ تتداعى إلى الذهن مع صورة الفراش، لترسم حالات الخِفَّة والضَّعف والتفرُّق التي تعتريهم فينبثُّون متخاذلين نحو ما يتوهَّمون فيه نجاتهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ [القارعة: ٤] وتقفز معها صورة مقابلة لها يبرز فيها اتِّزان الإنسان الذي فارقه فبدا شبيهًا بتيك الصورة من شِدَّة الهول.

وفي تصريف آخرَ لوصف الفزع الأكبر نراه رأي العين في قول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١-٢] يُستهَلُّ بأسلوبين إنشائيَّين طلبيَّين يُلفَت بهما نظر المتلقِّي إلى أهمِّيَّة الاستعداد لذيَّاك الحدث

(١) ينظر: المعجزة الكبرى: ٤٤١، ٤٥٣.

العظيم، يُنتقَل منه إلى الإخبار عن جلال الحدث وهَوْلِهِ بصورٍ بيانيَّة يأخذ بعضها بحُجَز بعض في تآزُر عجيب، يُعرَض فيه الموقف حيًّا أمام الأنظار! فهاهي ذي الكنايات تُبرِز لوازمه مِن ذهول المراضع ووضْع أولات الأحمال. ويستمرُّ تصعيد المعاني إلى صورة هول عامٍّ يُرى فيه الناس سكارى؛ فيقوى في الذهن معنى الاضطراب والحركة المتماوجة باستحضار الصورة الحسِّيَّة التي يقوِّيها التشبيه البليغ حتى لَيكاد يتطابق طرفا الصورة، ثُمَّ يأتي النفي على أسلوب طباق السلب، ليدعَم الإحساس بهول الموقف؛ فترتفع الأنفاس وتنخفض مع كلِّ خلجة خوف واضطراب تشهدها في تلك الصور المروِّعة؛ فيتمّ المعنى المراد بأبلغ أداء.

ويُسلَّط الضوء على الظالمين في تصريف مختلف لتسلية النبي ﷺ بما يلقاه من أذى المشركين مع بيان سعة علم اللّه بكلّ ما يعملونه، وإمهالهم إلى يوم تشخَص فيه الأبصار هولًا ورعبًا، وفيه تبدو صورهم تنطِق بالفزع، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

تأمَّل حركة الإهطاع السريعة المريعة، وسكون الأنظار وشخوصها المخيف. وانظر تصوير بواطن النفوس المناسب لسعة علم اللّه تعالى فلا يعلمها غيره. فها هو ذا السياق يصوِّر انخلاع القلوب وخلوَّها من عزائم الصبر والجلَد لمَّا استبدَّ بها الهول، وما أبدع تآزر الصور في كنايات متتالية قُصد منها المعنى باستحضار صورته التي لا يدرك العقل كنهها مع لوازمه من الفزع والرعب والذلّ! ويوصل بها التشبيه البليغ ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ ليصفَ تغلغل الفزع في النفوس.

وفي تصريف آخر للهول نرى الولدان شِيبًا يصوِّرهم المجاز العقليُّ بمرتبتيه في خطاب مشركي قريش وتحذيرهم من الأخذ الوبيل الذي أخذ اللّه به فرعون، وإنكار ماهم عليه من الشرك، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ

شِيبًا ﴿١٧﴾ [المزمل:١٧] وتعضد الكنايةُ المجازَ العقليَّ في هاته الصورة لتجلية معنى هول منقطع النظير.

ومن المشاهد السابقة يتبيَّن كيف عُني القرآن ببيان حقيقة البعث والحساب وأهوال القيامة، «وهكذا قد تتَّحد المشاهد العامة، ولكنها تختلف في جزئيَّاتها بما يحقِّق الجِدَّة، وينفي التَّكرار في صور القرآن»[1]. فيظهر فيها التفنُّن الدقيق الذي تميَّز به الأسلوب القرآنيُّ في تصريف بيانه وتعاور صوره، مما يبُرز الجدَّة والتنوُّع؛ إذ تعطي كلٌّ منها صورة خاصَّة للمعنى، بطريق تعبيريَّة مغايرة تثير في الذهن تجاربَ مختلِفة تبعث على تصوُّر المنظر، بما يثير الانفعال المطلوب تجاهه إيمانًا وتصديقًا واستعدادًا.

وهكذا ينفذ من خلال تيكم الصور المتنوِّعة معنًى واحدٌ هو الهول في القيامة. قال سيِّد قطب - رَحِمَهُ اللهُ -: «والعجيب حقًّا أنَّ تعدُّدَ هذه المشاهد - وأساسها واحد - لم ينشئ نوعًا من التَّكرار، فكلُّ مشهد يختلف عن سابقه في كلِّياته أو جزئيَّاته، وذلك لون من الإعجاز شبيه بالإعجاز في خلق الملايين من الناس»[2].

* وثَمَّ أمن واطمئنان من أزمَاتٍ خانقةٍ ومواقفَ عصيبةٍ يخصُّ بهما الغفور الرحيم أصفياءه، كما في قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

أَنعِم النظر في هذا التصريف في معاني الأمن تجدْه في أوج عجيب من

(١) مشاهد القيامة في القرآن: ١٢٤.
(٢) السابق: ١٠.

الإشراق والبيان، تمتاز معانيه بالشموخ والعمق، وتأتي الألفاظ معجِزة أخَّاذة طيِّعة لمعانيها، فالثبات شِعار المؤمن ودِثاره من شتَّى النَّكبات والأزمات، يتلقَّى البلاء بإيمان راسخ ورباطة جأش واطمئنان إلى ما تجري به المقادير، يواجه الحياة وعلى شفتيه بسمة رضى، بسمة ترى في اللَّه عوضًا عن كلِّ فائت، وفي لقائه سلوًى عن كلِّ مفقود. لقد كانت تيك الروح تهفو إلى لقاء بارئها، وتشتاق إلى منبع الخير والكمال؛ فإذ بها تجد أفضل مما كانت تتمنَّاه، لتصل إلى برِّ الأمان باطمئنان ورضى، سائرة بخطًى ثابتة نحو أسمى الغايات.

ويشعر المتلقِّي مع تصريف معنى الأمن والاطمئنان في تينك الصورتين الحقيقيَّتين بمزيج من مشاعر الأُنس والرهبة والتأثُّر، يتوق معها إلى أن يطلَّ إطلالة حقيقيَّة على هاتيك الجنَّات الملتفَّة، ويتنسَّم عبق أريجها، وينعم بمجالسة أهلها.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
تصريف الصور مع تقابل المعنى

يظهر هذا النوع من التصريف حين تكون الصور في سياق واحد أو بين سياقين مختلفين ينقل كلٌّ منهما مفارقات واضحة بين المعاني أمنًا وخوفًا، سعادة وشقاء. فيأتي تصريف البيان فيها على نَغَمات هادئة رخيَّة تدلُّ على مواقف مبهجة، وأخرى مروِّعة تصوِّرها أصوات مجلجلة. صُوَر أمْن تتوق إليه النفوس يقابله ما يروع الفؤاد، وشخصيات تبعث على الإكبار يقابلها ما يثير الهزء والسُّخرية.

ويأتي تصريف الصور مع تقابل المعاني في سياق واحد، أو سياقين مختلفين.

ما أتى من التقابل في سياق واحد:

تقابل المعاني بين الخوف والأمن في قصَّة أمِّ موسى عليه السلام حين ملأ فؤادَها الهمُّ والإشفاقُ على ابنها، وخلا من كلِّ تفكير سواه، فتداركتها رحمة اللَّه بملء فؤادها الملتاع اطمئنانًا إلى وعد اللَّه مع الرَّبط عليه: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: ١٠]. «إنَّ القصَّة تُرينا صورة أمٍّ مضطربة منزعجة خائفة، لمَّا أثقلت ألقت حملها، فإذا إثقال جديد، إنها تريد نجاته، فيعلوها الاضطراب والخوف والفزع، وإذ الإلهام يجيئها بإلقائه باليمِّ مع إثلاج قلبها بألَّا تخاف، وألَّا تحزن. ومنَّ اللَّه عليها بالاطمئنان بأنَّه سيعود إليها. وهكذا يكون الاطمئنان في موطن الخوف، والقرار في موطن الاضطراب، والسكون في موطن الهلع. يغيب عنها فلذة كبدها فيفرغ قلبُها، ويغلب الفزع على الاطمئنان وهي تغالب حال الفزع بحال الاطمئنان إلى أن وعد اللَّه بالاطمئنان، ويصطرع الأمران في نفسها، يغلب الإلهام؛

فتطمئنّ، ويغلب الفزع القلبيُّ؛ فتكاد تبدي أمرها وتظهر سرَّها، ولو علم به أعداؤه وأعداؤها أعداء اللّه تعالى، ولكنَّ اللّه تعالى يربط على قلبها بالصبر... اقرأ النص القرآنيَّ، وتراه مصوِّرًا لحال تلك الأم الرؤوم. فهل تجدُ مصوِّرًا متحرِّكًا أو واقفًا يستطيع تصوير هذه الحال؟»[١]. إنَّه التصريف البيانيُّ والبراعة في الانتقال بين المعاني وتصويرها، مما ينقل المتلقِّي إلى أجواء الحدَث ليشعرَ بأدقِّ خَلَجات النفوس، ويعايش همومَ الشخصيَّات وآلامَها وأحلامَها.

يتجلَّى التصريف في القصص القرآنيِّ أيضًا بتوزيع القصَّة على أماكنَ متفرِّقة «في سورٍ شتَّى؛ لأنَّ النسَق القرآنيَّ اقتضى ذلك التوزيع، إذ يكون كلُّ جزء مكوِّنًا لقصَّة ذات عبرة مستقلَّة في ذاتها، فهي قصَّة واحدة الموضوع في قصصٍ متعدِّدة العِبَر»[٢].

وهنا أنموذج من قصَّة كليم الرحمن عليه السلام -حين كلَّمه ربُّه بالوادي المقدَّس طوى- يصوِّر ما تناوشه من هموم ومخاوف، وكيف تداركه المؤمن البرُّ سبحانه وتعالى بالأمن والطُّمأنينة. استمع إلى القرآن يحكي ذلك: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣١-٣٥].

---

(١) المعجزة الكبرى: ٢١٨، ٢١٩.
(٢) القصة في القرآن مقاصد الدين وقيم الفن: ٢٣٤.

تأمّل سطوع البيان في تصريف القول بين الخوف والأمان، وتعاقبهما على النفس البشريّة، أولًا حين أجرى اللَّه عز وجل معجزته على يدي كليمه عليه السلام، وثانيًا حين خرج خائفًا يترقّب أن يأخذه بنو إسرائيل بجريرة قتل أحدهم، وأخيرًا حين خاف أن يكذبوه فلا يسعفه لسانه في تبليغ الدعوة والمنافحة عنها.

وانظر كيف انتقل السياق ببراعة مصرِّفًا القول إلى احتفاء اللَّه جل جلاله بكليمه عليه السلام وتثبيته وطمأنته بإزالة كلِّ ما عكّر صفاء الأمن في نفسه. فلننظر كيف زاوج السياق بين كلِّ مخوف وما يؤمِّنه:

في مقابل المعجزة الأولى وما اعتراه من خوف شديد عُبر عنه بالجدِّ في الهرب خوف الإدراك[1] فصوّرت هذه الكناية موسى عليه السلام يولِّي مدبرًا لا يرجع على عقبه من شدَّة الخوف، وفي طمأنته جاء تصريف البيان مناسبًا لتيك الحال في قول المؤمن عز وجل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ما أبلغ ما أدَّاه تعاقُب الأساليب الإنشائيَّة الطلبيَّة في تنامِي المعاني لتأمين تلك النفس والاحتفاء بها!

- فقد ناداه اللَّه أولًا ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ليزيل مافي نفسه من وحشة الخوف.

- تلاه توجيه ربَّانيٌّ إلى ما يفعله إزاء تلكم الحال حين ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أنْ ﴿أَقْبِلْ﴾أي: التفِت.

- ويأتي النهي ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ لغرض الطمأنة.

يليه خبر مؤكَّد يثلج النفس بمزيد من السكينة والإحساس بالأمان في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾، وفيه لطائف:

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٢٨٧، ونظم الدرر: ٥/ ٤٨٣.

- أكّد الأمر لمّا كان من طبيعة البشر النفور من المجهول.

- دلّت صيغة اسم الفاعل ﴿ٱلْآمِنِينَ﴾ على دوام وثبات «أي: العريقين في الأمن كعادة إخوانك المرسلين»[(١)].

- جَعَل الرحمن كليمه من جملة الآمنين؛ وهذا أشدُّ في تحقيق الأمن والراحة وأكثر إيناسًا من أن يُقال: إنّك آمن[(٢)].

وتمحو اللفتة الحانية من البرِّ الرَّحيم ﷻ، في قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾كلَّ ما اعترى كليمه عليه السلام مَن فزَع بتوجيهٍ يردُّه إلى السكينة، صرِّف البيان فيه باستعارة صارت مثلًا في الأمن وكنايةً عنه[(٣)].

وفي مقابل خوفه من القتل وانعقاد اللسان تتبدَّى حاجته إلى النصير؛ فيزال عنه الخوف بتحقيق طلبه وبعث أخيه معه ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، تأمّل بلاغة هذا التعبير المصوِّر! قال الزمخشريُّ: «العضد قوام اليد، وبشدَّتها تشتدّ... ويقال في دعاء الخير: شدَّ اللّه عضدك، وفي ضدِّه: فتَّ اللّه عضدك، ومعنى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾سنقوِّيك به ونعينك»[(٤)]؛ ففيه كناية عن التقوية؛ لأنَّ شدَّ العضد وتقويته مستلزِم لتقوية الشخص[(٥)]، وذكر ابن التمجيد لهذه الصورة طريقين: «الأول: أن يكون مجاز أمرِ سلامٍ من باب إطلاق السبب على المسبَّب بمرتبتين؛ فإنَّ أصله سنقوِّيك به، ثم سنقوِّي يدك به، ثم سنشدُّ عضدك به؛ فإنَّ تقوية العضد سبب لتقوية اليد، وتقوية اليد سبب لتقوية الشخص، فذُكِر السبب وهو تقوية

(١) نظم الدرر: ٥/ ٤٨٣.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠/ ٥٠.
(٣) سبق تحليلها ص٢٣٤.
(٤) الكشاف: ٣/ ١٦٦، ١٦٧.
(٥) حاشية القونوي: ١٤/ ٥١٥.

العضد، وأُريد به مسبَّب مسبَّبه وهو تقوية الشخص. وثانيهما: أن يكون استعارة؛ حيث شبِّه حال موسى في التقوِّي بأخيه بحال اليد المتقوِّية بالعضُد؛ فجُعل موسى كأنَّه يدٌ مشتدَّة بعضد شديدة... فيكون من باب الاستعارة بالكناية»[١]. ولا يخفى ما في حملها على المجاز من تأويلات بعيدة متكلَّفة، وإزهاق لجمال الصورة؛ لذا رأيت معه حملها على الكناية أقرب إلى القبول مستأنسة بقول القونويِّ: «لكنَّ الكناية أقلُّ مؤنة؛ إذ لا مجاز حينئذٍ في العضد ولا في اليد»[٢].

أنعم النظر في تقابل الأمن والخوف في قصَّة ضيف إبراهيم عليه السلام من الملائكة: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود:٧٠]، وأمعن الفكر في وصف الخوف وبراعة الانتقال منه إلى مقابِله، حيث تُعرض حال خليل الرحمن عليه السلام وقد أُمِّن وبُشِّر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود:٧٤].

وهكذا يبرز واضحًا تصريف القول في القصص القرآنيِّ بتقابل المعاني في السياق الواحد.

أمَّا تصريفه باتِّفاقها مع تنوُّع العرض وجِدَّته فيأتي تبعًا لسياق كلِّ سورة ومقاصدها والعبرة المستخلصة منها[٣].

ومما ورد من التصريف في سياق واحد قول اللَّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب:١٩]. هنا صورتان متقابلتان لطائفة متناقضة في ساعات الخوف

(١) حاشية ابن التمجيد: ١٤/ ٥١٥.
(٢) حاشية القونوي: ١٤/ ٥١٥.
(٣) سبقت الإشارة إلى تنوع العرض في قصة إبراهيم عليه السلام في التصوير بالحقيقة ص١٠٨ - ١١٤.

جبناء مبلسين منهارين كأنَّ الموت نازل بهم، فإذا ذهب الخوف انفتلوا وصخبوا واحتجُّوا وانطلقت ألسنتهم متلمِّسة المطاعن متبجِّحة بتثريب المسلمين والمطالبة بأوفر الأنصبة في الغنائم، مما يدلُّ على ضعف اليقين ونجوم النفاق.

ويتَّضح تصريف القول في أحوال الحرب لإثبات المفارقات الكبيرة بين فريق مؤمِن مطمئنٍّ إلى معيَّة اللَّه ونُصرته، وكافر يلقِي اللَّه في قلبه الرُّعب؛ كما في قوله ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥٠-١٥١].

وقوله ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

* ومن صور تقابُل المعاني في سياق واحد قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢] عُرِضت فيه صورة قرية تنعم بالأمن والاطمئنان على طريق المجاز العقليِّ، قامت المفردات فيها بنقل صورة مؤتلِفة المعاني، منسجمة التراكيب متناسقة النظْم، تحمل أداء تصويريًّا مُشِعًّا، يبرز النعم الإلهيَّة التي أسبغها اللَّه على ساكني القرية، وكان حقُّها أن تقابَل بالحمد والشكر، ثم صُرِّف المعنى بصورة استعارة مجرَّدة أبرزت التضادَّ الذي يكتنِف الموقف كلَّه، ويرسم الصورة المقابلة في جانبها المعتِم. ليظهر تفوُّقُ الأُولى وإشراقُها؛ فيتحقَّق به التحذير من التردِّي إلى الأُخرى، وعلى هذا النحو يأتي التصريف بين الأمن والخوف في قول اللَّه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦]. وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا

حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧].

انظر إلى تقابل المعاني في وصف حال المتَّقين مع آي القرآن: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]. فقد ذُكر لازم الخشية من اقشعرار الجلود، ثم أتى التصريف بذكر ضدِّه من لين الجلود لإثبات الاطمئنان.

ما أبدع ما صُرِّف به حال المفارقات البيِّنة بين الناس تثبيتًا وإضلالًا، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

شتَّان ما بين الفريقين في مواجهة الأزمات! ولا عجب أن يصمد المؤمن في الشدائد؛ «انظر إلى الريح العاصف، إنَّه يهبُّ على الصحراء فيثيرُ فيها الغبار. ويهبُّ على الماء فيغضِّنُ وجهه، ويحرِّك لججه، ولكنَّه يناوش الجبال الشمَّ؛ فلا ينال منها منالًا. والإنسان إذا كان أمره فُرُطًا؛ فإنَّ وساوس الشيطان تثير داخل نفسه زوابعَ لا ينتهي لها دُوار ولاعكار، أمَّا يوم يحزم أمرَه، وينتظم الإيمان شؤونه كلَّها، فهيهات أن يهتزَّ لهجمات الأبالسة!»(١).

*** ومن تصريف القول في سياق واحد وصف أحوال الناس يوم القيامة في مشاهد متقابلة:**

كقول اللّه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ [عبس: ٣٨-٤١]

---

(١) جدد حياتك: ١٧٧.

وقوله عز وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٥].

وُصِفَت الأحوال النفسيَّة التي تتعاور البشر في الدنيا بين أمن وخوف، وفرح وحزن، وسعادة وشقاء ثابتة واضحة المعالم قاطعة لأصحابها يوم الخلود. فأين أصحاب الوجوه المسفرة المستبشرة الناضرة التي تنطق بالسرور والرضى والدعة، من أصحاب الوجوه الشوهاء التعسة التي تنمُّ عن الخوف والخزي؟

* في قول اللَّه تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧١- ٧٤].

يتبدَّى جليًّا التصرُّف البديع في المعاني والألفاظ بين أمن وخوف وإيمان وكفر وتكريم وتحقير ونعيم وشقاء، على النحو التالي:

- التعبير بالفعل ﴿وَسِيقَ﴾ في وصف حالين متباينين: والمراد بسوق أهل النار طردهم إليها دفعًا بالهوان والعنف والسِّياط الموجِعة إلى شرِّ محبَس وأفظع موضِع، على نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: ١٣] كما يُفعَل بالأُسارى والخارجين على السلطان إذا سِيقوا إلى حبس أوقتل، أما سوق أهل الجنَّة فهو سوق لُطف وتكريم تُساق فيه النجائب التي يركبونها حثًّا لها على الإسراع بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يُفعَل بمن

يُشرَّف ويُكرَّم من الوافدين على بعض الملوك، فشتَّان ما بين السوقَين[١]!

ويعلِّق البقاعيُّ بقوله: «هذا سوق إكرام، وذاك سوق إهانة وانتقام، وهذا- لعمري- من بدائع أنواع البديع، وهو أن يأتي سبحانه بكلمة في حقِّ الكفَّار فتدلّ على هوانهم بعقابهم، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وعلى هيئتها في حقِّ الأبرار فتدلّ على إكرامهم بحسن ثوابهم، فسبحان من أنزله معجز المباني، متمكن المعاني، عذب الموارد والمثاني!»[٢].

- في لفظ ﴿زُمَرًا﴾ في سياق أهل الجنَّة وسياق أهل النار سرٌّ بلاغيٌّ يتملَّاه ابن القيِّم بفكره الثاقب فيقول: «وتأمَّل ما في سَوق الفريقين إلى الدارين زمرًا من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كلَّ زمرة على حِدة، كلّ مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم مستبشرين أقوياء القلوب كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنِس بعضهم بعضًا ويفرح بعضهم ببعض. وكذلك أصحاب الدار الأُخرى يساقون إليها زمرًا يلعن بعضهم بعضًا، ويتأذَّى بعضهم ببعض. وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحدًا واحدًا. فلا تهمل تدبُّر قوله: ﴿زُمَرًا﴾»[٣].

- فتْح الأبواب لكلٍّ من الطرفين: فقد سبق الفعل ﴿فُتِحَتْ﴾ في حال السُّعداء بواو واستُغني عنها في حال الأشقياء؛ ليدلَّ على مباغتة العذاب «فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يُفتَح له من أنواع الشرِّ إلَّا أنَّه متوقِّع منه شرًّا عظيمًا، ففُتِح في وجهه وفاجأه ما كان يتوقَّعه، وهذا كما تجد في الدنيا مَن يساق إلى السجن، فإنَّه يساق إليه وبابه مُغلَق حتى إذا جاءه فُتح الباب في وجهه؛ ففاجأته

---

(١) ينظر: الكشاف: ٣/٣٥٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١١٦١، وأيسر التفاسير: ١٣٤٩.
(٢) نظم الدرر: ٦/٤٧٨.
(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ٨٣، ٨٤.

روعته وألمه، بخلاف ما لو فُتِح له قبل مجيئه. وهذا بخلاف أهل الجنَّة، فإنهم لمَّا كانوا مُساقِين إلى دار الكرامة، وكان من تمام إكرام المدعوِّ الزائر أن يُفتَح له باب الدار؛ فيجيء فيلقاه مفتوحًا؛ فلا يلحقه ألم الانتظار»[١].

- الحال التي استُقبل بها الفريقان: أهل الجنة بدئوا بالسلام المتضمِّن للسلامة من كلِّ شرٍّ ومكروه، وبُشِّروا بالسلامة والطيب والدخول والخلود، أمَّا أهل النار فإنهم لمَّا انتهَوا إليها على تلك الحال من الهمِّ والغمِّ والحزن؛ فُتحت لهم وأحسُّوا لفح لهيبها ودبَّ الرعب في نفوسهم من فظيع منظرها، وزِيدوا على ما هم عليه من توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾، ولم يقدروا في هول ذلك المطَّلَع على المراوغة، فليس أمامهم سوى الاعتراف فقالوا: بلى، فبشَّروهم بدخولها خالدين[٢].

- في قول خزنة جهنم لأهلها: ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾، وقول خزنة النار لأهلها: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ سرٌّ لطيفٌ ومعنًى بديع لا يخفى على المتأمِّل؛ فلمَّا كانت جهنَّم دار العقوبة «وأبوابها أفظع شيء وأشده حرًّا وأعظمه غمًّا، يستقبِل فيها الداخل من العذاب ما هو أشدّ منها، ويدنو من الغمِّ والحزن والكرب بدخول الأبواب؛ فقيل: ادخلوا أبوابها صَغارًا لهم وإذلالًا وخزيًا، ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرَّد دخول الأبواب الفظيعة، ولكنَّ وراءها الخلود في النار، وأمَّا الجنَّة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعدَّه اللَّه لأوليائه فبُشِّروا من أوَّل وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها»[٣].

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٢٧٧ .
(٢) ينظر: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ٨٤.
(٣) السابق: ٨٤.

ما أتى من التقابل في سياقين مختلفين:

* الخوف من اللَّه والأمن من مكره:

فقد جاء الأمر بالخوف من اللَّه فهو عبادة جليلة، وبه مُدح أهل الطاعة والإيمان كما في قول اللَّه تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٦-١٨].

وثَمَّ تصريف لهذا المعنى بمقابِله في صورة حقيقيَّة تصف أهل الفسوق والعصيان ممَّن نفى اللَّه مساواتهم بهاته النفوس الحيَّة، وتكشف عن داء الغفلة وتبلُّد الإحساس، وتنطوي على تحذير من كبيرة الأمن من مكر اللَّه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]. وشتَّان ما بين الفريقين يوم القيامة! أفمن يُلقى في النار خير أمن يأتي آمنًا يوم القيامة؟

* ويأتي التصريف في وصف حال فريقين متضادَّين أحدهما يقذف اللَّه الرعب في قلبه، والآخر يُنزِل الأمَنة في قلبه:

ما أبلغ ما أدَّته الاستعارة في تصوير الهوَّة بين الحالين! أهل الضلال وقد جعل اللَّه الرُّعب سلاحًا معجزًا يقذفه في قلوبهم كما في قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]، أو يلقيه فيها كما قال ﷻ: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ فيتزعزع له كيانهم، وتتفرَّق صفوفهم رغم كثرة عَددهم وعُددهم. وأهل الإيمان وقد أنزل اللَّه الأمَنة في قلوبهم: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]؛ أو السكينة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ

ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]. فترتاح نفوسهم وتتوحَّد كلمتهم، ويصطفُّون متماسكين لمجابهة أعدائهم.

* ويتقابل الخوف والأمن في وصف القلوب ببلوغها الحناجر والربط عليها:

فيكنى عن الخوف ببلوغ القلوب الحناجر ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وعن الأمن باستعارة الربط على القلوب ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: ١١]. لتظهر من خلال الصورتين المفارقة الكبيرة بين الحالين حال القلوب وقد أقفرت من الأمن فملأها الفزع حتى لتكاد تطير من أماكنها، وحالها وقد عمرتها الأمنة فثبتت ورُبط عليها.

* ويتبدَّى التصريف في تقابل المعاني بين الأمن والخوف في التعبير بالزلزلة وتثبيت الأقدام:

ففي وصف حال المؤمنين يوم الأحزاب عندما انتابهم هول شديد تزلزلت له نفوسهم واضطربت، صوَّرت ذلك الاستعارة في قول اللّه تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١]، فالمعنى «حرِّكوا بالامتحان تحريكًا شديدًا واصلًا إلى الأعماق، فمن لم يكن في أعماقه إيمان راسخ أصابه الاضطراب والقلق والخوف والضجر، وظهرت منه تصرُّفات تكشف سرائر نفسه وقلبه، أمَّا صادق الإيمان وثابته؛ فتزيد الزلزلة إيمانه رسوخًا وعُمقًا واستقرارًا»[١]. ويُرى في مقابل ذلك أمن منحه اللّه لأوليائه يوم بدر تبرزه الكناية في قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]؛ لتصوِّر المعنى مشفوعًا بدليله فيراد بها المعنى ولازمه، فإنَّ الخائف يتزلزل ولا تثبت قدمه في مكان، بل تنتقل من غير اختياره، فيفرّ وقت القتال.

---

(١) ظاهرة النفاق: ١/ ٣٨٧.

* ويُصرَّف البيان بين مخاوف الدنيا وأفزاع القيامة في وصف حال القلوب:

ففي وصف مخاوف المسلمين يوم الأحزاب يقول اللَّه تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]، وفي وصف هول القيامة قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر:١٨].

تتشابه الصورتان في الألفاظ والإطار العام من وصف حالة الهول بطريق الكناية. إلَّا أنَّ أولاهما من حوادث الدُّنيا التي مهما بلغت لا تعدل مثقال ذرَّة من أهوال القيامة. فيأتي تصريف القول بما يناسب صورة الهول في كلٍّ منهما كما يلي:

- يُقصَد بالكناية الأولى المعنى دون لازمه؛ إذ تكاد القلوب تتحرَّك من أماكنها، فلو تحركت لمات الإنسان. أمَّا في أهوال القيامة التي لا يُدرك كنهها، وتختلف فيها الأشياء التي ألفها الناس في الدنيا؛ فيجوز أن يُقصَد فيها المعنى مع لازمه.

- يوحي تقديم لفظ ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ في مشهد القيامة بالانقلابات التي تسود الموقف، بينما في آية الأحزاب تسير الجيوش قُدُمًا، فكأننا بالقلوب تتحرَّك معها لتبلغ الحناجر.

- استُعمل ﴿بَلَغَت﴾ في آية الأحزاب، بينما استعمل ﴿لَدَى﴾ في الأخرى، ويفيد معنى الظرفيَّة المكانيَّة فيها، وهو قريب من (عند) لكنَّه أخصُّ منه[1]. ويوحي لفظ ﴿بَلَغَت﴾ بالسير ثم الوصول، بينما يوحي ﴿لَدَى﴾بسرعة انخلاع القلوب، وتغيُّر أماكنها لشِدَّة الهول لذا ناسب مشهد القيامة «فكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ومخاوفهم،

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز: ٤/ ٤٢٦.

والكظم يكربهم ويثقل صدورهم»[1].

- تزيد الاستعارة ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ في أجزاء الصورة في مشهد القيامة؛ لتعميق الكرب والفزع؛ إذ يتمثل الذهن حركة الانحباس والانقباض لدى الكظم، وصورة القلب مصدر الحياة وقد تحول إلى وعاء يمتلئ خوفًا لا يملك الإنسان دفعه أو التصرُّف حياله من هول الموقف.

* وثَمَّة تصريف للبيان تتقابل فيه مخاوف الدنيا مع أهوال القيامة في وصف الأبصار:

تبرزه الكناية في قول اللّه تعالى في وصف مخاوف يوم الأحزاب: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأحزاب: ١٠]، ومهما بلغت فلا تضاهي الهول يوم الفزع الأكبر؛ لذا أتى التعبير عنه بكناية تفوق أختها مبالغة: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، فقد يزيغ البصر لكنَّه يرتدُّ، بينما في هول القيامة مع ثبات الفزع للظالمين لا يرتدُّ إليهم طرفهم. وفي تصوير آخر لأثر هول القيامة على الأبصار وما تعكسه من أحاسيس النفوس يأتي المجاز المرسل: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ [القيامة: ٧] بعلاقة الجزئيَّة، ليصف الهول الرهيب الذي يجعل البصر يشعر بالفزع.

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٧/ ١٧٢.

المبحث الثالث
تصريف الصور بالتعبير بالماضي عن المستقبل وعكسه

* التعبير بالماضي عن المستقبل:

قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣].

ورد عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال في هذه الآية: «إذا قضى اللّه الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله، كأنَّه سلسلة على صفوان، فإذا فزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ - قالوا للذي قال -: الحقّ وهو العليّ الكبير...»[(١)]، ومعنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جُلِّي عنهم فزعهم وكُشف[(٢)].

مشهد حوار غيبيٍّ حيٍّ من مشاهد يوم القيامة، اصطُفي له صيغة الماضي، وعن السرِّ البيانيِّ في هذا التصريف قال د. السيِّد عبد الفتاح حجاب: و«مع بدائع هذا النظم المعجِز، ومع ما اكتنف الآيات من سابق ولاحق يتوه منا الزمن، وتزول الفواصل بين ماض وحاضر ومستقبل... لقد اخترقت بنا الآيات حُجُب الغيب البعيد، وطوت الآباد من الزمن طيًّا لتضع بين أيدينا مشاهد متعدِّدة الألوان تردُ بأسلوب الماضي، وكأنها تاريخ يحكَى لتؤخَذ منه العبرة، وهذه الطريق التي انفرد بها النظم القرآنيُّ تؤكِّد الثِّقة في وقوع هذه الأحداث، فكأنها حدثت بالفعل، ولا مجال للشكِّ فيها؛ فقد أخبر عنها علَّام الغيوب»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: ٤٠٧، رقم: ٤٨٠٠ .
(٢) ينظر: جامع البيان: ١٩/ ٢٨٢.
(٣) من بدائع النظم القرآني: ١٥، ١٦.

وفي البناء للمفعول ذكر صاحب الإيضاح «أنَّ تلك الأمور العِظام لا تتأتّى إلّا مِن ذي قُدرة لا تُكتنه قَهّار لا يُغالَب، فلا مجال لذَهاب الوهم إلى أن يكون الفاعل لشيء من ذلك غيره»[١].

وعلى هذا التصريف في الزمن قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ [سبأ: ٥١] فالصورة التي تعرَض هنا للكفرة تصوِّر هولًا مفاجئًا يجتاحهم، ويراه جميع الناس وقد أحاط بهم من كلِّ مكان واستولى عليهم، فلا فوت لهم ولا مهرب، فهم حيث كانوا من اللّه قريب لا يبعُدون عنه[٢]. «قال الحسن قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ فزعوا يوم القيامة، حين خرجوا من قبورهم»[٣].

وقيام هذه الصورة الحقيقيّة على الحذف يضفي على الصورة مزيد تهويل، فقد حُذِف المسند وبقيت كلمة واحدة ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: لا يفوتون اللّه، «وسياق السرعة الفائقة والحركات المتلاحقة جعل حُسن الحذف لا يتناهى، وقد بُني هذا التعبير على التركيز الشديد، وكأنَّ كلَّ كلمة فيه جمع هائل في هذا الحشد الذي ضمَّ أطراف البشريَّة كلِّها من لدن آدم عليه السلام إلى آخر نفس تموت، وحَذْف الجواب يؤذِن بمزيد من صور الهول التي لا تتناهى ولا تنضبط، ولا يصفها أبلغ بيان»[٤].

وعن حذف جواب ﴿لَوْ﴾ هنا قال صاحب الطراز بأنَّه: «من محاسن الإيجاز ومواقعه البديعة... والتقدير فيه: لرأيت أمرًا بديعًا أو حالة منكَرة»[٥]؛ فبحذفه

(١) ينظر: الإيضاح: ٣١٣.
(٢) جامع البيان: ١٩/ ٣١٤.
(٣) السابق: ١٩/ ٣١٢.
(٤) خصائص التراكيب: ٢٧٨.
(٥) الطراز: ٢/ ٦٢.

تذهب النفس كلَّ مذهب من الأفزاع؛ فهو أمر فظيع مخيف واقع لا محالة، لا يحيط به وصف، وليس لهم عنه نجاة ولا مهرب[١].

ويضفي تصريف البيان في الزمن بالانتقال من المضارع ﴿تَرَىٰٓ﴾ إلى الماضي ﴿فَزِعُواْ﴾ على الصورة مزيدًا من الهول؛ فكأنما تلك الحال الرهيبة قد وقعت حقًّا، فأصحابها يعاينون أهوالها.

وعلى ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل: ٨٧].

قال ابن الأثير: «فإنه إنما قال: ﴿فَفَزِعَ﴾ بلفظ الماضي بعد قوله: ﴿يُنفَخُ﴾ وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع، وأنَّه كائن لا محالة؛ لأنَّ الفعل الماضي يدلُّ على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به»[٢].

وملمح آخر لشدَّة الهول يبيِّنه قول اللَّه تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾؛ فالدُّخور هو الذُّل والصَّغار، يقال: دَخَر الرَّجل ودَخِر يَدْخَر دُخُورًا ودَخَرًا فهو دَاخِر، إذا فعل ما يؤمَر به، شاء أو أبى صاغِرًا قميئًا[٣]. ففيه صورة للجموع البشريَّة من كلِّ مشرب أتَوا أذلَّة صاغرين بين يدي مالك يوم الدِّين القاهر فوق عباده!

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ [القصص: ٦٥-٦٦] مشهد آخر من مشاهد الفزع الأكبر يصوِّر المشركين حال الحساب بين يدي الحيِّ القيوم، يسألهم ويقيم الحجة عليهم ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فتظلم عليهم الأمور، فلا يدرون بما

---

(١) ينظر: جامع البيان: ١٩/ ٣١٣، وتيسير الكريم الرحمن: ٦٨٤.
(٢) المثل السائر: ٢/ ١٦.
(٣) ينظر: لسان العرب: دخر: ٢/ ٣٦٤.

يحتجون؛ لأنَّ اللّه قد أبلغ عليهم في المعذرة، حتى عجزوا عن كلِّ حجة، أو خبر مما يكون لهم به نجاة ومخلص[١]. فيواجِهون السؤال بالذُّهول والصَّمت، صمت مكروب وذهول من حار الجواب، ففي قوله: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ صورة معبِّرة صارت الأنباء فيها كعمياء لا تصل إليهم، ولا تهتدي إلى مكانهم. وأصل هذا التعبير فعمُوا عن الأنباء، وعُكِس للمبالغةوالتنبيه على أنَّ ما يحضر الذهن يفيض عليه من خارج، فإذا أخطأ لم تُجْدِ معه أدنى حيلة إلى الاستحضار[٢]، «وساق الفعل في صيغة المضي لتحقُّق وقوعه، وأنَّه يقين»[٣]، وعدِّي بـ﴿عَلَيْهِمُ﴾ لتضمُّنه معنى الخفاء والاشتباه[٤]. وفي اختيار ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ إيماء إلى عظم مضامينها، فالنبأ أخصّ من مطلق الخبر[٥]. وفي إطلاق ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ دون قيد دلالة على خطْب مفظع أنساهم كلَّ شيء ليس ما طُلب الإجابة عنه فقط!

وتتنامى المعاني في وصف هول الموقف، ويعود السياق إلى المضارع ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لاستحضار ذلك الحدث الرهيب الذي تأخذهم فيه الحيرة؛ فلا يسأل بعضهم بعضًا عن الجواب لعِظم الهول وعلْمهم أنَّ الكلَّ سواء في الجهل.

وعلى إثر هذا التقريع آخر مثله في السورة نفسها يتكرَّر فيه النداء لأولئك الجهَلة الذين ما قدروا اللّه حقَّ قدره، يحكيه القرآن: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٧٤-٧٥] فيه إشعار

(١) ينظر: جامع البيان: ١٨/ ٢٩٧.
(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٣٢ .
(٣) المحرر الوجيز: ٤/ ٢٩٥.
(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٣٢، ١٣٣.
(٥) ينظر: المفردات: نبأ: ٤٨٢، واستحسنه ابن عاشور في التحرير والتنوير: ٣٠/ ٩.

بأنَّه لا شيء أجلب لغضب العظيم الحليم ﷻ من الإشراك به فهو يغفر ما دونه لمن يشاء.

وفي إيثار صيغة الماضي في بيان حال الهول الذي يغرِق الكفَّار عند الحساب دلالة على تحقُّق الوقوع، حين يواجَهون بما ادَّعوه من الشركاء فيحيرون جوابًا، ولا يجدون ما كانوا يعتذرون به من حجج واهية بين يدي العليم الخبير ﷻ.

وفي الالتفات من ضمير الغيبة العائد على اللَّه ﷻ ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ إلى نون العظمة ﴿وَنَزَعْنَا﴾ تنبيه إلى كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله[(١)]. وأصل النزع يدل على قلع شيء وجذبه من مقره[(٢)]وباستقراء معناه في القرآن تبيَّن أنَّه يستعمَل فيما يدلُّ على السُّرعة والقوَّة، فهو يناسب عظيم القدرة في سرعة إخراج الشهيد من بين ملايين البشر. ومعنى ﴿شَهِيدًا﴾ أي: نبيًّا يشهد بما أجابته أمته[(٣)].

وتأتي بقيَّة الأفعال في السياق على صيغة الماضي مما يضفي على المعنى فضل توكيد ﴿فَقُلْنَا﴾ ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ ﴿وَضَلَّ﴾ تشعر معه النفس برهبة الموقف، فكأنها ترى ذاك الحدث الرهيب الذي طالما استبعده الكفرة وأنكروه قد وقع حقًّا بكلِّ تفاصيله المفزِعة. وفي الأمر ﴿هَاتُواْ﴾تبكيت وتعجيز لأولئك الجاحدين.

* تأمَّل البلاغة في اصطفاء الفعل ﴿ضَلَّ﴾ في هذا السياق، وما يوحي به من غياب كغيبة الضالَّة[(٤)] يوم التغابن الذي يضيع فيه من المشركين كلّ ما كانوا يرجون منه النفع. قال ابن عاشور: «والضلال أصله عدم الاهتداء إلى الطريق. واستعير هنا لعدم خطور الشيء في البال ولعدم حضوره في المحضر من استعمال

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٣٤ .
(٢) ينظر: مقاييس اللغة: نزع: ٩٨٥، والمفردات: ٤٩٠.
(٣) ينظر: جامع البيان: ١٨/ ٣٠٦.
(٤) ينظر: الكشاف: ٣/ ١٧٧.

اللفظ في مجازيه. و ﴿عَنْهُم﴾ متعلّق بفعل ﴿ضَلَّ﴾والمراد ضلَّ عن عقولهم وعن مقامهم؛ مثِّلوا بالمقصود للسائر في طريق حين يخطئ الطريق؛ فلا يبلغ المكان المقصود. وعلِّق بالضلال ضمير ذواتهم؛ ليشمل ضلال الأمرين، فيفيد أنهم لم يجدوا حجَّة يروِّجون بها زعمهم إلهيَّة الأصنام، ولم يجدوا الأصنام حاضرة للشفاعة فيهم؛ فوجموا عن الجواب، وأيقنوا بالمؤاخذة»(١).

وفي قول اللَّه تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:١٦٦] مشهد يصوِّر الملاحاة والترامي بالعداوة والبغضاء وتقطُّع الأواصر والعلاقات على شفير جهنَّم، حين تسقط الرِّياسات والقيادات الكاذبة التي طالما خدعت الناس وزيَّنت لهم الضلال، فإذ بها تنفض أيديها من كلِّ ذلك عاجزة عن وقاية أنفسها بلْه حماية تابعيها! فلا تجد أمامها إلا التبرُّؤ من أتباعها لتتخفَّف من ثِقَل التَّبِعة(٢).

وعبِّر هنا عن المستقبل بالماضي ﴿تَبَرَّأَ﴾ ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾للتأكيد على تحقُّق وقوعه. ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا التصريف للقول من تحذير للطائفتين للمسارعة بالتوبة قبل أن يجدوا أنفسهم في ذلك الموقف الرهيب.

ويصطفَى الفعل المزيد بالتضعيف ﴿تَبَرَّأَ﴾ دون المجرَّد (بَرِئ)؛ ليدلَّ على «تكلُّف البراءة وهي التباعد من الأمر الذي من شأن قربه أن يكون مضرًّا، ولذلك يقال: تبارآ؛ إذا أبعد كلٌّ الآخرَ من تبِعة محقَّقة أو متوقَّعة... ومعنى براءتهم منهم تنصُّلهم من مواعيد نفعهم في الآخرة الذي وعدوهم في الدنيا والشفاعة فيهم، وصرفُهم عن الالتحاق بهم حين هرعوا إليهم»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٠٣.
(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ١/ ٢١٧، والتفسير القرآني: ٢/ ١٨٦.
(٣) التحرير والتنوير: ٢/ ٩٦.

﴿وَرَأَوُا ٱلۡعَذَابَ﴾الواو للحال؛ أي: تبرأوا منهم أوان العذاب وتقطُّع الأسباب[١]. وفي إبهام الضمير تعميم للفاعل ليعود على كِلا الفريقين.

﴿ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ جمع سبب، وهو كلُّ ما يتوصَّل به إلى غيره، وأصله من الحبل القويِّ الطويل، ولا يُدعى سببًا حتى يُصعَد به وينحدَر به[٢]، والمراد في الآية ما كان بينهم من مودَّة ووصال في الدُّنيا يرجون بهما النجاة[٣]. ففي ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ استعارة تمثيليَّة شُبِّهت فيها هيئة التابعين وقد تعلَّقوا بمتبوعين أظهروا لهم المودَّة، وظنُّوا فيهم القوَّة والنفع، -وإذ بالخور والضعف أمام أهوال الموقف يستبدُّ فيخيب كلَّ أمل في النَّجاة ولا غير اللَّه وليٌّ ولا نصير-، بهيئة من تعلَّق بمظنَّة قوَّة ليجتنيَ ثمار تعَبِه، وإذا به يتقطَّع أمام ناظريه ليسقط فلا تقوم له قائمة! وقد اتَّفقت في هذا التمثيل البديع هيئة المشبَّه به مع جهات عدَّة من المشبَّه: فشُبِّه المتبوعون الذين يُظَنُّ فيهم النفع بالحبل الذي يُظَنُّ فيه القوَّة، وشُبِّه اتِّباعهم لهم بإمساك حبل، وشُبِّه النعيم والثواب بالثمَرة، وحرمان الوصول للنعيم بتقطُّع الحبل، والخيبة بالبُعد عن الثمرة، وشُبِّه الوقوع في العذاب بالسقوط المهلِك[٤].

وما أبلغ ما أضافه تقييد التقطُّع بالجار والمجرور ﴿بِهِمُ﴾ فالباء للحال، أي: تقطَّعت الأسباب موصولة بهم فسقطوا[٥]، وهذا المعنى لم يكن ليتحقَّق لوقيل: وتقطَّعت أسبابهم أونحوه، فهو أهمُّ أجزاء الصورة وفيه موطن الفزع؛ إذ لو

---

(١) ينظر: الكشاف: ١/ ١٠٦، ويجوز أن تكون عاطفة (ينظر: البحر المحيط: ١/ ٤٧٣، والتبيان في إعراب القرآن: ٤٥).

(٢) ينظر: لسان العرب: سبب: ٣/ ٢٢٨.

(٣) ينظر: جامع البيان: ٢/ ٢٦.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/ ٩٧.

(٥) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٤٥، وذكر جواز أن تكون بمعنى (عن)، أو للتعدية أو للسببية، ورجح ابن عاشور معنى الحال ليدل على الملابسة معلِّقًا على من قال بتيك المعاني بأنه قد بعد عن البلاغة (ينظر: التحرير والتنوير: ٢/ ٩٧) ورأيته الأبرز في تحقق الفزع وانعدام النفع.

تقطَّعت الأسباب غير ملابِسة لهم ما كان في ذلك ضرّ؛ فيمكن عليه تطلُّب أسباب غيرها لتوصلهم[1].

وعلى نحو ذلك في التعبير بالماضي عن المستقبل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس: ٥٤]صورة للظالمين وقد بُهِتوا وتحيَّروا بما عاينوا من فظاعة الخطْب وإحاطة الهول؛ فخرست ألسنتهم ولم يطيقوا كلامًا ولا بكاءً ولا صراخًا[2]، فتمنَّوا أن يخلصوا من تيك الأهوال مفتدين أنفسهم بكلٍّ ما في الأرض بعد أن كان أحدهم يبيع نفسه في الدُّنيا لقاء حطام فانٍ، ويصوِّرهم القرآن وقد ندموا على ما اقترفوا من آثام وما اجترحوا من سيئات، ولات حين مندم! فالعذاب واقع أمامهم، وقد قضى به المقسِط عَزَّوَجَلَّ الذي لا يعذِّب إلَّا مَن قد أعذر إليه في الدنيا وتابَع عليه الحجج.

ففي التعبير بالماضي ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾ ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ ﴿رَأَوُا۟﴾ ﴿وَقُضِىَ﴾ مزيد تهويل؛ إذ توصَف الأفزاع وتصوَّر مشاعر الذُّعر التي تنتابهم كأنما هي قصة تُحكَى لأخذ العبرة.

وعلى نحو ذلك قول اللّه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ﴾ [الرعد: ١٨]، وقوله جَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢/ ٩٧.

(٢) ينظر: حاشية شيخ زاده: ٤/ ٥٨١.

* وموقف آخر من مواقف الهول في القيامة عبِّر فيه بالماضي، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨]. قال صاحب أضواء البيان: «خشعت أي: خفضت وخفتت وسكنت هيبة للّه، وإجلالًا وخوفًا، فلا تسمع في ذلك اليوم صوتًا عاليًا، بل لا تسمع ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: صوتًا خفيًّا خافتًا من شِدَّة الخوف. أو ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: إلّا صوت خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر»(١). وأصل الهمس في اللُّغة يدلُّ على خفاء صوت وحسّ، فيشمل خفض الصوت وصوت الأقدام، يقال هَمَس يَهمِس هَمْسًا، والهمس من الصوت مالا يُفغَر به الفم، وهمْس الأقدام أخفى ما يكون من وطْء القدم(٢). ففي التعبير به براعة في الإيجاز والتصوير تضفي مزيدًا من الهول والغموض على الموقف، فيخيِّم عليه الجلال، ويغمر الساحة التي لا يحدُّها البصر رهبةٌ وخشوعٌ وسط وَحشة الصمت والسكون، حتى لَتسمع الأصوات الخفيَّة وخَفْق الأقدام. وفي التعبير بصيغة الماضي ﴿وَخَشَعَتِ﴾ تأكيد على تحقُّق وقوعه.

* وعلى نحو ذلك قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ [القيامة:٧-٩]، وقوله ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة:١-٢]، وقوله عزوجل: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

(١) أضواء البيان: ٣/ ٦٩.
(٢) ينظر: مقاييس اللغة: همس: ١٠٣٦، ولسان العرب: ٦/ ٣٥٥.

* ونظرة في تصريف الزمن فيما يبعث على الراحة والاطمئنان في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٧٤﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤].

ما أعظم ما يكتنف ذيَّاك الموقف من اطمئنان وتكريم! فهاهم أولاء عباد الرحمن ينعمون بأكرم استقبال وأفضل ثناء وأجزل عطاء من الرَّحيم المنَّان. قال ابن جرير: «وحُشِر الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه في الدنيا وأخلصوا فيها الألوهة، وأفردوا له العبادة، فلم يشركوا في عبادتهم إيَّاه شيئًا ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ يعني جماعات»[1].

لقد صُوِّر الموقف بالألفاظ والجمل تصويرًا حقيقيًّا حيًّا يشعر المتلقِّي معه كأنما الحدث قد وقع، وليس إخبارًا عن مستقبل، ونرى بلاغة تصريف القول تظهر جليَّة في التعبير بالماضي عن المستقبل في الأفعال: ﴿وَسِيقَ﴾ ﴿جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾ ﴿قَالَ﴾ ﴿طِبْتُمْ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ ونحوها في المشهد السابق، فكأنَّ تيك الأحداث تجاوز الزمن وتطويه، لتجعلنا نقف متأمِّلين ما يحدث في عرصات القيامة؛ بعد أن مرّ في رهبة قطيع الكفَرة وقد عتِلوا إلى عذاب السعير، وقد تلقتهم زبانية جهنَّم بالتوبيخ، وفي الجانب الآخر يبدو إشراق الصورة في موكب البرَرة، فقد سيقوا مكرمين إلى جِنان الخلود، وقد حفَّ التشريف موكبهم، وتلقَّتهم خزنتها بالتكريم. وليس أبلغ في تقرير هاته الصور الغيبيَّة الغريبة على النفوس الأرضيَّة من هذا التعبير؛ فهو يخاطبها بما يدنو من حسِّها ورؤاها المحدودة، بعد

(١) جامع البيان: ٢٠/ ٢٦٥.

نقلها إلى المحيط الذي تقع فيه الأحداث[١].

ما أبلغ الالتفات من السرد بضمير الغَيبة إلى حكاية القول بضمير المتكلِّمين ﴿وَأَوْرَثَنَا﴾ ﴿صَدَقَنَا﴾ فكأنما تُسمع هينمات أولئك الآمنين بعدما امتلأت نفوسهم راحة واطمئنانًا تلهج بالتسبيح والتحميد والتحدُّث بنعمة اللَّه كما هي عادتهم في كلِّ مواقف الأمن والسعادة؛ فالجنة هي الأرض التي تستحق أن تورث. يسكنون فيها حيث شاءوا وينالون منها ما يريدون[٢]، ثم يأتي تصريف الزمن إلى المضارع ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ لإفادة التجدُّد والحدوث في أيِّ مكان أرادوه.

ولنعش آفاق الأمن التي تفتحها هذه الآية وما تنطوي عليه من تكريم وتشريف:

- ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ الواو للحال أي حين جاءوها وقد فتحت أبوابها على ما هو الشأن من حسن وفادة أهل الكرامة اطمأنوا[٣].

- حُذف جواب ﴿إِذَا﴾ لتنهل النفس من مورد الأمن، وتذهب مع الإكرام كلّ مذهب؛ فهو فضل عظيم لا يحيط به وصف[٤] «وتقديره: حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكرامًا وتعظيمًا، وتلقَّتهم الملائكة الخزنة بالبَشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفَرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسرُّوا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من نعيم»[٥].

---

(١) ينظر: خصائص التراكيب: ٢٦٧.
(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٧٣١، وفي ظلال القرآن: ٧/ ١٥٧.
(٣) ينظر: البحر المحيط: ٧/ ٤٤٣، والتحرير والتنوير: ٢٤/ ١٣٧.
(٤) ينظر: بدائع الفوائد: ٢/ ٢٧٧، ونظم الدرر: ٦/ ٤٨٠، وقد علَّق ابن القيم على حذف جواب ﴿إِذَا﴾ بقوله: «وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو ومن دعوى كونه واو الثمانية، لأن أبواب الجنة ثمانية فإن هذا لو صح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة في اللفظ واحدًا بعد واحد فينتهون إلى السبعة، ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو، وهنا لا ذكر للفظ الثمانية في الآية ولا عدها فتأمله».
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١١٦٢، وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ٣٣٢.

- وفي قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ ترحيب يتضمّن تعجيلًا بالبشارة لهم والدعاء بالسلامة من كلِّ آفة ومكروه[(١)].

- ﴿طِبۡتُمۡ﴾ أي: زكوتم أعمالًا ومعتقدًا ومستقرًّا وجزاء، فاهنأوا بهذا المقام الطيب الذي لا يحلُّ به إلَّا كلُّ طيِّب[(٢)]، ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وما أعظمه من جزاء!

وبنحو ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا ١١﴾ [الإنسان: ١١]. لقد أمَّنهم اللَّه ودفع عنهم ما كانوا يحذرون في الدنيا، ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً﴾ أي: حُسنًا ونعمة تظهر على وجوههم، وسرورًا في قلوبهم وذلك يحصل من فرح النفس ورفاهية العيش في مقابلة خوفهم في الدنيا[(٣)]. وفي قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾ تعبير دقيق عن المظهر الحسِّي لهؤلاء المؤمنين وقد بدا على وجوههم الإشراق والسعادة[(٤)]، «فمثَّل إلقاء النَّضرة على وجوههم بزجِّ أحدٍ إلى لقاء أحد على طريقة التمثيل»[(٥)].

وفي تصريف الزمن من المستقبل إلى الماضي إشارة إلى تحقُّق الوقوع؛ لتمتلئ النفوس المؤمِنة أمنًا واستبشارًا حين ترى الأمن الذي كانت تتمنَّاه يتجلَّى لها ومعه علائمه قد ارتسمت على الوجوه.

وهكذا يصرَّف الزمن في معظم مشاهد القيامة من خوف وأمن من المستقبل إلى الماضي وهذه الطريقة «تُلقي في النفس أنَّ هذه الأحداث كأنها وقعت، وكأنها

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٦/ ٤٧٩.
(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء: ٢/ ٤٢٥، والمحرر الوجيز: ٤/ ٥٤٣.
(٣) ينظر: جامع البيان: ٢٣/ ٥٥٠.
(٤) ينظر: من بلاغة القرآن: ٥٨.
(٥) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٦٠.

تُروى، وكأنَّ الزمان قد استدار»(١).

التعبير بالمستقبل عن الماضي:

قال تعالى في قصة موسى عليه السلام حين خاف من قوم فرعون بعد أن قتل منهم نفسًا: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨].

* يرسم الفعل المضارع ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ هيئة الحذِر المتلفِّت. ومما يبرز صورة الخوف أكثر أن يكون في المدينة موضع الأمن والاطمئنان عادة، وهنا تبرز قيمة اللفظ المصوِّر للفزع في موطن الأمان!(٢) وما أصدق ماقاله صاحب كتاب المعجزة الكبرى عن هذه القصَّة: «وإنِّي مهما أحاول من تصوير للقصَّة بعبارتي، فلن نصل إلى ما يقع في نفس القارئ إذا تلاها مجرَّدة من غير تعليق عليها، إنها تصوِّر ربيب النعمة في صورة كأنها المرئيَّة، وكأنها مشاهَدة محسوسة، وليس أخبارًا مكتوبة أو متلوَّة»(٣).

وفي قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص:٣١] صُرِّف التعبير بالفعلين ﴿تَهْتَزُّ﴾ ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ بصيغة المضارع لتتمثَّل معهما في الذهن الحالة المخيفة التي بدت فيها العصا وهي تهتزُّ ويتجدَّد منها ذاك الاهتزاز مما يبعث على شدِّة الخوف، بخلاف ما لو قيل: اهتزت؛ لذا كان خوف موسى عليه السلام شديدًا فقيل: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ليصوِّر سرعة تحقُّق الفرار من هول الموقف، ويأتي المضارع ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ مستدعيًا صورته في الذهن وهو يجدُّ في الهرب لا يقوى على الالتفات من فظاعة المنظر.

---

(١) التصوير البياني للدكتور أبي موسى: ٢٢٩.
(٢) ينظر: التصوير الفني في القرآن: ٩٥.
(٣) المعجزة الكبرى: ٢٢١.

وهنا أفق آخر من الإعجاز في تصريف القول يظهر في الألفاظ التي وُصفت بها الحيَّة، إذ وصفت هنا بأنها ﴿جَآنٌّ﴾، كما وُصفت في آيات أُخر بأنها ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه: ٢٠]، وبأنها ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]. ومن هذه الأوصاف جميعها، تلبس العصا صورة كاملة للحيَّة، في التحوُّل من الجمود إلى الحياة وفي خِفَّة الحركة، فيوحي لفظ ﴿حَيَّةٌ﴾ بالحياة فهو مشتقٌّ منها(١)، ويدلُّ ﴿ثُعْبَانٌ﴾ على طول وقوَّة، فقد قيل: إنَّه يطلق على الذَّكَر مِن الحيَّات خاصَّة(٢)، ويشير لفظ ﴿جَآنٌّ﴾ إلى خِفَّة الحركة(٣).

ومما صُرِّف فيه الزمن من المستقبل إلى الماضي قول اللَّه تعالى في وصف عباده المتقين: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وردت هذه الآية في سياقٍ عُرِضت فيه المعالم البارزة في صفحة النبوَّة في تاريخ البشريَّة، وُصِل بها صفاتهم وصفات الصالحين من ذرِّيتهم ممن هداه اللَّه واجتباه. وأبرزها أنهم أتقياء ترتعش نفوسهم حين تُتلى عليهم آيات الرحمن، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرُّون سُجَّدًا وبُكِيًّا(٤) «خوفًا منه وشوقًا إليه، فوَصَفَهم بسرعة الخشوع من ذكر اللَّه الناشئ عن دوام الخضوع، والناشئ عنه الإسراع بالسجود في حالة البكاء، وجعلهما حالتين للعطف بالواو لعراقة المتحلِّي بهما في كلٍّ منهما على انفراده، وعبَّر بالاسم في كلٍّ مِن السجود والبكاء إشارة إلى أنَّ خوفهم دائم كما أنَّ خضوعهم دائم»(٥).

---

(١) ينظر: لسان العرب: حيا: ٢/ ٢٠٥.
(٢) ينظر: السابق: ثعب: ١/ ٣٣٣.
(٣) ينظر: نفسه: جنن: ١/ ٤٧٤.
(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٥/ ٤٤٣.
(٥) نظم الدرر: ٤/ ٥٤٥.

لقد صُرِّف جواب ﴿إِذَا﴾ بالماضي ﴿خَرُّواْ﴾ إشارة إلى سُرعة الاستجابة وتحقُّق تلك الصفة العظيمة منهم، وما أبدع ما أضافه هذا الفعل إلى السياق! فهو يرتبط بالأشياء العالية كالجبال أو الأبنية إذا سقطت مع صوت. فإسناده إلى الضمير العائد على تلك الضمائر الحيَّة يوحي بأنَّ النفس المؤمنة طود شامخ لا تهزُّه حوادث الدُّنيا ومواقف البشَر، لا يضعف إلَّا أمام خالقه، فما تُتلى عليه آيات الرحمن حتى يخرَّ لمولاه ساجدًا يبكي سقطه وزَلَله!

قال الراغب: «فاستعمال الخرِّ تنبيه على اجتماع أمرين: السُّقوط وحصول الصَّوت منهم بالتسبيح»[١].

وأوثرت إضافة الآيات إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بهذا الاسم إشارة إلى ما لهم مِن البصائر المنيرة في ذكر نعمِهِ عليهم وإحسانه إليهم مع تقصيرهم في عبادته وطمعهم في رحمته، وفيها دلالة على أن آياته من رحمته وإحسانه إلى عباده، حيث هداهم بها إلى الحقِّ، وأنقذهم من الضَّلالة وعلَّمهم من الجهَالة[٢].

وعلى نحو ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [السجدة: ١٥].

وممَّا صُرِّف فيه الزمن وصف الرهبة من القتال التي اعترت بعض المسلمين في حداثة عهدهم بالإسلام، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال: ٦]، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾ [النساء: ٧٧].

---

(١) المفردات: ١٥١.

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ٤٩٦، وأيسر التفاسير: ٨٧٠.

وكذا وصف القتال في قول اللّه تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ٩-١١].

عُبِّر بالمضارع ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ ليستحضر الذهن تيك الحال العظيمة التي فزع فيها النبيُّ ﷺ يوم بدر إلى ربه يجأر ضارعًا إليه بالدعاء يستنصره ويتوكَّل عليه، وترتفع الأنفاس مع الموقف متطلِّعة إلى الإجابة، ولعلَّ في استحضار هذه الصورة ما يجعل الإنسان يذكرها كلَّما رابه أمر أو جاش بفؤاده شعور. ومما أبرز جمال الصورة إسناد الفعل إلى واو الجماعة على أنَّ النبيَّ ﷺ هو الذي استغاث؛ ليدلَّ على أنَّ إلحاحه في الدُّعاء وإخلاصه فيه فاق ما تقوم به جماعة، فكأنَّنا نسمع نشيجه ودعاءه في أبدع مشاهد اللُّجوء إلى اللّه وأصدقها. فما أسرع ما أتت البَشارة بالمدد السماويِّ ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

وفي التعبير بالماضي ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾ إيذان بسرعة الاستجابة، مع ما في الفعل من زيادة في المبنى دالة على التأكيد، فكأنَّ الاستجابة تتخطَّى حدود الزمن وتصل بسرعة، وبهذه الطريقة يرى الخيال الصورة من وراء العبارات كأنها بين يديه حقيقة بالعَيان، وليست خبرًا من الأخبار(١).

وصُرِّف الزمن إلى المضارع في وصف المنن الربانيَّة ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ ﴿لِّيُطَهِّرَكُم﴾ ﴿وَيُذْهِبَ﴾ ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ لاستحضار تيك النعم، واستشعار عظيم فضل اللّه في إسباغها عليهم، وتعليق القلوب به ﷻ في شتَّى المواقف والمحن.

---

(١) ينظر: المعجزة الكبرى: ٢٢٤.

وعلى نحو ذلك صرِّف الزمن من الماضي إلى المضارع في وصف ما حدث للمسلمين يوم أحد في مقام العتاب والتذكير بالمنَّة، قال اللّه تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ [آل عمران: ١٥٣-١٥٤]

تأنيب من اللّه لمن فرُّوا عن نبيهم ﷺ وانكشفوا عنه وهو يدعوهم، فصوِّرت حال الرُّعب الذي دبَّ في صفوف المسلمين وهم ينطلقون فارِّين هائمين في كلِّ اتجاه[١]. وعبر عن حالهم تلك بـ ﴿تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ والإصعاد في اللُّغة الذَّهاب في الأرض. مِن الصَّعيد: وهو وجه الأرض، يقال: أَصْعَد في البلاد يُصعِد فهو مُصعِد إذا سار ومضى وذهب، وأَصْعَد في العدْوِ اشتدَّ[٢]. ففيه دلالة بينة على شدة الخوف.

ويعمِّق قوله: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾صورة الخوف؛ فأصله يدلُّ على إمالة وتثنِّي. ومنه أَلْوَى يَلْوِي إِلْوَاء، ولَوَى عليه إذا عَطَف، ويقال: فلان لا يلوي على أحد، أي: لا يلتفت ولا يعطف عليه[٣]. وفسَّر ابن جرير هذه العبارة بأنهم لا يعطفون على أحدهم، ولا يلتفت بعضهم إلى بعض؛ مُصعِدين في الوادي هربًا من العدوِّ[٤]. وهو تمثيل للجدِّ في الهرب حتى إنَّ الواحد لَيدوس على مَن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ١٥٢.
(٢) ينظر: لسان العرب: صعد: ٤/ ٤١، ٤٢.
(٣) ينظر: مقاييس اللغة: لوي: مقاييس اللغة: ٩٠٧، ولسان العرب: ٥/ ٥٤١.
(٤) جامع البيان: ٦/ ١٤٨.

يَعرِض في طريقه(١).

«قال السّدِّيّ: لمَّا شدَّ المشركون على المسلمين بأُحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة، فقاموا عليها. وجعل رسول اللّه ﷺ يدعو الناس»(٢). ففي قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ تذكير بتيك الحال المخزية، يحمل بين طيَّاته عتابًا لمن خلَّفوا رسولهم ﷺ وراء ظهورهم يدعوهم إلى الرجعة والكرَّة وترك الفرار من الأعداء.

وقد صُرِّف الزمن إلى المضارع في وصف حال الخوف الذي اضطربت له نفوسهم في حكاية أمرٍ مضى ﴿تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾ ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ ﴿يَظُنُّونَ﴾ ﴿يُخۡفُونَ﴾ ﴿مَّا لَا يُبۡدُونَ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ ليستحضروه أمام أعينهم؛ فهاهم أولاء يعيشون أجواء المعركة بمخاوفها، ويشعرون بأدقِّ خلجاتها التي تصوِّرها الآيات، فيدركون خطأ ما فعلوا.

وعُبِّر بالمستقبل كذلك ﴿يَغۡشَىٰ﴾ في مقام المِنَّة؛ لتذكُّر تيك الأمَنَة المعجِزة التي خصَّ الرحمن بها أولياءه؛ لتمحوَ كلَّ ما اعتراهم من هموم من الهزيمة، وتؤهِّلهم لاستقبال موقعة جديدة بنفوس مشرقة ترى في اللّه عوضًا عن كلِّ فائت.

وعلى ذلك قول اللّه تعالى في وصف حال الذعر الذي دبَّ في صفوف يهود بني قريظة بعد أن قذف اللّه في قلوبهم الرعب يوم الأحزاب وأظهر المسلمين عليهم: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣/ ٢٥٤.

(٢) جامع البيان: ٦/ ١٤٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢٧١، وأخرج البخاري في صحيحه عن البراء ابن عازب - رضي الله عنهما - قال: جعل النبي ﷺ على الرجالة يوم أحد عبد اللّه بن جبير، وأقبلوا منهزمين فذاك: (إذ يدعوهم الرسول في أخراهم). ينظر: صحيح البخاري: ٣٣٣: رقم: ٤٠٦٧.

ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وكذا وصف إجلاء بني النضير عن المدينة، في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢]

ففيهما تصريف للقول بالتعبير بصيغة المضارع عن آثار ذلك السلاح الإلهيّ المعجِز، ليُرى من خلال الصورتين حال أعداء المسلمين يخربونها بأيديهم وأيدي المسلمين. ولا يخفى ما في هذا التصريف البديع من استحضار للصورة حتى لَيكادَ المتلقِّي يرى علائم الخوف قد ارتسمت على وجوه أعداء الإسلام، ويشعر بالفرح وهو يرى تمكين اللّه لعباده المؤمنين.

وما وقع بهم من الرعب، ففي الصورة الأولى يُرى أولئك الجبناء فريقين أسرى وقتلى، وفي الصورة الأخرى يُرون داخل بيوتهم... إلخ.

الخاتمة

بعد هذه الجولة مع البحث في موضوع التصوير البيانيِّ في آيات الأمن والخوف التي تنقَّلت فيها مع طرق التصوير بين الحقيقة والبيان في مثَل البلاغة الأسمى؛ مُنعِمة النظر في آيات التصوير، متوسِّمة ما وراءها من أحوال وأسرار. تجلَّت بعض مناحي الإعجاز وصور التعبير، وما تنطوي عليه من عطاء يتجدَّد ولطائف لاتُحدّ. ففي الفصل الأول كان الحديث عن بلاغة القرآن في التصوير بالحقيقة سواء أكان التصوير باللفظ أو بالجملة، ووقفتُ في الفصل الثاني على التشبيه بالتصوير مجلِّية الحسِّيّ والمعنويّ منه، وعرضتُ في الفصل الثالث بلاغة التصوير بالمجاز بنوعيه من لغويٍّ إلى عقليّ، وكشف الفصل الرابع عن بلاغة التصوير بالكناية عن الموصوف والصفة والنسبة وعرض ما أمكن من الشواهد، وتكفَّل الفصل الخامس بالطرائق المتباينة في الأداء، فألفينا القرآن ينأى عن التعبير بالأسلوب الواحد المباشر الذي لا يتنوَّع، بل يلجأ إلى أفانين شتَّى من البلاغة تتَّسق في رصد معانٍ ومواقف يبدو بين طيَّاتها ما يخلب ويروق، ويُظهِر ثراء المعاني وبراعة الصياغة والأداء.

وآن أن أثني عنان القلم، ولولا كبحه لأغراه الثراء الواسع في بلاغة القرآن إلى السير قُدُمًا في هذه الرحلة الإيمانيَّة بنفحاتها العذبة المنعشة، ولعلَّ النتائج والأدلة لم تدعْ ريبًا في حقيقة الإعجاز في الكتاب المنزل، وأن العقل الإنسانيَّ ما أوغل فيه ينقلب عن شأوه حسيرًا.

* **الخلاصة:**

وها أنا ذي أقف خاشعة أمام تلك العظائم مبهورة بجلالها مسجِّلة ما استوقفني في رياضها:

- تتنامى الخشية من اللَّه كلَّما تدبَّر الإنسان آيات القرآن وأنعم النظر فيها وسمع همساتها ولمح إشاراتها، ورنَّت كلماتها في قلبه، بينما تتزعزع النفس، وتتزلزل خوفًا واضطرابًا بالبعد عنه؛ لذا تتوق النفوس السويَّة بفطرتها إلى الإيمان حضن الأمان والطمأنينة.

- يزخر القرآن الكريم بالمشاعر والعواطف الإنسانيَّة على اختلاف صورها، وتتنوَّع طرق التعبير والتأثير فيه ما بين التصوير بالحقيقة والتصوير بطرق البيان.

- تفُوق أحوال الخوف في القرآن الكريم في كمّها وتفصيلها أحوال الأمن، وفي هذا إشارة لطيفة إلى أنَّ اللَّه الذي خلق الإنسان عالم بما يعتريه من داء الغفلة والنسيان، خبير ببلسمه الشافي.

- يظهر التباين بين مخاوف المؤمنين وسائر الفئات البشريَّة من منافقين ويهود ومشركين جليًّا في التعبير القرآنيّ.

- يُبرز القرآن المعاني والانفعالات ويرصد آثارها ويعمِّق الشعور بها بصور حيَّة تنضح بلاغة، تشترك فيها الأصوات مع ألفاظها وحركاتها وأبعادها، مما يعمِّق الإحساس بقوَّة المعنى وجمال الصورة.

- يسهم تحقيق التكامل والتآزر بين علوم العربية والقرآن الكريم - من تجويد وتفسير إلى أصوات إلى نحو- بحدٍّ كبير في تعميق الإحساس بجمال القرآن وبلاغته وإعجازه.

- يضرب التصوير البيانيّ في القرآن بسهم وافر في تجلية المعاني وتقريبها، لذا

يغلب الاهتمام فيه بالصفة الحسِّيَّة؛ فيقترن بالألفاظ الدالَّة على الحواسّ نحو النظر والرؤية والسماع والإذاقة مما يضفي على مَشاهده بُعدًا تجسيميًا وثِقلًا تخييليًا مثيرًا للذهن والوجدان.

- لم يقف التصوير البيانيّ عند تسجيل وجوه الشبه المادية بين الأشياء، بل جاوزها إلى المماثلة النفسيَّة.

- تقوم بعض المشاهد القرآنية على صور جزئيَّة تتظاهر لترسم صورة كليَّة، وهنا يظهر حسن تعاقب الصور وتنامي المعاني في إتمام المشهد وتعميق أثره.

- تعلو الصورة البيانيَّة في القرآن على تأثير العصر والبيئة، فلا تتغيَّر بتغيُّرهما، ولها غاية أخلاقية لها مكانها بين الغايات السامية التي يحقِّقها ذلك الكتاب المعجز.

- تختلف الصور من سورة لأخرى ومن سياق لآخر مما يعمق الإحساس بقوَّة المعنى وجمال الصورة، وهذا جزء من علم التناسب بين المحكم والمتشابه في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

- تزخر الصورة البيانيَّة في القرآن بالمعاني والأخيلة والمشاعر النفسيَّة، وتتحرَّك في أداء تعبيريٍّ معجِز، تتظاهر فيه الحركة واللون والصوت، وقليل منها يعرض صامتًا لغرض يقتضيه.

- تعجُّ مشاهد القيامة بالحركة والانقلابات، وتضجُّ بالأفزاع والأصوات، وتتفجَّر بالأحداث والكربات التي تشترك فيها عناصر الكون والأحياء معًا، لتقرِّب ذلك العالم الغيبيّ للأذهان حتى لكأنه ماثل تشهده العين ويخفق من هوله القلب، فيسري فيه الفزع تارة، ويعاوده الاطمئنان والشوق تارة أخرى في وصف أحوال المتقين.

- تُعنى مشاهد القيامة بتصوير الهول الذي يهزُّ النفوس ويتعدَّاها إلى الطبيعة الصامتة، وقد تميَّزت بالقِصَر والسرعة في رسم الانقلاب في موازين المعهود تنبيهًا إلى فظاعة الهول؛ للاستعداد والتزوُّد بما يمنح النفوس أمنًا يوم الفزع.

*** النتائج:**

وقد أسفر هذا التطواف في أفانين البيان القرآني عن عدد من الحقائق والنتائج أُوجزها فيما يلي:

- جاءت الصورة القرآنيَّة موظَّفة لخدمة مقاصد الكتاب الكريم، وامتازت برقيِّ الأسلوب - على مستوى القرآن كلِّه - ووضوح المعالم مع الإسهام الكبير في تجلية المعاني والتأثير الوجدانيِّ، ولم تقتصر على فنون البيان، بل نافستها الحقيقة في إبراز المعانى بألفاظها الموحية وجملها المصوِّرة.

- أبرزت الدراسة قيمة الحرف والكلمة في القرآن، وسرّ إيثار أحدها في سياقه، مما يزيد اليقين بإعجازه البيانيِّ؛ فهو تنزيل من حكيم حميد.

- كشفت الدراسة عن العلاقة الوشيجة بين طبيعة الأصوات والمواقف التي تصوِّرها والأبعاد الفنِّيَّة لصيغ المفردات وخصوصيَّة التعبير بصيغة ما، مما يمنحها ظلالًا نفسيَّة خاصَّة تنمّ عن رفعة البيان القرآنيّ.

- أكَّدت الدراسة أنَّ كلَّ لفظة تستقلُّ بمعنًى لا يكون في غيرها، ناهيك عن المهمَّة الكبيرة التي ينهض بها النظم في التأليف بينها وبين أخواتها لصياغة صورة متكاملة ذات أداء فنِّيٍّ بديع، فقد تتوارد الألفاظ والصيغ على معنًى واحد، لكن يبقى لكلٍّ منها خصوصيَّة أُشربها من أصل معناه والدلالة التي يضفيها على السياق.

- أبانت الدراسة عما سماه ابن رشيق بالتشبيهات العقم في القرآن؛ مناقِشةً

الظلال النفسية لهذا المصطلح، مقترِحة تسميتها فرائد التشبيه أو مبتكراته.

- أكَّدت الدراسة على أنَّ المجاز في القرآن قضية أقرَّها كثير من العلماء، وله أثره في تعميق المعنى، وتوسيع آفاقه، لكن ينبغي أن يقيد وجوده بالقرينة أو بالدليل الذي يمنع من إرادة الحقيقة.

- دعت الدراسة إلى الحدِّ من التوسُّع في المجاز والكناية في القرآن الكريم؛ خاصَّة فيما يتعلق بالغيبيَّات؛ صيانة لكلام اللَّه عن أن يصرف إلى غير وجهه.

- أكَّد البحث أن الأصل في نصوص القرآن إجراؤها على ظاهرها دون تأويل، كما أنَّ الحقيقة والتصريح أصلان في كتاب اللَّه، لا يعدل عنهما إلا بدليل، ولا صحَّة لما يحاوله بعض المعتزلة والأشاعرة من ليِّ أعناقها لتوافق أهواءهم ومذاهبهم نحو إطلاق العنان للعقل للخوض في كيفيَّات الأمور التي لا يصل إليه مجاله القاصر، وتقديمه على النقل في تفسير كلام اللَّه ﷻ، وما أصدق ما صوَّر به شيخ الإسلام ابن تيميَّة الحدود التي ينبغي للعقل الوقوف عندها حين قال: «العقل متولٍّ، ولَّى الرسول، ثُمَّ عزل نفسه»[1]. فحريٌّ بكلِّ باحث في آي القرآن وبلاغته أن يستحضر هذه المقولة الرائعة.

- أوضحت الدراسة أنَّ القرآن وإن كان جاريًا على سنن العرب في كلامها، إلَّا أنَّ أحد وجوه إعجازه يرجع إلى تصريف البيان في طرائق تعبيره تصريفًا لا عهد للبشر به.

- أبرز البحث بعض مناحي الإعجاز العلميِّ في سبر أغوار النفس الإنسانيَّة، وتجلية مشاعرها إزاء مواقف الدنيا والآخرة، مما لم تبلغه عقول البشر عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة.

(١) درء تعارض العقل والنقل: ١/ ١٣٨.

- ناقشت الدراسة معنى التصريف في القرآن، وتفوّقه على غيره من المصطلحات التي حاولت منافسته كالتكرار والترداد والتشابه، وثبت تفوُّقه عليها ومواءمته للبيان الإلهيِّ المعجِز؛ فهو مصطلح قرآنيّ.

- أظهر البحث كيف صُرِّفت القصص والمعاني والألفاظ في القرآن بطرائق شتَّى في مواطن متفرِّقة؛ لتتحقّق بذلك مقاصده بأبلغ الأساليب وأبدعها، فلا تكرار في مشاهده المتنوعة، بل تنوُّع عجيب وتفنُّن بديع، انفرد به بيانه الفذّ.

- أبانت الدراسة أن التعبير بالماضي عن المستقبل كثير في مشاهد القيامة للدلالة على تحقُّق الوقوع، فتبدو معه الأهوال يوم الفزع وكأنها قد وقعت رأي العين، وعاين أصحابها أحداثها من أمن ونعيم تتوق إليه النفوس، إلى فزع وهول تنخلع له القلوب.

وبعد؛ فما المدى الذي بلغته في دراستي إلَّا جهد محدود بطاقتي، ويظلُّ المجال مفتوحًا للدارسين يستشرفون منه وجوهًا أخر في هذا الموضوع وغيره من موضوعات البلاغة القرآنيَّة.

*** التوصيات:**

وقبل الختام أوصي بإمداد الأرواح برحلات إيمانية تنهل فيها من معين الإعجاز الفذّ في:

- موضوع الخشية بدراسة مستفيضة تحقق جانبي الإمتاع والتأثير الذي يشوق النفوس إلى الوصول إلى هذه المرتبة العظيمة.

- دراسة أنواع أخر من المشاعر الإنسانية العميقة كالندم والحزن دراسة تبين جوانبها المحمودة والمذمومة وتكشف عن براعة التعبير القرآني فيها.

- بلاغة القرآن في الدعوة إلى التوازن في المشاعر لتحقيق الشخصية الإسلاميَّة

المميَّزة التي تتقابل فيها المشاعر من خوف ورجاء إلى فرح وحزن إلى محبَّة وكُره وولاء وبراء.

هذا وإنني أحمد اللَّه عز وجل على ما منَّ به عليَّ من صحبة كتابه طيلة أيَّام البحث، وأحمده على ما بلَّغني إيَّاه من إتمامه وإخراجه، وأسأله سبحانه أن يباركه، وأن يجعلني أوَّل المنتفعين به، وأن يجعله فاتحة خير! وأستغفره سبحانه من كلِّ خطأ أوخطل، أوتقصير أوزلل! وليشفع لي أنِّي حشدت له كلَّ طاقتي ووسعي. وأسأله أن يجعل ما صرفت فيه من جهد ووقت ثِقَلًا في ميزاني وميزان من أشرف عليه وسدَّد ما فيه ومن قام على طباعته وبذلك من أجله وقته.

وللَّه الحمد أولًا وآخرًا، وصلى اللَّه وسلَّم على خير خلقه وأشدِّهم خشية له وأعظمهم طمأنينة بربِّه، محمد بن عبد اللَّه وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد للَّه الذي بنعمته تتمُّ الصالحات!

* * *

الفهارس

فهـرس الآيـات

فهـرس الأحاديث

فهـرس الشعـر

ثبت المصادر والمراجع

الفهرس المفصّل للموضوعات

الفهرس المجمل للموضوعات

فهرس الآيات

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
سورة البقرة		
﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾	٧	٢٢٧
﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾	١٠	٣٤
﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾	١٨	١٣٤
﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾	١٩	٣٣، ٢٣٥، ٣٣٤
﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾	٣٨	٣٨
﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾	٦٠	٨٣
﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾	٦١	٣٠٧
﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾	٧٤	٤١، ٨٣
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾	١٠٤	٣٦
﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾	١٢٥	٢٤٥
﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾	١٢٦	٢٠٤
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾	١٥٥	٣٢، ٣٨
﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾	١٦٦	١٢٣، ٣٦٣
﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾	١٨٢	٣٩

الآيـة	رقمها	الصفحة
﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ﴾	١٩٦	٣٦
﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾	٢١٠	٢٨٣
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾	٢١٤	٣٢
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾	٢١٦	١٥٧
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾	٢٤٣	١٩٢، ٣٣٠
﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾	٢٤٤	١٩٢
﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾	٢٤٨	٣٧، ٢٣٣
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ﴾	٢٦٠	١٠٨
﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾	٢٨٣	٣٦

سورة آل عمران

الآيـة	رقمها	الصفحة
﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾	١٠٦	٢٦٠
﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾	١١١	٣٠٧، ٣١٤، ٣١٥
﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾	١١٢	٣٠٧
﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾	١٢٥	١٠٦
﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾	١٢٦	١٠٥
﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾	١٥٠-١٥١	٢١٦، ٣٣٥، ٣٤٩
﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾	١٥٢	٣١٩

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾	١٥٣-١٥٤	٣٧٤
﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً﴾	١٥٤	٢٢١، ٣٣٧
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾	١٦٩	١٥٩
﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾	١٧٥	٣٤، ٣٨
﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾	١٨١	٣١١
سورة النساء		
﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾	٣	٣٨
﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾	٤١	٢٨٣
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾	٧٧	٤٠، ١٧١، ١٧٦، ٣٣٦، ٣٧٢
﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾	٧٨	١٩٥، ٣٣١
﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا﴾	٨٢	٢٧٤
﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾	٨٣	٣٩
﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى﴾	١٠٢	٥٧
﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾	١٢٨	٣٩
﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾	١٥٧	١٣٢

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
سورة المائدة		
﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	٣٢	١٦٢
﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾	٦٤	٣١٠
﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾	٨٣	٢٤٨، ٣٣٨
﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ﴾	٩٣	٣٩
﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾	١١٩	١٢٤
سورة الأنعام		
﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾	٤٦	٣٢١
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾	٨٢	٣١، ٢٩٨
﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾	١٠٤-١٠٥	٣٢٥
سورة الأعراف		
﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾	٢٧	٢٠٨
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾	٣٤	٣٢
﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾	٥٦	٣٨
﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾	٥٨	٣٢١
﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾	٩٧-٩٩	٣٥٤

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾	٩٩	٣١
﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾	١١٦	٤٢
﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾	١٦٠	٨٤
﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	١٦٨	٢٩١
﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾	٢٠٥	١١١

سورة الأنفال

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾	٢	٤٥، ٣٣٧
﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾	٦	٣٥، ١٦١، ٣٣٦، ٣٧٢
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾	٩	٣٢، ١٠٦، ٣٧٣
﴿وما جعله اللّه إلى بشرى ولتطمئن به﴾	١٠	١٠٥
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾	٩-١١	١٠٦
﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾	١١	٢٢١، ٢٢٤، ٣٥٤، ٣٥٥
﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾	١٢	٤١، ١٢٢، ٢١٦، ٣٣٥، ٣٤٩، ٣٥٤

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾	٢٦	١٩٩، ٣٤٩
﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾	٦٠	٤٢
سورة التوبة		
﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾	١٣	٤٠
﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾	٢٥	٢٧٨، ٣٣٦
﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾	٢٦	٣١، ٢٣٠، ٢٨٢، ٣٣٦، ٣٥٤
﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾	٢٩	٣٠٩
﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	٣٤	١١٢
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا﴾	٣٨	٢٣
﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ﴾	٤٠	٢٣١
﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾	٥٦	٤٣
﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾	٥٦-٥٧	٩٥، ٣٣٢
﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾	٩٣	٢٢٧
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾	١٠٣	٢٤٢
﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾	١١٨	٢٧٩

الآيــة	رقمهـا	الصفحة
سورة يونس		
﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾	٢٦	٧٧
﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾	٥٤	٣٦٥
﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾	٦٤	١٢٣
﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾	٨٣	٣٨
﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾	٨٨	٢٢٨
سورة هود		
﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾	٧٠	١١٠، ٣٤٨
﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾	٧٤	٤٣، ١١١، ٣٤٨
﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾	١٢٠	٢٢٩
سورة يوسف		
﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾	٦٤	٣٧
﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾	١٠٧	٢٦٨
سورة الرعد		
﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾	١٣	٩٣
﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾	١٨	٣٦٥

الآيــة	رقمهـا	الصفحة
﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾	٢٨	٣٨
﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾	٣١	٢٦٩

سورة إبراهيم

الآيــة	رقمهـا	الصفحة
﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾	٢٧	٦٦، ٣٤٢، ٣٥٠
﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾	٣٥	٣٦
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾	٤٢-٤٣	١٧٨، ٢٩٧، ٣٤١
﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾	٤٣	٤٧، ٣٥٧
﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾	٥٠	٢٦٨

سورة الحجر

الآيــة	رقمهـا	الصفحة
﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾	٥٢-٥٣	١١١، ١١٣
﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾	٨٢	٣٦
﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾	٩٧	٢٧٩

سورة النحل

الآيــة	رقمهـا	الصفحة
﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾	١	٢٨٣
﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	٤٥	٣٧
﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾	٥١	٤٢

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾	٧٤	١٧٧
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾	١١٢	٣١، ٢٠٥، ٣٤٩

سورة الإسراء

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾	٩	٧
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾	٣١	٣٣
﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾	٣٦	١٨٠
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾	٤١	٣٢٥
﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾	٤٤	٨٥، ٩٤
﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾	٥٧	٣٨
﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾	٧٤	٦٩
﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾	٨٠	١٣
﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾	٨٨	٥٥، ٣٢٣
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾	٨٩	٣١٩

سورة الكهف

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾	١٤	٢٢٩
﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾	١٧	١٨٤

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾	١٨	٦٨، ٢١٩
﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾	٤٩	٤٧
سورة مريم		
﴿إذ تتلى عليهم آيات الرحمن﴾	٥٨	٣٣٨، ٣٧١
﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾	٦٨	٣٣٩
﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾	٧٢	٨٠، ٣٣٩
﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾	٨٨-٩١	٨٦
سورة طه		
﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾﴾	٩	٢٦٧
﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾	٢٠	٣٧١
﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾	٤٤	١١٤
﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ﴾	٤٥ - ٤٦	١١٤
﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾	٦٧	٢٨، ٤٥
﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾	٧٧	١٧٦
﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ﴾	٩٤	٤١
﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾	١٠٨	٣٦٦

الآيـة	رقمها	الصفحة
سورة الأنبياء		
﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾	١٢	١٩٦
﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾	٤٩	٤٦
﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾	٣٤-٣٥	٣٣٠
﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾	٣٥	٢٩١
﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾	٩٠	٤٢
﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾	٩٧	٢٩٨
﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾	٩٨	٨٠
﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾	١٠٣	٢٩٨
سورة الحج		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾	١-٢	٣٠١، ٣٤٠
﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾	٢	١٦٣
﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾	٣١	٢٠٠
سورة المؤمنون		
﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾	١-٢	٤٨
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾	٥٧-٦١	٤٦، ٣٣٨

الآيـة	رقمها	الصفحة
سورة النور		
﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ﴾	٣٧	٢٩٦
﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾	٥٥	٣٩، ٣١٥
﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾	٥٨	٢٠٩
سورة الفرقان		
﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾	٢٥	٩٠
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ﴾	٣٢	٢٢٩
﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾	٧٣	٣٣٨
سورة الشعراء		
﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾	٢١	٣٨
﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾	٣٢	٢٥٩، ٣٧١
﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾	٥٦	٤٧
سورة النمل		
﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	٨٧	٤٣، ٣٦٠
﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾	٨٩	٣٢، ٣٧، ٥٤، ٢٩٨

الآيـة	رقمهـا	الصفحة

سورة القصص

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾	١٠	١٨٠، ٢٣٠، ٣٤٤
﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾	١٨	٣٧٠
﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾	٣١	٣٣، ٣٧، ٣٤٦، ٣٧٠
﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾	٣٢	٣١، ٢٣٣
﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾	٣١-٣٥	٣٤٥
﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ﴾	٥٧	٢٠٢
﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾	٦٥-٦٦	٣٦٠
﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾	٧٤-٧٥	٣٦١

سورة العنكبوت

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾	٣١-٣٢	١١٢
﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾	٣٣	٣٨، ٢٧٩
﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾	٤٣	١٧٧
﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾	٥٥	٢٨٥
﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾	٦٧	٣٦، ٢٠٢، ٣٥٠

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
سورة الروم		
﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾	٢٨	١٧٣
سورة لقمان		
﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾	٣٢	١٦٦
سورة السجدة		
﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾	١٥	٣٢، ٣٧٢
﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾	١٦-١٨	٧، ٣٥٤
سورة الأحزاب		
﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾	١٠	٣٣، ٣٥٦، ٣٥٧
﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾	١٠-١١	٢٨٢
﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا﴾	١١	٣٣٦، ٣٥٥
﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾	١٦	١٩٨، ٣٣١
﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾	١٩	١٤٩، ١٥٩، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٤٨
﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾	٢٦	٣٤، ٢١٠، ٣٣٥، ٣٧٦

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ﴾	٢٧	٢٦٠
﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	٧٢	٤٧، ٩٢
سورة سبأ		
﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾	٢٣	٤٤، ٣٥٨
﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾	٣٧	٣٧
﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾	٥١	٣٥٩
سورة فاطر		
﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾	٢٨	٤٠
سورة يس		
﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾	٣٩	١٦٦
﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾	٨٢	١٩٤
سورة الصافات		
﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾	٤٨	٣٠٠
﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾	٩٨	٢٨٤
سورة ص		
﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾	٢٢	٤٣

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
سورة الزمر		
﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾	٢٣	١٦، ٦٥، ٢٧٣، ٣٣٨، ٣٥٠
﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾	٣٠	٣٣٠
﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾	٣٦	٣٨
﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ﴾	٤٥	٢٧٨
﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٤٧-٤٨	٣٦٥
﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾	٧١- ٧٤	٣٥١، ٣٦٦
﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾	٧٣-٧٤	٣٥١، ٣٦٧
سورة غافر		
﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾	٧	١٢٢
﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾	٩	٤٠
﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾	١٨	٢٩٣، ٣٥٦
﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾	٣٢-٣٣	١١٦
﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾	٦٤	٢١

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
سورة فصلت		
﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم﴾	٢٥	١٢٢
﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾	٣٠-٣١	١١٩
﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾	٣٩	١٩٤
سورة الشورى		
﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾	٤٥	٣٠٠
سورة الجاثية		
﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾	٢٨	٧٩
سورة محمد		
﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾	١٥	٢٥٩
﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾	١٦	١٥٧
﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾	٢٠	١٥٦، ١٥٩، ٣٣٣
سورة الفتح		
﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾	٤	٣٧، ٢٣١
﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	١٨	٢٣٢
﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾	٢٦	٢٣٢

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾	٢٩	١٠٢
سورة الحجرات		
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾	٣	٢٩٢
﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾	١١	١٧٥
﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾	١٤	٥٧
سورة ق		
﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ﴾	٤٤	١٦٨
سورة الذاريات		
﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾	٢٢	٣١، ٨٩
﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾	٢٤	٢٦٧
سورة الطور		
﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾	١٣	٣٥١
﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾	٢٦-٢٧	١٢٥
سورة القمر		
﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾	٦ -٨	١٦٥
﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾	٧	٣٤٠

الآيـة	رقمها	الصفحة
﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾	٨	٤٧
﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾	١٣	٢٦٢
سورة الرحمن		
﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾	٣٧	٩٠
سورة الواقعة		
﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾	٩٥	١٠٨
سورة الحشر		
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾	٢	٢١٠، ٣٣٥، ٣٥٤، ٣٧٦
﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم﴾	١٣-١٤	٣٣، ٤٢، ٩٩، ٣٣٢
﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾	٢١	٤٨، ٩١
سورة الجمعة		
﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾	٨	١٩٧، ٣٣١
سورة المنافقون		
﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾	٤	٣٣، ١٤٠، ٣٣٤

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
سورة الطلاق		
﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾	١٢	٨٩
سورة القلم		
﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾	٤٣	٤٨، ٣٣٩
سورة المعارج		
﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾	١١-١٤	٧٥، ٣٣٩
﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾	١٩-٢٠	٤٤، ٦٣
﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾	٢٧-٢٨	٤٦
سورة الجن		
﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾	١٢	٧٣
سورة المزمل		
﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾	١٤	٣٤، ٣٣٩
﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا﴾	١٥	٢٥٠
﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾	١٧-١٨	٢٥٠، ٣٤١
﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾	١٨	٢٥٢، ٣٣٩

الآيـة	رقمها	الصفحة
سورة القيامة		
﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾	٦	٢٤١
﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾﴾	٧-٩	٢٣٩، ٢٤١، ٣٥٧، ٣٦٦
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾	٢٢-٢٥	٧٧، ٣٥١
سورة الإنسان		
﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾	١١	٣٦٩
﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾	٢١	٢٠٨
سورة النبأ		
﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ﴾	١٨	١٦٩
سورة النازعات		
﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾	٨	٤٥
﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾﴾	٦-٩	٧٠، ٢٦٦
﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾	٣٤-٣٦	٢٦٣
﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾	٣٥-٣٦	٢٦٥

الآيـة	رقمها	الصفحة
سورة عبس		
﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١﴾	١١	٢٦٦
﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾	٢٤	٢٦٦
﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾	٣٢	٢٦٦
﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣﴾	٣٣-٣٧	٧٢، ٢٦٣، ٣٣٩
﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤﴾	٣٤-٣٧	٧٣، ٢٦٦
﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾	٣٧	٧٤، ١٦٨
﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨﴾	٣٨-٤١	٧٦، ٢٦١، ٢٦٦، ٣٥٠
سورة الانفطار		
﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾	٨	٢١
سورة المطففين		
﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾	١٤	٢٢٧
سورة الغاشية		
﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾	١-٥	٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩
﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨﴾	٨-١٠	٢٦٩

الآيـة	رقمهـا	الصفحة
سورة الفجر		
﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾	٢٢	٢٨٣
﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾	٢٧-٣٠	١٢٣، ٣٤٢
سورة الزلزلة		
﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾	١-٢	٣٦٦
﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾	٦	١٦٩
سورة القارعة		
﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾﴾	١-٥	٢٦٩، ٢٧٠
﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ﴾	٤-٥	١٦٩، ٢٧١، ٣٤٠
سورة التكاثر		
﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾	٥	١٠٨
﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾	٧	١٠٨
سورة قريش		
﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾	٣-٤	٢٧
﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾	٤	٣٤، ٣٩

***

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«أحد جبل يحبُّنا ونحبُّه»	٨٥
«إذا قضى اللَّه الأمر في السماء...»	٢٥٨
«أُعطيتُ خمسًا لم يُعطهنَّ أحدٌ قبلي...»	٢١١
«اللَّهم صلِّ على آل أبي أوفى»	٢٤٣
«إنَّ اللَّه ليملي للظالم...»	١٧٨
«إنَّ المؤمن إذا أذنب ذنبًا...»	٢٢٧
«أي عبَّاس! ناد أصحاب السَّمُرة»	٢٨١
«خمس فواسق يقتلن في الحرم...»	٢٤٧
«ليس الخبر كالمعاينة»	١٠٨
«نحن أحق بالشك من إبراهيم»	١٠٨
«نزلت في عذاب القبر...»	٦٩
«هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر...»	٧٨
«ورجل ذكر اللَّه خاليًا ففاضت عيناه»	٢٤٩

* * *

فهرس الشعر

القافية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
هواء	الوافر	حسان بن ثابت	١	١٧٩
الأشياء	الكامل	المتنبي	١	٧
الدماءِ	الوافر	الخباز البلدي	١	١٣٣
الحشرج	الكامل	زياد بن الأعجم	١	٣٠٩
العصافير	البسيط	حسان بن ثابت	١	١٤٣
منصرم	البسيط	أحمد شوقي	٥	١٧

ثبت المصادر والمراجع[1]

١- آراء علماء النفس في الخوف ومثيراته، د.جمال محمد سعيد عبد الغني: مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٩٦م.
٢- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٨هـ.
٣- الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم د.محمود موسى حمدان: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٤- أثر القرآن الكريم في الأمن النفسي، ناهد الخراشي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣هـ.
٥- أثر النحاة في البحث البلاغي، د.عبد القادر حسين: دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م.
٦- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي وبهامشه تخريج الحافظ العراقي: دار الخير، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ.
٧- أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، د.محمود موسى حمدان: مطبعة الأمانة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٨- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود الحنفي، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٩- أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود: دار المعرفة، بيروت.
١٠- أساليب الاستفهام في القرآن، عبد العليم فوده: المجلس الأعلى لرعاية الفنون، مصر.

(١) ماجاء منها دون تاريخ أو رقم للطبعة، فهو هكذا في الأصل.

١١- أسباب النزول، الواحدي، تدقيق وتخريج عصام الحميدان: مؤسسة الريان، لبنان، ١٤٢٠هـ.
١٢- الاستعارة نشأتها، تطورها، أثرها في الأساليب العربية، د.محمود السيد شيخون: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
١٣- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، علق عليه محمود شاكر: دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
١٤- أسرار التنوع في تشبيهات القرآن الكريم، ملك بخش: دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
١٥- الإسلام وخطر النفاق، د.عبد الحليم حفني: بحث في مجلة الهداية، البحرين، العدد: ١٠٥، ١١٢، ١٤٠٧هـ.
١٦- اسم الفاعل بين الاسمية والفعلية، فاضل الساقي: المطبعة العالمية، القاهرة، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، ١٣٩٠هـ.
١٧- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، عز الدين بن عبد السلام: الدار العامرة، القسطنطينية، ١٣١٣هـ.
١٨- إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني، د.محمود توفيق محمد سعد: مطبعة الأمانة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
١٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، اعتنى به الشيخ صلاح الدين العلايلي: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
٢٠- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، إبراهيم بن عرب شاه، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢١- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن، د. محمد الأمين الخضري: مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٢٢- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية، د.عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

٢٣- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، د.عبد الحميد هنداوي: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٤- الإعجاز الفني في القرآن عمر السلامي: مؤسسات عبد الكريم بن عبد اللَّه، تونس، ١٩٨٠م

٢٥- إعجاز القرآن الكريم، د.فضل عباس، وسناء عباس: دار الفرقان، عمّان، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ.

٢٦- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٣٩٣هـ.

٢٧- إعجاز القرآن، الباقلاني، شرح وتعليق د.محمد عبد المنعم خفاجي: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢٨- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق عصام الدين الصبابطي: دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٩- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٣٠- الإفصاح عما تضمنه الإيضاح من مباحث البيان، أحمد الحجار: دار الاتحاد العربي، مصر.

٣١- الأقصى القريب في علم البيان، التنوخي: مطبعة السعادة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٧هـ

٣٢- الألفاظ، ابن السكيت يعقوب بن إسحاق، تحقيق د.فخر الدين قباوة: مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٣٣- أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، د.عبد الرحمن حبنكة الميداني: دار القلم،

دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.
٣٤- الأمراض النفسية والعقلية، د.عبد الرحمن عيسوي: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م.
٣٥- الإنسان في القرآن الكريم من البداية إلى النهاية، عبد الكريم الخطيب: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.
٣٦- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي وبهامشه حاشية أبي الفضل الكازروني، تحقيق عبد القادر حسونة، إشراف مكتب البحوث والدراسات: دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ.
٣٧- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام الأنصاري، بشرح محمد محيي الدين عبد الحميد (الشرح الكبير): المكتبة العصرية، بيروت.
٣٨- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير وبهامشه نهر الخير على أيسر التفاسير، الشيخ أبوبكر الجزائري: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٣٩- إيضاح الإيضاح، جمال الدين الآقسرائي، دراسة وتحقيق ميلاد القذافي: دار ومكتبة الشعب، مصراتة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
٤٠- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، راجعه وصححه بهيج غزاوي: دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٤١- البحث البلاغي عند ابن تيمية دراسة وتقويمًا، إبراهيم التركي: نادي القصيم الأدبي، بريدة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٤٢- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، وبهامشه تفسير النهر الماد من البحر لأبي حيان نفسه: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.
٤٣- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية تحقيق د.محمد الإسكندراني وزميله: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٤٤- البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق د.أحمد أبو ملحم، ود.علي نجيب عطوي،

وآخرون: دار الريان للتراث.
٤٥- بديع القرآن ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق د.حفني محمد شرف: نهضة مصر للطباعة والنشر.
٤٦- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم: رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
٤٧- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب، تحقيق د.حفني شرف: مكتبة الشباب، مصر، ١٩٦٩م.
٤٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزبادي، تحقيق محمد علي النجار: المكتبة العلمية، بيروت.
٤٩- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن الميداني: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٥٠- البلاغة العربية البيان والبديع، د.طالب الزوبعي وزميله: دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
٥١- البلاغة العربية البيان والبديع، د.وليد قصاب: دار القلم، دبي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٥٢- بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، د.عبد اللّه النقراط: دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٥٣- البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع، د.فضل حسن عباس: دار الفرقان للنشر، عمّان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٤هـ.
٥٤- البلاغة في ثوبها الجديد علم البيان، د.بكري شيخ أمين: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠م.
٥٥- البلاغة، المبرد، تحقيق د.رمضان عبد التواب: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
٥٦- بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

٥٧- البيان في ضوء أساليب القرآن، د.عبد الفتاح لاشين: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

٥٨- البيان في غريب إعراب القرآن، ابن الأنباري، ضبطه بركات هبود: شركة دار الأرقم ابن أبي الأرقم، بيروت، ١٤٢١هـ.

٥٩- البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون: مكتبة الخانجي، مصر.

٦٠- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرحه السيد أحمد صقر: دار التراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ.

٦١- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العكبري، إعداد فريق بيت الأفكار الدولية.

٦٢- التبيان في علم (المعاني والبديع) البيان لشرف الدين الطيبي، تحقيق د.هادي عطية الهلالي: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٦٣- تجريد البناني (بهامش تقرير الإنبابي).

٦٤- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق د.حفني محمد شرف: وزارة الأوقاف، القاهرة، ١٤١٦هـ.

٦٥- التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور: مؤسسة التاريخ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٦٦- تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز الكردي: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٦٧- التخويف من النار والتعريف بدار البوار، ابن رجب الحنبلي، تحقيق إبراهيم رمضان: دار الندوة الجديدة، بيروت.

٦٨- الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد: دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٦٩- تربيتنا الروحية، سعيد حوى: دار الكتب العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

٧٠- التشبيه البياني في نظم القرآن، د. هاشم الديب: دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
٧١- التشبيه دراسة في تطور المصطلح، د. إبراهيم التلب: دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٧٢- التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، واجدة مجيد الأطرقجي: منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق، ١٩٧٨م.
٧٣- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د. محمد أبو موسى: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ.
٧٤- التصوير الشعري رؤية نقدية لبلاغتنا العربية، د. عدنان حسين قاسم: مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٧٥- التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: دار الشروق، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٤٠٨هـ.
٧٦- التضمين في العربية بحث في البلاغة والنحو، د. أحمد حسن حامد: دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، والدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٧٧- التطبيق الصرفي، د. عبده الراجحي: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٧٨- التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية، د. شفيع السيد: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ.
٧٩- التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي: دار عمار، عمَّان، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.
٨٠- التعريفات، علي الجرجاني: مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٠م.
٨١- التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٧٨هـ.
٨٢- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٨٣- تفسير القرآن الكريم (جزء عم)، محمد بن عثيمين: دار الثريا، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.
٨٤- تفسير القرآن الكريم (سورة البقرة)، محمد بن عثيمين: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
٨٥- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب: دار الفكر العربي، القاهرة.
٨٦- التفسير الكبير، الفخر الرازي: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.
٨٧- تقرير الشمس الإنبابي على شرح السعد التفتازاني لتلخيص المفتاح وحاشيته المشهورة بالتجريد: مطبعة السعادة، مصر، ١٣٣٠هـ.
٨٨- التكرير بين المثير والتأثير، د. عز الدين علي السيد: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
٨٩- التلخيص بشرح عبد الرحمن البرقوقي: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٥٠هـ
٩٠- تلخيص البيان في مجازات القرآن، الشريف الرضي، تحقيق وتقديم د. علي محمود مقلد: دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٦م.
٩١- التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري، تحقيق د. علي البواب: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٩٢- التناسب البياني في القرآن دراسة في النظام المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد: مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٦٠م.
٩٣- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد محمد: مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٩٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن السعدي، تحقيق عبد الرحمن ابن معلا اللويحق: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ.

٩٥- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد خلف اللَّه، ود. محمد زغلول سلام: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.
٩٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق د. عبد اللَّه بن عبد المحسن التركي: دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
٩٧- الجانب العاطفي من الإسلام بحث في الخلق والسلوك وتهذيب النفس، محمد الغزالي: الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٩٨- الجانب النفسي من التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، د. إبراهيم الخولي: إصدار الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٩٣م.
٩٩- جدد حياتك، محمد الغزالي: دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
١٠٠- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، تصنيف محمود صافي: دار الرشيد، دمشق، ومؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ.
١٠١- جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف: دار المكتبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
١٠٢- الجمان في تشبيهات القرآن، عبد اللَّه بن ناقيا، تحقيق د. محمود الشيباني: براج وخطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
١٠٣- الجملة العربية والمعنى، د. فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٠٤- جوهر الكنز، نجم الدين بن الأثير الحلبي، تحقيق د. محمد زغلول سلام: منشأة المعارف، الإسكندرية.
١٠٥- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن القيم، تحقيق د. السيد الجميلي: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
١٠٦- حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي (بهامش حاشية القونوي).
١٠٧- حاشية ابن عرفة الدسوقي على مختصر السعد (ضمن شروح التلخيص).

١٠٨- حاشية الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ناصر الدين بن المنيَّر (بهامش الكشاف).

١٠٩- حاشية القونوي عصام الدين الحنفي على تفسير البيضاوي، ومعها حاشية ابن التمجيد، ضبط وتصحيح عبد الله محمود عمر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١١٠- حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي (بهامش أنوار التنزيل).

١١١- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ضبط وتصحيح محمد عبد القادر شاهين: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١١٢- الحيوان، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.

١١٣- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، دراسة وتحقيق د.كوكب دياب: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١١٤- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د.محمد أبو موسى: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢١هـ.

١١٥- الخصائص، ابن جني، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١١٦- درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، ابن تيمية، ضبط وتصحيح عبد اللطيف عبد الرحمن: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١١٧- دراسات جديدة في إعجاز القرآن مناهج تطبيقية في توظيف اللغة، د.عبد العظيم المطعني: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١١٨- دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب: دار الشروق، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١١٩- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة: دار الحديث، القاهرة، ١٣٩٢هـ.

١٢٠- دراسة في البلاغة والشعر، د.محمد أبو موسي: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
١٢١- درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي، تحقيق د.محمد مصطفى آيدين: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٢٢- دروس في علم الصرف، د.أبو أوس إبراهيم الشمسان: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٢٣- دفاع عن البلاغة، أحمد حسن الزيات: مطبعة الرسالة، ١٩٤٥م.
١٢٤- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، علق عليه محمود شاكر: دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.
١٢٥- دلائل النبوة، أبوبكر البيهقي، تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
١٢٦- الدلالة اللغوية عند العرب، د.عبد الكريم مجاهد: دار الضياء.
١٢٧- ديوان أحمد شوقي (الشوقيات)، راجعه وضبطه د.يوسف الشيخ البقاعي: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
١٢٨- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٠هـ.
١٢٩- ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقرقي: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٥٧هـ.
١٣٠- رحلة الإيمان في جسم الإنسان، د.حامد أحمد حامد: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
١٣١- رسالة إلى أهل الثغر، أبو الحسن الأشعري، تحقيق عبد اللّه شاكر الجنيدي: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
١٣٢- رسالة في اسم الفاعل المراد به الاستمرار في جميع الأزمنة، أحمد بن قاسم العبادي، تحقيق ودراسة د. محمد حسن عواد: دار الفرقان، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٣٣- رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد المالقي، تحقيق د.أحمد الخراط: دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ.

١٣٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين الألوسي، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٣٥- روضة الفصاحة، زين الدين الرازي، تحقيق أحمد شعلة: دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

١٣٦- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن القيم، تحقيق د.السيد الجميلي: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٢١هـ.

١٣٧- زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د.هيفاء فدا: دار القاهرة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٣٨- سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل واحد، د.عودة الله القيسي: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٣٩- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تحقيق علي فوده: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

١٤٠- سر صناعة الإعراب، ابن جني، تحقيق د.حسن هنداوي: دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

١٤١- السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر، د.عبد المجيد سيد أحمد وآخرون: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

١٤٢- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي: دار إحياء التراث العربية، مصر.

١٤٣- سورة الرعد دراسة أدبية ولغوية وفكرية، عبد الرحمن الميداني: شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

١٤٤- سيكلوجية الخوف، د. يوسف ميخائيل أسعد: نهضة مصر، الفجالة.

١٤٥- شرح ابن عقيل ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل، تحقيق محمد

محيي الدين عبد الحميد: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية.
١٤٦- شرح التلخيص، أكمل الدين البابرتي، تحقيق د. محمد صوفية: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
١٤٧- شرح المفصل، ابن يعيش: عالم الكتب، بيروت.
١٤٨- شرح ثلاثة الأصول، محمد بن عثيمين، إعداد فهد السليمان: دار الثريا للنشر، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.
١٤٩- شروح التلخيص (المختصرللتفتازاني، ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح للسبكي، وبالهامش الإيضاح للقزويني، وحاشية الدسوقي): دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥٠- الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر: مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.
١٥١- صحيح أسباب النزول، إبراهيم العلي: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
١٥٢- صحيح البخاري (ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة)، إشراف صالح آل الشيخ: دار السلام، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ.
١٥٣- صحيح مسلم (ضمن موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة).
١٥٤- صفاء الكلمة، د. عبد الفتاح لاشين: دار المريخ، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.
١٥٥- الصور البيانية بين النظرية والتطبيق، د. حفني شرف: دار نهضة مصر، الفجالة، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ.
١٥٦- الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجًا وتطبيقًا، د. أحمد علي دهمان: طلاس، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
١٥٧- الصورة الفنية في المثل القرآني، د. محمد حسين الصغير: دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.

١٥٨- طب القلوب، ابن قيم الجوزية، جمع وترتيب صالح الشامي: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٥٩- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحي بن حمزة العلوي، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
١٦٠- ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، د.عبد الرحمن حبنكة الميداني: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
١٦١- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، اعتنى به وعلق عليه خالد السبت: دار ابن القيم، الدمام، ودار ابن عفان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
١٦٢- عروس الأفراح، البهاء السبكي (ضمن شروح التلخيص).
١٦٣- علم أساليب البيان، د.غازي يموت: دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م.
١٦٤- علم الاضطرابات السلوكية، د.ميخائيل أسعد: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ
١٦٥- العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق د.النبوي شعلان: مطبعة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى،١٤٢٠هـ.
١٦٦- عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، القاضي شهاب الدين أحمد الخفاجي، ضبط وتخريج عبد الرزاق المهدي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.
١٦٧- عيار الشعر، محمد بن طباطبا العلوي، تحقيق: د.محمد زغلول سلام: منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤م.
١٦٨- غريب القرآن، أبوبكر السجستاني: دار قتيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٦٩- الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي: المكتب الإسلامي، بيروت، دار عمَّار، عمَّان، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.
١٧٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحافظ ابن حجر، تحقيق محب الدين الخطيب: المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
١٧١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني: دار المغني، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
١٧٢- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان العجيلي الشهير بالجمل: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.
١٧٣- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، د.محمد الشايع: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
١٧٤- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، حققه محمد إبراهيم سليم: دار العلم والثقافة، القاهرة.
١٧٥- فقه اللغة، أبو منصور الثعالبي، تحقيق د.جمال طلبة: دار الكتب العلمية، بيروت.
١٧٦- فن التشبيه، علي الجندي: القاهرة، مكتبة الأنجلو، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.
١٧٧- فنون بلاغية البيان والبديع، د. أحمد مطلوب: دار البحوث العلمية، الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ.
١٧٨- في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د.وليد قصاب: دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٧٩- في إعجاز القرآن دراسة تحليلية لسورة الأنفال المحتوى والبناء، د.أحمد البرزة: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
١٨٠- في البلاغة والأداء الفني، د.عباس بيومي عجلان: دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٦م.
١٨١- في ظلال القرآن، سيد قطب: الطبعة السادسة.

١٨٢- فيض الفتاح على نور الأقاح، عبد اللّه العلوي الشنقيطي، بإشراف محمد الأمين بيب: الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

١٨٣- القاموس المحيط، مجد الدين الفيروزبادي، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤١٩هـ.

١٨٤- قبل الكارثة نذير ونفير، د.عبد العزيز مصطفى كامل: المنتدى الإسلامي، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١٨٥- القرآن والصورة البيانية، د.عبد القادر حسين: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ

١٨٦- القصة في القرآن الكريم مقاصد الدين وقيم الفن، محمد قطب: دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١٨٧- قضية الفصل والوصل بين المفردات عند البلاغيين، د.محمد الصامل: بحث في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد٤٥، ١٤٢٥هـ.

١٨٨- قطف الأزهار، جلال الدين السيوطي، تحقيق د.أحمد الحمادي: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٨٩- القلب ووظائفه في الكتاب والسنة، سلمان اليماني: دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٩٠- القيامة بين العلم والقرآن، د.داود السعدي: دار الحرف العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

١٩١- الكامل في اللغة والأدب، المبرد: مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٩٢- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية.

١٩٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، وبذيله الانتصاف لابن المنيِّر: دار المعرفة، بيروت.
١٩٤- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق د. النبوي شعلان: الزهراء للإعلام العربي، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
١٩٥- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
١٩٦- لباب البيان د. محمد حسن شرشر: دار الكتاب الجامعي، القاهرة، الطبعة الثانية.
١٩٧- لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي، تحقيق خالد عبد الفتاح شبل: مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٩٨- لسان العرب، ابن منظور: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
١٩٩- لطائف قرآنية، د. صلاح الخالدي: دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.
٢٠٠- لغة المنافقين في القرآن دراسة تحليلية لآيات النفاق من الوجهة اللغوية والبلاغية، د. عبد الفتاح لاشين: دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
٢٠١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٦هـ.
٢٠٢- مجاز القرآن خصائصه الفنية وبلاغته العربية، د. محمد حسين الصغير: دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
٢٠٣- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، علق عليه د. محمد سركين: مكتبة الخانجي، القاهرة.
٢٠٤- المجاز المرسل والكناية الأبعاد المعرفية والجمالية، د. يوسف أبو العدوس: الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٢٠٥- المجاز في اللغة والقرآن بين مجوزيه ومانعيه، د. عبد العظيم المطعني: مطبعة حسان، القاهرة.
٢٠٦- مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
٢٠٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٢٠٨- المختصر (شرح التفتازاني على التلخيص)، السعد التفتازاني (ضمن شروح التلخيص).
٢٠٩- مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"، ابن قيم الجوزية، تحقيق عماد عامر: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ.
٢١٠- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد اللّٰه بن أحمد النسفي، اعتنى به عبد المجيد طعمة الحلبي: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٢١١- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، تحقيق فؤاد علي منصور: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.
٢١٢- المساعد على تسهيل الفوائد، ابن عقيل، تحقيق وتعليق د. محمد كامل بركات: دار الفكر، دمشق، ١٤٠٠هـ.
٢١٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل، شرح أحمد شاكر: دار المعارف، مصر.
٢١٤- المشاهد في القرآن الكريم دراسة تحليلية وصفية، د. حامد صادق قنيبي: مكتبة المنار، الأردن.
٢١٥- مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب: دار الشروق، القاهرة، ١٤١٥هـ.
٢١٦- المصباح في المعاني والبيان والبديع، بدر الدين بن مالك، تحقيق د. حسني عبد الجليل يوسف: مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٩م.
٢١٧- مطابقة أسماء اللّٰه الحسنى مقتضى المقام في القرآن الكريم (الأسماء المقترنة)، د. نجلاء كردي: جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٢١٨- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، سعد الدين التفتازاني، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢١٩- معالم التنزيل، أبو الحسين البغوي: دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٢٢٠- المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، د.فتحي عامر: منشأة المعارف، الإسكندرية.

٢٢١- معاني الحروف، أبو الحسن الرماني، تحقيق د.عبد الفتاح شلبي: دار الشروق، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٢٢٢- معاني القرآن، أبو زكريا يحي الفراء: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.

٢٢٣- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د.عبد الفتاح لاشين: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٩هـ.

٢٢٤- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم العباسي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، تصوير عالم الكتب، بيروت.

٢٢٥- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ضبطه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٢٦- المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة: دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٩٠هـ.

٢٢٧- معجم البلاغة العربية، د.بدوي طبانة: دار العلوم، الرياض، ١٤٠٢هـ.

٢٢٨- المعجم الفلسفي، د.جميل صليبا: دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

٢٢٩- معجم المصطلحات البلاغية، د.أحمد مطلوب: مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٢٣٠- معجم مفردات الإبدال والإعلال في القرآن الكريم، د.أحمد الخراط: دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٣١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

٢٣٢- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، عني به: د.محمد عوض مرعب، فاطمة أصلان: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٣٣- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٢م.

٢٣٤- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف السكاكي، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٣٥- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد خليل عيتاني: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٣٦- مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة، د.فاطمة حمدان: مطابع جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ.

٢٣٧- المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير، د.حواس بري: دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٢٣٨- مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن، جمال الدين ابن النقيب، تحقيق د.زكريا سعيد علي: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٣٩- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، ابن الزبير الأندلسي الغرناطي، تحقيق د.محمود كامل أحمد: دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢٤٠- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، د.محمد أبو موسى: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.

٢٤١- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د.محمد الأمين الخضري: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٤٢- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، د. محمد الأمين الخضري: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٢٤٣- من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم دراسة في ظاهرة الترادف اللفظي، د. السيد خضر: دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢٤٤- من بدائع النظم القرآني، د. السيد عبد الفتاح حجاب: دار الاعتصام.
٢٤٥- من بلاغة القرآن، أحمد بدوي: مكتبة نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة.
٢٤٦- من خصائص النبوة، الحسيني مصطفى الريس: بحث في مجلة الهداية، البحرين، العدد ١١٢، ١٤٠٧هـ.
٢٤٧- من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب اللّه، د. محمد البوطي: مكتبة الفارابي، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٣٩٢هـ.
٢٤٨- من علم النفس القرآني، د. عدنان الشريف: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٢٤٩- من لطائف التفسير، أحمد فرح عقيلان: دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
٢٥٠- من متشابه القرآن الكريم في ضوء البلاغة العربية، د. إبراهيم الجعلي: مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٢٥١- مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، تحقيق أحمد بن علي: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ.
٢٥٢- منهاج التلاوة، د. راوية غرابة: دار العلم، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.
٢٥٣- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب: دار القلم، القاهرة، الطبعة الثانية.
٢٥٤- مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص).
٢٥٥- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د. محمد دراز: مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧٩هـ.
٢٥٦- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تصحيح ومراجعة على الضباع.

٢٥٧- نظرات تحليلية في القصة القرآنية، محمد المجذوب: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.

٢٥٨- نظرات لغوية في القرآن الكريم، د. صالح العايد: دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٥٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، تحقيق عبد الرزاق المهدي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٦٠- النظم القرآني في آيات الجهاد، د. ناصر الخنين: مكتبة التوبة ، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٢٦١- النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٩م

٢٦٢- نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٢٦٣- النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

٢٦٤- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق د. بكري شيخ أمين: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٢٦٥- نهر الخير على أيسر التفاسير، أبوبكر الجزائري (بهامش أيسر التفاسير).

٢٦٦- النهر الماد من البحرالمحيط، أبو حيان (بهامش البحر المحيط).

٢٦٧- النهج الأسمى في شرح أسماء اللّه الحسنى، محمد النجدي: مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الخامسة، ١٤٢٣هـ.

٢٦٨- الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن قيم الجوزية: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ.

٢٦٩- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي الجرجاني، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي: دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثالثة.

المخطوطات والرسائل العلمية:

٢٧٠- الاختلاف المذهبي وأثره في التفسير، د.عبد العزيز مصطفى كامل: رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العربية والإسلامية، جامعة الأزهر، ١٤٢٣هـ.

٢٧١- إصلاح الإيضاح استدراكات ومناقشات لمسائل في كتاب الإيضاح للخطيب القزويني، د.عبد المحسن العسكر (بحث مخطوط).

٢٧٢- الطراز، تحقيق د.عبد المحسن العسكر: رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٠- ١٤٢١هـ.

٢٧٣- مجموع فتاوى الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك (مخطوط بحوزة د.عبد المحسن العسكر).

* * *

الفهرس المفصّل للموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد	١٩
المبحث الأول: مفهوم التصوير البياني	٢١
معنى التصوير	٢١
التصوير عند الأوائل	٢١
تعريف الصورة اصطلاحًا	٢٢
بلاغة التصوير في القرآن	٢٢
طرق التصوير في القرآن	٢٣
التصوير بالحقيقة	٢٣
التصوير البياني	٢٤
التصوير بطرق البديع	٢٥
المبحث الثاني: مفهوم الأمن والخوف	٢٧
الأمن	٢٧
معنى الأمن لغة واصطلاحًا	٢٧
علاقة الأمن بالإيمان	٢٧
الخوف	٢٨
معنى الخوف لغة واصطلاحًا	٢٨
علاقة الخوف بالضلال	٢٨

الخوف من اللّه ٢٩
المبحث الثالث: آيات الأمن والخوف (حصرها وتحديد مواقعها) ٣١
أنواع الأمن في القرآن ٣١
منهج الإسلام في تحقيق الأمن ٣١
أنواع الخوف ٣٢
أفانين التعبير القرآني عن الأمن والخوف ٣٤
الترادف في اللغة والقرآن ٣٥
لمحة موجزة عن قضية الترادف ٣٥
حصرمواضع مادة (أمن) في القرآن ٣٦
مرادفات الأمن ٣٦
السكينة ٣٧
الطمأنينة ٣٧
مواضع ورود مادة (خوف) في القرآن ٣٨
مرادفات الخوف ٣٩
التقوى ٣٩
الخشية ٤٠
الرعب ٤١
الرهبة ٤٢
الروع ٤٣
الفرق ٤٣
الفزع ٤٣
الهلع ٤٤

الوجس ٤٥
الوجف ٤٥
الوجل ٤٥
مفردات ذات صلة وثيقة بالخوف ٤٦
الإشفاق ٤٦
الإهطاع ٤٧
الحذر ٤٧
الخشوع ٤٨
الفصل الأول: التصوير بالحقيقة **٥١**
توطئة **٥٣**
قيمة التعبير بالحقيقة ٥٣
موقف العلماء من الحقيقة والمجاز في اللغة والقرآن ٥٣
معنى الحقيقة لغة واصطلاحًا ٥٤
مميزات التصوير بالحقيقة في القرآن ٥٥
طريقتا التصوير بالحقيقة ٥٥
اللفظ المصور ٥٦
١- بمعناه ٥٦
٢- بجرسه وإيحائه ٥٧
الجملة المصورة ٥٩
مفهوم التصوير بالحقيقة ٦٢
المبحث الأول: اللفظ المصور **٦٣**
سورة المعارج (١٩ - ٢٢) ٦٣

وجه البلاغة في انتقاء لفظي ﴿هَلُوعًا﴾ و﴿جَزُوعًا﴾ ٦٣
انتقاء لفظ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ دون (المرء) ٦٤
دلالة لفظ ﴿خَلَقَ﴾ ٦٤
سورة الأنفال (٢) ٦٤
معنى ذكر اللَّه في الآية واختلافه عن معناه في آية الزمر (٢٣) ٦٤
وجه البلاغة في إسناد الوجل إلى القلوب مع أنه من أعمالها ٦٥
سر التعبير بالماضي ﴿وَجِلَتْ﴾ ﴿زَادَتْهُمْ﴾ ٦٦
سر البناء للمفعول في ﴿ذُكِرَ﴾ ﴿تُلِيَتْ﴾ ٦٦
سورة إبراهيم (٢٧) ٦٦
أثر التعبير بالمضعف ﴿ يُثَبِّتُ﴾ وإسناده إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ ٦٧
سر التقييد ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ ٦٧
قيمة تغاير التعبير بين الاسم والفعل ﴿ يُثَبِّتُ﴾ ﴿ٱلثَّابِتِ﴾ ٦٧
وجه البلاغة في التعبير بـ ﴿يُضِلُّ﴾ وإسناده إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ ٦٨
سبب نزول قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ ٦٨
سورة النازعات (٦-٩) ٧٠
الأداء الصوتي البديع في لفظي ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ ٧٠
أثر التعبير باسم الفاعل في التصوير ٧١
سورة عبس (٣٣- ٣٧) ٧٢
بلاغة التعبير بلفظ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ ٧٢
قيمة التعبير بـ (إذا) مع الماضي في أحداث القيامة ٧٢
الفرق بين الفرار والهرب ٧٣
إيثار التعبير بـ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ على (الإنسان) ٧٣

تعداد الأقارب والسر في ترتيبهم على ذاك النسق ٧٣
بلاغة تصوير الهول في الآية ٧٣
إيثارالتعبير بـ ﴿وَصَاحِبَتِهِۦ﴾دون (زوجه) أو (امرأته) ٧٤
الفرق بين الحركة الشعورية في آيات عبس (٣٣-٣٧)، والمعارج (١١-١٤) ٧٥
سر مجيء المفردات على ذلك الترتيب ٧٥
سورة عبس (٣٨- ٤١) ٧٦
البلاغة في تنكير لفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ ٧٦
وفاء الألفاظ في التعبير عن معانيها في وصف تباين الموقفين ٧٦
سورة القيامة (٢٢- ٢٥) ٧٧
الأمن الذي يصوره لفظ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ ٧٧
أثر تلاؤم الفواصل في التصوير ٧٧
بلاغة التصوير في لفظي ﴿بَاسِرَةٌ﴾ و ﴿فَاقِرَةٌ﴾ ٧٨
سورة الجاثية (٢٨) ٧٩
تصوير لفظ ﴿جَاثِيَةً﴾ لهول الحساب ٨٠
سورة مريم (٧٢) ٨٠
أقوال المفسرين في معنى ﴿وإن منكم إلى واردها﴾ ٨٠
بلاغة التعبير بالفعل ﴿نُنَجِّى﴾ على اختلاف أدائه عند القراء ٨١
البلاغة في عبارة ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ ٨١
سر إيثار صيغة ﴿جِثِيًّا﴾ على سائر صيغ الجموع ٨٢
وجوه الأداء في كلمة ﴿جِثِيًّا﴾ ٨٢
سورة البقرة (٧٤) ٨٣

إيثار تشبيه قلوب الكفرة بالحجارة دون الحديد أو الخشب ٨٣
دقة تصوير حال الخشية في انتقاء كل من ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ ﴿يَشَّقَّقُ﴾ ﴿يَهْبِطُ﴾ . ٨٤
سر تأخر قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ في النظم . ٨٥
أقوال المفسرين في إضافة الخشية إلى الحجارة والراجح منها ٨٥
ترتيب ألفاظ الآية ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ ﴿يَشَّقَّقُ﴾ ﴿يَهْبِطُ﴾على هذا النسق البديع ٨٥
سر التعبير بلفظ الخشية في هذا المقام ٨٦
سورة مريم (٨٨-٩١) ٨٦
دقة التصوير في لفظ﴿إِدًّا﴾ والفرق بين الإدّ والعجَب ٨٧
بلاغة الالتفات بين الفعلين ﴿وَقَالُوا۟﴾ ﴿جِئْتُمْ﴾ ٨٧
إسهام فعل المقاربة ﴿تَكَادُ﴾ في تصوير جلال الخطب ٨٧
سر تنويع أزمنة الأفعال في الآية ٨٨
سر جمع لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في القرآن وإفراد لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ ٨٩
سر استعمال ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ مع السموات و﴿وَتَنشَقُّ﴾مع الأرض ٨٩
تآزر الألفاظ والفواصل في تفظيع الموقف ٩٠
بلاغة انتقاء اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وتكراره في سياق الآية ٩١
سورة الحشر (٢١) ٩١
تباين المذاهب حول الخشوع والخشية فيما لا يعقل ٩٢
سورة الأحزاب (٧٢) ٩٢
سر التعبير بلفظ الإشفاق ٩٣
سورة الرعد (١٣) ٩٣
المبحث الثاني: الجملة المصورة ٩٥
سورة التوبة (٥٦- ٥٧) ٩٥

جمال الأداء في جملة: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ ٩٥
بلاغة الاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ٩٥
براعة التصوير في جملة الاستئناف ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ ٩٦
جمال الترتيب بين المعطوفات ﴿مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ ٩٧
أثر تنويع الزمن بين الشرط وجوابه ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ ﴿لَّوَلَّوْا۟﴾. ٩٨
ما أضافته جملة ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ **إلى الصورة** ٩٨
سورة الحشر (١٣- ١٤) ٩٩
قيمة التركيب والإيجاز البديع في قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ ١٠٠
سر تقييد الرهبة بالجار والمجرور: ﴿فِى صُدُورِهِم﴾ ١٠٠
جمال التصوير في جملة: ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ ١٠١
أثر الاستئناف بجملة: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ على الصورة ١٠١
سر إيثار لفظ ﴿شَتَّىٰ﴾ على (متفرقة) ١٠٢
سر التشابه والاختلاف بين فاصلتي الآيتين ١٠٤
سورة آل عمران (١٢٦)، والأنفال (١٠) ١٠٥
سر التعبير بأقوى أدوات القصر ١٠٥
نكت اختلاف الأداء بين الآيتين ١٠٦
السر البلاغي للقصر في قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ١٠٧
سورة البقرة (٢٦٠) ١٠٨
تفسير سؤال الخليل عليه السلام ١٠٨
وقفة مع بلاغة الآية ودقة نظمها ١٠٩
سر إيثار التعبير بـ ﴿رَبِّ﴾ في هذا المقام ١٠٩
بلاغة الاستفهام والجواب في الآية ١٠٩

سورة هود (٧٠) ١١٠
دقة التعبير بـ﴿نَكِرَهُمْ﴾ ١١٠
سر التعبير بـ (الوجس والخيفة) وارتباطهما في القرآن ١١٠
بلاغة الالتفات من الخبر إلى الإنشاء ﴿لَا تَخَفْ﴾ ١١١
سورة هود (٧٤) ١١١
دقة التعبير بـ ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ في السياق ١١١
بلاغة التعبير بالماضي المجرد ﴿ذَهَبَ﴾ و ﴿جَآءَتْهُ﴾في تصوير الأمن ١١٢
دلالة ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الآية، وأوجه استعمالها في القرآن ١١٢
سورة الحجر (٥٢- ٥٣) ١١٣
تنوع عرض القصة في سياق السورة ١١٣
جمال الطمأنة والتسكين في أسلوب الجواب ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ ١١٤
سورة طه (٤٥- ٤٦) ١١٤
مزيد الطمأنة في قول اللّه تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ ١١٥
سورة غافر (٣٢- ٣٣) ١١٦
سر النداء بوصف القومية ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ١١٧
بلاغة التعبير بـ ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ في هذا المقام ١١٧
اللطائف التي يحملها التعبير بـ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ ١١٨
ظلال الهول التي تبسطها جملة ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ﴾ ١١٩
سورة فصلت (٣٠- ٣١) ١١٩
آفاق الأمن والاطمئنان التي تصورها الجمل ١٢٠
علة انتفاء الخوف والحزن عن المؤمنين ١٢٠
جمال ترتيب ألفاظ (الخوف والحزن والبشرى) في الآية ١٢١

قول أهل العلم في مواطن البشرى ١٢١
تفسير ابن القيم ولاية الملائكة للمؤمنين ١٢٢
البون الشاسع بين البررة وأوليائهم والكفرة وقرنائهم ١٢٢
سورة الفجر (٢٧- ٣٠) ١٢٣
نظم الآية وما يصوره من أمن ١٢٣
وجه البلاغة في عبارة ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ ١٢٤
أقوال المفسرين في معنى ﴿ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ١٢٤
سر اصطفاء لفظ ﴿رَبِّكِ﴾ وإضافته إلى ضمير المخاطبة ١٢٤
نكتة الجمع بين صفتي ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ١٢٤
جمال العطف بالفاء في: ﴿فَٱدْخُلِى﴾ ١٢٤
سر الإضافة في ﴿عِبَٰدِى﴾ و ﴿جنتي﴾ ١٢٥
سر تعدية الفعل ﴿فَٱدْخُلِى﴾ أولًا بـ ﴿فِى﴾، وثانيًا بغيرها ١٢٥
سورة الطور (٢٦- ٢٧) ١٢٥
إشارات تصوير الخوف في جملة ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ . ١٢٦
النكات البديعة في تصوير الأمن في عبارة ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ١٢٦
إبداع القرآن في التصوير بالحقيقة، ومنافسته طرق البيان ١٢٧
الفصل الثاني: التصوير بالتشبيه **١٣١**
توطئة **١٣١**
القيمة البلاغية للتشبيه ١٣١
عناية العلماء بالتشبيه ١٣٢
تعريف التشبيه لغة واصطلاحًا ١٣٢
أهمية مراعاة الجانب النفسي في التشبيه ١٣٣

أركان التشبيه ١٣٣
أداة التشبيه، وقيمتها ١٣٤
أشهر تقسيمات التشبيه بالنظر إلى وجه الشبه ١٣٤
١- الحسي والمعنوي ١٣٤
٢- أن يكون وجه الشبه واحدًا أو غير واحد ١٣٥
٣- المفصل والمجمل ١٣٧
٤- القريب والبعيد ١٣٧
سمات التشبيه القرآني ١٣٨
المبحث الأول: التشبيه الحسي ١٤٠
سورة المنافقون (٤) ١٤٠
النكات البلاغية في التشبيه الحسي ١٤١
البلاغة في تنوع الشرط تارة بـ﴿إذا﴾، وأخرى بـ ﴿إِنْ﴾ ١٤١
سر تخصيص الأجسام بالإعجاب ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ دون (يُعجبونك) ١٤٢
سر إيثار لفظ ﴿أَجْسَامُهُمْ﴾ على (أجسادهم) ١٤٢
الكلام في تأويل الزركشي للأجسام في الآية ١٤٣
بلاغة التضمين في قوله: ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ ١٤٣
ما أضافه تعليق القول بالسماع ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ ١٤٣
سر إيثار (كأن) على (الكاف) ١٤٤
سر انتقاء (الخشب) دون ما سواها مما لا يعقل ١٤٤
ما أضافه تقييدها بـ ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ ١٤٥
لطائف أسهمت في تحقيق الغرض البلاغي من التشبيه ١٤٦
تحليل الكناية الواصفة في ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ١٤٧

سر إيثار (الحِسْبان) على (الظنّ) و(الشكّ) ١٤٧
دلالة ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ على شدة الجبن ١٤٨
سورة الأحزاب (١٩) ١٤٩
براعة الاستعارة في الفعل ﴿جَآءَ﴾ ١٤٩
عناصر الصورة التشبيهية الحسية في الآية ١٤٩
سر انتفاء لفظ ﴿تَدُورُ﴾ دون (تتقلب) ١٥٠
وجها المجاز في عبارة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ ١٥٠
الإعجاز العلمي في دوران العين حال الخوف ١٥١
إيثار التعبير بالموصولية عن المشبه به ﴿كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ﴾ ١٥١
وجه الدلالة على الخوف في الفعل ﴿يُغشى﴾ ١٥٢
وقفة مع براعة الألفاظ والتراكيب في تصوير مواقف المنافقين حال
الأمن ١٥٣
قيمة العدول عن خطاب الواحد إلى الجمع في ﴿سَلَقُوكُم﴾ ١٥٤
وجه البلاغة في وصف الألسنة بـ ﴿حِدَادٍ﴾ ١٥٥
سورة محمد (٢٠) ١٥٦
الصورة الحسية التي فضحت جبن المنافقين ١٥٦
جولة في دلالات الألفاظ وعناصر الصورة ١٥٧
سر التعبير عن المنافقين بالموصول ١٥٧
وجه البلاغة في وصف النفاق بالمرض ١٥٧
سر براعة تشبيه المنافقين بالمغشي عليه من الموت ١٥٨
موازنة بين الصورتين في آية الأحزاب (١٩)، وآية محمد (٢٠) ... ١٥٩
سر اختلاف الصورتين ١٦٠

سورة الأنفال (٦) ١٦١
الإيحاءات المعنوية في قول اللّه تعالى: ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ ١٦٢
سورة الحج (٢) ١٦٣
وقفة مع النظم وعناصر الصورة ١٦٣
دقة تصوير الهول في عبارة: ﴿الناس سكرى﴾ ١٦٤
أثر الاستدراك: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾في تهويل الموقف ١٦٤
سورة القمر (٦-٨) ١٦٥
دلالات الألفاظ والتراكيب على الهول ١٦٥
السر في إيثار اسم الفاعل المجموع ﴿خُشَّعًا﴾ وتقديمه على عامله ... ١٦٥
الفرق بين (الجدث) و(القبر) ١٦٦
وقفة مع غرابة إطلاق مصطلح التشبيهات العقم على تشبيه قرآني .. ١٦٦
الهيئة الحسية التي صورها التشبيه: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ ١٦٨
السر في لإيثار أداة التشبيه (كأن) دون ما سواها ١٦٨
أثر لفظ ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ في تصعيد معنى التوتر والخوف ١٦٩
سورة القارعة (٤) ١٦٩
الفرق بين التشبيهين في آيتي القمر (٦-٨) وآية القارعة (٤) ١٦٩
المبحث الثاني: التشبيه المعنوي ١٧١
سورة النساء (٧٧) ١٧١
وقفة مع تناغم السياق في نقل الصورة ١٧١
سراصطفاء لفظ ﴿ٱلْقِتَالُ﴾ في السياق دون (الجهاد) ١٧٢
أثر الربط بـ ﴿إذا﴾ الفجائية على المعنى ١٧٢
براعة التشبيه المعنوي في إبراز الصورة والتعجيب منها ١٧٢

دلالة ﴿أَوْ﴾ على (الإبهام)، والفرق بينه وبين (الشك) ١٧٣
سورة الروم (٢٨) ١٧٣
وقفة مع بلاغة نظم الصورة ١٧٤
نكتة استعمال لفظ ﴿ضَرَبَ﴾ مع المثل ١٧٤
قيمة الأسلوب الإنشائي ﴿هَل لَّكُم﴾ في عرض المثل ١٧٤
بلاغة الالتفات إلى التكلم بضمير العظمة ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ١٧٥
سر اختلاف التعجيب بين الخوف في هذا المثل وسابقه في النساء (٧٧) ١٧٦
براعة المثل القرآني في الدلالة على بطلان الشرك ١٧٦
سورة إبراهيم (٤٣) ١٧٨
وجه الشبه بين الأفئدة والهواء ١٧٨
سر اصطفاء (الأفئدة) دون (القلوب) في الآية ١٧٩
الفصل الثالث: التصوير بالمجاز **١٨٣**
توطئة **١٨٣**
بلاغة المجاز ١٨٣
معنى المجاز لغة واصطلاحًا ١٨٣
الدراسات التي قامت حول مجاز القرآن ١٨٤
مناقشة قضية الأبلغية بين المجاز والحقيقة ١٨٥
جهود عبد القاهر في تحديد معالم المجاز ١٨٦
أقسام المجاز: ١٨٦
المجاز اللغوي ١٨٦
١- الاستعارة ١٨٧
معناها لغة واصطلاحًا ١٨٧

علاقتها بالتشبيه ١٨٧
قيمتها ١٨٨
تميز الاستعارة القرآنية وسماتها ١٨٨
٢- المجاز المرسل ١٨٩
معناه لغة واصطلاحًا ١٨٩
قيمته ١٩٠
علاقات المجاز المرسل بين التذوق والتقعيد ١٩٠
مميزات المجاز القرآني ١٩٠
المجاز العقلي ١٩٠
تعريفه ١٩١
قيمته ١٩١
المبحث الأول: المجاز اللغوي ١٩٢
* الاستعارة ١٩٢
سورة البقرة (٢٤٣) ١٩٢
وقفة مع الجمال الفني وما يحمله من إيحاءات تربوية ١٩٢
سر وقوع الدليل قبل المستدل عليه ١٩٣
نكتة التعبير بالموصول ١٩٣
بلاغة التعبير بالفعل المجرّد ﴿خَرَجُواْ﴾، وتعليقه بـ ﴿دِيَـٰرِهِمْ﴾ ١٩٣
أثر الجملة الحالية ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ على المعنى ١٩٣
براعة تصويرالانتقال من مشهد الحياة إلى مشهد الموت المباغِت .. ١٩٣
قيمة إيجاز الحذف في القصص القرآني ١٩٤
أثر تباين (الفاء) و﴿ثُمَّ﴾على السياق ١٩٤

سورة النساء (٧٨) ١٩٥
وقفة مع بلاغة الصورة ١٩٥
قيمة الإطناب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ١٩٥
سورة الأنبياء (١٢) ١٩٦
تآزر الألفاظ في نقل الصورة ١٩٦
بلاغة الاستعارة في ﴿أَحَسُّواْ﴾ ١٩٦
سر انتقاء لفظ (بأس) وإضافته إلى ضمير العظمة ١٩٦
بلاغة التعبير في جملة: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ١٩٧
سورة الجمعة (٨) ١٩٧
جمال نظم الاستعارة ١٩٨
نظرة عامة في الاستعارات التي دلت على حقيقة الموت ١٩٨
سورة الأنفال (٢٦) ١٩٩
وقفة مع بلاغة النظم في تصوير الأمن والخوف ١٩٩
بلاغة الاستعارة في كلمة ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ ٢٠٠
سر إيثار التعبير بالمضارع ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ ٢٠٠
البلاغة في انتقاء الفاء العاطفة في السياق ٢٠٠
جمال التعبير عن حال الأمن بالماضي ﴿فآواكم وأيدكم﴾ ٢٠١
أثر اجتماع حالتي الأمن والخوف في سياق واحد ٢٠١
سر التذييل بعبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٢٠٢
سورة القصص (٥٧)، والعنكبوت (٦٧) ٢٠٢
مواضع التشابه في الآيتين ٢٠٣
مواضع الاختلاف فيهما ٢٠٣

سورة النحل (١١٢) ٢٠٥
وقفة مع بلاغة النظم ٢٠٥
تحليل الاستعارة التمثيلية في الآية وإيحاءاتها ٢٠٥
سر تنكير ﴿قريةً﴾ ٢٠٦
بلاغة المجاز العقلي في وصف القرية ٢٠٦
براعة الانتقال من حال الأمن إلى الخوف بالفاء ٢٠٦
كشف سر النقمة المباغتة على أهل القرية ٢٠٦
براعة السبك في ألفاظ﴿ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ ٢٠٦
جمال الأداء في اسم الجلالة، وبلاغة تكراره ٢٠٧
تحليل الصورة في عبارة ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ ٢٠٧
سر اصطفاء الذوق على ما سواه من الحواس ٢٠٨
السر البلاغي في اصطفاء لفظ ﴿لباسَ﴾ دون غيره (كثياب أو أكسية) ٢٠٨
السر البلاغي في إيثار التجريد على الترشيح في الآية ٢٠٩
سورة الأحزاب (٢٦)، والحشر (٢) ٢١٠
تناغم السياق في تجسيد قذف الرعب ٢١٠
تآلف الاستعارة مع السياق ٢١١
السر في إيثار ﴿أنزل﴾ مع الصياصي و﴿أَخْرَجَ﴾ مع الديار ٢١٢
آثار قذف الرعب في الوقعتين ٢١٢
آثاره في قلوب بني قريظة ٢١٣
الملامح البديعة لعبارة ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ٢١٤
آثار قذف الرعب في قلوب بني النضير ٢١٥
سورة آل عمران (١٥٠- ١٥١)، والأنفال (١٢) ٢١٦

أوجه التشابه بين الآيتين ٢١٦
طمأنة النفوس المؤمنة ببث الرعب في صفوق أعدائهم ٢١٧
بلاغة التعبير بـ (الإلقاء) مع الرعب ٢١٨
سر المغايرة بين لفظي (القذف) و(الإلقاء) مع الرعب ٢١٨
سورة الكهف (١٨) ٢١٩
لطائف تآخي الألفاظ مع الصورة ٢٢٠
التصوير في بناء الفعل ﴿وَلَمُلِئْتَ﴾ للمفعول ٢٢٠
التصوير الحي لحركات الفزع في عبارة ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ ٢٢٠
أثر تكرار الجار والمجرور ﴿مِّنْهُمْ﴾ على المعنى ٢٢٠
سورة آل عمران (١٥٤)، والأنفال (١١) ٢٢١
مواضع التشابه بين الآيتين ٢٢١
سر التعبيرب (الأمنة) دون (الأمن) ٢٢١
جمال الاستعارة في الآيتين ٢٢٢
اختلاف النظم في آل عمران عنه في آية الأنفال ٢٢٣
سر التعبير بالمضارع ٢٢٤
براعة الانتقال من السكون بالنعاس إلى الحركة والحياة مع نزول المطر ٢٢٤
دقة التعبير بلفظ ﴿رِجْزَ﴾ على نجوى الشيطان ٢٢٥
بلاغة التعبير بالربط على القلوب ٢٢٦
الفرق بين (الربط) و(الطبع والختم والشد) ٢٢٧
سر إعادة اللام بعد العاطف في ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ والاكتفاء به في ﴿وَيُثَبِّتَ﴾ . ٢٢٨
معنى تثبيت الأقدام ٢٢٨
وقفة مع تثبيت الفؤاد في سورة هود (١٢٠)، والفرقان (٣٢) ٢٢٩

وقفة مع الربط على القلوب في سورة الكهف (١٤)، والقصص (١٠) ٢٣٠
وقفة مع الأمن بإنزال السكينة ٢٣١
السكينة يوم حنين ٢٣١
السكينة تتنزل على النبي وصاحبه في الغار ٢٣١
السكينة في ثلاث الآيات التي وصفت أحداث الحديبية ٢٣٢
السكينة في عودة تابوت بني إسرائيل ٢٣٣
سورة القصص (٣٢) ٢٣٤
جمال الاستعارة في عبارة ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ ٢٣٤
* المجاز المرسل ٢٣٥
سورة البقرة (١٩) ٢٣٥
بلاغة تمثيل حال المنافقين مع القرآن ٢٣٥
سر اصطفاء لفظ (صيب) ٢٣٦
بلاغة الإيجاز والإطناب في الآية ٢٣٦
التهويل الذي ينطوي عليه التعبير بالظرفية ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ ٢٣٧
سر إتيان النكرة ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ على الجمع، ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ على الإفراد ٢٣٧
النكات اللطيفة في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ ٢٣٨
السر في إيثار ﴿يَجْعَلُونَ﴾ على ما سواه ٢٣٨
بلاغة المجاز في كلمة ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾ ٢٣٨
تدرج التصوير من الحركات الخارجية إلى ما تنطوي عليه ٢٣٩
براعة التذييل في الآية ٢٣٩
السر في إيثار كلمة (الكافرين) على (المنافقين) ٢٣٩
سورة القيامة (٧) ٢٣٩

بلاغة التعبير بلفظ ﴿بَرِقَ﴾ في سياقه ٢٣٩
سر إيثار لفظ ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ دون (النظر) ٢٤٠
وقفة مع النظم ٢٤١
براعة تباين الأداء الصوتي بين السؤال والجواب ٢٤١
سر التعبير بأداة التحقق (إذا) والفعل الماضي ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ .. ٢٤١
بلاغة التعبير بالماضي والمضارع على خلاف مقتضى الظاهر ٢٤٢
دعم الأسلوب الإنشائي ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ للنقل الحي للموقف ٢٤٢
سورة التوبة (١٠٣) ٢٤٢
وقفة مع النظم ٢٤٣
جلال البشرى بقبول التوبة، وسر تعدية ﴿وَصَلِّ﴾ بـ (على) ٢٤٤
التعليل البديع في عبارة ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ ٢٤٤
المجاز المرسل في لفظ ﴿سَكَنٌ﴾ ٢٤٤
التذييل البليغ في ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٢٤٥
سر تقديم (السميع) على (العليم) في القرآن ٢٤٥
سورة البقرة (١٢٥) ٢٤٥
وقفة مع النظم ٢٤٦
المجاز في لفظ ﴿أَمْنًا﴾ ٢٤٦
أثر إطلاق ﴿أَمْنًا﴾ على المعنى ٢٤٦
المبحث الثاني: المجاز العقلي **٢٤٨**
سورة المائدة (٨٣) ٢٤٨
المجاز في ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ ٢٤٨
وقفة مع النظم ٢٤٨

بلاغة الجملة الشرطية في التعبير عن المعنى ٢٤٨
أثر بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يسم فاعله ٢٤٩
سر التعبير بالمضارع ﴿تَفِيضُ﴾ ٢٤٩
دقة الأداء في عبارة ﴿رَبَّنَا﴾ ٢٤٩
سورة المزمل (١٧-١٨) ٢٥٠
وجه البلاغة في عبارة ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾ ٢٥٠
تصوير آثار هول الموقف على الإنسان والطبيعة ٢٥١
الإعجاز العلمي في ارتباط الشيب بالخوف ٢٥١
سر إيثار التذكير على التأنيث في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ٢٥٢
الفصل الرابع: التصوير بالكناية ٢٥٣
توطئة ٢٥٥
بلاغة الكناية ٢٥٥
معنى الكناية لغة واصطلاحًا ٢٥٦
الكناية بين الحقيقة والمجاز ٢٥٧
أقسام الكناية تبعًا للمُكنى عنه ٢٥٨
تميز الكناية القرآنية عما سواها ٢٥٨
مسألة التوسُّع في الكناية في كلام اللَّه ٢٦١
المبحث الأول: الكناية عن الموصوف ٢٦٢
ضابطها ٢٦٢
إدرج بعض أوصاف القيامة في هذا المبحث بالنظر إلى أصلها ٢٦٣
سورة النازعات (٣٤-٣٦)، وعبس (٣٣-٣٧) ٢٦٣
تشابه هذه الآيات في النظم ٢٦٣

مواضع الاختلاف بينها ٢٦٤
سر اختصاص سورة النازعات بوصف ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ وعبس بـ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ . ٢٦٦
سورة الغاشية (١-٥) ٢٦٦
وقفة مع بلاغة النظم ٢٦٧
ورود الاستفهام مع الفعل (أتى) في الاستعمال القرآني ونكتته ٢٦٧
البلاغة في وصف القيامة بـ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ ٢٦٨
براعة التصوير في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ ٢٦٩
سورة القارعة (١-٥) ٢٦٩
أفانين النظم في تهويل الموقف ٢٧٠
البلاغة في وصف القيامة بـ ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ ٢٧٠
سر توجيه الخطاب إلى غير معين في عبارة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ٢٧١
المبحث الثاني: الكناية عن الصفة ٢٧٣
سورة الزمر (٢٣) ٢٧٣
سبب نزولها ٢٧٣
وقفة مع النظم ٢٧٣
براعة الاستهلال في الآية ٢٧٣
أثر تضعيف الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ على المعنى ٢٧٣
بلاغة الكناية في ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ﴾ ٢٧٤
سر التقييد بالوصف ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ ٢٧٥
دلالة الكناية ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ على الاتزان الوجداني ٢٧٥
سر التعبير بالفعل ﴿تَلِينُ﴾ وتعديته بـ ﴿إِلَىٰ﴾ ٢٧٥
الإعجاز العلمي في اقشعرار الجلود ٢٧٦

إيثار التعبير بالمضارع ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ ﴿يَخْشَوْنَ﴾ ٢٧٦
سر ذكر (الجلود) منفردة في الخشية، وجمع (القلوب) معها في الرجاء ١٧٦
سر اصطفاء لفظ (قلوب) دون (أفئدة) ٢٧٧
وجه البلاغة في عبارة ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ٢٧٧
البَون الشاسع بين قشعريرة قلوب المؤمنين، واشمئزاز قلوب الكافرين ٢٧٨
سورة التوبة (٢٥) ٢٧٨
الكناية في ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ ٢٧٩
أثر الطباق بين ﴿ضَاقَتْ﴾ و ﴿رَحُبَتْ﴾ ٢٨٠
السر في تعدية الفعل ﴿ضَاقَتْ﴾ بـ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ٢٨٠
اللطائف البلاغية في ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ ٢٨١
سورة الأحزاب (١٠-١١) ٢٨٢
وقفة مع الألفاظ والصور بمعانيها وإيحاءاتها ٢٨٢
الاستدراك على ما قيل في الفروق بين الإتيان والمجيء ٢٨٣
إسهام الأداء الصوتي للفعل ﴿جَآءُوكُم﴾ في تهويل الموقف ٢٨٤
إيثار لفظ ﴿فَوْقِكُمْ﴾ على (أعلى) ٢٨٤
إيثار ﴿أَسْفَلَ﴾ على (تحت) ٢٨٤
بلاغة الكناية في ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ ٢٨٥
الموازنة بين هذه الآية وآية العنكبوت (٥٥) ٢٨٥
إيثار لفظ ﴿زَاغَتِ﴾ على (مالت) ٢٨٦
سر تخيُّر لفظ ﴿ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ دون (الأنظار) ٢٨٦
الكناية في ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ ٢٨٦
الكناية في ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ ٢٨٦

إيثار ﴿بَلَغَتِ﴾ على (وصلت) ٢٨٦
اصطفاء الجمع ﴿الحناجر﴾ على (الحنجرات) ٢٨٧
كيف تبلغ القلوب الحناجر؟ ٢٨٧
اللطائف البلاغية في عبارة ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ ٢٨٨
أثر الإشارة ﴿هُنَالِكَ﴾ على المعنى ٢٩٠
براعة الالتفات من الخطاب ﴿جاؤكم﴾إلى الغيبة ﴿ٱبْتُلِيَ﴾ ٢٩١
سر اصطفاء لفظ﴿ٱبْتُلِيَ﴾ على (اختبر) ٢٩١
الصورة التي أبرزها لفظ ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ ٢٩٢
سورة غافر (١٨) ٢٩٣
بلاغة التعبير بـ ﴿يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ عن القيامة ٢٩٣
سر استعمال ﴿إِذِ﴾ للمستقبل ٢٩٤
بلاغة الكناية ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ ٢٩٤
الصورة التي أبرزها لفظ ﴿كَـٰظِمِينَ﴾ ٢٩٥
سورة النور (٣٧) ٢٩٦
معنى تقلب القلوب، وما أضافته صيغة المطاوعة ٢٩٦
سر الجمع بين ﴿ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ وتقديم ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ ٢٩٦
سورة إبراهيم (٤٢-٤٣) ٢٩٧
جمال الكناية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا﴾ ٢٩٧
النكات البلاغيّة في: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ ٢٩٧
سر التغاير في التعبير بالفعل ﴿تَشْخَصُ﴾ في هذه الآية، والجملة الاسمية
﴿فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ﴾ في آية الأنبياء (١٠٣) ٢٩٨
سرالتعبير بالوصف المشتق ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى﴾ والصورة التي أبرزها ٢٩٩

بلاغة الكناية في جملة ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ ٣٠٠
سر إفراد (الطرف) مع دلالته على الجمع ٣٠٠
لِمَ أوثر فصل هذه الأوصاف ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي﴾ ٣٠١
سورة الحج (١-٢) ٣٠١
براعة النظم في تصوير هول الزلزلة ٣٠١
براعة استهلال السورة ٣٠١
البلاغة في التعبير بلفظ ﴿رَبَّكُمْ﴾ ٣٠٢
إسهام لفظ الزلزلة في الدلالة على الهول ٣٠٢
ما أضافه المجاز العقلي ﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى الصورة ٣٠٣
سر الإخبار عن ﴿زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ بعبارة: ﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ ٣٠٣
سر التعبير بـ ﴿تَذْهَلُ﴾ ٣٠٤
إيثار لفظ ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ دون (مرضع) ٣٠٤
ما أضافه التعميم ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ٣٠٤
سر التعبير بالموصول (ما) دون الصريح أو العاقل ٣٠٤
دلالات الهول التي حملتها الكناية ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ٣٠٥
الكناية في: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ ٣٠٥
صورة عموم الفزع في عبارة ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ ٣٠٥
لِمَ بُدئ بـ﴿تَرَوْنَهَا﴾، وثنّى بـ ﴿تَرَى﴾ على الإفراد؟ ٣٠٥
المبحث الثالث: الكناية عن النسبة **٣٠٧**
ارتباط الذل بالخوف ٣٠٧
سورة البقرة (٦١)، وآل عمران (١١٢) ٣٠٧
مواضع التشابه في الآيتين ٣٠٧

المعنى الحسي الذي صوره ضرب الذلة والمسكنة ٣٠٨
أثر تعدية ضرب الذلَّة بحرف الاستعلاء ﴿عَلَيْهِمُ﴾ ٣١٠
سر ملازمة ضرب الذلة لليهود في القرآن ٣١١
أثر الاستئناف البياني ٣١٢
اللطائف التي صُرِّف بها النظم في الآيتين تبعًا لاختلاف الزمن والمقام . ٣١٢
الجمع بين ﴿ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ في آية البقرة، والتفريق بينهما في
آل عمران ٣١٢
أثر تقييد الذلة بـ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾، والاستثناء في آل عمران ٣١٣
تقديم غضب اللَّه على ﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ **في آية البقرة** **٣١٣**
تعريف ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في آية البقرة، وتنكيره في آل عمران ٣١٤
إيثار جمع السلامة ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ في آية البقرة، والتكسير في آل عمران ٣١٥
الفصل الخامس: تصريف البيان في عرض صور الأمن والخوف **٣١٧**
توطئة **٣١٩**
قيمة فن التصريف في البلاغة ٣١٩
مفهومه ٣١٩
أول من استعمل مصطلح التصريف في الدراسات القرآنية ٣٢٠
أقوال المفسرين في معنى التصريف ٣٢١
المصطلحات التي قاربت التصريف والموازنة بينها وبينه ٣٢٢
دعاة مصطلح التصريف من المعاصرين ٣٢٣
براعة القرآن في تصريف القول ٣٢٤
التصريف في القصص القرآني ٣٢٦
العناية ببلاغة التعبير عن المستقبل بالماضي وعكسه ٣٢٨

رأي ابن الأثير ٣٢٨
اختلاف البلاغيين حول انتماء هذا النوع من التعبير ٣٢٨
خلاصة المقصود بتصريف البيان ٣٢٩
المبحث الأول: تصريف الصور مع اتفاق المعنى ٣٣٠
تصريف البيان في عرض موضوع الخوف من الموت ٣٣٠
تصريف البيان في وصف جبن النفاق ٣٣٢
تصريف البيان في وصف رعب اليهود ٣٣٥
تصريف البيان في وصف رهبة بعض المسلمين من القتال ٣٣٦
تصريف أحوال الأمن في الحروب ٣٣٦
تصريف البيان في تصوير وجل القلوب المؤمنة من اللّه ٣٣٧
تصريف البيان في أهوال القيامة ٣٣٩
تصريف البيان في تصوير الأمن الأخروي الخالد ٣٤٢
المبحث الثاني: تصريف الصور مع تقابل المعنى ٣٤٤
* ما أتى من التقابل في سياق واحد ٣٤٤
تقابل الخوف والأمن في قصة أم موسى ٣٤٤
تقابل الخوف والأمن في قصة موسى ٣٤٥
تقابل الخوف والأمن في قصة ضيف إبراهيم ٣٤٨
تقابل المعاني في وصف تناقض المنافقين ٣٤٨
تقابل المعاني حال الحروب بين طمأنينة المؤمنين ورعب الكافرين ٣٤٩
تقابل المعاني في وصف طمأنينة العيش والخوف فيه ٣٤٩
تقابل المعاني في وصف حال المتقين مع القرآن ٣٥٠
تقابل المعاني في وصف المفارقات بين الناس تثبيتًا وإضلالًا ٣٥٠

تقابل المعاني في وصف أحوال الناس يوم القيامة ٣٥٠
تقابل المعاني والألفاظ بين أمن وخوف وتكريم وتحقير ونعيم وشقاء ... ٣٥١
* ما أتى من التقابل في سياقين مختلفين ٣٥٤
الخوف من اللّه والأمن من مكره ٣٥٤
قذف الرعب وإنزال الأمنة ٣٥٤
بلوغ القلوب الحناجر والربط عليها ٣٥٥
التعبير بالزلزلة وتثبيت الأقدام ٣٥٥
وصف حال القلوب بين مخاوف الدنيا وأفزاع القيامة ٣٥٦
وصف الأبصار بين مخاوف الدنيا مع أهوال القيامة ٣٥٧
المبحث الثالث: تصريف الصور بالتعبير بالماضي عن المستقبل وعكسه ٣٥٨
* التعبير بالماضي عن المستقبل ٣٥٨
سورة سبأ (٢٣) ٣٥٨
سر التعبير بالماضي ﴿فُزِّعَ﴾ عن المستقبل ٣٥٨
سر التعبير بالفعل المبني للمفعول ٣٥٩
سورة سبأ (٥١) ٣٥٩
بلاغة الحذف في الآية ٣٥٩
سر التعبير بالماضي ﴿فَزِعُواْ﴾ عن المستقبل ٣٦٠
سورة النمل (٨٧) ٣٦٠
سر التعبير بالماضي ﴿فَفَزِعَ﴾ عن المستقبل ٣٦٠
الحال التي صورها قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ٣٦٠
سورة القصص (٦٥-٦٦) ٣٦٠
سر التعبير بالماضي ﴿فَعَمِيَتْ﴾ عن حال المشركين وقت الحساب .. ٣٦١

سر تعدية الفعل ﴿فَعُمِيَتْ﴾ بـ ﴿عَلَيْهِمُ﴾ ٣٦١
براعة إيثار لفظ ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ على (الأخبار)، وإطلاقه دون قيد ٣٦١
معاني الهول التي أضافها ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ٣٦١
سورة القصص (٧٤-٧٥) ٣٦١
سر التعبير بالماضي ﴿فَقُلْنَا﴾ ﴿فَعَلِمُوٓاْ﴾ ﴿وَضَلَّ﴾ ٣٦٢
بلاغة الالتفات من الغيبة ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ إلى نون العظمة ﴿وَنَزَعْنَا﴾ ٣٦٢
سر إيثار التعبير بـ﴿وَنَزَعْنَا﴾ دون (أخرجنا) ٣٦٢
الصورة البليغة في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ ٣٦٢
سورة البقرة (١٦٦) ٣٦٣
سر التعبير بالماضي ﴿تَبَرَّأَ﴾ ﴿وَتَقَطَّعَتْ﴾ ٣٦٣
سر اصطفاء الفعل المزيد بالتضعيف ﴿تَبَرَّأَ﴾ ٣٦٣
الصورة البليغة في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ ٣٦٤
ما أضافه تقييد التقطُّع بالجار والمجرور ﴿بِهِمُ﴾ ٣٦٤
سورة يونس (٥٤) ٣٦٥
سر التعبير بالماضي ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾ ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ ﴿رَأَوُاْ﴾
﴿وَقُضِىَ﴾ ٣٦٥
سورة طه (١٠٨) ٣٦٦
معنى خشوع الأصوات ٣٦٦
دلالة التعبير بـ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ على الهول ٣٦٦
سورة الزمر (٧٣-٧٤) ٣٦٧
بلاغة التعبير بالماضي عن المستقبل ﴿وَسِيقَ﴾ ﴿جاؤوها وفتحت﴾ ٣٦٧
بلاغة الالتفات من الغيبة ﴿وَقَالُواْ﴾ إلى التكلُّم ﴿صَدَقَنَا﴾ ﴿وَأَوْرَثَنَا﴾ ٣٦٨

آفاق الأمن في الآية ٣٦٨
سورة الإنسان (١١) ٣٦٩
الصورة البيانية في جملة: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ٣٦٩
قيمة التعبير بالماضي في مشاهد القيامة ٣٦٩
* التعبير بالمستقبل عن الماضي ٣٧٠
سورة القصص (١٨) ٣٧٠
الهول الذي صوره التعبير بالمضارع ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ ٣٧٠
ما ذكر عن قيمة التصوير فيها ٣٧٠
سورة القصص (٣١) ٣٧٠
أسرار تصريف التعبير بين الماضي والمضارع ٣٧٠
تصريف القول في الألفاظ التي وصفت بها عصا موسى عليه السلام ٣٧١
سورة مريم (٥٨) ٣٧١
سر التعبير بالماضي ﴿خَرُّوا﴾ عن المستقبل في جواب ﴿إِذَا﴾ ٣٧١
سر اصطفاء ﴿خَرُّوا﴾ عن حال خوف المؤمنين ٣٧٢
إيثار التعبير باسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ في الآية ٣٧٢
سورة الأنفال (٩-١١) ٣٧٢
بلاغة التعبير بالمضارع ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ ٣٧٣
بلاغة التعبير بالماضي ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ ٣٧٣
تصريف الزمن في وصف المنن الربانية ٣٧٣
سورة آل عمران (١٥٣-١٥٤) ٣٧٤
تصوير ﴿تُصْعِدُونَ﴾ لحال الهول التي اعترت القوم ٣٧٤
أثر ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ في تصوير الموقف ٣٧٤

الغرض البلاغي من الخبر ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ ٣٧٥
بلاغة تصريف الزمن في التعبير بالمضارع عن الماضي ٣٧٥
سورة الأحزاب (٢٦) والحشر (٢) ٣٧٥
قيمة تصريف القول بالتعبير بصيغة المضارع عن الماضي فيهما ٣٧٦
الخاتمة ٣٧٧
الفهارس الفنية ٣٨٥
فهرس الآيات ٣٨٧
فهرس الأحاديث ٤١٠
فهرس الشعر ٤١١
ثبت المصادر والمراجع ٤١٢
الفهرس المفصل للموضوعات ٤٣٥
الفهرس المجمل للموضوعات ٤٦٥

* * *

الفهرس المجمل للموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	**٥**
التمهيد	**١٩**
المبحث الأول: مفهوم التصوير البياني	٢١
المبحث الثاني: مفهوم الأمن والخوف	٢٧
المبحث الثالث: آيات الأمن والخوف (حصرها وتحديد مواقعها)	٣١
الفصل الأول: التصوير بالحقيقة	**٥١**
توطئة	٥٣
اللفظ المصوِّر	٥٦
١- بمعناه	٥٦
٢- بجرسه وإيحائه	٥٦
الجملة المصورة	٥٩
مفهوم التصوير بالحقيقة	٦٢
المبحث الأول: اللفظ المصوِّر	٦٣
المبحث الثاني: الجملة المصوِّرة	٩٥
الفصل الثاني: التصوير بالتشبيه	**١٣١**
توطئة	١٣١
المبحث الأول: التشبيه الحسي	١٤٠
المبحث الثاني: التشبيه المعنوي	١٧١

الفصل الثالث: التصوير بالمجاز ١٨٣
توطئة ١٨٣
المجاز اللغوي ١٨٦
١- الاستعارة ١٨٧
٢- المجاز المرسل ١٨٩
المجاز العقلي ١٩٠
المبحث الأول: المجاز اللغوي ١٩٢
الاستعارة ١٩٢
المجاز المرسل ٢٣٥
المبحث الثاني: المجاز العقلي ٢٤٨
الفصل الرابع: التصوير بالكناية ٢٥٣
توطئة ٢٥٥
المبحث الأول: الكناية عن الموصوف ٢٦٢
المبحث الثاني: الكناية عن الصفة ٢٧٣
المبحث الثالث: الكناية عن النسبة ٣٠٧
الفصل الخامس: تصريف البيان في عرض صور الأمن والخوف ٣١٧
توطئة: مفهومه ٣١٩
المبحث الأول: تصريف الصور مع اتفاق المعنى ٣٣٠
المبحث الثاني: تصريف الصور مع تقابل المعنى ٣٤٤
ما أتى من التقابل في سياق واحد ٣٤٤
ما أتى من التقابل في سياقين مختلفين ٣٥٤
المبحث الثالث: تصريف الصور بالتعبير بالماضي عن المستقبل وعكسه ٣٥٨

التعبير بالماضي عن المستقبل ٣٥٨
التعبير بالمستقبل عن الماضي ٣٧٠
الخاتمة **٣٧٧**
الفهارس الفنية **٣٨٥**
فهرس الآيات ٣٨٧
فهرس الأحاديث ٤١٠
فهرس الشعر ٤١١
ثبت المصادر والمراجع ٤١٢
الفهرس المفصل للموضوعات ٤٣٥
الفهرس المجمل للموضوعات ٤٦٥

تم الصف والإخراج
بشركة غراس للطباعة
هاتف: ٤٨١٩٠٣٧ - فاكس: ٤٨٣٨٤٩٥